تاريخ الأدب العربي

في

العصر العباسي

بغير الأندلس والمغرب

بقلم

إبراهيم علي أبو الخشب

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانيه

١٣٥٦ ﻫ – ١٩٣٧ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر العباسى

١٣٢ — ٦٥٦ هـ

تصوير عام

للحال السياسية فى هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: — فريق يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بها على الأعقاب، وآخر يرى أن مافعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوى الحق الأصيل افتراء وطغيان [1]، فكان من الطبيعى حينئذ أن يولوا وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم فى تثبيت قواعدها، وتصريف شئونها، ولم يك هناك غيرهم سوى الفرس، وإن كانوا فى عقيدتهم علويين،

---

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء على . لأنهم فوق وراثتهم للعباس «وارث النبي فى عمومته دون أبناء على من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى» قد تنازل لهم عن حقهم فى الخلافة هؤلاء الأبناء، ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب نزل مقيما بقرية الحميمة بالشراة من الشام لدى على بن عبدالله ابن العباس . وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذى آل بعد على إلى ابنه محمد فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وسرحهم إلى خراسان . ولكن العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتد به منهم يجعله حجة على أبناء على من محمد بن الحنفية دون أبنائه من فاطمة البتول .

ذلك لأنهم انساقوا فى تيار السلطان الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء، ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة « بغداد » فى أحضان الفرس، فكان ثم زيادة فى التجاور واختلاط، ولكن سلطان الفرس على ما صار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب فى القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دولتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبى مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث فى آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمد بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمى، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم فى هذا النوع من اللهو مخالطيه ومعاونيه، وانساق فى سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون :ـ السبعين ألفا، وصار لهم فى بغداد شغب واعتداء جأر له أهلوها بالشكوى منهم والاشمئزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له ولهؤلاء، أن ينساقوا فى هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فهجرها بهم إلى مدينة أسسها لهذا الضرب من المجون، هى مدينة « سر من رأى » أو كما قد يقولون « سامراء » فابتعد بهذا أن يلى أمور الدولة عن كثب، كما ينبغى أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف، ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفوذا، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس فى النفوذ، ثم ماهو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عليهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء، بقدرما أضعف من نفوذ الفرس، مجىء المتوكل على الله سنيا متشددا، وإيغاله فى حرب الشيعة الذين كان المأمون على مذهبهم، وجاء من بعده غير معارض لهم: المعتصم، والواثق — والفرس كما علمت متشيعون مغرقون — فخلت للمتوكل وإن شئت فقل للخدم الأتراك السلطة فى بغداد، واعتبر هذا عصرا ثانيا هو عصر الخدم أو العصر التركى الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢ .

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثانى من الدولة فى الاستبداد بأمورها عند حد. فتناول طغيانهم أكثر ماتناول أشخاص الخلفاء، وأول ماحدث من فظائعهم حدث للمتوكل على الله ، فإنهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده فى محاربة التشيع؛ وإذ حاول الابقاء على شىء من هيبة الخلافة، تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله وقتلوه ؛ فكان هذا فتحا لطريق جديدة فى التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحدث أحداث فى التعذيب والتقتيل، والمعذبون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير[1] ، حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما فى أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح ، وزخرت بكل مافى الطوق

---

(١) قتلوا المعتز بجره من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضى إلى الموت بعد إيقافه فى الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد ، وحمل خوف الخلفاء من أولياء العهود ، وخوف أولياء العهود من الخلفاء ، أن يستكثر كل فريق من أولئكم الخدم ليكونوا عليه حراسا ، وله جواسيس ، وفعلا كان حتى عجت بغداد بجيوشهم ، وصار من استعان بهم ألعوبة فى أيديهم [1] ، وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعف للدولة ، وفتور أعقب قرنها السالف : قرن الفتوة والسلطان ، ومازالت الحال على هذا النسق من البوار ، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم ، وهى دولة آل بويه فى تخليص بغداد منهم ، فخلصتها أيام المستكفى بالله ، سنة ٣٣٤ و بدأ بذلك عصر عباسى ثالث ، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات .

مهد العصر العباسى الثانى وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة ، واستبداد ذوى النفوذ فى الأقاليم ، فلم يكد ينصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدى عدد من الأسر المختلفة الأجناس ، وإن بقى معظمها لا كلها يدين بالمظهر الدينى لخلفاء بنى العباس .

فمن الأسر الفارسية :ـ

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ — ٣٨٩ هـ

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ

ومن التركية :ـ

---

(١) يؤيد ذلك مارواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز ، أحضروا المنجمين وقالوا لهم :ـ انظروا كم يبقى الخليفة فى الخلافة وكم يعيش ؟ وكان فى المجلس أحد الظرفاء . فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، قالوا فكم تقول ؟ فقال : « ما أراد الاتراك » فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك .

الاخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ
والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ
ومن العربية :ـ
الحمدانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ
والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف،أن ينمحى معظم الدويلات ماذكرناومالم نذكر،على أيدى ثلاث منها تحولت إلى دولات،هى الغزنوية، وقد تغلبت على السامانية وغيرها فى تلك الأصقاع ، والفاطمية ، وقد تغلبت على الحمدانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين ، ثم البويهية وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسى الثالث كما ذكرنا [١] وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والعرب غربا،

---

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكناهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم وقد أنجب بويه هذاثلاثة أنجاد ،هم على وحسن وأحمد، نبغوا فى الفروسية وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ فكان على فى فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا ثلاثتهم على تخليص بغداد من أيدى الاتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفى بالله فرحب بهم ولقب عليا عماد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان أن بقى معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم بعده فى بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده منها إلى أن أخذها السلاجقة الاتراك .

والفرس وسطا، وبقي ذلك قرنا وبعض القرن حيث دخل السلاجقة الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكد الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تتم القرن الأول من حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكباك بالتركستان سنة ٤٢٩ ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح المملكة الاسلامية، وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله ثم تقدم إلى الغرب زاحفا حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى حيث أخذا التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلاط الغربيين بالمشارقة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب.

تلك هي الحال السياسية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء. وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم وما إلى الآداب والعلوم.

طابع كل عصر وأثره العام

فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسى بتلك الألوان السياسية التى حولته أربعة عصور، الأثر الظاهر فى حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.

« العصر الاول »

ففى العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد ، كان الخلفاء مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد فى تثبيت سلطان الدولة الجديدة، تلمحه فى إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعه فى الخطب تقذف الحمم وتطير الشرر، وتقرؤه فيما يصدرون من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان، ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة باللغة بفنونه يروون الشعر وينقدونه، ويستمعون للشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويؤرثون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول، ولهذا تزاحمت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.

ثم هم أهل علم يخالطون العلماء مخالطة حوار ونقاش، عارفين لقيمتهم، حافظين لمكاناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفتهم الثانى أبى جعفر المنصور، ذلكم العيلم الخضم، الذى لم يأل جهدا فى وضع الأساس لنشأة العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وقفاه من بعده خلفاؤه الاقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النشأة العامرة فى متنوع العلوم والفنون، وإنه لعجب عاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهنود بفضل ما لخلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين [١].

ومما يعد مظهرا جديدا فى هذا العصر، ما صار الموالى فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم مالهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها فى النهوض بها، بعد الذى كانوا يلاقونه على العهد الأموى من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد [٢]، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

---

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق فى الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاتر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدى بها.

وكان الرشيد أكثر سابقيه رغبة فى العلم كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والايجاد والثانى من حيث التنشيط والتشجيع.

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان فى الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين فى عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من عتبهم بها فى صدر الاسلام كثيرة: منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه. روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى والى المدينة يومئذ ابراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجه وضربه مائتى سوط وحلق لحيته وحاجبيه وفى ذلك يقول ابن بشير:

ويجهرون إزاء العرب بمآثرهم، وقابل العرب ذلك منهم بالانكار والجحود، ثم طالت الملاحاة بين الفريقين حتى علن أمر الشعوبية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصون بالموالى ويطلبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كان يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا فى نهضة هـذا العصر والسير به قدما إلى الأمام .

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم فى التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعيا، والذى أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبى دواد وزيره معتزليا، ويحيى بن أكثم وزيره أيضا سنيا، جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الدينى من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية ، وانتشرت الزندقة والالحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا مالم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميما وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحجبوا كما كانت تزين وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون واللهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان .

وفى المائتين للمولى نـكال　　وفى سلب الحواجب والخدود

ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذى لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه .

وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لايتعدونها ويأمر ألا يؤم بالـكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا .

العصر الثانى

وفى العصر العباسى الثانى ،أخذ كل ماذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت ،كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء،وأن أولياء عهودهم وأعيان دولتهم ،كانوا لهم فى ذلك محاكين ،وبهم مقتدين، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء العهود فى القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب،وأصبح الخدم أعيانا لا عهد لهم بالعلم والأدب ، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جد قريب ،فقد انغمس أولئكم فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة ، فكان لهوهم مع السرارى المختلفات،والقيان المغنيات، معمايحف بهن من غلمان وخصيان، وماعدا جدهم مخالطة الخدم المذكورين،فغلب عليهم اللهو والترف،وانطلق هؤلاء المصرفون لأمور الدولة فى تصريف أمورها انطلاقا بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان فى الناحية السياسية عاجزا فى الأقاليم ،وفاسدا فى بغداد ،ومن أجل ذلك وقفت الدماء التى كانت جارية متدفقة فى شرايين الدولة بكل أسباب الحياة،وتبدلت من حمرتها زرقة سامة قاتلة أو صفرة ناحلة مضعفة،فأخذ العلم يهجر بغداد برحلة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الخيرة فيها،وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها،ولكن أنى تعود الحركة العلمية إلى دورتها،أو يجد الشعراء من يعطى ــ وإن طلبوا ــ قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خلالها حواضر جديدة لحمل العلم الذى كان بأيدى بغداد، وإذن فليكن العصر الثانى،عصر الضعف والخمول والضعة والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر،وتقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد مني فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس مما كانت قد سبحت فيه من بحث حر طليق، فقد جاء المتوكل أول ماجاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عليه حالها منذ أيام المأمون من انطلاق، فقل النبوغ النفسى بقدر ماضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقلة النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معان، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ماحدث من خروج، ومحاولين ارجاعه إلى مايريدون من اصلاح (١)، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا (٢)، على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن، وضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

---

(١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس عما ساد كلامهم من أخطاء.

(٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦. ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠.

العالم الاسلامى كله، فاتجهت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار، وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت فى العصر العباسى الأول ،على ماقدمنا من ازدهار . ثم أصابها فتور وكساد فى العصر الثانى،خضوعا لما ذكرنا من أسباب ، غير أن ذلك الفتور لم يكد يقضى على ماكان من نبوغ فى العصر الأول ، حتى تأسست الدويلات فى العصر الثالث الذى نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها، فقد خلق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ماكان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغدادا يؤمها الأدباء والشعراء، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون ، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أعادوا لها سابق مجدها وعزها،وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات ؛ نعم إن مركز الخلافة بقى لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين منذ أن كان لهم وجود ، ومن دان بهذا المركز لم يعد فى ذلك الناحية الدينية البحتة،أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان ؛ ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملا فعالا فى اشتداد التنافس بين رجالها وفى حفز الهمم إلى أن تسود كل صواحباتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع،وعلا نجم الأدب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها ، ومن اختلط بهم فى سياستها من سادتها وعيونها ، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسى

الطبيعى عامل النشوء والارتقاء .

وإلى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الاسلامى إذ ذاك .

كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء. يحبون العلم والأدب، ويحثون رجالهما على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغمرونهم بالعطايا والصلات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب . فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبي الأديب الشاعر ، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغني عن التعريف ، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره فخر الدولة أخوه ؛ وكان عز الدولة بن معز ها شاعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة [1] ، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

---

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله :ـ

اشرب على قطر السماء القاطر   فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها   درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك إذا مشى   بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء مابين الغصون مصفق   مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بوية وقد نكب بالحبس من جهة أخيه أبى الفوارس قوله:ـ

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه   وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت   ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستحث العلماء على التأليف ، ويغمرهم بالأموال ؛ ويقصده فحول الشعراء (١) ؛ ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباسطات فى العلم والأدب ، كما كان شغوفا بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده ، عارفا لأساليب الكتابة ، ذا افتنان فى إنشائها (٢) فهو فى هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله فى خارج أرسل يطلب الامان بعد أن ضيق عليه

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه   يبغى الامان وكان يبغى صارما
فلأركبن عزيمة عضدية   تاجية تدع الأنوف رواغما

ومن شعر أبى العباس مبدعا :—

أدر الكأس علينا   أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل شمس   فى فم الندمان تغرب
ضحكت حين تجلت   قمرا يلثم كوكب
ورد خديه جنى   لكن الناطور عقرب
فاذا مالدغت   فالريق درياق مجرب

(١) ألف له أبو على الفارسى كتاب الايضاح والتكملة فى النحو ، وأبو اسحق الصابى كتاب التاجى فى أخبار آل بويه ، ورحل إليه المتنبى رحلات ملأت فم الزمان .

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة الأنبارى التى مطلعها :—

علو فى الحياة وفى الممات   لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه فى الكتابة ماكتب به إلى أفتكين التركى صاحب دمشق وقد غره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربتها نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحدة الكلمات لولا النقط والشكل وهى « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » .

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهرَ وزرائهم فيها الصاحبُ بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتبا شاعرا يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء المئات، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهدا فى نصرة العلوم والآداب — وإن كانوا أحدث فيها عهدا من آل بويه — مع اشتغالهم شرقا بالغزو والفتوح، فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلا بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذى اقترح على الفردوسى إتمام الشاهنامه التى بدأ نظمها الدقيقى باقتراح نوح بن منصور السامانى، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه اليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن فى مجالسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسى ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تك ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة وملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد فى أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والعزيز والحاكم، فقام المعز بانشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب فى قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز ، واستكثر فيها من المؤلفات ، واقتدى به فى إنشاء خزائن الكتب بالقصور جماعة من أهله ، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة وتسمى دار العلم أيضا بجوار قصره الغربى وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالغ فى فرشها وزخرفتها ووقف عليها أملاكا تنفق من غلتها، وأقام مشرفين ينظمون طريق الانتفاع بها، وأباح المناظرة بين المترددين عليها، وسهل للنقلة منها سبيل النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق . ولم يكن اشتغال الفاطميين بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصورا على علوم الدين واللسان؛ فقد خدموا علوما كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى رصدهم الحاكمى على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسى مرصده بمراغة تركستان سنة ٦٥٧ ، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار فى حضرات الخلفاء، وأمراء أسرتهم ورجالات دولتهم، وكانت كثرتهم أدباء شعراء تبصر جيد القول وتجزل عليه العطاء .

ولم يعدم العلم والأدب نصيرا من الدويلات الكثيرة التى قامت ردحا مع هذه الدولات الثلاث ، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك فى بخارى كثير ، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور ، الذى كتب إلى الصاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى يفوض إليه وزراته، والذى جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة فى كل فن . وآل حمدان بحلب والموصل أشهر من أن يخاض فى نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء الشعراء ، وإن فى أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلاغا فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حوارا ويشهدون نقدا، ثم ينقلبون راجعين بشتى الجوائز وعظيم الهبات ، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير . ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذى كان لهم لوجدناهم كتلك الأمارات فى تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كافورا الذى نشأ مع هذه الأمارة عبداً لأول أمرائها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى امارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا فى سيرته إكرامه العلم والعلماء ، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه ، وفى هذين إثبات لما أردناه .

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء فى المشرق والمغرب الأقصيين، وبمثله فى كل ماذكرناه بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها ، فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامى إلى أسلوب أصبح قاعدة ، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبي ، وحسب هذه السعة العلمية بيانا أن زادت فروع العلوم إذ ذاك لدى محصيها على ثلثمائة كما نستها كتب الاحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدين الحديث لا فى القرن الماضى أى بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران [1] ، فلا عجب أن

---

(١) فمن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابرهيم بن المهدى

عرف هذا العصر بعصر نضج العلوم وقد أعقب هذا النضج وكثرة التأليف ،إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضاء ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعى لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشيعا الفاطميون،أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنيين، كما لنا أن نسميه أيضا عصر توطن الآداب والعلوم،ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدنها كالبخارى والنيسابورى والرازى وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحميرى والمازنى أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسى فى أرجاء الممالك الاسلامية فحكمها السلاجقة فى الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون فى مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث فى كل من

ولابراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألف فى السياسة على إجمالها أبو زيد البلخى ،وفى المدينة منها الفارابى ، وللطرطوشى فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الاشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل بن على الدمشقى وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت فى هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة متناوله عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا.

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به سابقه كثيرا أو قليلا فى شتى الأمور .

فأما فى الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعى الغلبة على المذهب السنى بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريحه بذهابهم وجاء المذهب السنى يكتسحه ويعفى عليه بصولجان السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ،والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين مضادا الشيعة محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله ؛ وكذا الايوبيون مذ جاءوا على الدولة الفاطمية غالبين ولها مديلين،حتى لقد حرم صلاح الدين تدريس المذهب الشيعى بأزهر الفاطميين، وكم وقف هذا التبدل فى التأليف الشيعى من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما فى اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خلصا،والبويهيون بفارس متعربين مبرزين ، فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم أسلوبه وتذوقهم جماله ، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة ، وكردية الأيوبيين ؛ وإن ابتعد الأولون عن محاربته ومخاصمة رجاله وحاول الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته وشعره ضعف قلل من مقدارها،وذهب بكثير من محاسنها؛وكان أنكى بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم يجد المتذوقين النصراء،فى حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضرى يضطر إلى الابقاء عليها ذووه وإن لم يفقهوا مالها من حسن وجمال .

أما الناحية العلمية لحياة اللغة فقد كان هـذا العصر عليها عصر بركة ونماء ، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات [١] ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان و حاجة الناشىء فى تنشئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم، دافعا للقوم أن يهيئوا للعالم أماكن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس [٢] ، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جايلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المغرب والمشرق أدبها وعلمها فى هذا العصر وافدان غربيان ، أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية بما أسست فى المشرق من إمارات ،وبما حدث بين رجالها ومسيحي المشارقة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف فى الأصول

---

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعى لحركة التأليف ، مقاومة ماذهبت به الفتن من مؤلفات وأضاعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشتى العلوم مع حذف مااعتادوا فى غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ فى موسوعته المسماة «المدهش» فى القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ فى سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالمكتبة الملكية بمصر وإما جامعة لفروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بانشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الاسلامى كبير حمل غيره يقتدى به فى إنشاء مثلها حتى امتلأ العالم الاسلامى والمدينة العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء .

واللغات والآداب والعادات، لابد أن يؤثر تأثيره ويأخذ طريقه غالبا غير مغلوب . والثانى عربى هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعا لم يك للمشاركة فى التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكى فيما حلوه من بيئات [1] وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدبى القاهرة وبغداد وقويت المشابهات .

تلك كلمات أرسلناها مجملات فى ميزات الأعصر العباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطين بينها وبين ما أنتجها من أحداث السياسة وأمور الاجتماع . وفيما يلى من دراسة موضوعات المنهج ، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان .

---

(١) من أظهر ماكان لهذا الاختلاط فى عالم الفكر اتصال الفلسفة الأندلسية بفلسفة المشرق، وفى عالم الأدب انتشار الموشحات .

ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الأعجام بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح فى العهد الأموى أشتاتا من الأمم مختلفين فى أجناسهم ودياناتهم وفى لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وماوراء فارس؛ فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحا جليا فى ذلك العهد لقصر زمنه نسبيا ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجام اقتداء بخلفائهم وذوى الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكا وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها (١)، ولكن ذهاب تلك العصبية وهذه النعرة بمجىء العهد العباسى كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره فى كثير من نواحى الحياة ذات التأثير البين فى اللغة آدابها وعلومها.

ففى العهد الأموى بقى الجنس العربى متحصنا، فكان زواج العربى من غير العربية نادرا، وزواج العربية من غير العربى منكرا، فلما جاء العصر العباسى رافعا شأن الموالى أقبل الناس على زواج الأعجميات

---

(١) تتضح هذه النعرة فى شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بنته قال له عقيل جنبنى هجناء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ماعرف به مسلمة من واسع عقل وكامل خلق؛ وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لأبنائه تخطى مسلمة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أوخوفا من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما لهن من فرط جمال ووافر عقل ؛ولما بدا على نسلهن من نجابة وذكاء [١] ، وتسابقوا فى هذا المضمار وقدامهم فيه الخلفاء وأبناء الخلفاء [٢] وإذ وقف حد الدين للزوجات عند أربع انطلقوا فى التسرى غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء [٣] ؛وما من شك فى أن هذا ينتج من التأثير الجسمى وبالتالى العقلى فى النشء الناشىء من الأعجميات الشىء الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر ثابت من أن التزوج من البعيدات نسبا مؤد إلى فراهة الاجسام وقوة البنى فما بالنا بالبعيدات جنسا [٤] ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأمم

---

(١) بقى أهل المدينة زاهدين فى التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علما وورعا فرغبوا فيه ، وبما زاد إقبال الناس على زواج الأماء خفة كلفته حتى قالوا فى ذلك « الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب » وقالوا فى مزيته جملة «عجبت لمن عرف الأماء كيف يقدم على الحرائر» .

(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فالهادى وأخوه هرون أمهما رومية ، والمأمون أمه فارسية ،والمعتصم أمة تركية ،والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ، وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف وعلى ذلك يقاس ماكان لغيرهما من الخلفاء وماكان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .

(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لاتضووا » والضوى دقة العظم وقلة الجسم خلقة وأضوت المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .

أنذر من كان بعيدا لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى وسقم

ولهذا وجد فى العصر العباسى من ضرب بهم المثل فى الشجاعة حتى قال الأصمعى « ماضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على سلطانها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الالوان، وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهوا وأشد لمعانا، وهذه الميزات جميعا كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من الصرحاء بعامل الإرث المؤرث والعرق الدساس . ولقد كان من هذا أن عجزت المرأة العربية عن مجاراة الأعجمية في الزواج فضوعف هذا التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجام زارعا وصانعا بعيدا عن مهام الدولة وتصاريف الأمور يسوده من الموالي من كان قبل مسودا، فذهبت من نفسه البقية الباقية للنعرة وسلم في بناته ومن هن تحت ولايته أن يكنّ لهذا الجنس الغالب زوجات فافترشهن الأعجام ونسلوا منهن نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عددا وأشد منهم بالعجمة اتصالا، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين.

وفي العهد الاموي كانت للدين الاسلامي صولته وقوته، دخل فيه من دخل مؤمنا إيمانا حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عادّ إياه بجوار الاسلام شيئا، وبقي على دينه من بقي ذميا مستأمنا يحسد نفسه أن أبقاه المسلمون على دينه ويعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة، فلم يتسرب إلى الدين الاسلامي من الديانات المختلفة - نصرانية ويهودية ومجوسية، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا - شيء يزعزع من عقائد أبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا، ولكن حين جاء العصر العباسي مستبدلا بصولة العرب صولة الفرس وكانوا مجوسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطانهم إلحاد وإباحية وزندقة، فتحت

فى الأبحاث الدينية أبواب كانت مغاقة ، وجرت على ألسنة هؤلاء المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجرى، وتخطت الأبحاث الدينية بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والالحاد، السياج الذى كان مضروبا ، وساعد على رواج هذه الابحاث التمكين لرجال الفرس فى السلطان . وإذ ساغ للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفاسفة والدين فقد ساغ لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن ينشط اليهود والنصارى فى أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة الدولة إلى علمائهم وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من شخصياتهم، فكان من وراء ذلك تأثير فى الدين كبير ظهر أثره فى اللغة من آداب وعـلوم .

وفى العهد الأموى كان للغة العربية بحكم التوسع فى الفتح وبسط السلطان، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيما طغيان، أزال منها ما أزال وبقى ما بقى ضعيف المقاومة مهيض الجناح، كل هم ذويه أن يبقوا أمام الفاتحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين. أما لغاتهم فلن يأخذ بيدها ماصاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة فى خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم كان تنزه العرب النازلين ديار العجمة عن مخالطة الأعجام، وترفعهم أن يلوا مثل مايلى أولئك من أعمال، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن يتأثروا مرغمين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسى وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة العجم

ومشاركتهم فى الأعمال فقد حُل عن عنق اللغات المغلوب أهلوها ما كان مضيقا عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغى أن يكون عليه ذووها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حينا وانقلبت هى بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام، حتى عقد لها لواء النصر فى التغلب كما سيأتى على ألسنة السواد ؛ وتسربت بما كان من التوسع فى وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلو من التعريب، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبيلا لتظهر فيه أحيانا على ألسنة الادباء ناثرين وشاعرين

هذا وكما كانت النزعة العربية فى العهد الأموى غلابة فيما ذكرنا من نواحى الجنس والدين واللغة كانت كذلك غلابة فى ناحية الاجتماع.

فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية، عاملين بعاداتها محبين لآدابها، يقودهم فى ذلك ويشجعهم عليه آل البيت المالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وماغيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحا على أبنائها إذ جعلوا الاسلام دولة عربية بعد أن كان دينا، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها، وسكوا النقود العربية مستعيضين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا فى نقل الطراز [1] وماعدا الناس على عهدهم طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم، كما يرى الآن على ألبسة الجند والشرطة مثلا ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاؤل والدعاء لورود تحريم الصور فى بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، وقحطانيين، وطبقة الموالى المسودين مسلمين وذميين، نعم خدم الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصارى والموالى، مسلمين وغير مسلمين، ولكن عددهم جميعا كان جد قليل [1] ثم جدت أمور لم تكن فى صدر الاسلام كاتخاذ السرير والحجاب [2] ولكنها لم تعد أشخاص الخلفاء ومن حاكاهم من بعض الولاة فى تبسيط واضح واكتفاء بالقليل

أما أحوال الاجتماع فى العصر العباسى حيث نضج التمدين الاسلامى متأثرا بما خلف عليه من مدنيات، فقد جاءت مغايرة كل المغـايرة لمـا كانت عليه فى عهد الامويين.

ساق هذا التمدين الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات، الأولى طبقة الخاصة وهى الخليفة وأهله ورجال دولتـه وأرباب البيوتات، والثانية طبقة العامة وهى المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعاهم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالى المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجوارى من السودان والبيضان؛ كما حملهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

---

(١) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب، تقريبها الأخطل الشاعر وبخاصة فى عهد عبد الملك. وممن خدم من الموالى غير المسلمين، رجال الدواوين قبل تعريبها. ومنهم مسلمين، سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان.

(٢) أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما فى بلاد الروم، ولما أنبأه به عما كان لمجلس الحاكم فى فارس ومصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء والشعراء ، وذوى الحذق والنفاسة من نابغى الصناع وكبار التجار .

فبهذه الطوائف جميعا ما عدا الزراع كانت تعج المدن فى العصر العباسى وتفيض، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاسد أعوان الشر أو المجون. وإذ كانت هذه الجموع فى غالبيتها أخلاطا من غير العرب جنسا، وعلى غير ما نشأت عليه العرب استعدادا ، فأنت خبير بما تنتجه فى أبناء العربية المخالطين وفى العربية حيث لا يوجد هؤلاء الابناء من تأثير .

ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التى شبوا عليها فى بداوتهم وهذبها الاسلام فى صدر إسلامهم، وحاطها الأمويون بالرعاية فى دولتهم ، كالاستقلال والشجاعة والنجدة والأنفة والعفة وغيرها مما جبلوا على مدحه ، والتفانى فى نصرته ، وتجلت له فى أدبهم صور رائعة باهرة، فأصبحنا بعد تَهدء من العصر العباسى نشاهد الضعف والخور، والقعود والاستسلام، والغدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس الرجال وضعف الثقة بهم فى قلوب النساء، حتى غاض معين طاهر صاف وفاض آخر كله رجس وأقذار [1]

---

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية فى المدن فتنازلت عن عزتها فى سبيل إرضاء زوجها وصارت تهدى إليه الجوارى وتحبب إليه الاقتراب منهن حتى ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنون فأقفل عليها الابواب والنوافذ وسد فى وجهها الطرق والمسالك ومنعها الخروج والكلام وأصبح الطعن فى طباع المرأة شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفت له القصص والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .

. كما نقلت هذه المدنية العرب من التبسط فى معاشهم مطعما وملبسا ومسكنا: فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموى فى هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسى حتى الأذقان، فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدائق وتجرى من تحتها الأنهار [1] ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان والأشكال، مفرقين بين الثياب فى الحياة الجادة العاملة والحياة الوادعة اللاهية [2] ثم أكلوا كل مالذ وطاب من ألوان الأطعمة ؛ وشربوا كل ماشف وراق من أنواع المشروبات [3] فكان ذلك كله على ماصحبه من التغالى فى اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

---

(١) اختلفت أساليب البناء فى الاسلام باختلاف البيئات فكانت فى كل بلد على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بذوق العرب واستخدامهم الابتكار إلى نمط خاص هو النمط العربى وإن بقى بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة فى كثير من ملابسها وظهر التغالى فى ملابس الخاصة على العهد العباسى ظهورا بينا وبخاصة فى العراق اذ كان من الخلفاء منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص ، له فى كل طائفة طابع يميزها عن غيرها ، وكان لابد من جبة سوداء تغطى حين الدخول على الخليفة جميع الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض

ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف بثياب المنادمة .

(٣) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع عليها فى الانفاق حتى صار لكل لون خدم عليهم رئيس .

ومما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعا قبل الفتح فى جميع البلاد وبخاصة بلاد فارس التى كان ملوكها مغرقين فى اللذات والمسكرات.

الأحجار الكريمة والجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال [1]

وثم تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظمائها، فظهرت متجلية فى مجالسهم التى كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع فوقها القباب وتزين جدرانها وسقفها بصور الذهب والفضة لما فى البر والبحر وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر الحرير المطرزة بشارات الدولة وماقد يضم اليها من مأثور الكلام. [2] ثم كان للخلفاء فى المواكب حين الخروج للاحتفال من الافتنان فى الزينة وإظهار العظمة مايأخذ بالألباب ويخطف الأبصار [3].

وحينما أخذت العرب فى تشرب مدنيات الأمم التى غلبتها على أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدنيات فى أخريات

---

(١) أخذ البذخ فى اقتناء الجوهرات مأخذه فى بغداد، وقد احتذى بهم فى ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون فى القاهرة ففاضت فى المدن الثلاث الجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان وإن نظرة إلى ماكانت تزين به النساء عند الزفاف ولاسيما بنات الخلفاء والخاصة من الأمراء وذوى اليسار لتدل على مابلغ اليه الترف فى تلكم الأنحاء.

(٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد مايدور فيها، فيعد بعضها لتصريف أمور الدولة وبعضها للادب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء والانس، وهكذا.

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواكب باختلاف الداعى إليها من أمر دينى كالأعياد، أو دنيوى كزفاف أو ختان، أو نصر أو ما الى ذلك مما هو مفصل فى الكلام على أ.ہات الخلفاء.

أيامها قد سادها الشر وعمها الفساد ، فكثر من أبنائها الأشرار الفاسدون،الذين نشروا الرذائل فى مدنية الاسلام،وكان العرب معرضين لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون فى مدنيتهم حتى كثرت الموبقات،وتعددت المفاسد،وغلبت الشهوات على الناس فصاروا لها عبيدا ثم انطلقوا فى تيارها بعد عن طواعية واختيار ، وكأن أبناء العرب وقد فقدوا شخصياتهم،وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سواء ثم أقل من السواء ، أصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب فانغمسوا فى شرورهم غير مبالين،وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه مبعدين (١)

ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد فى تيار الحضارة تقديسا للمادة فى النفوس إشباعا للنهم الجشع،وسدا للكمال الذى صار من الضرورات ، فأحب الناس المال حبا جما،وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز،وانتشرت حيل الغش والخداع،وأصبحت الرشوة عاملا فعالا من عوامل نيل الغرض وابتناء الثروات (٢)

---

(١) لذلك كانت عادات الجاليات العربية فى كل قطر ، من عادات أهله وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر فى الاقطار الاسلامية قبيل الفتح أثرا محتوما لمدنيتين شاختا وأ كل عليهما الدهر ، هما المدنية الفارسية شرقا والمدنية الرومانية غربا .

(٢) فشا بانتشار الرشوة الأثراء السريع للوزراء ومن فى حكمهم من الولاة والعمال وتبع ذلك إقدام ذوى الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالى أو حفزهم حافز الانتقام.

على أن العرب على ما آذنهم به تلك المدنيات فى نواحى الاجتماع، قد استفادوا من ورائها مغانم فى العلم والأدب ،عادت عليهم وعلى لغتهم بالخير والصلاح ، فقد جارى أبناء أممها سلائل العرب فى مضمار الأدب فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بذوهم فى مضمار العلم فكانوا أكثر منهم عددا وإنتاجا فى التأليف والتصنيف ، هذا إلى أن أدباءهم كانوا اللقاح الأدبى الجديد، كما كان علماؤهم التراجمة الماهرين فيما نقل من علم دخيل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم واجتماعياتهم من تأثير فى العرب ظهرت نتائجه فى لغتها غرضا ومقصدا، معنى وخيالا ، لفظا وأسلوبا ، على ما سنبينه فى هذه النواحى الثلاث عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

غلبة الفرس فى هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيدة فى التاريخ القديم ذات علوم وآداب [1] ؛ وهم أهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة ، ولذلك أحرزوا منذ القديم، قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين ؛ واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا ، فنقلوا إلى لغتهم مانبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون [2] ، ثم كان

«١» كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا، وأكثر جندا ، امتلكوا مصر على فراعنتها زمنا وحاربوا اليونان قبل المسيح ، فكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا يجردون جيشا قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقية وأوربة .

«٢» كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ماذكر فى فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزائن كتب ، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام .

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أزدشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجلاب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها .

ولماكان ماكان من اضطهاد جوستنيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقفاله هياكلهم ومدارسهم، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك ، فاستقبلهم

أبين مافضلوا غيرهم فيه النبوغ فى الأدب الآرى ، ذى الفكر الغواص والخيال المخصب البديع ؛ وماظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ فى أحضانهم وبمعونتهم ،ولم يمض على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل، إلا أن يتشربوا مدنيتهم،ويتحضروا بحضارتهم، ويظهر أثر ذلك جليا فى كلامهم،وإن تغلبوا عليهم فى اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ فى العصر العباسى عهدا بعهد.فلم يك لهم ما للفرس ولا شىء منه فى هذا الميدان لمايلى من أسباب

اتصل الأتراك أول مااتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة لاعهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الأميين الذين لايزالون يضربون فى الأرض ابتغاء الرزق سلبا ونهبا،ويذرعون أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم،ومقاتلين من يصادفهم من غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم،ومايتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ فى العصر العباسى الثانى على الخلفاء ، غلظة فى غير رفق ، وقسوة لاتعرف الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة وأشد فى النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد والسخف والاستعباد ، تبقى مابقى بطشها وسلطانها ، فاذامازايلتها القوة

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون فى علوم الفلسفة وغيرها حتي شاع العلم اليونانى بفارس كماشاعت قبل علوم الهند والصين .

وتعداها النفوذ،ذهبت غير مخلفة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار . أما حضارة تؤثر فى حضارة ، وأدب يؤثر فى أدب ،ولغة تتدخل فى لغة ، فلا شىء من ذلك عندهم حتى يكون ، ولا أثر له فى وجودهم يبقى إذا أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر فى عهدهم الثانى عهد السلاجقة الذى كان أطول العصور ،كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم فى العهد السالف مقفرين ، فلم تجد العربية فى لغتهم ماتتأثر به من علوم وآداب لأنها لم تك لغة علوم وآداب،وبقيت مصبوغة بالصبغة التى كانت لها من لغة فارس، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك سلطان [1] وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط [2].

ومما وقف فى طريق أن تتأثر العربية بالتركية فى هـذا العهد الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

---

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ماسبق عن السلطان محمود الغزنوى من تكليفه الفردوسى إتمام نظم الشاهنامة الفارسية .

(٢) من ذلك سنجقدار لحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار لمتولى الأحكام وتنفيذها ، وسردار لرئيس الجيش،ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين تركيتين إحداهما دار بمعنى ممسك والأخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق بمعنى الرمح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه فى ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس، وقليله من اليونان،والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ماتذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب فى العلم عظيم.وفيض اليونان أعظم وأوفر،وهذا داع إلى أن يكون تأثر العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهيما له وتبيينا ، إن التأثر من الناحية العلمية المعنوية غير التأثر من ناحية الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليونانى والهندى على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب مانقل اليها منهما كان عن الفارسية التى نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين فى التأثير العلمى ، إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون للمترجم فى معناها نصيب.

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التى شارك أهاوها الفرس فى النفوذ.فاستقلت الفارسية بالتأثير البين فى العربية فى تلكم الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف، وبقى لها كيان شخصى أخذ يتزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن،حتى عم آخر العهد قاصية فارس ؛ فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ؛ أما وسط الدولة فكانت العربية وهى لغة غالبيته منذالقديم غلابة على ماوجدته من لغات أصبحت فى ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت فى لغات غربها ، وإن لم تكن لغة أهله قبل الفتح،فلم يبق لشىء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ فى العربية من

أبنائها، الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب فى ميدان الآداب والعلوم [1]. إلا ماكان من مشاركة اليونانية لها فى الميدان العلمى، حينما ترجمت منها مباشرة إلى العربية بعض العلوم، وهذا ماسيظهر جليا فيما نحن مجملوه عما جد باللغة فى تلكم النواحى الثلاث، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعى للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .

أولا — ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها فى العصر العباسى اتساعا كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما، وكان من وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالايجاد، وأخرى بالسعة والازدياد، كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية وعقلية .

---

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها وسيلة ناجعة فى الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة فى جلب الغنى الواسع فحذقوها وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها، وكانوا لايحصون كثرة .

أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة آثارهم والتماس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة صدق فى تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربى على أيدى من حذقوا اللغتين معا ثمارا شهية ناضجة، كعبدالله بن المقفع، والبديع الهمذانى من الأدباء، والفخر الرازى من الفلاسفة، وموسى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد، وغير هؤلاء كثير .

٢ ـ الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانيه .

٣ ـ إشاعة المذهب الشعوبى والرد عليه .

٤ ـ نشر الزندقة والالحاد ومقاومتهما .

٥ ـ تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة

٦ ـ التحريض على متع الحياة وتحسين المجانة والخلاعة وامتداح الشراب والغناء .

٧ ـ الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة .

٨ ـ ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة فى مختلف الدواوين .

٩ ـ وضع القصة والروايه .

١٠ ـ وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة، كالرياض بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين ، والقصور وماحوت من أثاث ورياش وصور ورسوم ، ومجالس المنادمة والشراب ، ومصايد الوحوش والسمك والطيور ، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ ـ النقد الأدبى على اختلاف مناحيه .

١٢ ـ تدريس العلوم المختلفة فى المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعانى والأخيله

لقد فتح التوسع فى المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبوابا جديدة للمعانى والتخيلات ، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملا على

نضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحثة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعثا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كان وضع القصة وخلق الرواية فاتحا أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبة ومجالى الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوعا لدقته دون ما ماتكنفاه بالتمثيل (١)

١ ــ الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع فى الأدب الكبير : ـ

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما هو أحد رجلين ، إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

---

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل مانذكر هنا .

٢ — إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسخ فى أذهان القوم من فلسفة معينة، وتجارب مفهمة ساعدتهم أن يكثروا من النوعين مجيدين

من ذلك قول ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة من باب عرض الكتاب

« فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما ، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف، ثم سلكه على علم به سمى جاهلا ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته ، وأقل الناس عذرا فى اجتناب محمود الافعال، وارتكاب مذمومها، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا فى قاعها ، بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار اليه جاهل غير عارف »

٣ — استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التى أصبحت أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها

من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأمون بقتل الأمين وهو : .

« أما بعد فأن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة، فقد فرق بينهما حكم الكتاب فى الولاية والخدمة بمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، لقول الله فيما اقتص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد فى معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله، وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهى رأس المخلوع وبالآخرة وهى البردة والقضيب والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه الراجع اليه تراث آبائه الراشدين.

٤ — الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال . وقد كثرت موادهما وتعددت ألوانهما فى أدب القصة من المنثور؛ ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كليلة ودمنة، ومن خير ما تطالع فيه الثانى، حكايات ألف ليلة وليلة، وإنك لمصيب الاثنين معا فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات، وبخاصة للبديع والحريرى وسنختار مقامة لكل بعد :

٥ ـ الاقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوع حملهم إليه التباعد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على

شكر سماه تهنئة .

« وصل كتاب مولانا جوابا عما خدمت به حضرته المحروسة مهنئا ، فحسبتني وقد تأملت عنوانه ، مغلوطا فيّ أو معنيا به غيري ، إعظاما لتلك الأيادي الغر والنعم الزهر التي أعددتها في الشرف مناسب وإلى الأيام والليالي ذرائع » الى آخره

٦ ـ وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثر اللغة في هذه الناحية أظهر منه في الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرهما ، وهذي بعض مظاهر التأثر نسوقها عدا كما فعلنا في ناحية الأغراض .

١ ـ حدوث لغة تأليفيه لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعي في كلتيهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم تك هنالك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين في شتى العلوم وضعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ ـ نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعي العرف العام .

٣ ـ دخول كثير من الكلمات الأعجمية في كل ماتقدم ، وبخاصة على أيدي المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية مخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت في حاجة

إلى غيره. وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يسمى هذا التغيير بالتعريب.

٤ ـ الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى كل التمثيل.

٥ ـ التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى شدة أسر وقوة أداء

٦ـ التوسع فى استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.

٧ـ الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج المصحوب كثيرا بالسجع.

٨ـ الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته والاستشهاد بها.

٩ـ الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجون.

١٠ـ التوسع فى إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات الملق والخنوع فى ثنايا الكلام.

١١ـ التغالى فى كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد تسود مع الاول عشرات الأوراق فى بعض الرسائل والعهود والمنشورات. وتصل بالثانى فى قصار الرسائل إلى حد التوقيع.

١٢ـ ظهور جديد فى الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما سيأتى بيانه فى الشعر (١).

---

(١) من ذلك فى الوزن مايسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجانى حبيبى واعترانى ادكار   ليته إذ شجانى ماشجتنى الديار

ومنه فى القافية مايسمى المسمط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية

ذلك أظهر ما كان من جديد فى نواحى اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر فى الاغراض وحسن وقبيح فى المعانى والألفاظ ، ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة فى أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هى ناحية التخاطب العام الذى جنت عليه الأعجميات أكبر جناية عرفت للعجمة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقا أن تنفرد فى هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

واحدة يأتى بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم

غزال هاج لى شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرتهنا
بذكر اللهو والطرب

سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا فى كتابنا الثانى من تاريخ الأدب العربى حيث الكلام على العهد الأموى،فصلا لم نعقد مثله فى عصرى الجاهلية وصدر الأسلام هو « لغة التخاطب » عللنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل،وأبنا السبب فى نشأة تخاطب جديد فى العصر الأموى مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :ـ

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف ، والأعجمى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار،من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين ، فكانت بعيدة عن ذلك كله على ألسنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على ألسنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات ، أما أبناؤهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا ، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاعاجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين ، ولذلك سابقوهم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر،وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :ـ

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموى لم يزعزع من عقيدة

الناس فى لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ؛ مع اصطباغ الدولة بالصبغة العربية المحضة :فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفتخرون بالاعراب ويمدحونه » .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحادث العام كانت عربية لما تتحول إلى عامية بعد

أما فى العصر العباسى الذى نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت إلى عامية انتشرت بقوة العجمة على تتابع سنيه الطوال فطاردت العربية من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها فى بعضها القضاء عليها والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة اختلفت قوة وضعفا باختلاف الجهات، ولكن التحادث لم يك بالعربية الصحيحة فى جهة ماحتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضائه بزمن طويل ، واليك فى هذا كله البيان .

ورث العصر العباسى إذن عن العهد الأموى لغة التحادث عربية صحيحه فى مجموعها، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة اللحن والتحريف أن يتسرب إلى ألسنة السواد وإن وقع من بعضهم، جهودا مشكورة حاكاهم فيها الولاة والامراء ـ العرب محاكاة المخلص المتعصب ، والموالى محاكاة المتزلف المتقرب ـ وبدت هذه الجهود فى شتى الألوان دفاعا عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة فى تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ، ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء، ويهيبون بالرواة أن يجدوا فى جمع

شوارد اللغة وضبط مأثورها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء باذلين في كل ذلك عناية تحفز الهمم، وما لا يستهوى النفوس

ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى، والأسوة الطيبة في العناية بتنشيء أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان، فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه: المبرزين من شيوخ الأدب وأكابر الرواة، كالشرقى القطامى مؤدب المهدى، والأحمر النحوى والكسائى مؤدبى الأمين، واليزيدى مؤدب المأمون، والمفضل الضبى مؤدب الواثق، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعتز، وثعلب والمبرد مؤدبى ابنه عبد الله بن المعتز، إلى غير هؤلاء ممن كان الخلفاء يأملون من وراء ملازمتهم أبناءهم تثقيفا عربيا يغنى عن الارسال إلى البادية التى كان يحرص خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها.

ومنها قدرهم النبوغ العربى قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله تنسى معه ضعة الأصول ولا يضن عليه من أجلها بكبار المناصب، ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترينا كيف كان النبوغ الأدبى أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم، وإلى أية غاية اتخذوه معارج عليها يظهرون[1]

(١) من الحوادث التى تؤيد هذا وهى كثيرة ماذكر من أن المعتصم وكان أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر الكلأ فقال المعتصم للوزير ما الكلأ؟ فلم يدر ماهو فقال المعتصم: خليفة أمى ووزير عامى ثم قال: انظروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية ألسنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطلمون إلى رقى من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة . قوى الزحف ، سريع الانتقال ، أنبأ عن وجوده فى العصر الاول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه فى العصر الثانى فلم يكن من ظهوره على ألسنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده فى العصر الأول فقد ظهر على ألسنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقززهم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن فى مجلس به أعرابى فصر الاعرابى أذنيه ؛ ثم لحن ثانية فقال الاعرابى أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يا فراء فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطباع لحنت . وكان المأمون يقول أتكلم مع الناس كلهم على سجيتى إلا مع ابن الهيثم فانى أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الاعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويفل حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

فأدخل عليه فسأله عن الكلأ فقال يا أمير المؤمنين هو العشب عامة فان كان رطبا فهو الخلا وإذا يبس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن فى العصر الأول كان من طباع أهل الحضر لضعف ملـكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل بازاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين باكبار أمره والتشدد فى المؤاخذة به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة ،وكان إذا ركب بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال لجلسائه: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ؛ فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهيه.وكان فى الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر باطلاقه:فغاظه ذلك وعمل له شعرا فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكى للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج فى بكائه حتى يأمر من معه الملاحين بالسكوت (١)

---

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعرا فى الغزل فامتنع فضربه وحلف ليحبسن حتى يقول الشعرفقال أبو العتاهية « كل مملوك لى حر وامرأتى طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله » فحزن الرشيد مما فعله وأمر أن يحبس فى دار ويوسع عليه ولايمنع من دخول من يريد اليه .

أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشر م دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح

وأما إعلاؤه مكانة نفسه فى العصر الثانى، فكان حيث فقد الأدب النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين، وخلف من بعدهم خلف نشئوا بين الامهات والحواضن الأعجميات لا يخالطون إذا خالطوا غيرهن، سوى الخدم الأعجام، بعيدين فى كل ذلك عن الرواة والمؤدبين. ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشأن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامية ألسنة السواد إلى ألسنة الخاصة فكان بها تحادثهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت العامية تعمل عملها فى ألسنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه نضوح
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس فى الأر ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عينى كل حى علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والـ ـموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنـ ـيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهـ ـر له يوما نطوح
نح على نفسك يامسكـ ـين إن كنت تنوح
لتموتن وإن عمـ ـمرت ما عمر نوح

التى صارت لا تسعفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط مالم يكونوا كتابا أو شعراء وبقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .

فلما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على ألسنة الخواص ، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك اللغة فى التحادث العام نصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم فى الأصل أعجام لا يزال فى رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزم موادينا ، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على ألسنة السواد كى تشقه مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هى ء لها من حياة ، فبدأت العربية تتقلص من الأطراف مخلفة مكانها للغات السكان الأصليين كالبربرية فى شمال أفريقية والفارسية فى خراسان .

ولقد صحب هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها فى الحساب ، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح فى حديثهم العام ، أصبحوا مضغة فى الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم فى المجالس ترويحا عن النفس وتفكهة للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصارا ومؤيدين حتى كانت فى العصر الرابع طلبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف (١)

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفاقدة حكامه ماكان لأمثالهم فى سابقه من صلة بالآداب ، فقدر على العربية

---

(١) كما فعل أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتابا جمع فيه أخبار المتقعرين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مدُ ذو ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام الأعجميات الأدبار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدهامقرا هادئا كما كانت فى خوالى الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى غزتها العجمة فى عقر دارها،فارتدت فصيحتها عامية قبل أن يبلغ ذلك العصر منتهاه ، وكان من أفعل العوامل فى هذه الغارة التى قضت على البقية الباقية فى البادية عاملان .

أحدهما دينى هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الاسلامية كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم على اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل وصحبة دائبة لاتكاد تنقضى حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل على وشك الحدوث ، ولايظنن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم من القبائل،فان هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن المقدسة لم يكن إلاللحج ، أماوموسم الحج هو الموسم التجارى للعرب يقدمون إليه بماشيتهم وسلعهم مبكرين ، ثم لاينصرفون إلا حيث ينصرف الناس ، فان من شأنه أن يجعل جماهيرهم تزاحم كل غريب ، واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد مايكون ، فهذا الاختلاط الذى كان يبدأ فى القافلة منذ هبوط الأعجام بلاد الاعراب ولاينتهى إلا حيث يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأمصار عائدين ، استمر يحمل إلى البادية لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيحتها فى جوفها حتى خرت أمامها صرعى مالها من مقيل ، قدأضر بكلماتها اللحن والتحريف ،

وصحبها ماصحبها من أعجمى دخيل . ولقد كان لهذا الا رط مددمقيم من أولئكم الذين يجمعون بين عامين فى هذه البلاد ، يحجون فى عام ويزورون فى عام ، وآخر أكثر اقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتى يوافيهم فى هذه الأماكن المقدسة أجلهم المحتوم ،فيفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات فى الجزيرة وأطرافها لبعد مركز الخلافة فى العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل الحج فيضطر الخلفاء إلى تجهيز جيوش الاعجام لتأديبها واعادة الأمن إلى نصابه فى ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكناها هاتيك الديار على مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز[1] وإما من أعجام يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرن فى لغتها بأقامتهم ويضاعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم اليهم ، كما كان من الزط فى بادية البصرة ، والزنج بشواطىء الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز،وغيرهم ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو فى إخمادها إلى جوس

---

(١) من تلك الثورات ماكان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب فى خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه اليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة بغا الكبير قضى قرابة السلتين فى حربهم حتى انتصر عليهم وعاد بكثير من ذوى الشغب فيهم الى سامراء.

الأعجام مضارب الأعراب [1]. فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

---

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطىء الخليج الفارسى قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا، حتى إذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيثون وينهبون، وقد استمروا على ذلك طوال خلافة المأمون . ولما ولى المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد ، فجرد إليهم جيشا هزمهم وعاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أنسالهم الآن بربوعها الوسطى تحت اسم « الغجر والنور » .

وأما الزنج فقد ظهروا فى خلافة المعتمد على الله بدعوة رجل فارسى ظهر أول ماظهر بالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطىء الفرات فحارب الدولة وهدد بغداد وبقى كذلك مصدر شغب حتى قتلته جيوش الخلافة سنة ٢٧٠ .

أما القرامطة فقد ظهروا أول ماظهروا بسواد الكوفة على يد رجل من خوزستان فى آخر خلافة المعتمد على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة فى آل البيت فكثر أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكنى مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى اذا ماتبرأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار وأمكنت الدولة هزيمتهم وقد مضي على عبثهم هذا أكثر من ثلث قرن .

الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة (١)

على هذا النسق الذى ذكرنا تملكت العامية ألسنة السواد فى جميع الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحادثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها ، ولكنها كانت مع اشتراكها بجميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل ، تختلف فى إقليم عنها فى إقليم اختلافا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا ، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا.

فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الأقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربه منها ، فحيث كانت الجالية قليلة والاقليم بعيدا ، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره ، وعليهم عول الأصمعى فى غريب اللغة ، ومنهم استمد سيبويه والكسائى مراجع أحكام النحو ، وما زالوا مستمد رواة الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد ، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ . ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على الفصيحة إلا ماذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل « عكاد » فقد قال فى لفظ عكوتين « هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن » ثم عاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب « وجبلا عكاد فوق مدينه الزرائب ، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحة وهم أهل قرار لايظعنون عنه ولايخرجون منه » وأيد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة ، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا .

صحيحا ، ولهذا كانت العامية فى الأطراف القاصية ـ كخراسان شرقا وبلاد المغرب غربا وأرمينية شمالا والنوبة جنوبا ـ شديدة الوطأة على اللسان العربى ، لفظا وأسلوبا ، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث ، ما شق له فى هذه القاصيات طريقا ، أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقليم ـ كما فى العراق ومصر والشام ـ فان الدخيل يكون حينئذ قليلا ، واللحن والتحريف لا يضحى متغلغلا ، ومن ثم بقيت العامية عربية فى هذه الأقطار وارتدت فى تلك إلى لغات أهلها الأصليين ، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة ، الغلبة على حال الأقليم بعدا وقربا ولهذا كانت عامية الأندلس على بعدها ، خيرا من عامية بلاد المغرب وهى أقرب منها .

ومن الثانى التفاوت فى نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت فى كل إقليم من لغة سكانه الأولين . ففى المشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركيه ، وفى الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية ، وفى شمال أفريقية كان بربريا ، أما فى بلاد العرب فقد كان خليطا من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلا .

ومنه أيضا التفاوت فى نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أعجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير ، والنفى والاثبات ، والتعريف والتنكير ، وهكذا مما له أثر فى تكوين الاسلوب .

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا ، كانت العامية الواحدة تختلف فى الاقليم الواحد ، فتراها فى وقت غيرها فى آخر ، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لابد فى تلك المغالبة ، أن تنتهى بقوة إحداهما وضعف الأخرى ، وبالحرى يقرب هذا الانتهاء بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كلتيهما فى أوائل العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامية من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى لغة التحادث العام إلى غيره من لغة العلم فى التأليف أو لغة الأدب فى الانشاء والقريض[1] ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء فى هذه النواحى الثلاث على أيدى العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس الهادى فيما جد أواخر العهد العباسى من غيم ، وأطبق بعد زواله على أيدى التتار من ظلام . أما العلماء فلما رسخ فى نفوسهم من الحرص على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ والتشريع ، وأما الكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم فى ضبط أمور الدولة بمختلف الدواوين على ماهدى اليه الملوك من إبقاء الكتابة عربية كما ورثوها ، زلفى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضن عليهم بالصلات لا بد أن يغلبهم ولو بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يألمون ، على أن حراسة الله للغة دينه وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء فى أشد العصور حلكة ، وأضيق الأيام حرجا ، وهكذا يأبى سبحانه إلا أن يكون .

---

(١) لم يظهر بها فى لغة العلم شىء هام ، ولا فى لغة الأدب إلا الزجل ، والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

وبعد

فان لنثر اللغة جانبا أدبيا تراه ماثلا فى الخطابة والكتابة الانشائية ، وآخر علميا يظهر فى الكتابة العلمية أى تدوين العلوم والفنون . وإنا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات . وبعدها يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .

الخطابة

أولا — نماذجها

١ ـ لما بويع السفاح [١] صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا ،وجعلنا أهله وكهفه وحصنه،والقوام به والذابين عنه والناصرين له،وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها،وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته،وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته [٢] جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا [٣] حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لاأسألكم عليه أجرا إلاالمودة فى القربى » وقال « وأنذر عشيرتك الأقربين » وقال « ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى » فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا،وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا، والله ذوالفضل العظيم

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا [٤] أحق بالرياسة والخلافة منا،

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع وهو شجر السهام . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أى مشقتنا .

(٤) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين على أبناء عمهم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم، وإخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الارض وختم بنا كما افتتح بنا وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير [(1)]

٢ ـ قال ذلك وكان موعوكا فاشتد به الوعك [(2)] فجلس على المنبر وصعد عمه داود بن على فقام على مرقاة دونه فقال :

---

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحمى .

الحمد لله شكرا شكرا شكرا الذى هلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا[١] وانكشف غطاؤها،وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها،وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها وعادت السهم إلى النزعة[٢] ورجع الحق إلى نصابه،فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولاعقيانا[٣] ولانحفر نهرا ، ولانبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم[٤] وبهظنا من شئونكم[٥] ولقد كانت أموركم ترمضنا[٦] ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم،واستذلالهم لكم،واستئثارهم بفيئكم، وصدقتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله،أن نحكم فيكم بما أنزل الله،ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا[٧] لبنى حرب بن أمية وبنى مروان،آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم،وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد ، التى بها استلذوا تسربل الأوزار وتجلبب الآصار،ومرحوا فى أعنة المعاصى

---

(١) ظلماتها جمع حندس .(٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولاذهبا .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتد علينا(٥) بهظنا أثقلنا (٦) تحرقنا .

(٧) ضلالا وخسرانا وهلاكا.

وركضوا فى ميادين الغى ، جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين ، وأدا لنا الله من مروان [1] وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه [2] شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدوّ الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسّفلة الذين أفسدوا الأرض بعد اصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب [3] المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .

يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام ، ومن عليكم بإمام منحه العدالة

---

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت سنه عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

وأعطاه حسن الايالة (١) فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فأن الأمر أمركم ، فأن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢) ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (٣) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

٣ ـ ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو العباس السفاح بالشام فقال : —

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون بكم الظُلَم ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم حُرَمَ الله وحُرَمَ رسوله ، ماذا يقول زعماؤكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الاقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم (٤) ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

---

(١) الايالة السياسة من آل اليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا فى المدينة والأمويين منكرون (٣) يعنى السفاح

(٤) أى ليخرج قلبكم ما به من خوف كما تخرج البيضة الفرخ

٤ ـ وخطب عمه عيسى بن على إذ ذاك بها فقال : —

الحمد لله الذى لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت والله الأشقر [١] نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » فحتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العيدان التى افترعوها [٢] وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع [٣] وجفر الفنيق، [٤] وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء، وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها [٥] ولا يخاف عقباها، وملكنا الله أمركم عباد الله لينظر كيف تعملون، فالشكر الشكر، فانه من دواعى المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الاهواء وبغتات الفتن فأنما نحن به وله .

٥ ـ ولما حج أبو مسلم الخراساني فى خلافة السفاح خطب بالمدينة فقال :

الحمد لله الذى حمد نفسه، واختار الاسلام دينا لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه، نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه فى كتابه الناطق الذى حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله فى أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

---

(١) يعنى مروان بن محمد وكان لونه كذلك . (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طحنهم فسوى الطحنة بما هى عليه أى سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللأواء [١] والشدة، وأغضى من اغضى على الاستبداد والأثرة، ثم إن قوما من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رتق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي أهل خمور وماخور [٢]، وطنابير ومزامير، [٣] إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات فى الشبهات، والمغانم فى المحارم، والفيء فى الغى هكذا كان زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالامر منهم، فلم وبم أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة الشركاء فى النسب والورثة فى السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم فى الجدب جائعكم، والله مااخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، ومازلتم بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وسفيانيا مرة ومروانيا مرة [٤] حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته [٥] يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

---

(١) الشدة فعله لى كفرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزمار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب.

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفيانى بنو سفيان والمروانى بنو مروان.

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الأصل.

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الذادة السادة، بنو عم رسول الله ﷺ ومُنزَّل جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ ، شيد الله بهم الهدى وجلى بهم العمى ، لم يسمع بمثل العباس ، وكيف لاتخضع له الأمم لواجب حق الحرمة ، أبو رسول ﷺ بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة[1] ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ملتقى الفئتين[2] لايخالف له رسما، ولا يعصى له حكما ، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ وآله فى الاحزاب[3] ها، إن فى هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار.

٦ — وخطب أبو جعفر المنصور[4] بالمدائن عند قتل أبى مسلم فقال:

أيها الناس لاتخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة فانه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده وفلتات لسانه وصفحات وجهه ، وأبداها الله لامامه باعزاز دينه وإعلاء حقه ، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم إنه من نازعنا عروة هذا القميص[5] أجزرناه خبى هذا الغمد[6] ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

---

(١) يعنى ماكان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال أخبار وأمداد لرسول الله (٢) كان أحد من حول البغلة (٣) نيق العقاب الموضع الذى شفع به العباس يوم فتح مكة فى أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله (٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ - ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق وألقاهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا لامتناع عبدالله المذكور أن يسلم إليه ابنيه محمدا وابراهيم مدعيا جهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد الأموى لمحمد هذا ، خطب فى أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة:

يأهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والله الذى لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ بالدماء وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس اليه معاوية « إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى » فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق فى الفتن ، أهل هذه المدرة[1] السوداء - وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هى بحرب فاحاربها ولا سلم ، فأسالمها ، فرق الله بينى وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحجر سكان المدن أما أهل الوبر فسكان قيام الشعر فى البوادى

وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتى محمد بن على فناشده في الخروج (١) وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمي داود بن على ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة (٢) ، ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تره يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة (٣) حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

فاني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم (٤) وقد دست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى

---

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة
(٣) اقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحميمة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين
(٤) يعني بالسقم الخلاف في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج.

أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله مابقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك ، بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين؛ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » .

٨ ـ ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبدالله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبى جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام [1] وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار الموالين ثم قال ـ اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك، وعملوا بغير كتابك، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت، فأحصهم عددا واقتلهم بددا [2] ولا تبق على الأرض منهم أحدا [3]

٩ ـ ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله فى السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله

رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

(١) هذا زعم بعيد التصديق عن أبى جعفر (٢) متفرقين مبددين

(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه ابرهيم بالبصرة بأن قتل المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل

فتى كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها

والتفت إلى الربيع. فقال « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ومن نعيمك مثلها والموعد الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة.

١٠ - وخطب المنصور يوم جمعة ،فلما قال «الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له » قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به ياأمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال: « سمعا سمعا لمن فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا عنيدا ،وأن تأخذني العزة بالاثم لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ،وأنت أيها القائل والله ماأردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويلك لو هممت[1] فاهتبلها[2] إذا غفرت وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة علينا نزلت ومن عندنا فصلت ،فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره » فكأنه يقرؤها من كفه ثم عاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أيها الناس اتقوا الله ....

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه بالشام[3] وقدم عليه وفدها للاستعطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

---

(١) يريد بعقابك (٢) اغتنمها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور مايزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي العهد بعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفارى فقال :ـ

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة وإنما نحن وفد توبة وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا واستفزت حليمنا . ونحن بما قدمنا معترفون ومما سلف منا معتذرون ، فأن تعاقبنا فبما أجرمنا وإن تعف عنا فبفضلك علينا، فاصفح عنا اذ ملكت، وامنن اذ قدرت، وأحسن اذ ظفرت، فطالما أحسنت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد ضياعه عليه بالغوطه .

١٢ ـ وكان عبدالرحمن عمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، يتردد على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

ياأمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها (١) ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا، ولما استطاع من عوراتهم ساترا، وبالقسط فيما بينهم قائما، لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانا، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال « يامحمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا » فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . ياأمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

---

(١) نقير النواة قناتها والفتيل الخيط المستقر فيها .

بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده، وهبط جبريل فقال يامحمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك » . واعلم أن كل ما في يدك لايعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم[1] من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لايقوِّم أمر الناس إلا حصيف العقدة، بعيد الغرة:لايطلع الناس منه على عورة،ولا يحنق فى الحق على جرة،ولا تأخذه فى الله لومة لائم . »

واعلم ياأمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف[2] نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع[3] ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الاكياس[4] واعلم ياأمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك[5] فى تفسير قول الله عزوجل « لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها»

---

(١) قاب القوس مابين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان فظلم(٤) الحزمة جمع كيس (٥) عبد الله بن عباس .

أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عملته الايدى ، فأعيذك بالله أن يخيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره،فقد قال « ياصفية عمة محمد ويافاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إنى لاأغنى عنكما من الله شيئا » ، وكان جدك الأكبر[1] سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال « أى عم،نفس تحييها خير لك من إمارة لاتحصيها » نظراً لعمه وشفقة عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، فقال المنصور بلى نقبلها و نشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ ـ ولما تراجع المهدى[2] ووزراؤه وأهل بيته تدبير الرأى فى حرب خراسان كان مما قال المهدى فيمارآه رأيا استقر عليه،الخطب أيسر مما تذهبون إليه وعلى غيرماتصفون الامر عليه ، إنه لا بد لولى عهدى أن يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشيطا إليهم،حنقا عليهم،يريد ألا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعى البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل، وألبسه قناع القهر،وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة و نصرة ولاة الحق إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نهله،فاذا خرج مزمعا به مجمعا عليه،لم يسر إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله وكدحت كتبه،و نفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدى بن المنصور

القلوب ووقعت طائرة الأهواء،واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبراً بهم وتعطفا عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم،ومنع حجاجهم بيت الله الحرام،وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

ثم كان مما قال فى وصاة ولى عهده موسى الهادى حين أزمع الشخوص إلى خراسان :

أى بنى،إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصبا [1] ولمثنى أعطاف الرعية غاية [2] ، فحسنتك شاملة،وإساءتك نائية.وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله وطاعته،فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم بخلافهما،فان الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخط عليك إيثارك رضا من سواه – إلى أن قال بعد أن أوصاه بالكرامة فى الخاصة والعدل فى العامة – ولاينفكن فى ظل كرامتك نازلا وبعرى حبلك متعلقا رجلان ، أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آدابا نافعة وآثارا باقية من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره فى حربك وتدخله فى أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتى ويرعى فى خضرة جنانى ، ولاتدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار

(١) السمت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العلم المنصوب والغاية

(٢) يريد تدللهم من مشى ثانى عطفه تدللا وكبرا

أقوا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر، فسر على بركة الله أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدى إلى الصواب قلبك ؛ وهاديا ينطق بالخير لسانك .

١٤ ـ وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال :

يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته؛ وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ؛ ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه؛ ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، أو تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ ـ ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكى على الشام لهياج العصبية بها فشخص إليها فى عدة وعدد ثم عاد وقد أعاد الامن والطمأنينة فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال:

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى، وأجاب دعوتى، ورحم تضرعى، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجه سيدى، وأكرمنى بقربه وامتن على بتقبيل يده وردنى إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ومخرجى ، والمقادير التى أزعجتنى فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتنى، وخطايا أحاطت بى ـ إلى أن قال بعد إطالة فى التزلف والتقرب ـ إن الله

ياأمير المؤمنين لم يزل يبليك فى خلافتك بقدر مايعلم من نيتك . ويريك فى رعيتك غاية أمنيتك ، فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعثهم ، حفظا لك فيهم ورحمة لهم، وانما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت ياأمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على مافرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك . طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك آمنون بادرتك ، حالهم فى ائتلافهم كحالهم كانت فى اختلافهم ، وحالهم فى ألفتهم كحالهم كانت فى امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمسألتهم . وايم الله ياأمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مُرّاقهم وأصلح دهماءهم وأولانى الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك — إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر فى إطالة باسقة لهذا العجز — وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق له، إذ كان الشكر مقصرا عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشيره [1] أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عنى حقك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ — وخطب عبد الملك بن صالح بن على عم الرشيد بالشام وكان

«١» الشقص السهم والنصيب والعشير كالعشر

واليه عليها فى نفرة أرادها منهم فتثاقلوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم فى الدين وأشباهكم فى الأجسام فحذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ؛ قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون : جثث ماثلة وقلوب طائرة تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتكم [١] ، وحرم رسوله فانه مغزاكم [٢] أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لأوسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ ـ ولما غضب الرشيد على عبدالملك بن صالح لسعى كان به إليه بطمعه فى الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه ، فاستدعاه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه ، فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام ؛ أنصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار للعدل واستعمالا للتحية ؛ ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبدالملك ،

«١» الدريئة هنا الحلقة يتعلم الرمى عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج بالكعبة . «٢» يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد [١]

ثم قال أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع، وعارضها قد لمع [٢]، وكأني بالوعيد قد أورى نارا تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم ورءوس بلا غلاصم [٣]، فمهلا مهلا فبي والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت اليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل — فقال عبد الملك —

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك. ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك النصيحة، ومحضت لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يلملم [٤] وتركت عدوك مشتغلا، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بللته [٥]، بظن أفصح الكتاب لي بعضهه [٦] أو ببغي باغ ينهس اللحم ويالغ الدم [٧]. فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق فرجته، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته ببياني ولساني وجدل

---

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قالها عمرو بن معديكرب الزبيدي في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهمع هطل والعارض السحاب ولمع أضاء برقه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم جمع غلصمة وهي رأس الحلقوم (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويلملم جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله بمقدم أسنانه؛ ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ورفق الواشي

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزحل[1]

فقال له الرشيد أما والله لولا ابقاء على بني هاشم لضربت عنقك ثم رده إلى السجن فبقي به حتى أطلقه الأمين وعقد له على الشام.

١٨ ـ ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى واليه على مكة والمدينة يأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابي الرشيد اللذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما، جمع داود الناس وخطبهم مناديا بخلع الامين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة

أما بعد يأهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والاسرة والشركاء في النعمة، إلى بلدكم يفدوفد الله وإلى قبلتكم يأتم المسلمون وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم، من العهد والميثاق، لتنصرن المظلوم منهما على الظالم، والمبغي عليه على الباغي، والمغدور به على الغادر. ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغي عليه المغدور به. ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي ـ ثم خلعها وقال ـ قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم ـ فقاموا اليه فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين.

---

(١) يريد الفيل في قوته، وفياله وهو سائسه في دهائه، وزحل تزحزح

١٩ ـ ولما تولى الأمر عن الأمين، وتسلل عنه الانصار إلى طاهر ابن الحسين خطب من بقى معه فى بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الاموال، وحلول النوائب وتوفد المصائب [١] احمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى [٢] أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم آمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل ما ألمع اليه فى ديباجته إلى أن قال ـ فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام .

٢٠ ـ وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين . إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا [٣] بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدينه، وقواما لعباده، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع الفىء ، وإنفاذ الحكم ونشر العدل، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات [٤] والتلذذ بموبق

---

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطينى والرفد العطاء (٣) أى لم يكن من قوتنا ولا من حيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهى التمادى فى الخسر والضياع، واذبالها إذواؤها بكثرة الأمعان فيها .

الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعى غرورها ، محتلب درة نعمتها، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء وعيد الله عزوجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغيره ناهية وعظته مؤدبه، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة [1] واسلكوا مناحى سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة [2] فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ — وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والصلاه :

أيها الناس إنى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم ، أن أطيعه فيكم ،ولا أسفك دما عمدا لاتحله حدوده وتسفكه فرائضه،ولا آخذ لاحد مالا ولا أثاثا ولانحلة تحرم على [3] ولاأحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى إلا ماكان فى الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إنى أفى رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه ، فان غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه فى المعونة على طاعته،وأن يحول بينى وبين معصيته.

٢٢ — ولمادخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم: ياأمير المؤمنين بارك الله لك فى مقدمك،وزادفى نعمتك،وشكرك

---

(١) جمع عصام وهو رباط القربة الذى به تحمل (٢) فرقوا مجتمعها
(٣) النحلة العطية والهبة

عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك، وآيست أن يعاين مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقى فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعو لك ونثنى عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك وكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير وفككت الأسير ، فانك يا أمير المؤمنين كما قال الأول

مازلت فى البذل والنوال وإطـــلاق لعان بجرمه غلق [1]
حتى تمنى البراء [2] أنهم عندك أسرى فى القيد والحلق

ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسى والناس قريبو عهد بالبداوة ، فيهم المقدرة على المشافهة والارتجال، وفى ألسنتهم ملكة الفصاحة والبيان ، فالبادية هى البادية لم يصبها ما أصابها بعد من عى واستعجام، والأمصار مليئة بجالية العرب الذين ارتشفوا أفاويق البلاغة ولدانا، واستدروا أخلافها يافعين وشبانا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة فى الذروة مما ذكرنا، من الخلفاء وذوى القرابة القريبة أعماما وأبناء أعمام، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل خارجين على أولئكم العباسيين أو ناقمين، ومن حولهم شيعة تشد أزرهم وتعمل على إنالتهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خلصا أو موالى متعربين. وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول، ولم ينفسوا عن خناقهم بكلام هائمين فى البوادى أو متخفين فى الامصار ، فما إن حان

(١) العانى الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برىء ككريم وكرام

حين بنى مروان حتى كانوا فى خطابتهم كالقدر أخذ ماؤها فى الغليان فاضطرب وفار وصار حميا يصهر به مافى بطونهم والجلود .

وهذا بيان ماتناولت الخطابة فى ذلك وفى غيره من أغراض بعد التمهيد له:

كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذرابة اللسان، وحضور البديهة ومتانة الارتجال، يدلك على ذلك ماسلف من أبى جعفر المنصور. إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال كأنه يقرؤه من كفه، ثم عاد إلى الخطبة بعد، يصل ماكان بما يكون، ويدلك عليه أيضا ماتقدم عن دواد بن على فى تلك الخطبة القوية الضافية التى كانت منه إذ قطع الوعك على أبى العباس خطبته، وهذا داود المذكور يقول محسا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا لاننطق بطرا، ولا نسكت حصرا، بل نسكت معتبرين وننطق مرشدين، ونحن بعد أمراء القول، فينا، وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه ولنا تهدلت ثمراته، فنتخير منه ما احلولى وعذب، ونطرح منه ما املولح وخبث » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الأمصار واحتلت المنابر والأعواد[1] .

(١) منهم الخليفتان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدهما سائر الخلفاء إلى مابعد العصر العباسى الأول، ومنهم عبدالله وداود وصالح وسليمان وعيسى من أعمام الخليفتين الأولين، ومنهم من أبناء هؤلاء الأعمام عبد الملك واسماعيل وعبد الله أبناء صالح، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد ابنا سليمان، ومن أبناء جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قال الجاحظ فيهم:

«لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى وفى الكمال والجلال وفى العلم بقريش والدولة

١ــبهذه الكثرة فى العدد وتلك القوة فى المدد ، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة لايزالون يذكرون اجتراءها على الدين، واحتجانها الفىء ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون ، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان ، فأبدل الأمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح ، إلى غير ذلك من المعانى التى أكثروا فيها تعفية لآثار بنى مروان وتثبيتا لهذا الملك الجديد ، وهأنت ذا تراها ماثلة فى كثير من خطبهم أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبى مسلم بالمدينة عقب حجه .

٢ــوماكاد الداعى إلى استخدام الخطابة فى التعفية على الدولة الدائلة ينقضى بانقضاء عهد السفاح الذى أفناهم قتلا وتشريدا ، ويخلّل بعده عهد المنصور ، حتى نبت لها داع جديد هو استخدامها فى مقاومة العلويين، فقد خرجوا على المنصور يطلبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذى يقربهم إلى رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعد أبناء فاطمة البتول بنت رسول الله ، وللعامة إلى أبنائها هوى متغلغل فى السواد. وقد هال ذلك أباجعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ماذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله

وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يحلون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .

وإيداعهم السجون، ووجه بالجيوش إلى ولديه محمد بالمدينة وابراهيم بالبصرة للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفى خلال ذلك كانت تستخدم الخطابة من العلويين تسويغا للخروج وأداة لجمع الأنصار ، كما كانت تستخدم من المنصور تبيينا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا للموقف الذى وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلا فى ذلك ومكثرا من الادلة والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينتزع محبتهم من القلوب حتى قلوب قواده وعظماء دولته كأبى مسلم الخراسانى الذى قتله لميله إلى هؤلاء ثم استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير فى تفهيم الناس أنه لم يك فيه من المعتدين .

٣ـ هذا الوادى وذاك كانا أزخر الأودية بتيار الخطابة ، يجرى فيهما عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك فى واد ثالث اطرد وإياهما ، هو استخدامها فى الثورات لتحميس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين القتال ، أو لتثبيط هممها والقعود بها حتى عن نصرة من يكون له فى نصرتها أمل ورجاء . وإليك فى هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

أتى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه إلى جيش على بن عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جندك قد هابوا هذا الجيش، وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا. فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له طاهر الاريثما خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم، وصغروا ما عظمتم، ونكثوا الأيمان التى رعيتم ، وإنما يطلبون الباطل ، ويقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ، فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فإنما هى ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .

وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأمين ليده عليه فى إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رءوسها ووجوهها ، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ؛ إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفى الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنختم ، إن المنايا فى شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقترب الأجل » وقام آخر من كلب فقال « يامعشر كلب إنها الراية السوداء والله ماولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليها ، وانكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان فى رقابكم ، وآثار أسنتهم فى صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطنى خير من العيش الجزرى ، ألا وانى راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معى » ثم سار هو والحمصى فسار معهما طامة أهل الشام ، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقفل الحسين بن على بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة الى بغداد . وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

بعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم مناديا بخامه يقول « يامعشر الأبناء إن خلافة الله لا تجاوز بالبطر و نعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر، وإن محمدا يريد أن يوتغ أديانكم [1] وينكث بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم ، وبالله إن طالت به مدة وراجعه من أمره قوة ليرجعن وبال ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكروهه فى دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فو الله لا ينصره منكم ناصر الا خذل، ولا يمنعه مانع الا قتل، وما عند الله لأحد هوادة ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له فى خلع الأمين وحبسه والبيعة للمأمون .

وإنا لذاكرون هنا وفى هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك فى تلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أسد الحربى [2] فقال «يا معشر الحربية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسره فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا لا : قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا ما علمنا ، قال فهل عزل أحدا من قوادكم؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال فما بالكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده

(١) يفسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله الراوندى قائد المنصور .

وأسره، أما والله ما قتل قوم خليفتهم قط إلا ساط الله عليهم السيف القاتل والحتف الجارف ، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به »فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه وأسروه ، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة . ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمصار وخاصة مكة كما تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليها ، وهجمت جيوش طاهر على بغداد وليس لأهلها نظام ، لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الانتصار .

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحى الثلاث كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار .

١ـ منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يخشى من سخائم القلوب وغضبات النفوس ، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب ، وقلب الثانى على الاول جحيم آن ، فيأخذ فى الترضى والاستعطاف فاذا هذا الجحيم برد وسلام ، وإذا هو قد انتقل بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى دروة المكافأة والثواب ؛ وقد سبق ما كان من أبى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد خروجه عليه مع عمه عبد الله ، فشفع رضاه عنه برد ضياعه غايه . وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول « ياأمير المؤمنين أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتمهما سيفك ، وأضرعهما خوفك ، فناشدتك الله ياأمير المؤمنين أن تصعر لهما خدك ، فينأى عنهما رفدك . أو لتعطفك عليهما شوابك النسب وأواصر الرحم »

فلا يتمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عليهما ضياع أبيهما ثم يقول كذا والله أحب أن تكون نساء بنى هاشم . بل هذا جعفر الصادق يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه « لا سلم الله عليك يا عدو الله تعمل على الغوائل فى ملكى » فيقول جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم » فينكس أبو جعفر رأسه مليا ثم يرفعه قائلا « إلى أبا عبد الله فأنت القريب القرابة، ذو الرحم الواشجة، السليم الناحية ، القليل الغائلة » ثم يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفا له عن بعضه، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله ، ثم يقول يا ربيع عجل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه . ومن بعد أبى جعفر طالما استعطف الخطباء الخلفاء فنالوا بقولهم غفران عظائم الذنوب ، وتخطوا ذلك إلى الحظوة برد ما صودر من أموالهم زائدا أسني العطايا وأجزل الصلات كما فعل المأمون مع عمه ابراهيم (١) وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل (٢) وغير هذين وهذين كثير .

---

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى على بن موسى الرضا من العلويين وسمع العباسيون ذلك أنكروه وخلعوه وبايعوا عمه ابراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب وتوارى فجد فى طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله.

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطىء الفرات وعظم أمره، فوجه إليه المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقا إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه لطوله أيضا .

٢ ـ ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة سخط وعقاب، وسوط نقمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفا وفرقا، ويطير لبه مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن على يقول وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة أبى العباس السفاح فقال «أغدرا يا أهل الختر والتبديل. ألم يردعكم الفتح المبين عن الخوض فى ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنها، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء ودببتم الخمر [1] أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأتم لأحصدنكم بظبات السيوف ثم يغنى ربنا عنكم ونستبدل غيركم «ثم لا يكونوا أمثالكم» وفى مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ فى يومه لغده، فمشى القصد وقال الفصل وجانب الهجر ـ ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه ـ أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فإنما بعد الوعيد الايقاع و «إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله »

٣ـ وبين حالتى الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة فى معاتبة من ارتكب معه عصيانا فقدر عليه، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران، لمنزلة سالفة وخدمة مرجوة، فأن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

---

(١) الضراء الشجر الملتف والخمر كل ما وارى وستر وكلاهما كناية عن التخفى فى تدبير المكايد لؤما وجبنا .

بعامل الرحمة والحنان، فيأتى قوله لذلك بين الشدة واللين كالذى كان من الامين للحسين بن على بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك على الناس وأوله أعنة الخيل وأملأ يده من الأموال وأشرف أقداركم فى أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؛ قال بلى : قال فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتى وتؤلب الناس على، وتندبهم إلى قتالى ؛ قال الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ؛ قال فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك »[1] ثم دعاله له بخلعة فخلعها عليه وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب فى نفر من خدمه ومواليه فنادى الأمين فى الناس — إذ لم يعد هناك موضع لعفو — فركبوا فى طلبه فأدركوه وقتلوه . وكذى كان من المأمون للفضل ابن الربيع[2] إذ ظفر به فقد قال له « يافضل أكان من حقى عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبنى وتسبنى وتحرض على دمى ، أتحب أن أفعل بك مافعلته بى » فقال يا أمير المؤمنين إن عذرى يحقدك اذا كان واضحا جميلا فكيف إذا حفته العيوب وقبحته الذنوب ، فلا يضيق عنى من عفوك ماوسع غيرى منك فأنت كما قال الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه   من العفو لم يعرف من الناس مجرما

(١) يعنى أخذه بثأر أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الأمين معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالى أن يكون به الأذى   إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

٤ ـ ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء أو المتحابين الأصفياء أو الراغبين فى التفاصح من البلغاء . فترى فيها حيث الخصام نارا وجحيما، وحيث التحاب جنة ونعيما، وحيث الرغبة فى التفاصح علوا فى البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفحم والرد المقنع . وأما حوار التحاب والتواد فاليك منه ماحدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور بالربيع فقال له يا ربيع سلني ماتريد فقد سكت حتى أنطقت ، وخففت حتى أثقلت، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ولا أستقصر عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحسن من يومى، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لماسبقنى لذلك أحد، قال صدقت علمى بهذا منك أحلك هذا المحل فسلنى ماشئت ؛ قال أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه، قال ياربيع إن الحب ليس بمال يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لى طريقا إليه بالتفضل عليه؛ قال صدقت وقد وصلته بألف درهم ولم أصل بها أحدا غير عمومتى لتعلم ماله عندى فيكون منه مايستدعى به محبتى ، ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر، تستر بها عندك عيوبه، وتصير حسنات ذنوبه، قال صدقت .

أما حوار التفاصح فخذ منه ماروى من أن خالد بن صفوان دخل على

السفاح وعنده أخواله من بنى الحارث بنى كعب [١] فقال ماتقول فى أخوالى فقال ، هم هامة الشرف وعرنين الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا مااجتمعت فى غيرهم من قومهم لأنهم اطولهم لما ، واكرمهم شيما،وأطيبهم طعما،وأوفاهم ذمما وأبعدهم هما ، الجمرة فى الحرب والرفد فى الجدب والرأس فى كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب ؛ فقال وصفت أبا صفوان فأحسنت فزاد أخواله فى الفخر حتى غضب لأعمامه فقال: افخر ياخالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال «وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد [٢] ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرذ وملكتهم امرأة » فأشرق وجه أبى العباس .

٥ — ولقد كانت الخطابة مركبا ذلولا فى التعازى والتهانى، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهج درجات البشر ، ذكر الطبرى أنه لما ماتت الباقونة بنت المهدى جزع عليها جزعا لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد، فأكثر الناس فى التعازى فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة [٣] له إذ قال : « أعطاك الله ياأمير المؤمنين على مارزئت أجرا وأعقبك صبرا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ماصبر عليه مالا سبيل إلى رده ».وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون

---

(١) أم السفاح ريطة بنت عبيدالله بن عبدالله بن عبد المدان بن الديان الحارثى ولذا يقال له ابن الحارثيه .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقرى

حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ماكان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فمن الاول ماذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « ياأمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك. واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين ». ومن الثاني ماذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد ــ قبل غضبه عليه ــ فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بابن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سرك الله ياأمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعل هذه بهذه مثوبة على الصبر، وجزاء على الشكر » .

٦ ــ ولقد اتخذ ذوو الالسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الأمر والنهي يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما، «الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسنيّ ما اعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة : ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ماالبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيتك لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيم للاسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الاله تعالى ماأعظم ماخص القرن الذى أنت ناصره ، وسبحان الله أى نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره، فهل لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعة عند رعيتك ، فانما نالها بما أيدته من رأيك وتدبيرك ، وأسعدته من حسك وتقديرك .

ولقدصار الحسن بهذا وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .

وقيل للمهدى عن شبيب بن شيبة للايقاع به ، إن شبيبا يستعمل الكلام ويستعد له،فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعده المنبر وقال خذ فى مدح أمير المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال: « أيها الناس ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاأربعة الأسدالخادر،والبحر الزاخر،والقمر الباهر،والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبه منه بأسه ومضاءه،وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وأعطاءه ،وأماالقمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه،ثم نزل وهو يقول : —

وموقف مثل حدالسيف قمت به أحمى الذمار وترميني به الحدق
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا

فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ — وكثيرا ما كانت إحالة الرأى فى مهام الأمورعلى ألسنة ذوى

البصائر والعقول : تلبس الأسلوب الخطابي فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجوّد لفظه كما يمحص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة فى الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك فى هذا ما صدر عن المهدى وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى فى حرب خراسان وهو كثير. وقد سبق منه بعض ما كان من المهدى فى إبداء رأيه ووصايته لولى عهده موسى الهادى ، واليك بعض ما كان من موسى هذا فى الموضوع، وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختيار. قال « أيها المهدى لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلال فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضمرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها سترا، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدى فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق ما دتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ، والمهدى من قولهم فى حال غِرة ولباس أمنة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدى وفقه الله ألا يقيل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فان فعل بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدى فى مئونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ ـ ولم تقف الخطابه إبان ازدهارها فى هذا العصر أن تكون ذات باع يطول وقوة تجول فى نواحى الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تكاد تكون متحدة المدلول ولكنا عطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها فى المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لحمة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة علىّ بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول: « ياعلى إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى ، فانى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاراه[1] على مافى يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه فى السير ولا تساور فى المسير[2] ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا فى هذا العصر كثيرات كوصايا أبى جعفر المنصور لولى عهده المهدى وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولاه المأمون الرقة ومصر ومابينهما .

وأما النصائح فهى كالوصايا فى مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

---

(١) لاجه وخاصمه (٢) أى لاتحتد فيه .

تخلو من قيد الرابطة فى القرابة والسن ، ومثلها فى هذا العهد ماحدث من يزيد بن عمر بن هبيرة[١] ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور فقال له حدثنا فقال « ياأمير المؤمنين إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا « يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا » .

« وكثيرا ماوجهت النصائح فى هذا العصر توجيها طاما لفشو الحكمة فيه كقول مسلم بن قتيبة « لاتطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ، لاتطلبها إلى الكذاب فانه يقربها وهى بعيدة ويبعدها وهى قريبة ، ولا تطلبها إلى الأحمق فانه يريد أن ينفعك وهو يضرك ، ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فانه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح على العكس من الوصايا يغلب فيها الايجاز .

أما العظات فهى خلو من القيدين السالفين ، وإنما قيدها أن ترمى إلى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة بمختلف الطرق وشتى الأساليب ، كالذى رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعى للمنصور وهى من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك[٢] إذ دخل على الرشيد يوما ، وبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلة فلما أهوى بها إلى فيه ليشرب ، قال له ابن السماك « ياأمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت

---

(١) كان والى العراقين لمروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد الكوفى قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هنأك الله ، فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي ، قال فما اغترارك بملك قيمته بولة » فبكى هرون وانصرف ابن السماك .

تلك أهم النواحي التي توضح ماكان للخطابة في العصر العباسي الأول من أغراض يرمي إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفلون بها ويطيلون، وقلما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم جمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال .

الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا . أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتتبع رضوانه ويتجنب سخطه، فانما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله ، فان تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به ، «فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

هذا وإن فيما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبنا بها الكلام

على الأغراض ، لمرءاة ترينا أن الخطابة فى العصر العباسى الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لاتقل إن لم تزد عما كان لها فيه عهد الأمويين ؛ ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية فى بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمى ولبنى هاشم فى ميادين القول سبق لاينال . وأهم الطوابع التى تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما سلف هو مانسوقه الآن على سبيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع ديني لاتزال تعتز به وتستمد منه وهذا أمر ماكان لرجالها عنه فكاك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بنى أمية واجترائهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكمين العادلين، ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت فى خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت فى خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومَن أقدر من بنى هاشم فى دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا لآيه مستغلين فى شن الغارة على بنى أمية ومن كانوا لهم أنصارا ومشايعين ، وقد كانت الآيات تواتيهم كما يواتى الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم فى بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون » أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل ، والحمد لله الذى أفلج حجته وبعدا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفىء إرثا وجعلوا القرآن عضين [١] ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة [٢] وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » . وعلى وتيرتها كانت خطبة عبد الملك بن صالح فى أهل الشام وقد ذكرت بالنماذج .

٣ — وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة الأمويين ، خطب داود بن على فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم [٣] أما آن لراقدكم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، أغركم الامهال حتى حسبتموه الاهمال ، هيهات منكم وكيف بكم والسوط كفى [٤] والسيف مشهر :

حتى تبيد قبيـــلة فقبيلة ... ويعض كل مثقف بالهام [٥]

وتقوم ربات الخدور حواسرا ... يمسحن عرض ذوائب الايتام

وخطب صالح أخوه فقال « ياأعضاد النفاق وعبد الضلالة ، أغركم لين أساسى وطول إيناسى حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلول حد وفتور جد وخور قناة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

---

(١) جمع عضه ، أى فرقا من سحر وكهانة وشعر (٢) العشيرة الأقربين
(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المغفر

إذ قد استوبلتم العافية[1] فعندى فطام وفكاك وسيف يقد الهام وإنى أقول:

أغركم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرق
ومثلى إذا لم يجز أحسن سعيه تكلم نعماه بفيها فتنطق
لعمرى لقد فاحشتنى فغلبتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ — السهولة البادية فى وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع بقائها جزلة الأسلوب قوية الأداء، نتيجة للحضارة التى صقلت اللغة كما صقلت كل شىء، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود، والتراكيب العسيرة بها نادرة الاستعمال، ثم خطت نحو مزاوجة الجمل وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات، وإن فيما قرأت لها الشواهد على ماذكرنا كثيرة كخطبة شبيب فى المديح، على أنى أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان مقدورا للنثر بعده من صناعات. دخل رجل على المأمون يتظلم من عامل له فقال: «يا أمير المؤمنين، ماترك لى فضة إلا فضها، ولا ذهبا إلا ذهب به، ولا غلة إلا غلها[2]، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا علقا إلا علقه، ولا عرضا إلا عرض له، ولا ماشية إلا امتشها[3]، ولا جليلا إلا أجلاه،[4] ولا دقيقا إلا دقه[5]».

٥ ـ ظهورها على ألسنة الموالى بجانب ظهورها على ألسنة العرب وذلك لما صار إليه الفرس من نباهة الشأن وتولى كثير منهم أزمة الحكم مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبى مسلم

(١) عددتموها وبيلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ما فى ضرعها (٤) ، فعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكي والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر فى خطب هؤلاء وأمثالهم من التعمل البادى فى الصياغة ، والخنوع الممعن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لا تكاد تجد له من من مثيل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين ـ لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الاتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بنى مروان فى الاندلس والاغالبة فى أفريقية (تونس) ـ وكلاهما يود لهم البقاء ـ إلى أن ضعف أمر بنى العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدى الخدم الاتراك من السلطة الدنيويه التى كانت تجعلهم مرغوبين مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرهبة منه، تقطعت بينه وبين الناس أواصر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئكم الخدم فى المقدرة على الكلام وفى فهم مايلقى إليهم من بيان،ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالى الفرس المتعربين، وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ماكانت تتناول الخطابة فى غير الناحية الدينية من أغراض .

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئكم الخدم يسمحون للخلفاء فيها بكل مايودون ، فبقوا يزاولون الخطب فى الجمع والأعياد، ويخرجون إلى هذه المواسم كما كان أسلافهم فى مواكب الأبهة والجلال[1] فبقى للخطب الدينية فى هذا العصر على ألسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة والعمال شبه ما كان لها فى سابقه من شأن واعتبار ، ومما ساعد على هذا أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على ماللعربية من مكانة فى التخاطب العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ أى قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون فى تصويرها ماشاء لهم البيان كما حدث من البحترى فى رائيته التى يقول فيها :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم　　وبسنة الله الرضية تفطر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل فى خروجه إلى المسجد ليصلى بالناس أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة فى هذا العيد وستأتى فى نماذج الشعر بعد .

وأنه كان كأسلافه الأول يجالس فى بيته العلماء والأدباء .

ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ؛ بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان قد بقى لهم فى سابقه من نفوذ دينى فحالوا بينهم وبين الظهور فى المواكب للناس حتى ما كان للخليفة فى الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لنفقاته جعله معز الدولة للمستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم (١) فقطع بذلك ، المدد الروحى الذى كان للخطابة من كلام الخلفاء . ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، فقضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند فى بغداد بعد الخلفاء، وفى سائر الحواضر بعد الولاة والعمال، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب.

ثم جاء العصر الرابع فجرى الامر فيه على ما كان فى الثالث من بقاء الحجر على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء، ولقد اشتهر من خطباء الحواضر فى العصرين رجال كانوا ذوى مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا فى هذه الناحية غناء عظيما وصاروا امدادا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة فى غير حواضرهم وفى سائر المدن .وأمهات

---

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفى الذى لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كما تقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة بجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان عمامته فى عنقه إلى حيث اعتقل ، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له .

القرى،حتى دونت خطب بعضهم فى دواوين [1] غير أن هؤلاء لقلتهم وللضعف الذى أخذ يحل بالعربية فى العصر الأخير، لم يصدوا عن الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول، فقد سار القائمون بها فى طريق الاضمحلال مسرعين،وكان أول ما بدا عليهم من ضعف،عجزهم جملة عن الارتجال،ثم عجزهم عن المشافهة بعد إعداد، فكانوا يدونون خطبهم ثم يلقونها على المنابر من أوراق، ولشد ما كان الخطب فادحا حينما عجزوا عن تحضيرها بأنفسهم،وأخذوا يكتبون خطب غيرهم، فيلقونها غير ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال،حتى كان من وراء ذلك أن هبت جماعات تضع خطبا لكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد الكلام آخر العصر من أسجاع، ولا يلمون فيها من نواحى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بشىء ذى بال،على نحو ما كنا نسمع من جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث، وما نسمع الآن من مجموعهم فى هذا الوقت المقيم الذى حاد فيه بعض الخطباء الحديثين عما كان عليه إجماع سابقيهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار.

---

(١) من هؤلاء على حسب سنى وفاتهم فى العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببيروت. والخطيب البغدادى الحافظ أبو بكر أحمد بن على صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ . والخطيب التبريزى يحيى بن على الشيبانى المتوفى سنة ٥٠٢ . والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢ وزكى الدين الدمشقى خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبين سنة ٥٦٤ . ثم خطيب الفسطاط إبراهيم بن منصور العراقى المتوفى سنة ٦١٣

الـــــكتابة

قلنا إن لنثر اللغة جانبا أدبياهو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر علميا هو لغة التدوين والتصنيف ؛ وإننا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر ، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة ؛ وآن أن نشرع فى الكلام على الكتابة جريا على مارسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله فى الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها فى هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثوابا عدة ذات تغاير فى الاشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه .

فكانت منها الكتابة الديوانية وهى التى يتولاها رجال الدواوين على النحو الفنى الذى نراه من كتبة الوزارات الآن . منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى مايشمل عدد المصالح العامة فى تصريف الأمور ، وهى مع اشتراكها جميعا فى ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنيا ، مختلفة بعضها عن بعض فى نوع الكتابة تبعا لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان ، والنظام الكتابى الذى يقتضى إنجازها فيه ، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيرا ماتأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذقها كتبته ولايلم بها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين . غير أن الكتابة فيها جميعا ماعدا ديوان الرسائل والتوقيعات لاتحتاج بعد معرفة فنيته الى روية واجهاد ، إذ

لاتعدو القيد فى الدفاتر أوالتحرير من غير مشقة فى الانشاء فهى خلو من المسحة الأدبية للغة كما هى الآن . أما فى الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع، تتسامى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ماينشئه الكتاب من رسائل على نمط مافى ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، ومايصورونه من القصص والمقامات ، ثم مايدونه العلماء فى التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العامية من فنية خاضعة للطابع العلمى وان كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الاخوانية، وكتابة القصص والمقامات فانها ذات جانب أدبى رفيع. جعلها نظيرة مافى ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة مافى غيره من سائر الدواوين

ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها، صارت الكتابة الانشائية فى ديوان الرسائل والتوقيعات، وخارجه فى الرسائل الاخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما فى الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عنها البعد كله ، أما الكتابة العلمية فانهما يلمان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذى يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير فى التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بافاضة فى الشعر إن شاء الله .

الكتابة الانشائيه

أولا — نماذجها

أ — فى الرسائل والتوقيعات

١ — لماخرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولك عهد الله وذمته وميثاقه، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إن تبت من قبل أن أقدر عليك، أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوانك، ومن بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه ، فأن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلىّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ — فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا، وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والامام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء؟ وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم (١) وبنو ابنته فاطمة فى الاسلام من بينكم : فأنا أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا، لم تلدنى العجم ولم تعرق فىَّ أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبى طالب ؛ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين فى الاسلام الحسن

---

(١) ينتهى نسبها إلى كعب بن لؤى وكانت زوجا لعبد المطلب بن هاشم فأولدها عبد الله أبا رسول الله وأبا طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف ثم الزبير وعبد الكعبة

والحسين سيدا شباب أهل الجنة (١)؛ ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين (٢)، فمازال الله يختار لي حتى اختار لي في النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا؛ فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن آؤمنك على نفسك وولدك وكل ماأصبته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد؛ فقد علمت مايلزمك في ذلك؛ فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي؛ فأي الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام (٣).

٣ — فكتب إليه المنصور — بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله

---

(١) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن علي، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

(٢) يرجع علي إلى هاشم من قبل أبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه علي بن أبي طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة أمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد ابن عمر بن هبيرة والى العراقين لمروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك، فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام «واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك [1] فأما ماذكرت من النساء وقراباتهن، فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب، فان الله لم يهد أحدا من ولدها للاسلام ، ولو فعل ، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الاخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غدا، ولكن الله أبى ذلك فقال « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فأما ماذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة ، وأما ماذكرت من أنك ابن رسول الله، فان الله عز وجل أبى ذلك فقال « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنكم بنو ابنته وانها

---

(١) المجيبان حمزة والعباس، والكافران أبو لهب وأبو طالب، والثانى أهون أهل النار عذابا .

لقرابة قريبة. غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف تورث الامامة من قبلها؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالصلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة والزبير، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج الى المدينة، فدفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فأن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك ان الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، وأنك أوسط بني هاشم نسبا وخيرأما وأبا فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرا وقد مت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، فخرت على ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من على بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكمين

وأعطاها عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن علي، على ابن مرجانة [١]؛ فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى الشام [٢]؛ ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم، وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة؛ وظننت أنا لما ذكرنا من فضل عليّ أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر؛ كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر عليه، وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده؛ فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث: ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب وعقيل جوعاً؛ أو يلحسا جفان عتبة وشيبة [٣] فأذهب

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الأقتاب جمع قتب هو الرحل على قدر السنام، والأوطئة جمع وطاء وهو مايقابل الغطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس فلا يقتله فانه أخرج كارها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أسرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم، ثم فدى عقيلا يوم بدر(١) فقد مناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ماعجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ — وكتب عبد الله بن المقفع «المتوفى سنة ١٤٣» إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسي الأول « طريقة الترسل » فى التعريف بكتاب كليلة ودمنة، فكان مما كتب فى أول باب عرض الكتاب:

هذا كتاب كليلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ماوجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا . ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج ماعندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا. فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ماصار اليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ماهو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم، وكان كالرجل الذى لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر

فكانا من الآكلين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا، أما طالب ففدى نفسه .

معيشته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

٥ ـ ومما كتب فى الدرة اليتيمة وهى رسالة دونها للخليفة المنصور فى وجوب طاعة الناس لبنى هاشم وبسميها الجاحظ الهاشمية ، قوله على ماذكر أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ فى كتابه المنثور والمنظوم (١) .

فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى معدنه وفى سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يبتغى فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لنصيبا ، وإن له لمستراحا حين يستوفيهم أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى اليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفا وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيبا لجهنم من أجزائها المقسومة لأبوابها وحطبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين فى معدنه ، فان أعظم حقوق الناس منزلة ، وآكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة وامام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمهيمن عليهما وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتنبيه عنها أو النقل منها فى بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها فى بيروت فهى الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لاتتفق وماتذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها فى كثير من الكتب وهى السلطان ثم الصديق .

بشيراً ونذيراً،وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا،ثم هو باعثه يوم القيامة مقاما محمودا ؛ شرع الله له دينه وأتم به نوره ، ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الكفر،وخوله الشفاعة وجعله فى الرفيق الاعلى ﷺ

٦ ـ ومما كتب فى رسالة الصحابة وهى رسالة دونها للخليفة المنصور أيضا،لتكون دستورا فيما يجب على كل ذى مصاحبة للسلطان فى عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به ، قوله من أولها :

أما بعد،أصلح الله أمير المؤمنين،وأتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة ، فان أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه ، المسألة والاستماع، كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء ، ويستوثق لنفسه بالحجة،ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص على أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدّعة ، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر ، فى الامتناع أن يجترىء عليهم أحد برأى أو خبر مع تسليط الذئاب؛ وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله ، ومكن له فى الأرض وآتاه ملكها وخزائنها،من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش (١) والتأثل والاخلاء،وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه ، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه،وذلك من أبين علامات السعادة وأبجح العوامل على الخير.وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الاحاديث،وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته ، أثنى على الله عز وجل بنعمته،ثم سلا عما كان فيه،وعرف أن الموت وما بعده

---

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلا

هو أولى فقال «توفني مسلما وألحقني بالصالحين». وفى الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأى على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى اليه، ولا يزيد صاحب الرأى على أن يكون مخبرا أو مذكرا، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله.

٨٤٧ — ومما كتب فى الأدب الكبير وقد جعل بابه الأول فى السلطان والثانى فى الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم. قوله فى أول الباب الاول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها فى ساعات دعته وشهوته، وإنما الرأى له والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه. فاذا تقلدت شيئا من الأعمال، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلا مغتبطا به محافظا عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلا كارها فالكاره عامل فى سخرة إما الملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبابا يفتتحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فأن الراد له محمود والقابل له معيب

ثم قوله فى آخر الباب الثانى يصف صاحبا له:

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى، وكان رأس

ماأعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه، فلا يدعوه إلى مئونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة،فلا يقدم إلا على ثقة أومنفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذ القائلين ، وكان يرى متضاعفامستضعفا.فاذاجاءالجدفهو الليث عاديا ، وكان لايدخل فى دعوى ولايشترك فى مراء ولا يدلى بحجة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لايلوم أحداعلى ماقد يكون العذر فى مثله حتى يعلم مااعتذاره ، وكان لايشكو وجعا إلا الى من يرجو عنده البرء ، ولايصحب الا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لايتبرم ولايتسخط،ولايتشهى ولايتشكى ، ولاينتقم من المولى ولايغفل عن العدو ، ولايخص نفسه دون اخوانه بشىء من اهتمامه بحياته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقت ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

٩ ـ ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منثورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة:

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين،ووفق للاخذ عن الحكماء ولاعليه أن يزداد، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولاغامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق اليه،فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم، خصال سبع . الايثار بالمحبة،والمبالغة فى الطلب،والتثبت فى الاختيار،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعى، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولا وعملا .

١٠ ـ وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة .

أما بعد فان من قضى الحوائج لاخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لالهم ، والمعروف إذا وضع عنـد من لايشكره فهو زرع لابد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت اليك ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة: أول مافيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الايادى قبلنا.

١١ ـ وكتب الى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخبره .

كان من خبرى بعدك أنى قدمت بلد كذا فتهيأ لى بعض ماشخصت له، والمحمود على ذلك الله عز وجل، وأنا إلى أن يأتينى خبرك محتاج ، فأما جملة خبرى فى فراقك: فقلبى مكة كل ماسواك حرام فيها .

١٢ ـ وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لكم فى الابنة المستفادة وجعلها لكم زينا وأجرى لكم بها خيرا . فلا تكرهها فانهن الأمهات والأخوات والعمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ ـ وكتب يعزى صديقا عن بنت له

جدد الله لك من هبته مايكون خلفا لك عما رزئته ، وعوضا من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف مارزأك منها فما أقل كثير الدنيا فى قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ ـ وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه فأنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخير وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ ـ وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنىء بمولود .

أما بعد فانه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشتد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ ـ وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فان هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحلك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سريا فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ ـ وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فانك يانصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلها

وطيب مرتعها، وما فى خلافها من الندم والخسارة . وإن طالت مدة الله بك، فانه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك ، فان الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك منى فى مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على انقاذك والانتياش لك[1] من خطئك منى ، فبأى أول أو آخر أو سلطة أو إمرأة إقدامك يانصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولى دونه ماولاه الله، وتريد أن تبيت آمنا مطمئنا أو وادعا ساكنا أو هادئا ، فو عالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة[2]، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل، فأن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة فى الأرض وفسادا كبيرا ، أما لأطأن بمن معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك[3] من أدانى البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس، ومن لفظه بلده ونفته وعشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ ــ وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة ،

(١) انتاشه أنقذه (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لاهل الريب ، وأية هاتين كانت منك محلة النكر بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا مايلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الاعتذار والانذار ، وعلى حسب ماأقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والاضاعه والسلام .

١٩ — وكتب إلى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز فى تقصيره بنفسه يقول :

قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حطك عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت من قوة الأمل معتاضا شدة الوجل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الامن والكرامة ، وصرت معرضا للرحمة بعد ماا كتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا ... ببر فقصر عن حمله
ولم تره قابلا للجميل ... ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فان الهوان ... دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنابك ، وإضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالأقلام ، وفى كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم وعوض منك وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ — وكتب ابراهيم بن العباس الصولى الى ذى نعمة يتوصل : لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، فرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المئونة، ومرة أكتب كتاب الراجع منك الى الثقة والمعتمد منك على المقيل، لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك، فانا لانعرف الا نعمتك ولا نجد للحياة طعما إلا في ظلك، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خساسة وذلا، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لاتعرف حرا قعد به دهره إلا سبقت مسألته بالعطية، وصنت وجهه عن الطلب والذلة .

٢١ . وكتب أبو عثمان عمرو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسي الثانى «طريقة الازدواج» من رسالة فى مدح التجار وذم عمل السلطان، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول :

وهذا الكلام لايزال ينجم من حشوة أتباع السلطان[1] فأما عليتهم ومصاصهم[2] وذوو البصائر والتمييز منهم، ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير، وجرى فيه الحياء، وأحكمته التجارب فعرف العواقب، وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل، فانهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أورع الناس أبدا وأهنؤهم عيشا وآمنهم سربا، لأنهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم، يرغب اليهم أهل الحاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات[3]، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم، ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته، فان أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خول

---

(١) توابع البطانة (٢) مصاص كل شيء خالصه (٣) السلع

مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هى حلت بهم وكثيرا ماتحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لايميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قدنال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولامنة يعتدبها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قداسترقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنيعة وطوق عنقه الامتنان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ — ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب — نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلادالغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشى ظرفاوإناءشحن مزاحا ، إن شئت كان أعيا من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله وبناسك فاتك وناطق أخرس : ومن لك بطبيب أعرابى ورومى هندى وفارسى يونانى ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشىء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فمارأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تنقل فى حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لاينام الابنومك ولاينطق إلا بما تهوى ، آمن من فى الأرض وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة . ولا أعلم جارا آمن، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع، ولاصاحبا أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالا ولا إبراما، ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب، ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ، ولا أعم بيانا ولا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا، ولا أوجد فى كل إبان من كتاب ، ولا أعلم نتاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والأمم البائدة مايجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا، وورده خمسا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذى لايطريك والصديق الذى لايقليك ، والرفيق الذى لايملك والمستمتع الذى لايستزيدك والجار الذى لايستبطئك والصاحب الذى لايريد استخراج ماعندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وبجبح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر، وهو المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة،

وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقا منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل مايقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر فى كتاب لايزال لهم فيه ازدياد فى تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة[1] وابتداء إنعام؛ ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك[2] مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الاصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ماتشتهيه، لقد كان له فى ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن، وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يمل لأنه وان كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة فى خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير.

٢٣ — ومن كلامه فى محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه اليه الاستطراد فى مقدمة كتابه البخلاء.

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فانه فى بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع، وشبه بالأمة

---

(١) رب الصنيعة تربيتها. (٢) المارة جماعة المارين

اللكعاء[١] وبالحدث الضرع[٢] كذلك ؛ فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؛ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطلاق وبطليق . وقد ضحك النبى صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ؛ وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا[٣] وهو مكفهر أبدا وهو كريه الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار ؛ متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد ؛ صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ؛ ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ؛ ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشىء الذى جعل له الضحك ؛ صار المزح جدا والضحك وقارا .

---

(١) اللئيمة الحمقاء (٢) المستكين (٣) كريه الوجه .

٢٤ — وكتب إلى الفتح بن خاقان فى يوم عيد مهنئا:

أخرتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ويعمر ما أخلته العوائق منى، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يحب ويحب له، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يريه فى مسرة نقصا ولا يقطع عنه مزيدا، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون الغير عنه وعن حظى منه .

٢٥ ـ وكتب إلى قليب المغربى معاتبا:

والله يا قليب لولا أن كبدى فى هواك مقروحة، وروحى بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة، وأرجو الله تعالى أن يديل صبرى من جفائك، فيردك إلى مودتى وأنف القلى راغم، فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

٢٦ ـ وكتب مستنجزا عدة طال مطلها

أما بعد فقد رسفنا فى قيود مواعيدك، وطال مقامنا فى سجون مطلك، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها، بنعم منك مثمرة أو لا مريحه.

٢٧ ـ وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ فى الشكر :

من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إياها، فان شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى اليه، ومدى يوقف

عنده،وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ،فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ،وأين يبلغ جهد المجتهد.

٢٨ـ وكتب أبو الحسن على بن العباس الرومى المتوفى سنة ٢٨٢ مستعطفا

ترفع عن ظلمى إن كنت بريئا،وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا، ووالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ،وألتمس الإقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولا وأزداد تذللا ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها،وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك،ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك.

٢٩ ـ وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عليل يرجو شفاءه:

أذن الله فى شفائك،وتلقى داءك بدوائك ،ومسح بيد العافية عليك ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك

٣٠ ـ وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف:

لن تكسب «أعزك الله» المحامد وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال،وبذل الجاه والمال.ولو كانت المكارم تنال بغير مئونة لاشترك فيها السفل والأحرار،وتساهمها الوضعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها فخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ ـ وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة

الكتابية فى العصر العباسى الثالث «السجع» إلى عضد الدولة فى انقراض العلوم بتملك الجهلة الظالمين ونمائها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله

وقد يعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها [1] والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ، الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء ، فان كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويجتث أصولها اجتثاثا ، وليس عندى الخطب فى جميع ذلك يقارب مايولده تسلط ملك جاهل تطول مدته وتتسع قدرته ، فان البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهى نور [2] نوافر ممن لا قت حتى تصير إليه . وشرد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزرهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

٣٢ — وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن وتداد خورشد ، عند استعصائه عليه ، رسالة قامت فى رد غوايته مقام الكتائب يقول فيها على ماذكر الثعالبى فى اليتيمه :

كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

---

(١) جمع مرة وهى قوة الحبل وانتقاضها فكها (٢) جمع نوار وهى البقرة الوحشية

وإعراض عنك ، فانك تدلى بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول [١] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق كل مايرعى لك ، لاجرم انى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك . فقد يعزب العقل ثم يثوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء . وكما أتيت من إساءتك بما لم يحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ماركبت واخترت مااخترت ، فلا عجب أن تتنبه انتباهة تبصر ، فيها قبيح ماصنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الابطاء والمماطلة ماصلح وعلى الاستيناء [٢] والمطاولة ماأمكن ، طمعا فى إنابتك وتحكيما لحسن الظن فيك ، فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار وأرادفه من إنذار ، احتجاجا عليك واستدراجا لك ، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك ، فانه على كل شىء قدير وبالاجابة جدير

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا

---

(١) الغلول كالاغلال الخيانة   (٢) الانتظار

كنت كذلك فقد عرفت حاليها وحلبت شطريها ، فنشدتك الله الماصدقت عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ماصرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين، يقياك المتالف ويؤمنك المخاوف،ويكنفك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد الضعة وأيسرت بعدالعسرة وأثريت بعدالمتربة واتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت بك الآمال وصرت تكاثر ويكاثر بك وتشير ويشار إليك ويذكر على المنابر اسمك وفى المحاضر ذكرك ، ففيم الآن أنت من الأمر وماالعوض عما عدوت والخلف مما وصفت ، وماستفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفضت منها كفك وغمست فى خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك فهو والله أكثف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود . تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى إليك فستذكرها : والمس جسدك وانظر هل يحس ،واجسس عرقك هل ينبض،وفتش ماانحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك؟وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت سريع أوموت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله.

٣٣ - وكتب الى أبى عبد الله الطبرى فى الشوق

كتابى اليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق اليك ولم يرنق صفوها

النزوع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة؛ وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة . فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح وفى سعيى بنجاح . لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت كتابك جعلني الله فداءك فامتلأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك . وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك وما ألقى على بصرى »

٣٥ — وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ الملقب بالصاحب لطول ما صاحبه ، جوابا عن كتابه إليه فى وصف البحر يقول .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ماشاهد من عجائبه وعاين من مراكبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها . وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنيه كونى عندذلك بحضرته وحصولى على مساعدته ،ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندى أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله ، كما لا شىء أبلغ فى مفاخره وأنفس فى جواهره من وصف الاستاذ له ، فانى قرأت منه الماء السلسال لا الزلال [١] والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكر سعة صدره ،ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وثمد الايكثر عن الترشف [١]

وكم من جبال جبت تشهد أنك الجبـــال وبحر شاهد أنك البحر

٣٥ — وكتب الى صديق أهدى إليه مصحفا فأجاد .نعت القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيها ماهو أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتحفة الشيخ ، إذ أهدى مالا تشاكله النعم ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ودليله طبع دون معارضته على الشفاه وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان وبقى ما بقى الملوان . لائح سراجه واضح منهاجه منير دليله عميق تأويله

---

(١) الزلال الصافى السهل الاساغة، والسلسال الصافى الذى لا ينقطع فهو يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والثمد الماء القليل غير المتصل، ولا يكثر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقصم كل شيطان مريد، ويذل كل جبار عنيد ،وفضائل القرآن لاتحصى في ألف قرآن . فأصف الخط الذى بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع صحة الاقسام وزاد فى نخوة الاقلام،[1] بل أصفه بترك الوصف، فأخباره آثاره وعينه قراره [2] وحقا أقول إنى لاأحسب أحداماخلاالملوك جمع من المصاحف ما جمعت،وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة [3] ، بل زيادة الحج على العمره

لقد أهديتـــه علقا نفيسا وما يهدى النفيس سوى النفيس

٣١ ـ وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ إلى الصاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه،ويثنى عليه فقال :

أنا أعتذر إلى سيدى «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بعذر اذا تأمله حق تأمله،وعرضه على نقده وتمييزه،وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره ، علم أنى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدى وإن أخللت ببادى مسلكى،وهو أنى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظبا عليها مكبا،ومراخيا بين أوقاتها مغبا ، لأتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لى أن الاجمام أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على فى الحالين محروس النواحى والجوانب محمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأتنسم أحواله وأسكن إلى اطرادهـا

---

(١) فى نخوها (٢) أي ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة على الجبهة

والتئامها وابتهج بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب مرقبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه لم يستوف بعد حظه : ولم يستوعب قسطه فأن للدنيا مواعيد فيه لا بد أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧ ـ ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء أبيهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة فى شدة الاحتمال والصبر على الأدلال ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب فى نعمة حازها حياز وارث لها ، لم يكدح فى تأثيلها ولا مسه النصب فى تثميرها ولا اهتدى إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعى انتقالها ، ومن ألزم اللوازم فى حكم الرعاية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها وأن نعذره عن هفوة قد شاركناه فى إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه محروسة ، والبقية من ماله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة وأن يتحدث الناس بأن سيدى الأمير أصاب غرض الحزم فى القبض عليه ثم طبق مفصل الكرم فى التجاوز عنه.

٣٨ ـ وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى عظيم يخطب اليه كريمته جاء فيها:

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا فى الولد واللحمة والمال والنعمة، لكفاه وأجزاه وأغناه عن كل ماسواه ، حتى إنه لو خطب الى زاهد

لوجب عليه أن يرغب أو الى ممتاص[1] للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الاحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعى الأجابة وارتفعت دواعى المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والدى «أيدهما الله» تعالى يسومانى التأهل منذ سنين كثيرة ، فأحمل نفسى على التقاعس عما آثراه مع ماافترض على من طاعتهما. اشتطاطا منى فى شرائط أحببت أن تجتمع لى فى الخبيئة[2] التى أواصلها، وقلما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجمل أمره وأظهر فضله . وقد دعانى بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأكابر وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائطى عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله فى جهتك الجليلة وجمعها إلى فى منازلك المصونة ، بعثتنى البواعث وحفزتنى الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك فلانة ؛ على أن أكون لها كالجفن الواقى لمقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد المطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاضد لأخيه، فان رأيت ياسيدى أن تتأمل ماكتبت به من هذه الجملة وتسمع من موصلها ماتحمله عنى من تفصيلها وتتوخى بأجابتى إلى ماسألت تحقيق ظنى وتصديق أملى ، فعلت إن شاء الله

٣٩ ـ وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ بعد إبلاله[3] من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بشفائه

كتابى وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبروز

---

(١) عاص ممتنع (٢) المخبوءة (٣) شفائه

البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة وهى مفارق لا يشتاق اليه وودعتنى وهى مودع لا يبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجليها ونعمة يننيلها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدى بالتسلية واليوم بالتهنئة . فلم يكاتبنى فى أيام البرحاء بأنها غمته ولا فى أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبي ، فقلت : أما إخلاله بالأولى فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفر عليّ مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوفة من كل بيئة به ، فان كنت أحسنت الاعتذار عن سيدى فليعرف لى حق الاحسان وليكتب إلىّ بالاستحسان ؛ وإن كنت أسأت فليخبرنى بعذره فانه أعرف مني بسره وليرض منى بأنى حاربت عنه قلبي واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبي ، وقلت يانفس اعذرى أخاك وخذى منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ — وكتب إلى تلميذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجه:

إن كنت « أعزك الله » لا ترانا موضعا للزيارة فنحن فى موضع الاستزارة ؛ وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ماكان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه ؛ وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلا صائبا وفى القياس واجباً .

٤١ — وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى

المتوفى سنة ٣٩٨ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » فى العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمى الذى عاداه بعد مناظرته إياه يقول :ـ

الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتى ووصف أحواله صفتى ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهى أمانى فأن وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان وان طالت فستنفد وإن لم تصب فكأن قد ؛ فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ولا يعدمها فى جنسه ؛ والشامت إن أفلت فليس يفوت وان لم يمت فسوف يموت ، وما أقبح الشماتة بمن أمن الامانة افكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الأخيار وظمآن شربه الأحرار[1] وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله وهذا الفاضل «شفاه الله» وان ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطناه ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينقاد وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته والتحزن لمرضته ، وقاه الله المكروه بحوله ووقانى سماع السوء فيه بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ ـ وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزيه ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغى وقد مات الميت فايحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس فأنت اليوم

---

(١) الطعم بالكسر مايطعم، والشرب كذلك مايشرب .

غيرك بالأمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمه الله» وكيلك تضحك ويبكى لك، وقد مولك بما ألف فى سراه وسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره. وسيهجم الشيطان عودك فان استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب (١) والعيش بين الاقداح والقداح (١) ، ولولا الاستعمال لما أريد المال ؛ فان أطعتهم فاليوم فى الشراب وغدا فى الخراب، واليوم واطربا للكاس وغدا واحربا من الافلاس . يامولاى ، ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع فى الناى هو الآن فى الآذان زمر وغدا فى الأبواب سمر (٣) والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار فى هذا العمل بضاعة . فان لم يجد الشيطان مغمزا فى عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء فى دنياك بوزرك وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك لا . ولكن قصدا بين الطريقين وميلا عن الفريقين لامنع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وضير عاجل وإنما يبخل المرء خيفة ماهو فيه فليكن لله فى مالك قسط وللمروءة قسم . صل الرحم ماستطعت ، وقدر اذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩

---

(١) الحباب بالفتح فقاقيع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الأقداح جمع قدح بالتحريك وهي الكأس، والقداح جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم للميسر والصيد والأول المراد . (٣) للمصادرة استيفاء للديون

يهنىء بقدوم من سفر :

أهنىء سيدى ونفسى تطيب بما يسر الله من قدومه سالما ، وأشكر الله على ذلك شكرا دائما . جعل الله قدومك مقرونا بالخيرة التامة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرونة بغيبتك وأوبة النعم موصولة بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ما قارن به سفرك من السلامة ، وهنأك بإيابك وبلغك غاية محابك . مازلت بالنبأ معك مسافرا وباتصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سرورى بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ إمام الطريقة الكتابية فى العصر العباسى الرابع « استخدام البديع » إلى الرئيس أبى الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب فى التعارف قبل اللقاء : —

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد
هم ذكرونى والمهامة بيننا كما ارفض غيث فى تهامة فى نجد

لو أخذت فى وصف شغفى بمناقب سيدنا « أطال الله بقاءه ، وأدام علاءه ، وحرس نعماءه ، وكبت حساده وأعداءه » ، وما أنا بصدده من مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكنت بمثابة المغترين فى محاولة عد رمل يبرين . لكننى راج أن أحظى من ألمعيته الثاقبة وبصيرته الصائبة بما يمثل له عقيدتى ويطلعه على مخيله مودتى ، وما أملك فى مقابلة مفاتحته التى أخلصت له إيجاب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذى أتلو صحائفه والدعاء الذى أقيم فى كل وقت وظائفه والله سبحانه يحسن توفيقى لما

يشيد مبانى المودة التى أعتدها أفضل مقانى العدة . ثم إنى لفرط اللهج باستملاء فضائله النيرة، واستطلاع محاسنه المسيرة، أسائل عن خصائصه الركبان وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألفيته مواليا مغاليا وداعية إليه وداعيا فازددت كلفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته عنه، واستدللت على كمال سيدنا باستخلاص شكر مثله وتحققت وفور أفضاله وفضله ، فافتتحت المكاتبة بتأدية هذه الشهادة، واستمداد سنة المواصلة المعتادة والتكرمة التى تقتضيها بواعث السيادة ، ولرأيه فى الوقوف على ما كتبته والتطول فيه بما توجبه أريحته علوه ، إن شاء الله تعالى .

٤٥ ـ وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ فى التهنئة بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالى وصانه من صروف الليالى، من سفرته الميمونة التى أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهى ما كنت بصدده من الجزع لغيبته، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغانيه والطلوع على بلدة جر فيها ذيول أمانيه ، وسألته جلت قدرته أن يجعل ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار، موصولا بطول العمر والبقاء مقرونا بدوام العز والعلاء، إنه سميع الدعاء .

٤٦ ـ وكتب القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذى أفرط فى استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ؛ عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك فى شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جلباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعى مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفض مسوفها [1] ، وسعادة بالخلافة التى عدق إليها أمرها [2] وأوضح سرها وملأ سرائرها وسريرها، وأطلع شمسها وقمرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلالا محاسنها [3] وتشرف درجاتها وتتضاعف سعاداتها، والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على مأهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لا يهي ؛ وسياقة الدوام فى سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المنن ، المسئول فى الانهاض لما نهضت فيه النية وقصرت عنه المنن [4] . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره، عارفين نبل قدره وجليل فخره مشيدين بجميل ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تتهادى الالسن من مستطاب نشره، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره غير مستيمنين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه [5] بالمقامات الشريفة من آثار سلفه ومآثرهم، ومأثور مكارمهم ومفاخرهم،

---

(١) لا ينثر مشمومها (٢) عدق جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألأ
(٤) المنن الأولى بالكسر النعم والمنن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم عن أهل القبلة ، وسَدادهم فى الأمور وسِدادهم الثغور [١] وسيادتهم الجمهور ، واستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإخمادهم نيران الخطوب المضطرمة، وكفهم سيول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة العلوية التى اشتهر بها منهم الأكابر، وورثها كابر عن كابر ،وحافظوا منها على سيرة معروف لاينسخ، وعقد صفاء لا يفسخ، وسريرة صدق تستقر فى الضمائر وترسخ، وتتوضح بها غرة فى جباه السبق وتشدخ [٢] ، وتستهدى عند ايراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ، من الدعوات الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح، المتوضحة عن مثل فلق الصبح ، مايتهلل لمساعيه بالميامن المستهلة، ولمراميه بالاصابة المتصلة؛ بينه وبين هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللاحب [٣] واستدعينا به إجابته التى تتلقى بالمراحب ، وأعلمناه أن تمادى الأيام دون المراسلة وتطاولها ، وتنقل الأحوال والدول وتناقلها، لا يزيد مودته إلا استحكام معاقد، وانتظام عقائد ، ووفاء مواعد، وصفاء موارد ، وأنه لاتباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق المسافات القواصى مابين النيات القواصد ، فلما تأخرت الاجابة تقدمت الاسترابة ،وتناجت الظنون المعتلجة [٤] وتراجعت الآراء المختلجة [٥] بأن الرسول عاقته دون المقصد عوائق، وتقسمته من الاحداث دون الطريق طرائق ،فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ،ولا أسعد السعى بطروق جنابه، الذى تدال

---

(١) السداد بالفتح الاصابة وبالكسر الكفاية (٢) تنتشر سفلا (٣) الواضح
(٤) المضطرمة (٥) المضطربة

السعادة ويجني به . وإلا فلو أنه أم له،بلغ ماأمله،ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض ، فجدنا هذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بمايعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمنا أن يكتمه حتى عن لسانه،وأن يطويه حتى عن جنانه،وأن يتمسك بالأمر النبوى فى استعانته على أمره بكتمانه ، فمن حسن الحزم سوء الظن،وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت فى السجن ، وقد استلزمنا المرتهن لما استعظمنا الرهن،وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن ، ونحن تحببنا بمايعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال، وبما يبين به عن دلالة الادلال،وبما يرحب بعودته مجال الجمال،والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار،وسعادة لاتتصرف فى تصريفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه فى فاتحة الورد وعاقبة الاصـــدار،وعز لايزال منه متوقلا(١) فى درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعـالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الأثير الموصلي المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراقى حديث العهد بصداقته يستهديه رطبا فقال

هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى تزف كلمة زفيف الأوراق(٢) وتسجع سجع ذوات الاطواق،وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرح الشوق ماكان عن فراق غير بعيد ، وود

(١) صاعدا (٢) تسرع فى صوت

استجدت حلته واللذة مقترنه بكل شيء جديد ، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا،وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لايخشى جنة ولاناسا ، وقد قيل إن للموده طعما كما أن لها وسما،وإن ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما . وإنى لأجد لمودة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولايمل استطعامها . وقد أذكرتني الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها ، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها ، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار،وفرق بين مايغترس بالأرض ومايغترس بالقلب فى شرف الثمار ، فلا ينظر سيدنا على فى هذا التمثيل،فلربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل.

ب — فى القصص والمقامات (١)

سنكتفى فى هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لامام الكتابة فيه .

١ — قال ابن المقفع فى باب عرضه كتاب كليلة ودمنة وهو من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر،ويأخذ بالحزم ويحب للناس مايحب لنفسه،ولايلتمس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك،كان خليقا أن يصيبه ماأصاب التاجر من رفيقه فانه يقال:

إنه كان رجل تاجر وكان له شريك فاستأجرا حانوتا وجعلا متاعهما فيه،وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت،فأضمر فى

---

(١) إنما انتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها ؛

نفسه أن يسرق عدلا من أعدال رفيقه:ومكر الحيلة فى ذلك،وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رزمة من رزمى ولا أعرفها فيذهب عنائى وتعبى باطلا ، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذى أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله،وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبى، ولا أحسبه إلاقد نسيه،وما الرأى أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمه فلعله يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحب،ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه وأقفل الحانوت ومضى إلى منزله،فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه ، وضمن له جعلا على حمله ، فصار إلى الحانوت فالتمس الأزار فى الظلمة فوجده على العدل فاحتمل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلا يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعبا، فلما أصبح افتقده فاذاهو بعض أعداله فندم أشد الندامة،ثم انطلق نحو الحانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ووجد العدل مفقودا،فاغتم لذلك غماشديدا وقال واسو أتاه من رفيق صالح قد ائتمننى على ماله وخلفنى فيه،ماذا يكون حالى عنده ولست أشك فى تهمته إياى،ولكنى قد وطنت نفسى على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتما فسأله عن حاله فقال: إنى قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدالك ولا أعلم بسببه وإنى لا أشك فى تهمتك إياى وإنى قد وطنت نفسى على غرامته. فقال له ياأخى لاتغتم فان الخيانة شر ماعمله الانسان والمكر والخديعة لايؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبدا وماعاد وبال البغي إلا على صاحبه،وأنا أحد من مكر وخدع واحتال،

فقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟فأخبره بخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال:

زعموا أن تاجرا كان له فى منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهبا، فترقبه بعض اللصوص زمانا حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن فى بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخابية التى فيها الدنانير أخذ التى فيها الحنطة وظنها التى فيها الذهب، ولم يزل فى كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم مافيها ندم. فقال له الخائن: ماأبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئى عليك، وعزيز على أن يكون هذا كهذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله

٢ — وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجديين فى كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجديين: اجتمع ناس فى المسجد ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب، وكالحلف الذى يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا فى حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماسا للفائدة واستمتاعا بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيغه الابل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفى تكلف العذب علينا مئونة، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتقض علينا من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة (١) كثيرا مانغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل مااعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب الصافى يذهب باطلا، ثم انفتح لى فيه باب من الاصلاح ، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت فى ناحية منه حفرة وصهرجتها (٢) وملستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة ، وصوبت إليها السيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شىء والحمار لا تقزز له من ماء الجنابة ، وليس علينا حرج فى سقيه منه، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال: اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابنى، فأمرنى قوم بالفانيذ السكرى (٣)، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز (٤) وأشباه ذلك : فاستثقلت المئونة وكرهت الكلفة ، فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين: عليك بماء النخالة فاحسه حارا، فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جعت ولا اشتهيت الغداء فى ذلك اليوم إلى الظهر ثم مافرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طويت العشاء وعرفت قصدى، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا فى كل غداة نخالة فان ماءها جلاء للصدور، وقوتها غذاء وعصمة

---

(١) يعنى زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلاطها

(٣) معرب بانيذ لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم وبحلى، والشاهنج دقيق البر .

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينها بمثل الثمن الاول ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أر فى وضع الامور مواضعها وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذة هذه ؟ قال أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية [١] فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يامعاذة؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئا لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لا محالة، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف فيتعلق عليه الزبل [٢] والكيران وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فأنه لأوتار المندفة [٣] وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق [٤] ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح

---

(١) شاة للتضحية (٢) الزبل ككتب جمع زبيل وهو القفة أو الجراب أو الوعاء والكيران جمع كير وهو زق ينفخ فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

وللأدام والعصيدة ولغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بهـا فلم يـر الناس وقودا قط أصفى ولا أحسن لهبا منه وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب . ثم قالت بقى الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به صار كية فى قلبى وقذى فى عينى وهما لا يزال يعاودنى « قال الشيخ » ثم لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم قالت أجل ذكرت أن عندى قدورا شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ لها ولا أزيد فى قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ، قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة (١) قالت بأبى أنت لم يجىء وقت القديد بعد، لنا فى الشحم والألية (٢) والعظم المعرق وغير ذلك معاش ولكل شىء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ — المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبلغنى من مقامات الاسكندرى ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

---

(١) لحمها المجفف (٢) ما ركب العجز من شحم ولحم

مايمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأنا أسأل الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتعجب من قمود همته بحالته مع حسن آلته[١] وقد ضرب الدهر شئونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لى حاجة بحمص فشحذت إليها الحرص فى صحبه أفراد كنجوم الليل أحلاس لظهور الخيل[٢] ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن كالقسى وتاح لنا واد فى سفح جبل ذى آلاء وأثل[٣] كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر ومالت الهاجرة بنا إليها ونزلنا نغور ونغور[٤] وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه وطمح بعينيه يجذ قوى الحبل بمشافره ويخد خد الارض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الحبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى سلاحه فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا فى إهابه كاشرا عن أنيابه بطرف قد ملىء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى

أخضر الجلد فى بيت العرب　　يملأ الدلو إلى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر[٥] وملكته سورة الأسد نخانته

---

(١) استعداده فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران فالآلاء الصفصاف والأثل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ونغور ننام فى الغور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف علامة وزنه فرنده وجوهره

أرض قدمه حتى سقط ليده وفمه وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمثل مادعاه فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه وافترش الليث صدره ولكني رميته بعمامتي وشغلت فمه حتى حقنت دمه وقام الفتى فوجأ بطنه (١) وقد هلك الفتى من خوفه والأسد للوجأة فى جوفه ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ماثبت وتركنا منها ماأفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا الترب (٢) فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعمـــدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القاتلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصمدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حر فرسه ينقش الأرض بشفتيه ويلقى التراب بيديه وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنابى ونظرت فاذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وعارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملآن وقضيب ريان ونجار (٣) تركى وزى ملكى ، فقلنا مالك لاأبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهى حيث ترانى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك ومالى مالك فقلت بشرى لك وبك أداك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب ، وهنأتني الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه وينطق فتفتننا ألفاظه ، فقال ياسادة إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء فخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

---

(١) وجأ شق (٢) أهلناه (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان[١] فقال ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل عن فرسه وحلى منطقته[٢] ونحى قرطقته[٣] فما استتر عنا إلا بغلالة تنم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من رضوان ، وعمد إلى السروج فحطها وإلى الأفراس فحشها[٤] وإلى الأمكنة فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه ، فقلت يافتى ما ألطفك فى الخدمة وأحسنك فى الجملة فالويل لمن فارقته وطوبى لمن رافقته فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه منى أكثر أتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجملة فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة أريكم من حذق طرفا لتزدادوا بى شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهما[٥] فرماه فى السماء وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، وقال سأريكم نوعا آخر ثم عمد إلى كنانتى فأخذها وإلى فرسى فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك ماتصنع قال اسكت ياالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه بريقه فلم ندر مانصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس فى يده يرشق بها الظهور[٦] ويمشق بها البطون والصدور[٧] وحين رأينا الجد أخذنا القد[٨] فشد بعضنا بعضا وبقيت وحدى لاأجد من يشد يدى فقال اخرج باهابك

---

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرمضاء قد تشتد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباءه (٤) ربطها

(٥) وضعه فى الفوق ليرميه (٦) يثبتها فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والسير

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلىّ خفان جديدان فقال اخلعهما لا أم لك فقلت هذا خف لبسته رطبا فليس يمكننى نزعه فقال على خلعه ثم دنا إلى لينزع الخف ومددت يدى إلى سكين كان معى وهو فى شغله فأثبته فى بطنه وأبنته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجره وقمت إلى أصحابى فحللت أيديهم وتوزعنا سلب القتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حمص بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرضة من سوقها[1] رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا فى جرابى مكارمه
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندرى الذى سمعت به وسألت عنه فاذا هو هو فدلفت اليه[2] وقلت احتكم حكمك فقال درهم فقلت

لك درهم فى مثله ما دام يسعدنى النفس[3]
فاحسب حسابك والتمس كيما أنيل الملتمس

وقلت له، درهم فى اثنين فى ثلاثة فى أربعة فى خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ، ثم قلت لغلامى كم معك قال عشرون رغيفا فأمرت له بها وقلت ، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

---

(١) طريق منه (٢) أسرعت (٣) أى حتى ينتهى النفس الواحد

٤ ـ المقامة السنجارية للحريرى [١]

حدث الحارث بن همام قال . ففلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام ، فى ركب من بنى نمير ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا أبو زيد السروجى [٢] عقلة العجلان [٣] وسلوة الثكلان وأعجوبة الزمان والمشار اليه بالبنان فى البيان ؛ فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته الجفلى [٤] من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحللنا ناديه أحضر من أطعمة اليد واليدين [٥] ماحلا بالفم وحلى بالعين ثم قدم جاما [٦] كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف [٧] النعيم وضمخ بالطيب العميم وسيق اليه شرب من تسنيم [٨] وسفر عن مرأى وسيم وأرج نسيم . فلما اضطرمت بحضره الشهوات وقرمت [٩] إلى مخبره اللهوات وشارف أن تشن على سربه الغارات وينادى عند نهبه ياللثارات ، نشز أبو زيد كالمجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون [١٠] ؛ فراودناه على أن يعود وألا يكون كقدار [١١] فى ثمود ، فقال والذى ينشر الاموات من الرجام لاعدت دون رفع الجام فلم نجد بدا من تألفه وإبرار حلفه ،

---

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق العجم (٢) سروج بلدة قرب حران
(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أى مما يقطع بيد ومما لا يقطع الا بيدين
(٦) ظرفا من زجاج (٧) جمع لفيفة ما لف من الحلوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت
(١٠) النون الحوت والضب أشد الحيوان تبديا (١١) عاقر ناقة صالح

فأشلناه [١] والعقول معه شائلة والدموع عليه سائله ، فلما فاء إلى مجثمه وخاص من مأثمه سألناه لم قام ولأى معنى استرفع الجام؟ فقال إن الزجاج نمام وإنى آليت مذ أعوام ألا يضمني ونموما مقام فقلنا له وما يمينك الصرى [٢] وأليتك الحرى ؟ فقال :

إنه كان لى جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع وخبؤه سم منقع ، فملت لمجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته [٣] فى معاشرته واستهوتنى خضرة دمنته لمنادمته وأغرتنى سمته بمناسمته ، [٤] فمازجته وعندى أنه جار مكاسر [٥] فبان أنه عقاب كاسر وآنسته على أنه حب موانس فظهر أنه حباب [٦] موالس، ومالحته ولا أعلم أنه عند نقده ممن يفرح بفقده، وعاقرته ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لمفره، وكانت عندى جارية لا يوجد لها فى الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أزرت بالجمان [٧] وبيع المرجان بالمجان، وإن رنت هيجت البلابل [٨] وحققت سحر بابل وإن نطقت عقلت لب العاقل واستنزلت العصم من المعاقل وإن قرأت شفت المفئود [٩] وأحيت الموءود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود؛ وإن غنت ظل معبد لها عابدا وقبل سحقا لاسحق وبعدا وإن زمرت أضحى زنام [١٠] عندها زنيا بعد أن كان لجياه زعيما وبالاطراب زعيما، وإن رقصت أمالت العمائم عن الرءوس وأنستك رقص الحبب فى الكئوس، فكنت أزدرى بمها حمر النعيم وأحلى

---

(١) رفعناه (٢) المصر عليها بعزم (٣) بسبب تبسمه (٤) بمحادثته
(٥) ملازم لكسر البيت (٦) ثعبان (٧) اللؤلؤ (٨) الوساوس والهموم
(٩) المصاب فى فؤاده (١٠) زامر المتوكل

بتمليها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكراها عن شرائع[(١)] السمر ، وأنا مع ذلك آليح[(٢)] من أن تسرى برياها ريح أو يكهن بها سطيح أو ينم عنها برق ماليح ، فاتفق لوشك الحظ المبخوس ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقتني بوصفها حميا المدام عند الجار النمام، ثم ثاب الفهم بعد آن صرد السهم[(٣)] فأحسست الخبال والوبال وضيعة ما أودع ذلك الغربال ، بيد أنى عاهدته على عكم مالفظته وأن يحفظ السر ولو أحفظته، فزعم أنه يخزن الأسرار كما يخزن اللئيم الدينار وأنه لا يهتك الأستار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم أو يومان حتى بدا لأمير تلك المدرة ، وواليها ذى المقدرة أن يقصد باب قيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة تلائم هواه ليقدمها بين يدى نجواه، وجعل يبذل الجعائل لروّاده ويسنى المراغب لمن يظفره بمراده، فأسف ذلك الجار الختار إلى بذوله وعصى فى ادراع العار عذل عذوله ، فأتى الوالى ناشراً أذنيه وأبثه ما كنت أسررته اليه ، فاراعنى إلا انسياب صاغيته[(٤)] الى وانثيال حفدته[(٥)] على تسومنى إيثاره بالدرة اليتيمة على أن أتحكم عليه فى القيمة : فغشينى من الهم ماغشى فرعون وجنوده من اليم ، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع وأستشفع اليه ولا يجدى الاستشفاع، وكلما رأى منى ازديادالاعتياص[(٦)] وارتياد المناص تجرم وتضرم وحرق على الأرم[(٧)] ،ونفسى مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة هنـا الخدم والأتباع (٦) الامتناع (٧) الاضراس

لا تسمح بمفارقة بدرى، ولا بأن تنزع قلبي من صدرى؛حتى آل الوعيد إيقاعاوالتقريع قراعا . فقادنى الاشفاق من الحين إلى أن قضته سواد العين بصفرة العين [١] ولم يحظ الواشى بغير الاثم والشين ، فعاهدت الله تعالى منذ ذلك العهد؛ألا أحاضر نماما من بعد ، والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة ؛وبه يضرب المثل فى النميمة؛فقد جرى عليه سيل يمينى ولذلكم السبب لم تمتد اليه يمينى

فلا تعذلونى بعد ماقد شرحته ... على أن حرمتم بى اقتطاف القطائف [٢]

فقد بان عذرى فى صنيعى وإننى ... سأرتق فتقى من تليدى وطارفى

على أن مازودتكم من فكاهة ... ألذ من الحلوى لدى كل عارف

قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره،وقبلنا عذاره، وقلنا له قدما وقذت النميمة [٣] خير البشر حتى انتشر عن حمالة الحطب ماانتشر ، ثم سألناه عما أحدث جاره القتات ودخلله المفتات [٤] بعد أن راش له نبل السعاية وجذم حبل الرعاية، فقال أخذ فى الاستخذاءوالاستكانةوالاستشفاع إلى بذوى المكانة،وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع إلى أمسى؛فلم يكن له منى سوى الردوالاصرار على الصدوهو لا يكتئب من النجه [٥] ولا يتئب [٦] من وقاحة الوجه،بل يلظ [٧] بالوسائل ويلح فى المسائل،فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه الا أبيات نفث بها الصدر الموتور،والخاطر المبتور ، فانها كانت مدحرة لشيطانه

---

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر (٣) آلمت وآذت (٤) مخالطه الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستحى (٧) يلتصق

ومسجنة له فى أوطانه ،وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل والثبور وينس من نشر وصلى المقبور كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فناشدناه أن ينشدنا إياها وينشقنا رياها: فقال أجل خلق الانسان من عجل ثم أنشد لايزويه (١) خجل ولا يثنيه وجل ·

ونديم محضته صدق ودى ... إذ توهمته صديقا حميما
ثم أوليته قطيعة قال ... حين ألفيته صديدا حميما
خلته قبل أن يجرب إلفا ... ذا ذمام فبان جلفا ذميما
وتخيرته كليما (٢) فأمسى ... منه قلبى بما جناه كليما (٣)
وتظنيته معينا رحيما ... فتبينته لعينا رجيما
وتراءيته مريدا (٤) فجلى ... عنه سبكى له مريدا (٥) لئيما
وتوسمت أن يهب نسيما ... فأبى أن يهب إلا سموما
بت من لسعه الذى أعجز الرا ... قى سليما (٦) وبات منى سليما (٧)
وبدا نهجه غداة افترقنا ... مستقيما والجسم منى سقيما
لم يكن رائعا (٨) خصيبا ولكن ... كان بالشر رائعا (٩) لى خصيما
قلت لما بلوته ليته كا ... ن عديما ولم يكن لى نديما
بغض الصبح حين نم إلى قلـ ... ـبى لأن الصباح يلفى نموما
ودعانى إلى هوى الليل إذ كا ... ن سواد الدجى رقيبا كتوما
وكفى من يشى ولو فاه بالصد ... ق أثاما فيما أتاه ولوما (١٠)

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكلوما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح الميم متمردا (٦) ملدوغا (٧) صحيحا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا (١٠) مخفف لؤم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسبعه[١] بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته[٢] ثم استحضر عشر صحاف من الغرب[٣] فيها حلواء القند والضرب[٤] وقال له لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ولا يسع أن يجعل البرىء كذى الظنة ، وهذه الآنية تنزل منزلة الأبرار فى صون الأسرار، فلا نولها الأبعاد ولا تلحق هودا بعاد ، ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرح، فقد جبر الله ثكلكم وسنىأ كلكم وجمع فى ظل الحلواء شملكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم،ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال للآدب إن من دلائل الظرف، سماحة المهدى بالظرف : فقال كلاهما لك والغلام فاحذف الكلام وانهض بسلام،فوثب فى الجواب وشكر شكر الروض للسحاب، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوانه وحكمنا فى حلوائه،وجعل يقلب الاوانى بيده وينض عددها على عدده[٥] ثم قال لست أدرى أأشكو ذلك النمام أم أشكر،وأتناسى فعلته التى فعلها أم أذكر،فانه وإن كان أسلف الجريمة ونمم النميمة فمن غيمه انهلت هذه الديمة وبسيفه انحازت لى هذه الغنيمة،وقد خطر ببالى أن ارجع الى أشبالى وأقنع بما تسنى لى وألا أتعب نفسى ولا أجمالى،وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ ثم استوى على راحلته راجعا فى حافرته[٦] ولاويا إلى زافرته[٧] فغادرنا بعد أن وخدت عنسه وزايلنا أنسه،كدست غاب صدره أو ليل أفل بدره.

---

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد
(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التى جاء منها (٧) ناكصا إلى عشيرته

ثانيا ـ حياتها

١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

ا ـ فى العصر الاول ـ ما كاد العصر الأموى يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعى لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعى أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر، فى رسوم رسمها للمبادىء والخواتيم، وفى جولات بعيدة الاطراف بين طرفى القلة والاكثار، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع، وفى طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسل الطبيعى لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذاك طابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين. وإذ كان صدر العصر العباسى الأول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسل الطبيعى الى الوراء واطراد الانشاء الصناعى الى الأمام حتى يعظم هذا ويفنى ذاك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطرى فى كلام الخليفتين الأولين وأضرابهما كما رأيت فى الرسائل التى سقناها بين المنصور ومحمد بن عبد الله بجوار ماكان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدهما واحتضنه التاريخ ولذا نصدف عنه ونعتبر الكتابة مذ جاء العصر العباسى

صناعة حمل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه فيها رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها فى الموضوع .

نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس لخالد ابن عبد الله القسرى والى العراق ، وهى حينئذ حلبة العربية ومجتمع الرواة وقرارة المربد عكاظ الاسلام والحاضرة التى يفد اليها فصحاء الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لاتستكتب فارسيا فى الدواوين العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف ذلك إلى تعلم العربية فى هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتنشىء الأحداث عليها ، فحذق فنونها وتخرج فى آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية معا أن كان ولاؤه وولاء أبيه فى بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت الأهتم المنقرى فكان فى نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب ابن شيبة وناهيك بهما فصاحة منطق وذرابة لسان . ولما تمت آلته فى العربية تمامها فى الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج فى صناعة الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتبا لمروان بن محمد والى الجزيرة إذ ذاك ، فتقرب عبد الله اليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فنه ذا النواحى المبتدعة والطرائق المستحدثة ، ضاما إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار كاتبا يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه فى عصر بنى أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق. ولما دالت دولتهم استكتبه فى زمن بنى العباس عيسى بن على والى كرمان وعلى يديه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة، ومن بعد عيسى كتب

لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار فاتصل به وترجم له كتاب كليلة ودمنة ونقل إلى العربية كثيرا من آداب الفرس وسياستها كما نقل اليها بعض كتب اليونان التى كان كسرى أنو شروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التى كانت له من عبد الحميد الذى عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب الترسل الذى كان لعبد الحميد ، وقصاراه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظر إلى مزاوجة أو سجع إلا ما جاء عفوا غير متعمل ولا مقصود والذى يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسى الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عناية بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صادرا عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة فى شرف المعانى وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة فان ذلك هو العى الأكبر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل الممتنع . وثانيهما توجيه همه فى تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعانى لا الالفاظ وللفرس فى المعانى مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غذوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التى ترجموها إلى لغتهم كما فعلوا فى

كتاب كليلة ودمنة ؛ وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكم عن علم وتثقيف لا عن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم فى هذا الطور العباسى الذى حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم . ولعل أول من نقل هذا الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباذ وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم فى السياسة والاجتماع وسائر أحوال الناس ، رجلنا الذى نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوى إلى الجانب اللفظى بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه فى ناحية المعانى أتم تمثيل ، فكل ما كتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذى رسم ، سار من ورائه كتاب عصره كيحيى بن زياد وعمارة بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا المنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبى عبيد الله معاوية بن يسار وأبى عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابنى يحيى والفضل والحسن ابنى سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والامين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وابراهيم بن العباس الصولى ونحوهما ممن تربوا فى عصر المأمون وأدركوا العصر الثانى فاعتبروا رجال

طبقته الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذو ابن المقفع فى الالفاظ السهلة الممتنعة البعيدة عن المزاوجة والسجع إلا ما جاء عفواً، وفى المعانى الشريفة النبيلة المشعرة بسعة العقل وقوة المنطق ؛ ولذلك نقول إن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الالفاظ ولسنا نقول ذلك عن غير دليل نتقدم به، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهابي قال حدثنى يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إنى بالرقة بين يدى محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام لى فكلمته بالفارسية فتدخل العتابى [1] وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلدكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو وكانت الكتب سقطت إلى ماهنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرا — قال فقلت — أبا عمرو ولم كتبت كتب العجم فقال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم، البلاغة

«١» هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابى ينتهى نسبه الى عمرو بن كلثوم التغلبى ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابى ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى البرمكى لولده وكان العتابى منقطعا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم ابن عمرو العتابى فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله » .

فى اللغة لنا والمعانى لهم» قال ثم كان يذاكرنى ويحادثنى بالفارسية كثيرا».

ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى لبست الكتابة فيه ثوب الايجاز أكثر مما جررت ذيول الاطناب وكان الكتاب يجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء ؛ حدث أحمد بن يوسف وزير المأمون قال دخلت على المأمون وهو يمسك كتابا بيده وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا ملتفت اليه فقال يا أحمد أراك منكرا منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف ؛ قال فانه لا مكروه فيه ولكنى قرأت كلاما وجدته نظير ماسمعته من الرشيد يقوله فى البلاغة فانه كان يقول «البلاغة التباعد عن الاطالة والتقرب من معنى البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة فى هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب — ورمى به إلى وقال — هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ، قال فقرأته فاذا فيه « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ماتكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته. هذا وإنك لتجد الايجاز باديا فيما تقدم لابن المقفع من إخوانيات بل فيما تقدم له من رسائل أخذت اسم الكتب وان طالت لأن العبرة فى الايجاز ليست فى طول مايكتب لنفس الطول، وإنما هي فى طول مايكتب بالنظر إلى ماعبر عنه من معان،

ولذلك قد يوجد الطول مع الايجاز كما هى حال تلك الرسائل؛ وقد يوجد الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده كذلك فى كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما فى الكتاب السابق كانا من أعلام الموجزين . كتب أحمد إلى ابراهيم بن المهدى وقد استقل هدية ألطفه بها « بلغنى استقلالك لما ألطفتك ، والذى نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك فى البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم » وكتب فى التهنئة بافراق من مرض « قد أذهب الله وصب العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيهما من إرغام العدو بعقباها أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها » . وكتب عمرو موصيا بشخص « كتابى اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معني بمن كتب له ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع فى رجل بالزيادة له فى منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطولك على ، فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا تصريحك بصاحبك وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما ووقفناك عليهما » وقال الرشيد يوما ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه فكتب يحيى الى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة

طلعت عليه » . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من شنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين » .

ب ــ فى العصر الثانى ــ منذ عهد الرشيد ،قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضة ذات ذيول ولن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجمل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا اسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ماترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا ، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكترى دكاكين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت؛ وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لأنصع دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جناه منها من فائدة ، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرسا ، لايزال يحبوهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون يحبونه بجزيل العطايا وسني الصلات وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان ينتجع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان ، ولما قتل ابن الزيات عاد الى البصرة فأقام بها كما كان عالما مصنفا وأديبا كاتبا الى أن فلج وبقى بالفالج طويلا ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة ، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم وإن ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم ، وقد استخلص مما قرأ علوما جمة شارك بها أهل كل علم ، وآدابا ممتعة ضرب فيها بكل سهم ، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترعا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات ، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات. فكان راوية متكلما وفيلسوفا مسامرا وأديبا مؤرخا وشاعرا عالما دارسا أحوال الحيوان والنبات والجماد دراسته أحوال الناس والجماعات، وهو فى كل ذلك الكاتب المكثار الذى لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى لكأنه المعني بقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

لذلك عد أحد الأفذاذ وإحدى حجج اللسان. قال يصف كتبه ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا » وقال يصفها المسعودى أيضا على تشيعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه ـ أى عن التشيع ـ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان. لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة. وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الاشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء، وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصد منها الى تعصب أو الى دفع حق، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه ».

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب فى هذا العصر العباسى الثانى، وكما قامت ميزة العصر الاول على الترسل والايجاز تقوم ميزة الثانى بما سن الجاحظ على الازدواج والاطناب. وإن عودة

إلى ما اخترنا له فى مدح التجار وذم عمل السلطان وفى وصف الكتاب وفى محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشيء بمثله والقرين بقرنه فى فقرات يغلب أن تكون قصيرات حتى ليسلخ فى المعنى الواحد عبارات كثيرة فى ابتداع مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء ناقلون هنا شيئا مما قال فى الحسد مسبوقا بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع فى الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودا ، فان الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والاكفاء الخلطاء . فليكن ماتقابل به الحسد أن تعلم أن خير ماتكون ، حين تكون مع من هو خير منك وأن غنمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقتبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ماتنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لاينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو ، فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الاعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال فى رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألنى عن الحسد ماهو ومن أين هو ومادلائله وأفعاله وكيف تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار فى العلماء

أكثر منه فى الجهلاء ولم كثر فى الاقرباء وقل فى البعداء وكيف دب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الاوطان؟

الحسد أبقاله الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود علاجه عسر وصاحبه ضجر وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دب اليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أى الناس أقل غفلة فقال بعضهم صاحب ليل إنما همه أن يصبح فقال إنه لكذا وليس كذاك وقال بعضهم المسافر انما همه أن يقطع سفره فقال انه لكذا وليس كذاك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفلة فقال الحاسد ، انما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها فلا يغفل أبدا . ويروى عن الحسن أنه قال « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس » وما أتى المحسود من حاسد الامن قبل فضل الله تعالى اليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق » فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر ، ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكان الحزن فى

جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد لذاذة عيشه الااستصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما أفاده عبده وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ولايرزق أحدا سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم فى القياس مظلوما وقد قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دائم وقلب هائم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور — إلى أن قال فى آخر الرسالة وهى اثنتا عشرة صفحة — وما أرى السلامة إلا فى قطع الحاسد ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ولا الربح إلا فى ترك مصافاته . فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا واشرب مريئا ونم رضيا وعش فى السرور مليا ، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ويجنبنا وإياك دناءة الاخلاق، ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا لملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفى وطبع رخى فيطنب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى فى قصار رسائله مالم يتعمد فيها مساواة، كما فى تهنئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبا المغربى أو إيجازا كما فى كتابه السابق معهما يستنجز مماطلا ؛ فان القلة كما قلنا لاتأبى الاطناب ، كما لاتأبى الكثرة الايجاز ، وهذه رسالة له فى ثلاثة سطور ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته

وطالب حاجة رددته، ومثار حجبته ، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه ، فتثبت فى ذلك،ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم » ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الادب والفن ولج فى السيرة والعلم،ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة،أويصرفه عن تناولها ، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش » قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها وذهاؤها وكيف رأيها وذكاؤها،وكيف سياستها وتدبيرها،وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها فى اللأواء،وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها الأحاديث غد وقلة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودعاؤها اليه،وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراضها ،وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم،وكيف أشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعالهم وهل سلامة صدر أحدهم إلاعلى قدر بعد غديره وهل غفلته إلا فى صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره » وانظر اليه يرسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعانى والالفاظ : لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال «ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى فهو على سبيل الصواب ،ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك،لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ ، حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها،ويضعها فى غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه؛ وإنما هى رياضة وسياحة وسماع الألفاظ ضار ونافع، فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه وتغيب فى قلبه وتخيم فى صدره، فاذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت، وكانت نتيجتها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شىء بعينه والاعتماد عليه دون غيره، وبين اللفظ إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون اعتسافا واغتصابا فرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينى والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلا وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك الالفاظ قسمها من المعانى؛ فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام؛ فاذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعانى، استخفوا عقله وبهرجوا علمه » .

وقد اقتدى بالجاحظ فى هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا إنهم تربوا فى عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب العربية، الآداب الدخيلة تامة الأنى والاستواء بما استبحر من آداب الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان؛ وقد ذكرنا منهم الصولى وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن اسرائيل وغيرهم ممن كتبوا المعتصم

والواثق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد وهم رجال الطبقة الأولى فى العصر الثانى ، وقد أعقبتهم طبقة ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأبى العباس بن ثوابة ، وأبى الحسن على بن الفرات، وعلى بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد للمعتضد والمكتفى والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو على ابن مقلة وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضى والمتقى والمستكفى الذى انتهى على أيامه العصر الثانى بدخول بنى بويه بغداد . فكل هؤلاء كانوا للجاحظ فى طريقته محتذين، ولأسلوبه مترسمين ، كما ترى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا فى غيرها مما يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات، فهذا حمزة الاصفهاني جامع ديوان أبى نواس يقول فى مقدمة هذا الديوان «سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك، وبلغك أقصى أملك، وزادك من أفضل ماخولك وأحسن مامنحك ولا أعدمك جميل ماعودك، أن أصرف لك عنايتى إلى عمل مجموع من شعر أبى نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره، وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك، وأجبتك إلى ملتمسك» إلى آخر ماقال على هذا النمط الذى ابتدأه بالدعاء كما كان يبتدىء الجاحظ، وعاد يكرر الدعاء فى ثنايا مايقول بعد الابتداء كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر الجاحظ فيما خلف من مصنفات جاءت فى الأسلوب والاطناب على نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .

وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمدوا ويحمد لهم الايجاز،

فقد أوحى هذا العصر الثاني إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقادا منهم أن فى التكرار على أيامهم قوة بلاغ المعنى،وشدة تأثير فى النفس، ثم غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً فى العصور قبلهم من إيجاز:قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب «ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية،كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته ـ أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى،فاعتمد على أيهما شئت ـ لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ،ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى،ويحذر وينذر » ونحن نقول:ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعاني كما كانت لدى أولئكم الاسلاف بل صارت فى ناحية اللفظ والمعني سواء .

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع ، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان: ثم نصرة الشعوبية الداعية إلى احتقار العرب وتهوين مالهم من كفايات ، قد أصاب الأدب والأدباء ، فأثر ذلك فى صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف فى كتابات الكتاب . ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب . فاسمع إليه يقول فى مقدمته : « أما بعد فانى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين،ومن اسمه متطيرين،ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعليم،والشادى تارك للازدياد،والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين.فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون،حين هوى نجم الخير وكسدت سوق البر،وبارت بضائع أهله وصار العلم عارا على صاحبه،والفضل نقصا وأموال الملوك وقفا على النفوس ؛ والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءات فى زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاف المزاهر ومماطاة الندمان ،ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد الملكوت . فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف،وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كأس ــ إلى أن قال ــ فانى رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك بغير سبب،وبلغوا البغية بغير آلة».

ج - فى العصر الثالث — كانت الثروة على ماعلمت فى العصر الثانى ممدودة الرواق ، وكانت الحضارة وارفة الظلال ، وكان الأثرياء منغمسين فى المتع غارقين فى النعيم . غير أن جهل القائمين بالأمر على الدولة فيه،جعل الأدب كما تقدم تركد ريحه،وتفتر حركته،وجعل الكتاب وهم قطب الأدب الذى عليه يدور رحاه بعيدين فى جمهرتهم أن يشركوا أولئك القائمين فى سعة النفوذ وبالتالى فى الاستمتاع بمباهج الحياة . ولكن ماكاد هذا العصر الثالث يقضى على سابقه برفع نفوذ الخدم الاتراك عن بغداد وجعله فى أيدى آل بويه الذين وإن شلوا نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الادباء ، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن

الكتابة ونافست بغداد فى ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هـذه المنافسة أشد ماتكون بين رجال الكتابة الحالين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التى انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذى نتكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التى زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ؛ وشارك ملوكها فى سعة النفوذ وعراضة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذى لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة فى التعظيم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ فى هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم، فأحسن أبوه فى هذه البيئة تربيته، ورشحه لصناعته وهيأه لمنزلته، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ فى العربية والفارسية وتضلع فى آدابهما حتى لقب بالاستاذ والرئيس . ثم نبه شأنه وضاقت الدولة السامانيـة عن قدره، فاجتذبته دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر فى هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرحال وكعبة الآمال والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان، حتى توفى سنة ٣٦٠ .

ذلك ما أردناه التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ؛ لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقيم دعائمه يد ابن العميد ، فان الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأنقوا فى كل ذلك ماوسعهم التأنق ؛فغلوا فيما حملوا عليه،وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات،وهو الناشىء يحوطه الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى فى كتابته مايشهد فى عيشه ويعكس على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه : اللهم لا غيره يصلح لأن يكون صاحب الاسلوب الجديد . فبأى شىء ياترى يحدث الزخرف ويحصل التنميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه أول ما يدل فى صاحبه على ذلك،وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى قوة فوق تحليته الألفاظ ؛وبعد السجع يكون الالمام بأجمل الحلى اللفظية من جناس،وأجمل الحلى المعنوية من طباق، على أن تبقى الصورة الظاهرة للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع، قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا فى السجع ملزوما يصحبه الجناس قليلا والطباق نادراً ، مع الالمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة وإكثار وترادف وإطناب، ولكن فى عدول غالبا عما كان لها من تقصير الفقرات إلى إطالتها التى أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع الزواج ، فمت بها إلى العصر الأول ،وجمع بذلك كله بين محاسن العصور.

على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية بالمعانى وهو الحكيم الفيلسوف،الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول،

فيما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات حظ فيما لكلامه من بهاء وكلتاهما لصاحبتها زين وجمال كما قيل :

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

وحسبه أن يظفر فى وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على الأكوان شمسا ،وسارت فى الآفاق مثلا ، فهو القائل فيه :

اذا سمع الناس ألفاظه خلقن له فى القلوب الحسد

وهو القائل فيه:

عربى لسانه ، فلسفى رأيه ، فارسية أعياده

خلق الله أفصح الناس طرا فى مكان أعرابه أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » فان الحسن الذى وصلته على يده لم يزد على يد أحد وإن ماثله من بعده، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكأنها كانت أمل رجال العصر يريدونه ولايدركونه ؛ وطابع كتابه يودون رسمه ولايعرفونه ، فاإن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه تسابق الجياد فى الميدان ، فكانت الطبقة التى لم يعد الدهر يسمح لها بمثال،ويكفى أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصابى ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو بكر الخوارزمى محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الثعالبى عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود بأريج أنفاسهم، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم ، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكثار، ما نشير الآن إلى أهمه فى ناحية الاسلوب .

١ ـ جعلوا الطابع المميز لها فى هذا العصر السجع مع الاطناب يصحبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هى السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما والتزموه التزاما فى تمكن وقوة، فجاء عفوا صفوا كسجع الحمائم حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الادب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبى محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ فى تاريخه المسمى اليمينى نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوى، فقد ترجم فيه حياته وحياة أبيه سبكتكين ، وكان كاتبا لهما ، فى أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الثعالبى المذكور فى يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كما جاء سجع الكتاب فى هذا العصر على ماقدمنا لاتكلف فيه جاء كذلك ماقد يلمون به مع السجع من جناس وطباق ، انظر الى الخوارزمى يقول مستخدما لهما فى كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو دا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره، فما وجدت للعتاب إعتابا ، ولا قرأت عن الكتاب جوابا ، وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لاتضره وتنفعنى ، وعن تواضع لا يضعه ويرفعنى »

٢ ـ أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والاشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم

الكلفة كالذى كان من ابن العميد إلى أبى العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل لما ذكرنا تقريبا ولذا أثرنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك ، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفى جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو آن اللحم يصلى ببعضها　　غريضا أتى أصحابه وهو منضج (١)

وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرباء عن التحنف ويزويه عن التنصر (٢) ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق ؛

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب (٣)　　ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها (٤)

سجودا لدى الأرطى كأن رؤسها　　علاها صداع أو فواق يصورها (٥)

وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه　　تظل المها صورا جماجمها تغلى

وكما قال مسكين الدارمى

وهاجرة ظلت كأن ظباءها　　اذا ما اتقتها بالقرون سجود

---

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد يصرف الحرباء عن عادتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدها (٣) الجأب حمار الوحش والحقب أتنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرطى نبات مستعلق يتمسح فيه الوحش اذا اشتد الحر تبردا

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذ من وخز السنان طريد

وممنو بأيام تحاكى ظل الرمح طولا وليال كابهام القطا قصرا ، ونوم كلا ولاقله[1] وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة وكتصفيقة الطائر المستحر خفة

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب

وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويلقينى الخير فى باقى أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه فى أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره ، ويخفف حركته ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله أخفى من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور[2] ويرسل على رقاقته التى يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نوءها كلفا يغمرها وكسوفا يسترها ويريني مقمور الظهور مغمور النور ، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدى اليه السوس ويغرى به الدود ويبليه بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل ويجتحفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمى به مسترق السمع ويخلصنا من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كالزمن بين هذا الحرف مكررا فى الأجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه «ويرحم الله عبدا قال آمينا» وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستعفيه من توفيق لما يذمه وأسأله صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ماشكوته صالحة وعلى ماتحب وتهوى جارية، ولله الحمد تقدست أسماؤه والشكر

٣ — أغرموا بالخيال الشعرى إغراما شديدا فهاموا فى أوديته كما يهيم الشعراء واستخدموا صوره كما يستخدمون ؛ حتى صار كلامهم والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا فى الاستشهاد به حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول الصاحب بن عباد فى كتاب يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيته فصيح الاشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حائم وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد

فصل قد نظرته فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا

ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام

فصل قد عمهم بنعمه وغمرهم بشيمه

وغزاهم بسوابغ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله

وهكذا ـ ثم جاوزوا هذه المبالغة فى الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب بالشعر كل فقرة بشطر كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمى فى الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا القرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر
ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ولقد ساعد كتاب هذا العصر — على ذلك ، أن جمهرة كبيرة منهم — وهذا ميزة له — كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين على صاحبها [1] ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصابي إلى قاضي القضاة أبي محمد ابن معروف وكان قد زاره في معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .

لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلىّ نفسي وجدد أنسي وأغرب نحسي ووسع حبسي فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فان لم أكن أهلا لأن يستجاب مني فهو أيده الله أهل لأن يستجاب فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم حكام الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن
أخنت عليه خطوب جارجائرها حتى توفاه طول الهم والحزن
فعاش من كلمات منك كن له كالروح عائدة منه إلى البدن

ولنصوع الجمال الذي فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر وصفها في العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن في مجالي الطبيعة ومبدعات

«١» من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كشاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩

الحضارة على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصرى الصابى يصف رسائله نظما .

أصبحت مشتاقا حليف صبابة　　برسائل الصابى أبى إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى　　ذوب البراعة سلوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة　　يحكى لنا الأطواق فى الأعناق
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز　　كتبت بدائعه على الأحداق

وكتب ابن العميد إلى القاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى يصف كتابا وصله منه بهدية « وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك، فارتحت لكل ما أوليت وابتهجت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت النظم فملكنى العجب به وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحالى وحلى ، وشذور الفرائد فى نحور الخرائد .

بالعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود

فلم أره لشىء عدلا ولا أرضى ماعددته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ماتنعم به صنيعك اليهم، وترب معه إحسانك عليهم .

٤ — أغرقوا فى عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلا بشأنهم وأقدارهم وانما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها، والفرس أميل الناس الى الغلو فى عبارات التمجيد والتكبير جريا على

عاداتهم وإجابة لطبائعهم، فهم قد جبلوا على تملق ذوى الأمر بهذا التعظيم وبالاطناب لهم فى جمل الدعاء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكاهم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه فى الشرقية لما ذكر من عربيتها وعربية كتابها، وهذا الصابى يقول فى فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنه

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه مادا يدي اليه، أن يحيل على مولانا هـذه السنة ومايتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات: ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفيا على المتقدم له قاصرا عن المتأخر عنه، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزا منصورا محببا موفورا، باسطا يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحساد ساميا طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد، مستريحة ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز ومَلك فائزة قداحه فلا يجيلها الا لحيازة مال وملك حتى ينال أقصى ماتتوجه إليه أمنيته جامحا والسمو له همته طامحا» اهـ. ثم لم يبق ذلك مقصورا على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الاخوان كما قرأت سابقا فى كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب الصاحب إلى ابن العميد، وكتاب الثعالبى فى التهنئة بالقدوم، وغيرها فى هذا المعنى كثير .

٥ ـ ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وبألقابهم الى الكناية عنها تنزيها لها وتصونا عن ذكرها فصاروا يكنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكنون عن الوزراء بالحضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخاطبون إلا بها تبعا لاختلافهم فى مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا فى هذا ؛ الألقاب إلى الدعاء فنوعوا فى فى جمله مراعاة لمكانة المكتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا.

٦ ـ اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدءوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعته بعد الأشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب، ويعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب فى بعض الأحيان، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعى هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء فى العصر العباسى الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان فى الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د ـ فى العصر الرابع ـ ورث العصر العباسى الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسج جميل الرونق، قد حالفه السجع فى غير تكلف، وظهر به الجناس والطباق من غير إكثار، فبهر القارىء بإشراق معانيه، كما راقه بحلى ألفاظه، وشهد للكاتب بسعة الاطلاع فى فنون الأدب

وقوة العتاد فى صناعة القلم . وقد دعت سنة الرقى المطردة ورغبة النفس الدائبة فى الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره فى الاكثار من الجناس والطباق،وأن يضموا اليهما اوسمهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتمددت محاسنه،واتفق أن ولد فى آخر العصر الثالث رجل قدرله أن يكون حامل لواء الكتاب فى هذا العصر الذى يليه،هو أبو محمد القاسم بن على المعروف بالحريرى .

ولد الحريرى بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦، ولما كان قدخلق مفطورا على الأدب مهيأ لماذكرنا، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها فى محلة بنى حرام،وتعلم بهاعلوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار فى كلتيهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الأخذ عنه فيهما،واتصل بالخلفاء العباسيين والأمراء السلجوقيين،وما زال علما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفى بالبصرة سنة ٥١٦ . مخلفا من الكتب ،درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الاعراب وهى أرجوزة فى النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التى شخصته شاعرا،ونصبته فى الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله فى كتاباتها الابداع كله،وتلاعب بالالفاظ تلاعب الصوالجة بالأكر ،فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه فى قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الالفاظ اللغوية والحكم المختارة،والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة، والاقتباس من القرآن والحديث ،والالمام بكثير من دقائق العلوم،ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعله فذا فى ابتكاره،وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى فى مضماره لشدة ماتكلفه حتى صار له طبعا وعلى غيره عبئا ، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعانى حتى خفيت،واستكرهت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الأجادة من الكاتبين والفهم من القارئين بما أناخ على الأدب ،وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقا والاكراد غربا على الفاطميين العرب ،والبويهيين المتعربين،وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه،منذ أواسط العصر ظهورا حاد بأسلوب الكتابة فى نصفه الثانى عما كان عليه فى النصف الأول ، وخلع على طريقتها فيه اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق فى استخدام البديع،وغالى فى التأنق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجع اليها تجد التكلف باديا والمعنى خافيا . ولقد كان هذا الخفاء أبدى فى الكتب العلمية التى تكلفوا فيها البديع اذ ذاك ، منه فى رسائل الانشاء كما هى الحال فى كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى أرخ فيه عماد الدين الاصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس. فان من عباراته مالا يفهم إلا بالتأمل،ومن ألفاظه مالا غنية عن المعاجم فى معرفة معناه على عكس ماذكرنا عن كتاب اليمينى آنفا .

وقدهالت هذهالغاية للالفاظ على المعانى بعض أدباءالعصر إذذاك. فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الألفاظ،وذلك بما ألفوا ورسموا كأبى الفتح ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر »

فقد بين فيه مايتطلبه الأدب من كليهما فى المعنى واللفظ على السواء ، وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ماكان لعصره من تكلف الالفاظ وإخفاء المعانى .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الاسلوب الكتابى فى كل عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لا كل كاتب فيه . فقد يحدث فى عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده كالزهرة تتفتح مبكرة فى بستان ، ولما يتفتح بعد شىء من الأزهار . واليك فى هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحي بن خالد البرمكى التى يقول فيها مستعطفا : ــ للأصيد الجواد الوارى الزنادى الماجد الاجداد ، الوزير الفاضل الأشم الباذل اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير البائس الضرير ، فانى أحمد اليك الله ذا العزة القدير ولى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغنم ومن يصنع المعروف لايعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لى وغفلتك عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ولذلك قلت

أسرعت بى حتى اليك خطائى[١] ... فأناخت بمذهب ذى رجاء

راغب راهب اليك يرجى ... منك عفوا عنه وفضل عطاء

ولعمرى ما من أصر ومن تا ... ب مقرا من ذنبه بسواء

(١) جمع خطيئة من غير اعلال سماعا .

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك فى خير : ألا تزهد فيما ترى من تضرعى وتخشعى وتذللى وتضعفى . فان ذلك ليس لى بنحيزة ولا طبيعة ولا على وجه تصنع ولاتخدع ، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لايستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف » . ومثله من يجيد فى عصر ضعف وتأخر كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر لاحق متأثرا بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه، فتجىء كتابته على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه، عن محاكاة أو معارضة، على أنه فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هنـــاك خضوع من الجميع لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلادعت إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد اليه الخطيب ثمت إلا قصد إلى مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل الدواعى والأغراض هنا اتكالا على ما فصلنا هنالك ، وإن هى إلا كرة منا تذكر فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ ـ فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهاأنت ذا قد قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أبى

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآن فاقرأ ماكان بين أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراسانى إذ بعث إليه من يحصى عليه المغانم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن على ، فغضب وقال « أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته نفسه بالخروج وهم أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إنى قد وليتك مصر والشأم فهى خير لك من خراسان،فوجه إلى مصر من أحببت،وأقم بالشأم حتى تكون بقرب أمير المؤمنين،فأن أحب لقاءك أتيته من قريب » ــ فكتب اليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريبا منه لقتله ــ كما حدث بعد «إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إذ أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت،حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك،وان أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى» فكتب اليه المنصور ــ « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فان راحتهم فى انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن اليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد

وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك» . فأثر فيه ذلك على مافهم آنفا،وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ ـ والكتابة قد استخدمت فى الاستعطاف والوعيد والعتاب المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك ،وتعدته دون الخطابة إلى مايدور حوله

فمن الاول فى الاستعطاف : كتاب الصابى عن عضد الدولة إلى أخيه مؤيد الدولة بشأن ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد ، ومنه فى الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبث وكتاب ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه فى العتاب المصحوب بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثانى فى الاستعطاف كتاب ابن الرومى السابق ، ومنه فى الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولى ، ومنه فى العتاب كتاب الخوارزمى إلى صديقه الذى لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بابلاله وكتابه إلى تلميذه الذى لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ ـ والكتابة قد استخدمت فى الحوار بين الخصماء وفيه بين الأحباء وفيه بين المتفاصحين . فمن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور والنفس الزكية ، ومن الثانى كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل فى تنازله عن الخاتم لجعفر،ورد الفضل عليه . أما الثالث فاليك منه رسالتين مما كان بين الخوارزمى والبديع ، فان الخوارزمى لما لم يحسن مقابلة البديع على ماكتب له قبل لقائه فى رسالة الشوق الماضية كتب اليه البديع ـ الأستاذ والله يطيل بقاءه ،ويديم تأييده ونعماءه ، أزرى بضيفه أن وجده يضرب آباط القلة فى أطمار الغربة ، فأعمل فى ترتيبه أنواع المصادفة وفى

الاهتزاز له أصناف المضايفه ، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف، ودفع فى صدر القيام عن التمام ،ومضغ الكلام وتكلف لرد السلام، وقد قبلت هذا الترتيب صغرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأبطته شرا ولم آله عذرا ، فأن المرء بالمال وثياب الجمال،وأنا مع هذه الحال وفى هذه الاسمال لاأتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح،وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولايمنعون المعارف .

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

ولوطوحت بالاستاذ أيدى الغربة إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله فى أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذى معناه ود،والمر الذى يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمى —

إنك إن كلفتني مالم أطق ساءك ماسرك مني من خلق

فهمت ماتناوله سيدى من حسن خطابه، ومؤلم عتبه وعتابه،وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذى لايخلو منه من نبابه دهر ؛ ومسه من الأيام ضر ، والحمدلله الذى جعلنى موضع أنسه ومظنة مشتكى مافى نفسه ، أما ماشكاه سيدى من مضايقتى إياه زعم فى القيام وتكلفى لرد السلام،فقدوفيته حقه كلاما وسلاما وقياما على قدر ماقدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبى القاسم،وماكنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال ورثاثة الحال، فلا يضعان عندى قدرا ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزى حلية بل قشرة ، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل عارية من جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لا بآلاتها وأحوالها ، وأما القوم الذين صدر سيدى عنهم وانتمى إليهم ، ففيهم لعمرى فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة ، ولقد جاورتهم فنلت المرتاد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهله ... فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتى للاحرار عامة ولسيدى من بينهم خاصة . فان أعانني على مرادى له و نيتى فيه بحسن العشرة، بلغت له بعض ما فى النية وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع على طريق عزمى بالمعارضة وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار

فما النفس الا نطفة بقرارة ... اذا لم تكدر كان صفوا غديرها

وعلى هذا فحبذا عتاب سيدى إذا صادف ذنبا واستوجب عتبا . فأما أن يسلفنا العربدة ويستكثر المعتبة والموجدة ، فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال مثلها . فليرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجمل له ولست أسومه أن يقول « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ ــ والكتابة قد استخدمت فى التعازى والتهانى وقد سقت فى النماذج تهنئة ابن المقفع بمولودة وتعزيته عن بنت، ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن

يوسف بمولود ، وتهنئة عمرو بن مسعدة عن المأمون صهره الحسن بن سهل بمولود أيضا ، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان فى يوم عيد ، وتهنئة الثعالبى بالقدوم من سفر ، وكذا تهنئة رشيد الدين الوطواط وغيرها مما جاء بعدها .

وباب التعزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولا لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها . ويتصل به ما يكتب إلى المكروبين بمرض أو غيره تصبيرا لهم وتمنيا لزواله عنهم ، كما كتب ابن المعتز سابقا .

٥ — والكتابة قد استخدمت فى التزلف والتقرب عن طريق المدح والثناء ، كما فعل ابن العميد فى كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ، وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول

« بعدت دارى عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته ، وإن كنت حيث تصرفت لا أتفيأ إلا به . وقد اشتد شوقى إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزين بحضور مجلسه وتلقيح عقلى بحسن رأيه ، فلا شىء عندى آثر من قربه وإن كنت فى سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لى به . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى المصير إلى دار السلام لأحدث عهدا بالنعم علىّ ، وأتهنأ بالنعمة التى أقرها لدىّ ، فعل — فكان جواب المأمون اليه — قربك إلى ياأبا العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ، فالزم مكانك واتبع قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعى   إذا كان ما بين القلوب بعيدا

٦ — والكتابة قد استخدمت فى بيان وجه الرأى لمن طلبه مستشيرا

كما كتب ابن المعتز آنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع لمن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك،وان لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون فى الثواب رد الجواب ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا،ثم يوقدون لها نارا،ويعتقدونها ثارا، فكن من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا لواذا وهربا ، ويبتغى فى الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا مايصدر فى كتب الترفع عما لاينبغى أن يكون إلى مايجب أن يكون،كما تقدم فى كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمى ، وكما كتب محمد بن يحي والى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى اليه برجل ليأخذ مالاله يقول «قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة وألسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك،وخذهم بما فى ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الداثرة . وجنبنى وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم   رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على مايكسب الدعاء لنا لاعلينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى، فاما ذكر جميل،وإما خزى طويل »

٧ ـ والكتابة قد استخدمت فى النصائح والوصايا وفى العظات أيضا

على النهج الذى أوضحناه فيها، وإن كثر استعمالها فى الأولين وكان فى الأخرى قليلا . فمنها فى الوصية ماكان يكتب به الخلفاء لأولياء عهودهم، وذوو الاقدار لنابهى أبنائهم، كما كتب المنصور لولى عهده المهدى، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، ثم ماكان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوى قرباه ، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدى مادمت والعلم شانك، والمدرسة مكانك، والدفتر أليفك والمحبرة حليفك . فان قصرت ولا إخالك فغيرى خالك » . ومنها فى النصيحة ماكتب البديع إلى صديقه الذى مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وماكتب ابن المقفع فى أدبه الصغير من شتيت النصح والارشاد .

أما العظة فمنها ماكان من سفيان الثورى إلى الرشيد إذ كتب يدعوه إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنئوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه، وقرأ مافيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : — بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذى سلب حلاوة الايمان . أما بعد فانى قد كتبت اليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه، وأنفذته فى غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى، حتى كتبت لى تشهدنى على ذلك . أما إنى قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك

غدا بين يدى الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهرون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمور ويضربون من شربها، ويزنون ويحدون الزانى، ويسرقون ويقطعون يد السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام إلى النار . كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك، وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة فى سيآتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية فاتق الله يا هرون فى رعيتك، واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فنهم من تزود زادا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإنى أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته فاياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام (١)

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .
وهاهى ذى مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الاغراض التى لم يسبق لها فى النماذج شيء

١ — الأخبار والاستخبار - كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب ابراهيم بن المهدى إلى صديق له يقول « كتابى اليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديقى العزيز علىّ فى إبطائى بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فان السؤال كاشف ما سلف مصلح لما استؤنف »

٢ — الإستمناح والتوصل - كما كتب ابن المقفع والصولى آنفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلته بالحديد، وضيقت عليه السجن فقال لهم « اتركونا ياعبيد الدنيا فالمغرور من غررتموه، والشقى من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبقى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفى

ومن أجمل ما وقع فى هذا الباب، ما كتب العتابى إلى أحد أصدقائه وهو: -
« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها وتستريح القلوب اليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماما لزهرتها وشفقة على خضرتها وادخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف اشتد علينا كلبها وغابت قحطها، وكذبتنا غيومها وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الأخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك عظيم الثقة لك والثقة بك، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنك تغطى عين الحاسد، وأنك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الوراد، والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده ولم تظهر همته » فشاطره ذلك الصديق ماله ومرافقه.

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة: ولعل من أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه.

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه، وهو مثل ماكتب العتابى قبله يقول « أما بعد فقد تركتنى منتظرا لوعدك متنجزا لرفدك، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة، والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنصف لسانى بامتداحك مطلق
فان أنت لم تنجز عداتى تركتنى وباقى لسان الشكر باليأس موثق

وأرفق منهما ماكتب به يحيى بن أكثم الى المأمون « أنت ياأمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالأذكار، وأنت شاهدى على وعدك، لاتأمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذى لايؤوده إحسان ولايعجزه كرم، فعجل لنا ياأمير المؤمنين مايزيدك كرما وتزداد به نعما، ونتلقاه بالشكر الدائم »

٤ — الاعتذار — كما كتب الصولى سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى، ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى، ويرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى، ولكن ماالحيلة والعوائق جمة

وعلى أن أسعى وليـ   س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، ومابى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولاعشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ — الشكر — كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب العتابى الى بعض الرؤساء « كتبت اليك ونفسى دائمة القيام بشكرك ولسانى لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميرى لائمة نفسى واستقلال جهدى فى مكافأتك، وأنت أعزك الله فى عز الغنى عنى، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان فى الضراعة إليك » . ومن لطيفه وغريبه ماكتب به عبيدالله بن عبدالله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ماأعرف أحدا جزى العلة خيرا غيرى، فانى جزيتها الخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابى الذى جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم البين خيراً فانه ... أرانا على علاته أم حارث
أرانا ربيبات الخدور ولم نكن ... نراهن الا بانبعاث الحوادث

٦ – الاستهداء – كما كتب ابن الاثير الموصلى فيما سبق يستهدى صديقه العراقى تمرا ، وكما كتب ذو الكفايتين حفيد العميد يستهدى شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام »

٧ – الاهداء – كما كتب عبدالله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى اليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدور جرى الماء فهو كما قال تأبط شرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى ... بمنخرق من شده المتدارك

وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت اليه تفاحة ، «إنى لما رأيت تنافس الرعية فى الهدايا إليك ، وتواتر ألطافهم عليك ، فكرت فى هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرها ويكمل موقعها ، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح ، فأهديت اليك منه واحدة فى العدد كثيرة فى التقرب ، وأحببت ياأمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها ، وأشرح لك لطيف معانيها ، وماقالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء فى أوصافها ، حتى ترمقها

بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد رضى الله عنه: أحسن الفاكهة التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذ بهما من الحواس العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها »

٨ ـ الشوق ـ كما تقدم للجاحظ إلى قليب ولابن العميد إلى الطبرى. وكتب العتابى «لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ولم أتجشم مراراة تماديك . ولكن استخفتنا صبابتنا فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك ؛ وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبد الله بن العباس العلوى إلى ابراهيم بن المهدى « ما أدرى كيف أصنع ؛ أغيب فأشتاق ونلتقى فلا أشتفى ، ثم يجدد لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوعا من تجديد الحرقة بلوعة الفرقة » فكتب إليه ابراهيم «أنا الذى علمتك الشوق لأنى شكوت ذلك إليك فهيجت مثله منك ». ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء كما كتب البديع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله بقاء الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ، لو بلغ الرزق فاه لولاه قفاه . وبعد فانى فى مفاتحته فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ، ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره، ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجهل خلقه . وما وراء ذلك من تالد أصل ونسب، وطارف فضل وأدب، فمعلوم تشهد به الدفاتر والخبر المتواتر، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار، والعين أقل الحواس إدراكا، والأذن أكثر استمساكا »

٩ – الاستزارة – كما سبق من الخوارزمى إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة وعن معجز، ولأن نفسى لاتساوى نفسك فتقبل فى فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلى المنزلة ؛ أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت . لاجتهدت أن يصف من ذلك ماعسى أن يعطف به زمام قلبك، ويحنو على الرقة والتحفى أثناء جوانحك، ولكن ماأمسيت وأصبحت ممتحنا به فيك؛ منع كل بيان ونزح عن كل لسان، والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ؛ ولم يختلط به ثامب معاب ، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذى أعناه أيها المولى الحبيب مجلس أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدى وفتت كبدى ؛ فان خف ذلك عليك ؛ ورأيت نشاطا من نفسك اليه ؛ كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عليلا، وسلك من الخير سبيلا، يتوعر سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك منة لايطيقها جبل راس ولا فلك دائر ؛ فرأيك أيها السيد المعتمد فى الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول بيني وبين مانزعت اليه النفس، مواصلا برا إن شاء الله [1] .

---

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعنة فى الضراعة والتزلف رسالة مثلها فى ذلك وهى « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش مابيننا بطائر فرقة ولا حافر تشتيت، وضمنا وإياك فى أوثق حبال الأنس وأوكد أسباب الألفة . وقفت على مالخصته من العجز عن بلوغ ماخامر قلبك وانطوى فى ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأنس والمنادمة، كما كتب إسحق بن ابرهيم الموصلي لبعض الكبراء « يومنا يوم لين الحواشي وطيء النواحي، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل » . وكما كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح في يوم دجن لم يمطر « أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير عزة :

وإني وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وما أصبحت أمنيتي إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بيني وبينك، ورقعتي هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، وبعثت في نشاطا حركني للكتابة إليك، فرأيك في إمطاري سرورا بسار خبرك إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موفقا ان شاء الله (١) » . وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع . ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل عليه مضمر صدري، لأيقنت أن الذي عندك إذا نسبته إلى ماعندي كالمتلاشي الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف مافي الضمير . وأما طاعتي لك وزمامي إليك، فطاعة العبد المقتني الطائع لما يحكم به وعليه مولاه **ومالكه**، وأنا صائر إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد عافية وأتم عاقبة وأسعد نجم جرى بألفة إن شاء الله تعالى »

(١) كانت إجابة ابن وهب له « وصل كتاب الأمير أيده الله وفي طاعم ويدي عاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا . وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا فى مثل ذلك إلى صديق «نحن فى مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بانت السماء تعلمها ، فهى مشرقة بمائها حالية بنوارها. فرأيك فينا لنكون سواء فى استمتاع بعضنا ببعض».

فكان الجواب «هذه صفة لو كانت فى أقاصى الاطراف لوجب انتجاعها وحث المطى فى ابتغائها، فكيف فى موضع أنت تسكنه، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك، وطيب شمائلك وأنا الجواب» . وقد رقت المكاتبات فى هذا الباب وماتقدمه حتى أصبحت غزلا منثورا لايفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ ــ شكوى الدهر ــ كتب الصولى إلى بعض إخوانه «ياأخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الايام على ، وسوء أثر الدهر عندى، وأنى معلق فى حبائل من لايعرف موضعى ولايحلو عنده موقعى . أطلب منه الخلاص فيزيدنى كلفا، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالثواء ثواء مقيم، والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ماأذهب إلى ناحية فى الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر، وأسأله جميل العقبى وحسن الصبر » .

وكتب ابن العميد فى مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلنى الله فداك دهرا خئونا غدورا، وزمانا خدوعا غرورا، لايمنح مامنح إلا ريثما ينتزع،

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضياءك، وان أمطر حكى جودك وسخاءك ، وان غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عزوجل ، على أعفى بها آثار الزمان السيء عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعن حظى منه » .

ولايبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع : يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع مايبرمه بقرب انتقاض، ويهدى لمايبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه على ماشرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم ونستتم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجىء محذوره مصمتا بلا انفراج، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ونسترقه من ساعاته . ونداستحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة من المكروه خلالا ».

١١ ـ الموازنة والمناقضة ـ فأما الموازنة فهى المفاضلة بين شيئين بذكر محاسن كل ومقابحه أو منافعه ومضاره ، وقدراجت سوقها حتى ألفت فيها كتب فى العصرين الثالث والرابع كما سيأتى فى تدوين الأدب بعد . وأما المناقضة ، فهى أن يعمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل على غيره فيسلبه ماله من فضل، ويثبت لهذا المفضول مايجعله فاضلا، كما فعل سهل بن هرون فى تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها.

« الزجاج مجلو نورى والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرتفع فى السوم . واسم الذهب يتطير منه ؛ ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فاتك لمن صانه. وهو أيضا من مصايد ابليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الاحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضر ولا يداخله الغمر، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديدا ، وهو أشبه شيء بالماء ؛ وصفته عجيبة وصناعته أعجب »

١٢ ـ التفكه والتندر ـ كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كلمني فيه من لا أوجب حرمته، فان قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك ». وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها قرد مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن التافه الخفى، عمى عن التهنئة بالجليل السنى. فلا نقصك الله الزائد فى سرورك ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك » . وكتب البديع الى رجل ألح عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالأدب». « عافاك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار، سبيله إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود ، لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جيمية الشماخ لونا فلم يفعل، وبالقصاب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل، وأنشدت فى الحمام ديوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحجام مقطعات اللحام (١) فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت من شعر الكميت ألفى ومائتى بيت فلم تغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج (٢)

---

(١) شاعر ثعلبي (٢) لحم يطبخ بالخل طعام فارسي

ما عدمتها عنـدى ، ولـكنها ليست تقع فما أصنع . فان كنت تحسب اختلافك إلى إفضالا على ، فراحتى فى ألا تطرق راحتى ، وفرجى فى ألا تجىء » . ولعل من هذه الناحية ما يـكتب به فى المواطن التى لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذى كشف عنا ستر الحـيرة وهدانا لستر العورة ،وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن الحمية حمية الجاهلية : ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهنأك الله الذى شرح للتقوى صدرك ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك وفى عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرعته من أنف وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها ، المنتظر من ارتماضك لدفنها ، فتستوفى بها المصيبة وتستكمل عنها المثوبة ، ووصل الله سيدى من الصبر على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى من نقمة : وما يوليه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنه . فأحكام الله تعالى جده ، وتقدست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده المتقين ما هو خير لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها إليه وقدومها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كفؤها والسلام.

١٣ ـ الذم والتهكم ـ وهو باب حافل فى الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به — كتب أحمد بن يوسف يهجو بنى سعيد بن سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، لأنزل فيكم نبى نقمة وأنزل فيكم قرآن غدر ، وما عسيت أن أقول فى قوم محاسنهم مساوى السفل، ومساويهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقولة بالعى، وأيديهم مغلولة بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة « أما بعد فانى توسلت اليك فى طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد، فرارا من الفقر ورجاء للغنى ، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقربا مما عنه تباعدت. وقد قسمت اللائمة بينى وبينك لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى، وأمرتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ونهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنعتهم » .

وكتب ابراهيم بن المهدى « أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبت شين القبيح .وقد رأيتك وآثر القول عندك مايضرك ، فكنت فيما كان منك ومنا، كما قال زهير بن أبى سلمى

وذى خطل فى القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

وكتب بشر بن أبى كبار البلوى إلى ابراهيم بن عبدالله الحجبي والى صنعاء لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحى فمنعه هشام بن يوسف الأبناوى « أما بعد فان رأى الامير أمتع الله به ألا يعلم هشاما ما يريد من صلتى فعل ، فانه لم يردنى وآلى قط بخير، ولم يفتح لى الأمير باب صلة

فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ؛ ولا يرجو بها إلا ثوابه ؛ إلا عرض هشام من دونها فتقلها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله إنى لكما لمن الناصحين ، ومدحنى بما لم يسمع به من أخلاقى ، وانتقصنى فيما لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخرف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة . وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فاذا الحاجب يزلقنى ببصره ، وإذا الكاتب يسلقنى بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه ؛ وإذا الوالى ينظر في نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والحالة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن أستطيع له طلبا : فأسأل الله الذى جعل لكل نبى عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عنى كيده فانه يرانى هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ — الوصف — وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه وصف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لمصحف ، قرآنا وخطا . وهاك منه بعضا منوعا — كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام :

« أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم. فحلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب؛ وجدنا الاقلام القصبية أسرع فى الكواغد وأمر فى الجلود، كما أن البحرية منها أملس فى القراطيس وألين فى المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعلق بما ينبو عن شظاياها، ونحن فى بلاد قليلة القصب ردىء مايوجد بها منه، فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصبية، وتتأنق فى انتقائها قبلك، وطلبها فى منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تتيمم باختيارك منها، الشديدة المجس، الصلبة المعض، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فانها أبقى فى الكتابة وأبعد من الحفاء، وأن تقصد بانتقائك منها الرقاق القضبان، اللطاف المنظر المقومات الأود. الملس العقد، ولايكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنابيب البعيدة ما بين الكعوب الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء أصولها برءوسها، المستكملة يبسا القائمة على سوقها. قد تشرب الماء فى لحائها، وانتهت فى النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان ينعها، ولم تؤخر فى الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى. فاذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قطعا رفيقا تتحرز معه أن تتشعب رءوسها وتنشق أطرافها. ثم عبأت منها حزما فيما يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطه فى حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خطرها عند من لايعرف فضل جوهرها». وكتب الخوارزمى يصف رمدا أصابه:

«صادف ورود الكتاب رمدا فى عينى حصرنى فى الظلمة، وحبسنى فى

الغم والنقمة ، وتركني أدرك بيدى ماكنت أدرك بعيني ، كليل سلاح البصر، قصير خطوط النظر ، قد ثكلت مصباح وجهى وعدمت بعضى الذى هو آثر عندى من كلى، فالأبيض عندى أسود والقريب منى مبعد، قد خاط الوجع أجفانى، وقبض عن التصرف بنانى، ففراغى شغل ونهارى ليل وطوال ألحاظى قصار ، وأنا ضرير وإن عددت فى البصراء، وأمى وإن كنت فى جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلمى وبنانى، وقامت بين يدى ولسانى » . ـ وكتب القاضى الفاضل يصف حمام الرسائل ـ تحمل من البطائق أجنحة، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة. وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتطوى الارض إذا نشرت الجناح الطائر، تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا، وتركب الجو بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرجع ، وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنانتها فهى أسهم ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى بتقريب العهود، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهى أنبياء الطيور لكثرة ما تأتى به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء » . — وكتب الموصلى يصف روضة — « جنة علت أرضها أن تمسك ماء، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء، وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها المشمش الذي يسبق غيره بقدومه ؛ ويقذف أيدي الجانين بنجومه ، فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ؛ ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار ؛ وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان ؛ وقد شبه بسن الصبا في الاسنان . وفيها التفاح الذي رق جلده وعظم قده وتورد خده وطابت أنفاسه فلا بان الوادي ولا رنده ؛ وإذا نظر إليه وجد منه حظ الشم والنظر ؛ ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر . وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل بكف قاطفه ؛ ويغري بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذي هو طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له فيرمى نواه ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ؛ وفيها التين الذي أقسم الله به تنويها بذكره ؛ واستتر آدم عليه السلام بورقه إذ كشفت المعصية من ستره ؛ وخص بطول الأعناق فما يرى بها من ميل فهو نشوة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما ؛ وقيل هذا إنلء مليء شهدا لا إناء مليء علما . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهي بلونه وشكله ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذي فضل ذوات الافنان بعرجونه ؛ ولا تماثل بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم ألم صاحبها على قوله « لن تبيد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية المعنى كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضى يطلب اليه رجلا يستعين به فى أموره :- « أما بعد فانى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ليس بظنين فى رأيه، ولا بمطعون فى حسبه إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقعده الرزانة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكتة. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام فى أمورهم فحمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة وأمارات العلم له شاهدة، مضطلع بما استنهض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياده، ثقة بفضل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك » (١)

١٥ ـ البيعة بالخلافة: وولاية العهد، والعهود، والمنشورات وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة وكانت تملأ بالأيمان المحرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص فى الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة فى ولاية العهد. وكلتاهما كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعة أن كتب إليه « إنى عازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا فى ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات فى الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالاجابة فافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام »

ثم تسجل فى الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا فى التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوهما أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلة وإعتاق الرقيق كذلك، وعلقوهما على الكعبة تحت نظر سدنتها مبالغة فى الحرمة والاشهار، ومع هذا كله كان يوجد الحنث بها فى كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه. ففى العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمساك بالدين ورعاية للصالح العام، وتذكر البلاد التى تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق العهود على المولىّ أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به. وفى العهد بامارة الجيش كانت تعدد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته فى أجسامهم وعقائدهم، ثم يختم بالتوكيد كذلك. وفى العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة فى القاضى من علم وأمانة وتقوى ونزاهة، وتبين الأمور التى يجب أن يعنى بها من توزيع المواريث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس، كما تطلب إليه الدقة فى اختيار كاتبه وشهوده، وفى مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة، وفى تجنب الهوى الحائف أو المحابى، وينتهى بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد. وهكذا كان التنويع فى العهود الأخرى من دنيوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان، أو دينية كالعهد بامامة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج، وغير ذلك مما كان فى سائر العهود.

أما المنشورات فكانت الوسيلة لاعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة فى الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك فى إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين مايسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الانواع الاربعة مستفيضة فى كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفى كتب الأدب لرسوخها فى بلاغة الاطناب، وليس يتسع المقام للاتيان بنماذج منها لاسهابها فليرجع إليها فيماذكرنا .

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة فى إنشاء الرسائل المطولة لغير الاخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع ، ومالى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه ، ومما يشبه فى زماننا الحاضر، مانقرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب فى خطيرات المسائل بالصحف والمجلات. وليس من شك وقد نشأ ذلك أول مانشأ فى العصر العباسى على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ فى لغة فارس منه، فعكس صورته على لغة العرب فى كثير مما أنشأ ، وقد سبق التعريف فى منشآته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما فى السياسة، وبالأدب الصغير وهو فى الأخلاق، وبالأدب الكبير وهو فيهما معا، واختيرت نماذج منها جميعا.

ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسم من موضوعات، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة، أولاها منفصلة الرقم فى الحاسد والمحسود وسبق اختيار شىء منها ، والعشر الباقيات متصلات الارقام وهى على الترتيب، فى مناقب الترك وعامة

جند الخلافة، وفى فخر السودان على البيضان، وفى التربيع والتدوير، وفى تفضيل النطق على الصمت، وفى مدح التجار وذم عمل السلطان، وفى العشق والنساء، وفى الوكلاء، وفى استنجاز الوعد، وفى بيان مذاهب الشيعة، ثم فى طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدبر فى صناعة الكتابة، ورسالة سهل بن هرون فى مدح البخل، ورسالة الصابى فى الصيد، ورسالة الصاحب فى الطب، وغيرها مما تفتقت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيذانا بأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأدبين الكبير والصغير لابن المقفع مثلا، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيمات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التى تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباه، وسائرها معلوم المواطن فى الكتب فليرجع إليها حيث هى.

وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آنفا، كلمة فى مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجملها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول:

أدركت الدولة الأموية — وقد عظمت — نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الانشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة

محاسنها وتستقيم أمورها ؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون » . غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لأبى العباس السفاح لقب كاتبه أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ، بلقب الوزارة ، فكان أول وزير فى الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب لكل من ولى أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد نفوذهم، وبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ فى يحيى بن خالد وزير الرشيد، لأنه صاحب اليد عليه فى بقاء العهد له ؛ ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ، ولانه كان بمنزلة والده اذ ارتضع لبن زوجه على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر . فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التى استمرت مرعية يتولاه وزير بنفسه أو بكاتب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة ؛ وألقيت اليهم الأعنة فى سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم، فاعتصموا بهم فى النوازل وتركوهم يتصرفون عنهم فى الوعد والوعيد والنقض والابرام؛ ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول:

ولى فقر تضحى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق

إذا حاولت لطفاً فماء مروق وإن حاولت عنفاً فنار تألق

وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحد المشرفيات

ونشأ من ذلك مانشأ من مزاحمة القلم السيف فى تصريف الشئون وحسم الامور ، فوجدت المفاخرات التى شبت بينهما نظما ونثرا .
قال على بن العباس النوبختى مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لاشىء يغالبه مازال يتبع مايجرى به ألقلم
بذا قضى الله للأقلام مذبريت ان السيوف لهامذ أرهفت خدم

وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا أقتل بلاغرر وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم مراده والا فالى السيف معاده .

لهذا عنى الخلفاء وذوو الأمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك وسياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون ففى اختيارهم للكتابة كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول ؛ وفى الكتابة تسويد له إذا لم يكن من المسودين . هذا ابن الزيات سمت به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت . وكان بذلك جد فخور . قال له العلاء بن أيوب يوما وهو يناظره « ليس هـذا كيل الزيت ولا عد الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقدمني الله بالادب، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فاتضع » . وهؤلاء آل سهل كانوا ضناعا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الـكتابة إلى الوزارة، وصاهر المأمون الحسن منهم فى ابنته بوران . ولما كتب إلى المأمون بعد زفافها إليه يقول «قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده فى قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المن منه أدام الله عزه فى إخراج توقيعه بتزييز حالى فى العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ماجمع أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بمعرفته بالحال التى قربته منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا». وهذا الصابىء على صابئيته تولى ديوان الرسائل لخلفاء بني العباس وملوك بنى بويه ، وحين مات رثاه الشريف الرضى ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن ضعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر فى الأدب والتفقه فى كل مايتصل به من علم، حتى يكونوا كفاة لما يندبون له، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضى عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه؛ كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم السجايا رقة الطباع ولطف الخدمة،حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم وكمال علمهم .قال بعض آل المهاب لبنيه «تزيوا بزي الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة» وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من رقة الكتاب :ـ

وشمول كأنما اعتصروها من معانى شمائل الكتاب

وغير هذين فى الناحية الخلقية كثير. أما الناحية العلمية فجماع ما قيل عنها فيهم قول الجاحظ « طلبت علم الشعر عند الاصمعى ، فوجدته لا يعرف إلا غريبه،فرجعت إلى الأخفش فوجدته لايتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبى عبيدة،فرأيته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالايام ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك وغيرهما ».

هذا وإنه لمما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيء نفسه للكتابة منذ أوائل العصر العباسى قصيدة أبان بن عبدالحميد اللاحقى التى قدمها الى يحيي البرمكى،رغبة فى الاتصال بخدمته فى هذه الصناعة؛وانا لخاتمون بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال:

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريشـــة مما يكون تحت الجناح
لىَ فى النحو فطنة واتقاد أنا فيه قــلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعـــلم بقول منور الافصاح

وظريف الحديث فى كل فن ونصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تخلو الملوك وتلهو وتناجى فى المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيـــل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد للـــه على أنني ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيـــه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بى الأمير أصلحه اللـــه رماحا ثلمت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح
لست بالضخم ياأميرى ولا القز م ولا بالجحدر الدحداح(١)
لحية جعدة ووجه صبيح واتقاد كشعلة المصباح
إن دعانى الامير عاين منى شمريا كالبلبل الصداح

٢ – التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع ـ ما أخذت منه وماأخذ منها ـ فى معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل عليه بميقعته أى مطرقته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا. وقالت وقع القتب ظهر الراحلة اذا أثر فيه تأثيرا خفيفا،فاذا ترك ذلك التأثير دبرة أى قرحة،ثم برئت وبقيت بموضعهاشامة بيضاء،قالت ظهر موقع تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع المطر الارض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحداح البطىء الخطو

وقالت وقعت الدواب ربضت،ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل.ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطىء،تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشيء إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق،ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء.

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظيما دولته على أيام عمر بن الخطاب، رأيناه رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشي الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها،وهذا معنى جديد ، ولكنه يمت الى المعانى السابقة بالصلات . فهو يجلو اللبس فى القصة ويمضيها ، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة لفظها ولون مدادها ، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريف مارفع اليه ، وهو يتحرى فى إثباته آخر الوقعة وموقعا معينا من حاشيتها ، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه ، وهو نتيجة تقدير وتفكير ، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص عامله على العراق يستأذنه فى بناء دار،فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمرو بن العاص عامله على مصر فى كتاب « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدى به فى ذلك الخليفتان بعده،

وقع عثمان رحمه الله فى شكاة قوم من عامله مروان بن الحكم « فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ووقع فى قصة رجل شكا اليه فقرا « قد أمرنا لك بما يقيمك وليس فى مال الله فضل للسرف » . ووقع على كرم الله وجهه فى كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد الغلام » ووقع فى كتاب لسلمان الفارسى يسأله فيه كيف يحاسب الناس يوم القيامة « يحاسبون كما يرزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن عبد الله بن العباس يطعن فى خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » وكتب اليه عبد الله بن عامر يعاتبه فوقع « بيت أمية فى الجاهلية أشرف من بيت حبيب فى الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا فى الطائف فوقع « عش رجبا تر عجبا » وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعى يسأله أن يعينه باثنى عشر ألف جذع فى بناء داره بالبصرة فوقع « أدارك فى البصرة أم البصرة فى دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى عبد الرحمن بن زياد عامله على خراسان « القرابة واشجة والأفعال متباينة، فخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه فى قتل أشرافهم « إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون » ووقع فى ذيل كتاب من ابن الاشعث وهو ثائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لأجمعن المال جمع من يعيش أبدا ، ولأفرقنه تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا　　　أبشر بطول سلامة يامربع

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوقع « ارض لهم ماترضى لنفسك، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوقع له « أولئك الذين هـــداهم الله فبهداهم اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوقع له « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان دميما « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا، وحل بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العيال ؛ وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منا مثلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان ابن محمد إذ تلكأ فى بيعته « إنى أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى، فاذا

أتاك كتابى فاعتمد على أيهما شئت » . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الأمر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » .

ولقد كان ولاة بنى أمية يحاكون خلفاءهم فى التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع. وقع زياد بن أبيه فى رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفى رقعة شاكى حاجة « لك فى مال الله نصيب أنت آخذه » وفى رقعة متظلم « الحق يسعك » وفى رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعى » وفى رقعة رجل شكا عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لا تخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرمى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فانه أمنع من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلى خلفاء بنى أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت فى بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر فى الشدة شورك فى النعمة » ووقع المنصور فى رقعة قوم تظلموا من عاملهم « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد» ولعامله على حمص وقد أخطأ كاتبه فى كتاب « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن على « لا تجعل للأيام فى وفيك نصيبا من حوادثها » ولرجل شكا عيلة (سل الله من رزقه) ولرجل شكا دينا«إن كان دينك فى مرضاة الله قضاه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذموما مدحورا فلو عدلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا» . ووقع المهدى لعامل أرمينية وقد شكا إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسعار (خذهم بالعدل فى المكيال والميزان) وفى قصة رجل حبس فى دم « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب » وفى قصة آخر من بطانته يطلب صلة أبطأت « ليت إسراعنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف فى مديحه « أسرفت فى مديحك فقصرنا فى حبائك ».ووقع وزيره أبو عبيد الله لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول والنفس مولعه بحب العاجل « لكن العقل الذى جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا ، موكل بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق يعقب صلحا وظفرا،والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكى عليه فى ذلك الفضل وله حق الأبوة من قبل : عهد اليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لغير أنفسهم فشاركه فى التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب ووجدت فى الكتابة خطة جديدة يقول فى التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة اليه ، أحكامها والفصل فيها ، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فاما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكانا فى البلاغة على أرفع ما تكون، توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان . وقع لعامله بخراسان « داوجرحك لايتسع » وفى قصة محبوس « من لجأ إلى الله نجا » وفى قصة متظلم « لايجاوزبك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفى قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك موضعه فتنكب سيرته » وفى رقعة شيخ سعى اليه بنميمة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فان كنت أردت بها النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح، وأنا لا أسعى فى محظور ولا أسمع قولة مهتوك فى مستور، ولولا أنك فى خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك »

ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شىء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدى الرشيد. فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها . حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون . وقع لعامل كثر التظلم منه « قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما عدلت واما اعتزلت » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولى أمرك » ولعامل آخر « اجعل وسيلتك الينا مايزيدك عندنا » ولعامل مصر فى رجل من بطانته يوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب فى اصطناعه » ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلؤكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنتين » وفى قصة محبوس يطلب العفو « العدل أوثقه والتوبة تطلقه » وفى قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » وفى قصة مستمنح وصله مرارا « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » وفى كتاب رجل قرأه فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منثورها وتفصل فيه شذورها ». ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعد « بئس الزاد إلى المعاد التعدى على العباد ». ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفرا وحبسه أباه. وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية » ورفع اليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك » ولما كتب اليه وقد أحس بالموت يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكم العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكم الذى رضيته فى الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا يصرف قضاؤه ».

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل والحسن ابنا سهل. فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة متظلم منه « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفى

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « ياعمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفى قصة متظلم من حميد الطوسى « ياأبا غانم لاتغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده فى الحق سيان » ولما كتب اليه عمه ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب اليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعبثهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر   لايقطع السيف إلا فى يد الحذر
سيصبح القوم من سيفى وضاربه   مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر

ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار التهابا أسرعها خمودا فتأن فى أمرك » ولصاحب الشرطة « توفق توفق » وإلى رجل شكا اليه الدين « الدين سوء يهيض الأعناق وقد أمرنا بقضائه » وفى رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب الله أحق أن يتبع » وفى قصة متظلم « كفى بالله للمظلوم ناصرا » وفى قصة قاطعى طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ووقع الحسن بن سهل فى قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح مادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه على ابن عبيدة الريحانى ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث اليه رقعة يشكو الابطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث

خلال : عقل وصبر ومال » .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسى الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله. ومنها يرى أن التوقيع مبنى على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أوحكمة متوارثة، فان تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف . كما لازم العصور التى ساد فيها الايجاز الاطناب وآخرها العصر العباسى المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبداءة حاضرة فيمن يتولونه وفى كثير ممن كان يكتب به اليهم . قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطة ـ يعنى خطة التوقيع ـ لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع مايضطر اليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اه

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر فى التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسنانتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا، فان لهم فى ذلك الآيات البينات ولكننا لانخليهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الايجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لايشعرون . رفع الواقدى رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوقع

عليها (فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك بما ملـــكت وأما الحياء فهو الذى حملك على ذكر بعض دينك وقد أمرنا لك بضعف ماذكرت فان قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد فى بسط يدك فان خزانة الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطه) . وكتب اليه أحمد بن يوسف يستجدى لطلاب الصلات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه (الخير متبع وأبواب الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا لحر كالصاق به طوق الهوان

ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان)

وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع على كتابه « مستتم الصنيعة من عدل زائغها وأقام أودها صيانة لمعروفه ونصرة لرأيه ، فان أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تتميم الصنيعة أشد من ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة عامل عنده بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيح وأخبر به كمن قبله وأجازه فاطرد هذا الساعى عن عملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن فى سعايته

كاذبا لكان فى صدقه لئيما آثما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة » .

ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الايجاز ، وتولى شئون الدولة فى العصر الثانى من لا يفهمون البلاغة من الخدم الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم فى التوقيعات وإن بقيت خطة صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة ما نعرفه الآن بالتأشيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها لعدم غنائها فى تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك فى نظر واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من يبعث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الايجاز إذ ذاك كما هى الحال فى الاشارة الآن .

وقد استمر التوقيع فى العصر الثالث — على رقى الكتابة فيه — فاقدا روعة البلاغة بلاغة الايجاز ، فهبطت منزلته وتناساه الناس إذ لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال ما كان له من حسن وقع فى الصدور ورفعة قدر فى النفوس .

على أنه قد وجد من كبار الكتاب فى هذا العصر من جهد نفسه فى التوقيع فكان له منه مالا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء الصاحب ابن عباد وهذا شىء مما خلف فيه . وقع فى رقعة استحسنها « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أغار فيها على بعض مأثوره من معان وألفاظ فوقع عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع فى كتاب لبعض مخالفيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » وكتب رجل يخبر أن أحدا من ينطوى له على غير جميل يدخل داره

فى غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هـذه خان يدخلها من وفى ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة يخطب فيها عمـلا فوقع عليها « التصرف لا يلتمس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع إلى أبى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضبا ثم كتب إليه يستأذن معاودا « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » . أما فى العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء العجمة واستحكامها، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الايجاز الكتابى إلا ماخرج بالايجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذى بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله. وإليك فى هذا مثلين: بعث السلطان محمود الغزنوى فى أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب إلى الخليفة ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على النقود، فامتنع الخليفة فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغـداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتابا ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبى والحمد لله . فلما فتحه تحير هو وأهل مجلسه فى فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القهستانى من كبار العلماء فسئل فيه فقال: إنكم بعثتم تتهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هـذا الكتاب وفيه « ألف ولام وميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعا . وحدث فى أواسط القرن الخامس أن خاف سديد الملك صاحب قلعة شيزر بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يحتال فى

استقدامه ليفتك به. وأوعز إلى كاتبه أبى النصر محمد بن الحسين أن يكتب اليه فى ذلك وكان له صديقا فكتب كما أمر. ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها. فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك استحسنه الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إنى أرى فى الكتاب مالا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملته « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها. فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد. إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى، « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وكان سديد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما قد يقال، لأن الايجاز من مميزات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر فى أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم ؛ ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة فى الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هى نوع من أنواع التفكير دفع اليه ملك العرب الجديد، فى أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الايجاز ، فأخذ ينمو شيئا فشيئا أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار ، ثم استبحر الملك أول العهد العباسى وبقيت بلاغة الايجاز، فكان له ما كان حتى اذا ماضعفت تقلص مع بقاء الفارسية ضاربة الجران .

٣ ـ القصص

نشأ الانسان الأول محوطا بالوحوش التى تناصبه العداء صباح مساء، وبنواميس الطبيعة التى تنكى به وهو يجهل مالها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف فى كل شىء، ولعقله أن يفكر بقدر استعداده إذ ذاك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبح به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهداه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك الدين الذى يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وعابد خائف راج، ولعل مما قوى فى نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقه فى نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا فى هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه فى الخوف والرجاء كانت النواة لما جد بعد من قصص وروايات. غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو فى كل البيئات سواء، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضوارى الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع، وحيث تكون منبسطة الأرض سافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال، وكلما قوى الخوف بالانسان جد فى التأليه وأكثر من المعبودات؛ وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته. ومن ثم كانت الحالة الاولى ممثلة قديما فى مثل بلاد اليونان، وكانت الثانية واضحة فى سكان البوادى كالعرب الجاهليين. وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ماكان لديهم من تعدد الديانات

لأنا نعنى بالتعدد أن يكون فى معتقدات الشخص الواحد كما هى الحال فى الأمة التى ذكرنا، لا أن يكون فى مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب فى القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الامم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التى هى الأساس. وإذكان تنازع البقاء فى القديم ممثلا أولا بين الانسان وغير الانسان، وممثلا ثانيا فى الحروب التى كانت لا ينقطع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع ؛ وجاءت القصص القديمة فى تلك الحروب يتغنى فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المنهزم بطلا منتظرا يكون على يديه الخلاص . وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتزقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص فى نبل الأمراء ومالهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر مايشينهم من فضائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالواقفين عند الحقائق التى كانت تبنى القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها؛ وقد ساعدهم على هذا الوضع والاختلاق فى القصص الموضعية بعد الهوة بين طبقتى الأمة إلى مايشبه الانعزال، وفى غير الموضعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعا أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكمه سوء حال المواصلة وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدى هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة فى الحروب ، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهريين فى القصص القديم [1].

جاء الاسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التى ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول، واطراد هذا الاحتكاك فى العهد الأموى ، استمروا بعيدين عن أن يكون لهم قصص فى العصرين المذكورين على النهج الذى أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بآداب غيرهم اعتقادا منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا فى الناحية الأدبية إلى القمة ؛ وأن الامم الاخرى فى الحضيض . على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الاسلام، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلى ، وتدوين القصة عندهم فى حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم.

غير أن دخول كثير من الفرس الاسلام ؛ وحذقهم العربية والفارسية مما حبب إليهم أول العصر العباسى أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه فى القصة الفارسية من جمال، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليلة ودمنة المنقول فى القرن الثانى وتلته كتب كثيرة

---

(١) من أشهر الملاحم القديمة الالياذة والأوذيسة لهوميروس شاعر الاغريق ، والأنياد لفرجيل شاعر الرومان . فالالياذة قصة حرب طروادة التى دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان . والأوذيسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو عائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان ، أما الأنياد فقد نظمها فرجيل تمجيدا لأسرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان.

أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة فى القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا فى وضع القصص بعد نشاطهم فى ترجمتها فكانت لهم فى كلا النوعين آثار كما سترى فى هذا البيان .

١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب فى القصص المنقولة فى القرن الثانى كتاب كليلة ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة [١]، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندى من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشليم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، فى صورة أقاصيص على ألسنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج اليه الملوك فى سياساتهم، والناس فى معاملاتهم، وذلك فى خمسة عشر بابا هى :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة ، وفيه قصة الواشى الماهر المحتال وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة ، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب البوم والغربان، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغى أن يغتر به ، وإن أظهر تضرعا وملقا (٥) باب القرد والغيلم [٢] ، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة ، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولا نظر

---

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما فى باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .

(٢) الغيلم هو السلحفاة الذكر

في العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه فيلتمس النجاة بموالاة بعضهم ويفى له (٨) باب ابن الملك والطائر فنزة[١] وفيه قصة أهل التراث الذين لابد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب الأسد والشغبر[٢] الناسك، وفيه قصة الملك الذى يراجع من اصابته منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إيلاذ وبيلاذ وإيراخت[٣]، وفيه ذكر الأشياء التى يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبؤة والأسوار[٤] والشغبر ، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف. وفيه مثل الرجل الذى يدع مايشاكله ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ ، وفيه مثل الذى يضع المعروف فى غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك وأصحابه ، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير ، والعاقل يقع فى الضر (١٥) باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين[٥] وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكانته كسرى أنو شروان فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانة كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له فى باب يوضع أول الكتاب قبل باب الأسد والثور فعملها . ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود ابن سحوان فى باب ذكر فيه السبب الذى من أجله وضع بيدبا الكتاب

(١) اسم ببغاء (٢) ابن آوى (٣) أسماء لوزير فلك فلكة (٤) بكسر الهمزة وفتحها الجيد الرمى بالسهم (٥) الطائر المعروف بأبى قردان .

لدبشليم،وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهندلترجمته. وبعد نحو مائتى سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيهاأغراضه فى باب دعاه باب عرض الكتاب وجعله بين ماكتب بزرجمهر وما كتب بهنود،فكانت الأبواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة ، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا ، ثم فقد الأصلان الهندى والفارسى ولم يبق غير الاصل العربى الذى طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن،ومن هذا الأصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا (١)

وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة فى عالم القصص الحيوانى، وفتح أمام الكتاب مجالا للخيالات شرقا وغربا ، ولذلك عنى الناس به

---

(١) ماذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة فى مصر الآن.ويرى فقيدالتاريخ والأدب « جورجى زيدان » فى كتابه آداب اللغةالعربية ، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان فى النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية ، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس،وباب مالك الحزين والبطة،من وضع ابن المقفع ، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف ،وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين الى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب ، وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثنى عشر ، والفارسية ثلاثة ، والعربية ستة ، ولكنه لم يذكر مستنده فى هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الاصلين الهندى والفارسى،كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابان الناقصان .

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد اللاحقى ليحيى البرمكى وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمه لهم أيضا ،ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه بشر بن المعتمد ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من نظم أبان [1] ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسى المتوفى سنة ٥٠٩ المعروف بابن الهبارية فى كتاب سماه نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة . كما نظمه القاضى الأسعد بن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ لصلاح الدين الأيوبى،وكلاهما موجود.وقدعورض الكتاب بكتب ألفت على منواله نظما ونثرا . فمن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن دبيس أمير الحلة [2] وكتاب درر

---

(١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يدعى كليلة دمنه

فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

ومنها فى معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما، أو مع النساك متعبدا،كالفيل يكون وحشيا أو مركبا للملوك

وقيل أيضا إنه قد ينبغى   للرجل الفاضل فيما يبتغى

ألا يرى إلا مع الأملاك   أو يعبد الله مع النساك

كالفيل لايصلح الامركبا   للملك أو راعيا مسيبا

(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال فى أسلوب رقيق حسن الانسجام وأوله:

الحمد لله الذي حباني   بالأصغرين القلب واللسان

الحكم فى أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن فى القرن السابع. وثالث لجلال الدين النقاش فى القرن التاسع. ومن المنثورة كتاب ثعلة وعفرة لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون (١). وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع لابى عبد الله محمد القرشى المعروف بابن ظفر فى القرن السادس. وثالث لاحمد بن محمد الحنفى المعروف بابن عربشاه فى القرن التاسع. ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التى قلنا بوجود بعضها إلى الآن مطبوعا أو مخطوطا لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعها جميعا كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال الأهوازى ليحيى بن خالد فى خلافة المهدى فبادت مع ما باد.

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المخترعة ذات الخيال الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التى تنسجم معها فى هذا الخيال، قد اشتمل فى ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال فى السياسة والاجتماع، وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور، وعلى تصوير النظم فى الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد، وعلى وصف الطباع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

---

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء مايجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذى تجودون به من تفضلكم . فان تقديم النافلة مع الابطاء فى أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس فى نهج تحمد به، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصه »

والحشرات،ومايتعلق باحوال معيشتهاوحياتها ، وكل ذلك فى ضروب محكمة من التعبيرات المستوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه . ولولا أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الاشياء الكثيرمن الأمثال .هذاوقد رأيت فيمانقلنا عن ابن المقفع فى أسباب وضعه على ألسنة الحيوان،أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كمايلائم الكبار فظاهره لهو ممتع وقصص لذيذ ، وباطنه حكمة مقنعة وعظة بالغة ، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه القرون العديدة مثلا عاليا وأستاذا مربيا للشرق والغرب على السواء. وكلما مرت الأيام ازداد جدة وزاده الناس إقبالا ومحبة .

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذى عرفته العرب عن القصص فى القرن الثالث،فهو مجموعة قصص تقع فى أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفى صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولا ثم وردت فى ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد،وتعزى هذه القصص على مايزعمون فى أصلها إلى قاصة تدعى شهرزاد كانت بنتا لوزير ملك من ملوك ساسان خانته زوجه ، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليله الأولى من دخوله بها،وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجها منه لتحمله على ترك هذه العادة إبقاء على بنات جنسها ففعل،وفى ليلة بنائه بها بدأت له فى قصة جعلت الصباح يدركها قبل تمامها،وقطعت الحديث عند نقطة يشتاق السامع إلى مابعدها.وفى الليلةالثانية استأنفت الحديث ثم قطعته كما قطعته فى الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها . فاستشفعت إليه فى الليلة الأولى

بعد الألف أن يبقيها من أجل أبنائها وأطلعته على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص؛ فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها فى حبور ووفاق

والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه القصص كما تتناول قصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الاسلام لا يمكن عقلا أن يكون من قصصها الأصلية شىء وقع بعده فى جهة ما. ومن ثم يحكم بداهة أن جميع القصص التى تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب فى هذه العهود. هذا وقد كان الاصل الفارسى يدعى «هزار أفسانه» ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما ترجمه العرب فى القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء فى سبب وضعه من أن الليالى كانت ألفا وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو اكثر أو جزء من خرافة غير عربية حتما، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفا وجعلوا حكاياتهم المزيدة فى ثنايا تلك الليالى. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتما أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فان هناك ليالى كاملة تغمرها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالى المحكى فيها أصلا أقل من ألف لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحا. وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير فى الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجرى

حيث دولة المماليك بمصر؛ وساعد عليهما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .

فالكتاب من حيث مآخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الاولى فارسية بما فيها من دخيل هندى وصينى؛ وهى تصور عقليات هذه الامم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الاشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأفاعى وطير الرخ الذى يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك العصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية فى بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم؛ وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجوارى والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك، ويتخلل ذلك قصص لأبطال العرب فى الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر فى العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية ، إسلامية أو إسرائيلية . فالاسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ماتحسه نفسه من أثر الحوادث، وهى على مافيها أحيانا من إغراب يستهوى القارىء إليها ، بعيدة عن الخيال الصرف المجسم فى القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والحظ؛ ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالمهن، ثم يغلب عليها عدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة

والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية فى مصريتها لأن أغلب كاتبيها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالنزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان، وسحر هاروت وماروت، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بنى اسرائيل . ولهاتين الناحيتين فى الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما وأسلوبه فى مجموعه مقبول: غير أنه أكثر قبولا فى القسم الفارسى والعربى لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثانى فى بغداد كان خيرا منها فى مصر حيث وضع القسم الأخير، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الاولى إليه من ناحية القصص والاساطير، وقد طبع مرارا ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما للمعلم الاستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة كثيرا ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقى تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات (١)

ب — القصص الموضوعة

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليلة ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بمالا يتسع فيه الخيال

---

(١) فمما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبرويز ، والكارنامج فى سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرسى . ومما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجو داسف، وأدب الهند.

كقصص ابن المقفع فى كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ فى بعض كتبه وأخصها البخلاء ، وبدأت تشارك الفرس فى مثل ما وضعوا بما زادت فى ذلك الكتاب ثم طفقت تنشىء على غراره كتبا فى القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلا فكان مما قال: «وابتدأ أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما تحلى بنفسه، وكان فاضلا. فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة؛ ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبى الطيب أخى الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم» اه وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضا (١)

على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكاتهم للفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتوا اليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهم فاهتدوا إلى موطنين عظيمين ،

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبى ضمضم ونوادر ابن الموصلى . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسي جاهلي،والثاني غرامي إسلامي ، فكان لهم في كليهما على العصر العباسي أثر جليل .

فأما عن الأول،فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالثأر والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الاخبار لتوثيقها إلى مشهوري الرواة كأبي عبيدة والأصمعي وغيرهما ؛ ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية،حتى انتهى إلى أن صار قصصا تتلى في المنازل والأندية للسمر والتسلية،كما كانت الحال في القصص القديمة لليونان.غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقليلها جاء كاملا ناضجا .

فمن الأولى،قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجمهرة،وهو في أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم،ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية،وهذه القصة في حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم ، والبراق شاعر قديم من أقرباء المهلهل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة وفخر،وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل في خمس حروب ، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكري للفضيل بن عمران الطائي ، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها ، والثالثة بين ربيعة والفرس لأسرهم ليلى العفيفة ، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم ، والخامسة حرب البسوس المعروفة،وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية،قصة عنتر وهي أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخالطها الحب والغرام. بل الممثلة لآداب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم . والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزيز بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس بريبة في قصر العزيز ، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم . وكأنه قد راقه ماكان من قصة البراق في حروب لربيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عنترة في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها ، ولكي يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجها تباعا في أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءا، وتعمد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهرزاد في لياليها، فتمكن بذلك من شغل الناس بها في أسمارهم على أيامه ، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قد أودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا مالم يأت مجموعا في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها وقد طبعت مرارا وعني الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم . وهناك قصص غير هاتين . (١)

---

(١) من القصص الموضوعة في هذا العصر أيضا : قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق : وقصة شيبان مع كسرى أنو شروان المنسوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي ، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعنترة فانهما

وأما عن الثانى، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره ببوادى الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث ـ المدينة ومكة والطائف ـ على مافصلناه بكتابنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى، فرأوا أبطاله يمعنون فى العفة وراء إمامهم جميل، كلما أمعن رجال الاباحى وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراعهم ما لأولئك الأبطال من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذبح الحب، وشاهدوا فى هذا الميدان مالم يشاهدوا فى ميدان الحرب، فوضعوا فيه قصصا تمثل عاطفة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه لميله، وأقيمت العقبات فى طريق زواجه ممن يهوى، وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الامر بالتفريق الدائم مصحوبا بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبني، وقيس بن الملوح عاشق ليلى المعروف بالمجنون – والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما دخل سيرتيهما من مغالاة. أما المجنون فالرواة فى أنه شخص حقيقى أو خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان .. فكان أن وضعوا لكل منهم قصة تمثل الحب الباكى أتم تمثيل. ولم يعدم الحب اللاهى قصاصين يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن .

المذكور وتلتها مثيلات . ثم كان أن ألفت قصص فى مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمى الرجال، بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان المحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى (١)

أما وقد ذكرنا مجملين ماينبغى أن يقال عن القصة العربية فى العصر العباسى منقولة وموضوعة فان علينا أن نبين كذلك مايراد بالقصة فى هذه الايام لنحاكم إليه ماذكرنا فنعلم الفرق بين ماكان وماهو كائن الآن.

يراد بالقصة فى العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة فى التاريخ أو الادب أو الاخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشىء عن هذا الشعور والوجه الذى يتجه إليه رأيه على حسب ماشعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته فى هذا التصوير تمثلا يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب، لأن هذه الاشياء التى ذكرنا واحدة فى ذاتها، ولكن الذى يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية تصويرها، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات، ولبست تلك الأشياء أثوابا تبعدها عن مرآها الثابت الأصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا مايطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أى حكاية أو خرافة وما نطلق

---

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة كأبى العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحا للتمثيل على المسارح فتراه يتعمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين فى الأخلاق والصفات،ويجعلهم يتحدثون فى حوار حديثا يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور ، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطى عليها تلك الشخصيات ،ومع المفاجأة بالعقد التى تعرض متطلبه الحل والمهارة فى إيراد الحلول . وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أى قصة تشخيصية ونسميه نحن عرفا باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص ، التشخيص (١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها ، وهى شروط لو دققنا فى تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص فى العصر العباسى استعصى علينا التطبيق،لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصى،أو هى مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد،أو هى مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا فى التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت فى العصر العباسى مثلا للقصة فى عموم إطلاقها وشبه مثل لها فى الروائى منها . وإنما جعلنا ما خلفت فى هذا شبه مثل لا مثلا للضعف البادى فيه عن نظيره الغربى ،ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصى و التمثيلى كما بيناه مفصلا فى كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلى ،ثم عدم سماحهم

---

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجيعة والحزن،ويأخذ اسم « كوميدي » إذا غلب عليه عنصر الضحك والهزل .

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسى فيه.

هذا وقد عالج العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمى أو الفلسفى، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب لخاصة الناس : ليس جديرا أن يحمـــل اسم القصص ؛ لأن الغرض الأول للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه . ومن أمثلته فى القرن الرابع كتاب « الأنسان والحيوان» لأخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم ، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان والانسان كما فى كليلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمى فى الطبيعة ومميزات الأنسان والحيوان . ومنها فى القرن السادس رسالة «حى بن يقظان» لأبى بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ التى شرح فيها بأسلوب قصصى، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة ، ووفق إلى نظريات علمية فى تطورات هذا الانسان ، وقد طبعت فى مصر وفى غيرها مرارا وترجمت إلى كثير من اللغات الاجنبية. على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبى العلاء التى كتبها فى عزلته وضمنها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء والرواة والنحاة فانها علمية فلسفية ، يتضمن بعضها لغة وأدبا وشعرا ونقدا ، وبعضها نوادر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الأفكار فى عصور الاسلام ؛ ولكنه ساقها فى أسلوب قصصى خيالى أبعد فيه. فقد تصور رجلا صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار، وقابل كثيرا من

أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كان يسأل دائما من كان يعتقدهم أبناء جهنم وأبصرهم فى الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحنا فى مشتملات الرسالة دعاها رسالة الغفران ، وهى ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص التشخيصى إلى حد ما ، فقد جاءت فوق مارأيت من مشتملاتها : خصيبة الخيال فى تصوير الجنة والنار، ومافيها من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية فى كثير من حوارها . ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم : فما كاد الغرب يتصل بالشرق فى الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكانتها إذ كانوا أسبق المسارعين إلى هذه الحروب ، فنسج شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الالهية » وفيها نفس الخيال الذى سبقه إليه المعرى بثلاثة قرون ، وكذلك فعل ملتن الانجليزى فى روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة قرون . فهى قد غذت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غذاه فى القصص العربى قبلها كليلة ودمنة والف ليلة وليلة فى الناحية القصصية « رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم الغرب الذى أخذ عنه فوصل إلى ما نرى الآن من رقى باهر فى فنون الأقاصيص والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العلمية الفلسفية التى غطت على الروح القصصى كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى الى ناحية لغوية صناعية نزعت بهجة القصص منها ؛ تلك هي المقامات التي سنتكلم عنها الآن .

٤ – المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات فى المشرق منذ أواخر العصر العباسى الثانى، وتحكم آل بويه على الخلافة فى بغداد بعد هذا الانشاء، فى اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتها من الأجداث ووهبتها روحا أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها فى مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور السامانى فى اقتراحه على الدقيقى نظم الشاهنامة، وحتى من كان يحكم هذه الاقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم فى النهوض بلغتهم تقربا إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوى التركى فى اقتراحه على الفردوسى إتمام الشاهنامة التى بدأها الدقيقى ولم يتمها. وكأن هذا الانتصار لأدب الفرس فى وقت يزدهر فيه الأدب العربى. قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كثب فى أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسى، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر فى معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسى، واتفق أن رحل إلى نواحى فارس العلامة اللغوى والراوية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى فى النصف الأول من القرن الثالث. وأقام هناك مع ابنى ميكال(١) وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد(٢) فقلداه رياسة الديوان، فابتكر نوعا من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها فى أربعين حديثا

---

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما للشاه بن ميكال ولد وحفيد، ولكن شاعت نسبتهما اليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسى .

تحدث عنها الحصرى فى زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفريد جزء أول بما يدل على ماقدمنا ،قال تحت هذا العنوان جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان - « وهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ماأظهر تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ،ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر فى معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ،يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة ،وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية ، وسأذكر منها مالا يخل طوله بالشرط المعقود ولا ينافى حصوله الغرض المقصود ». وهذا كلام نخرج منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه فى بيئة فارسية ومعارض عجمية ، وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التى كانت أغلب شىء عليه ،وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات [1] ولكننا نذكر

---

(١) أصل المقامة فى اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذى احتذاه أولا إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء نسقه فيها، وكان أولهم اتباعا تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ فى مقاماته التى وصفها الحصرى آنفا، وكلاهما عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد. ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة فى الثمن الباقى منها وهو خمسون مقامة فاعتبرت لذلك أولى المقامات

بنى البديع مقاماته على الكدية[1] وجعل الحديث فيها بين

فى المجلس استعمال الأضداد كما قال المسيب بن علس:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

وكما قال نهشل الدارمى:

إنا نظرنا فى المقامة مالكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد

وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال لبيد العامرى:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

وكما قال زهير بن أبى سلمى:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وقد سبق المجلس المقامة فى هذا الاستعمال كما قال مهلهل

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس

ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال فى مجلس يستمع له، وبعدئذ قصروه على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية فى بناء المقامات يرجع إلى انتشارها أيامه بأواسط آسيا فى صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذاك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية ، وأبو الفتح الاسكندرى شحاذا. فكانت جعبة فصاحة وبلاغة ، ولكنها وقد تركزت على الكدية وحدها، جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرحناه؛ ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يك فيها مع الكدية غيرها وهى الأزاذية (١) والبلخية والسجستانية والكوفية والأذربيجانية والجرجانية والأصفهانيــة والبصرية والفــزارية والمكفوفية (٢) والبخارية والقزوينية والساسانية والقردية والناجمية (٣) ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا ، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية؛ أهمها الوصف وقد وقع فى عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأطعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية (٤) والمجاعية والنهيدية (٥) والخمرية ، وتناول سائرها وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية والفرس فى الحمدانية (٦) وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى عاهات وحواة وقرادة وسحرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحيلون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نسبا

(١) الأزاذ نوع من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندرى كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندرى بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضير اى الحامض كالخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدى فيها فرس الى عظيم من بنى حمدان

خشن الجانب أو لينه فى الخلفية [1]، واللص يتخذ ثوب الناسك فى النيسابورية، والعلم فى العامية وإخوان الدهر بما يفعلون وما يجب أن يفعل بهم فى الصيميرية [2]، والملوك فى الملوكية، والدينار إلغازا فى الصفرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره فى السارية [3] وهى قريبة الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلون فى التميمية [4] ثم المال والدعوة إلى فتح المطالب فى المطالبية. ويلى الوصف فى العناية المطارحات الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، ستا فى الشعر وهى: القريضية فى التفاضل بين الشعراء، والغيلانية فى غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة، والاسودية [5] فى إنشاد شعر مرتجل، والابليسية فى شياطين الشعراء، والعراقية والشعرية وكلتاهما فى الالغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا فى محاورات أخرى وهى الجاحظية فى مدح الجاحظ وذمه؛ والمارستانية فى دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية فى التساب بين متشاتمين. أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها فى الوعظ والايصاء وهى: الاهوازية فى الحياة والموت، والوعظية فى الدنيا والآخرة، والوصية فى الاقتصاد والتجارة؛ وثلاث فى التمويه والتدجيل وهى الموصلية فى محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية فى عمل حرز يضمن النجاة من الغرق ثم الارمينية فى التحيل لجلب الخبز والأدم.

وقد أبدع البديع فى مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو فى حكم الارتجال.

---

(١) نسبه الى خلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور (٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندى التميمي. (٥) نسبه الى الأسود ابن قنان.

بنيسابور الابداع كله، ولهذا بعد فيها عن تكلف صناعات البديع فجاءت قليلة الغريب سهلة المتناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت فى قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حللت روضا ممتعا ينسيك كل شىء غيره وكلما سرحت نظرك فى خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره تطالبتك أجمل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى سياجه. وقد أجاد فيها الوصف والتشبيه ؛ والمقامات العشرون التى تناولت الوصف كما ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف القارىء عجبا وتأخذ بابه حيرة ودهشا، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية التى اخترناها نموذجا منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا ، كما قد أحسن فيها الكناية وأحكم الالغاز، فمن كناياته قوله فى شدة الروعة من أسد خرج عليه « فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه » وفى الخوف من فاتك لقيه فجأة « فراعنى منه مايروع الوحيد من مثله وأخذنى مايأخذ الأعزل من شاكى السلاح » وفى بلدة نزلها ولم يقم إلا قليلا « فحللتها حلول الفىء » وفى تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى جذبنى نجد والتقمه وهد » وفى مجلس صفاء ليس فيه نموم « فأخذنا نتحدث ومافينا الامنا . ومن ألغازه وكان كثيرا الألغاز فى أبيات الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعنى قول عمرو ابن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعني قول المتنبي .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس

لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع عقد على خالصه

إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل أو يكلف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغريب على رجل كان له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ مالم يكن لغيره من كاتب أو شاعر. قال عنه الثعالبي فى اليتيمة « إنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط: وهى أكثر من خمسين بيتا فيعيدها كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة خفيفة ثم يسردها سردا: وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة: وكان ربما بدأ الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيدا فى نوعه فريدا فى بابه » . ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه لا محدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبدالعزيز بن عمر المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ وأبو القاسم عبد الله ابن محمد المشهور بابن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥ ولكن مقاماتيهما لم تشتهرا، ثم جاء بعدهما فارس ميدان المقامات والمجلى فى حلبته الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ فأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع فبذه فى صناعة الكلام وإن اعترف له بفضل السبق فى هذا الفن، وهذى كلمة فى التعريف بها .

بنى الحريرى مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة فجاءت وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت فيها خمس عشرة فى الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهى الكوفية والبرقعيدية[1] والبغدادية والمكية والصورية والتفليسية والمروية والساسانية؛ وسبع فى التحيل لها وهى الدمشقية التى ادعى فيها خفر القافلة بدعوى لقنها فى المنام، والفارقيه[2] التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين ميت، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضلالها ، والواسطية التى ختل فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التى باع فيها ولده على أنه غلام، والعمانية التى علق فيها عزيمة الطلق على حامل لتضع، والحرامية[3] التى ادعى فيها أن ابنته فى الاسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ هى الصنعانية والساوية[4] والرازية والرملية الأولى والتنيسية والبصرية. وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية فى النمام، والكرجية فى الشتاء ، والبكرية فى البكر والثيب، ولا تخلو هذه المقامات الاربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولو لم يكن للحريرى من أوصاف غير افتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاه ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين .وجاءت فيها عشر فى الحوار والمخاصمه هى الحلوانية فى محاسن التشبيهات، والدمياطية فى المواصلة

---

(١) برقعيد قصبة فى ديار بكر (٢) نسبة إلى ميافارقين مدينة بالشام

(٣) نسبه الى بنى حرام بالبصرة وهى أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى ساوه مدينة بين الرى وهمذان

والقطيعة،والاسكندرانية فى أثاث زوجته وحليها إذباعه، والرحبية[١] فى دعوى القتل على برىء والفراتية فى صناعتى الانشاء والحساب والشعرية فى دعوى سرقة شعر والصعدية[٢] فى عقوق الابن والتبريزية فى نشوز الزوجة والرملية الثانية فى عصيانها والحجرية[٣] فى الحجامة. وجاءت فيها تسع فى التكنية والالغاز ، فمقامات التكنية أربع هى المعرية فى الكناية عن الابرة والميل والنصيبية فى الكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية فى الكناية عن الخمر ببكر رباها والنجرانية فى الكناية عن أشياء عشرة هى المروحة والحابول[٤] والقلم والميل والدولاب والمزملة[٥] والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب . ومقامات الالغاز خمس،هى الفرضية فى مسألة توريث والنحوية فى مائة لغز نحوى والطيبية[٦] فى مائة لغز فقهى والملطية[٧] فى عشرين مقايضة كلامية[٨] والشتوية فى خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية فى كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقا من عجب. على أن الأعجب منه ماجاء فى المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التى ابتكرها لاالتى أتى بها علم البديع وهى المقامة المغربية للعبارات التى تقرأ ردا وطردا

---

(١) نسبه إلى رحبة مالك بن طوق (٢) نسبه الى صعدة باليمن (٣) نسبه الى حجر باليمامة (٤) هو حبالة الصائد (٥) جرة يركب فى ثقب بها قصبة للشرب منها (٦) نسبة إلى طيبة مدينة الرسول (٧) ملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هى الأحاجى وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدى معنى كلام كطواميرفى معنى «جوع أمد بزاد» والفاشية فى معنى «أهمل حلية» وهكذا .

والقهقرية للرسالة التى تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء للرسالة التى إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة، والرقطاء للرسالة التى أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل ، والسمرقندية للخطبة العارية من النقط، ثم الحلبية لعشر مقطعات من الابيات، أولاها عواطل من النقط، والثانية حوال به، والثالثة أخياف أى كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة متائيم أى كل كلمتين مجنستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أى بطرفى كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السين، والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجرى عليه هذان الحرفان، والتاسعة لعقد هجاء الأفعال الناقصة، والعاشرة وهى طويلة لما ورد من الكلمات فيه ظاء .

هذا ما نحا اليه الحريرى فى مقاماته من الفن المعجز الذى غطى على كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده. وهو مع هذا بعيد عن التكلف الممقوت، ولذلك كان منصفا للحقيقة بل غير موفيها حقها حين قال من وصفها فى مقدمتها (وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والاضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى وأسندت روايته إلى الحارث

ابن همام البصرى [١] وما قصدت بالأحماض [٢] فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه،ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية،وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية،وما عدا ذلك فخاطرى، أبو عذره ومقتضب حلوه ومره [٣] هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة لايغترف الا من فضالته ولايسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ولله در القائل [٤].

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة   بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا   بكاها فقلت الفضل للمتقدم »

فمقامات الحريرى بالنسبة إلى مقامات البديع ـ وإن كانت هذه أكثر انطباعا، وأشد انسجاما،وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة ـ أبدع فنونا وأبرع خيالا وألطف فكاهة وأكثر أمثالا،ولذلك جذبت إليها طلاب اللغة للاستفادة منها،وأعلام الادب للعمل فيها ، فحظيت بمثل ما حظى به شعر المتنبي وشرحها كثير .منهم الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزى والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم ،

---

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه . أما الحارث بن همام فيعنى به نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم حارث وكلكم همام) . فبطلا مقاماته ليسا خياليين كبطلى البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر مايزيد على مالكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين على أن له ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي؛ وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب فى القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرها. ولم يك العجب بها فى القديم بأقل منه فى الحديث فهـــذا على بن الحسن المعروف بشميم الحلى المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي فى مديحه، وابن نباتة فى خطبة، والحريرى فى مقاماته؛ فهؤلاء لم يقصروا » وقال له بعض إخوانه قد تحيت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريرى فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل؛ قد عملت مقامات مرتين فلم ترضني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقنى إلا لأظهر فضل الحريرى » وقال جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشاف وهو من هو بلاغة، فى الحريرى ومقاماته.

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
أن الحريرى حرى بأن نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الورى ولو سروا فى ضوء مشكاته

وللزمخشرى هذا مقامات خمسون أيضا. ألفها قبل مقامات الحلى المذكور، وكذا لأبى منصور أحمد بن جميل البغدادى المتوفى سنة ٥٧٢، والأولى هى الباقية دون الثانية، وكلها فى الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ما عرف فيهما للحريرى والبديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتها خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين من تصدى لعمل المقامات فى العصر العباسى، ولكن لم يشتهر مع مقامات الحريرى والبديع فقبر أوضاع ، كأحمد بن الأعظم الرازى المتوفى سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور بعده حتى العصر الحديث، كزين الدين بن صقيل الجزرى المتوفى سنة ٧٠١، وعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ، وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ، والشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ، والشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٢٨٧ ، ثم المنشىء الأديب محمد بك المويلحى فى كتابه حديث عيسى بن هشام الذى حذا فيه حذو البديع، واختار له اسم راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكراه ، وأشهد لقد فاقه فى أن جاء حديثه هذا أدخل فى باب القصة من المقامات ، لما عالجه من تصوير الحوادث وتحليل الشخصيات، فهو بطل المقامة فى الحديث كما كان البديع والحريرى بطليها فى القديم.



تدوين العلوم والكتابة العلميه

علمت من الخلاصة التى أثبتناها عن تدوين العلوم فى العصر الأموى، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شىء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذى نسبه مجاهد إلى ابن عباس، وحديث رسول الله الذى دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز فى الأمصار، والأول باق والثانى غير معروف، أما الفقه فلم يدون فيه شىء ومثله القراءات. كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب فى النحو ليس لها الآن وجود. وكذلك كان الشأن فى العلوم الأخرى من تاريخ وكيمياء وفلك وطب، فلم يصل الينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرون السريانى فى الطب الذى أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسى هو العصر الحق للتدوين.

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسى بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم، فحمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج اليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها، وبذل فى ذلك على جمود كفه المال الكثير. وتبعه فى هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدى طبقة واضحة انتهى مجهودها بعصر الرشيد. ثم جاء المأمون ففضل

آباءه وأجداده فى تشجيع حركة التأليف والترجمة؛فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل ، لما أنتجته طبقة الوضع ، فأتمت العصر الأول وسلخت نصف الثانى . وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات ، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف ، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز فى شتى العلوم والفنون،وبها انتهى العصر الثانى .

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات،واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد ، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة، ومن ثم سمى عصر نضج العلوم ثم سمى عصر المكاتب لأنها كثرت فيه، كما سمى عصر توطن العلوم لأنها عمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمى لذلك عصر المذهب الشيعى . ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم سائرة به فى طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة،فعرف بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا،

غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى سلفه كما تقدم،قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه فى المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية ، وقد سبق ذلك كله مفصلا فى صدر الكتاب. ولا يفوتنا

أن ننبه هنا إلى أن الحركة العلمية فى الممالك الشرقية ونظيرتها فى الممالك الغربية كانتا فى العصر الثالث سواء، أما فى العصر الرابع فكانت فى الشرق خيرا منها فى الغرب، غير أنها اضمحلت فى الأول قبل اضمحلالها فى الثانى.

هذا والعلوم التى خلفها المسلمون فى العصر العباسى من وضعهم أو ترجمتهم نوعان. إسلامية من شرعية كالتفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها، والادب ويلحق به التاريخ[١] وغيرها. ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية. وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الاول بقسميه، وأخرى مجملة عن النوع الثانى بأقسامه الاربعة.

العلوم الشرعية

١ — التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة فى العهد الاموى كمجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبى رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة، وكابرهيم النخعى والشعبى من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة، وكمالك بن أنس والحسن البصرى من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة:

---

(١) من مباحث الأدب أيضا العروض والقافية وسيأتى القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه.

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، فدونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفاسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غريبه وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازه، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التآويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عمن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استمد الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبرهيم الثعلبي صاحب «الكشف والبيان» والحوفي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ردحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الثعلبي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعتزلة في كشاف الزمخشري، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفاسير بالرأي والقياس دون تقيد بآراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهرتهم كانوا يرجعون في قراءتهم الى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحق وحمزة بن حبيب وعاصم بن أبي النجود وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلثمائة أحلوا في هذا الاقتداء علي بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيي اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات [1]

٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث ماقام به ابن حزم بأمر عمر بن عبد العزيز، ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين .

ولما كان الافتراء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أثبت فيه الحديث مرتبا على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيهما معا . وقد حمل تمييز الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح والتعديل، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير . أشهرهم إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث الصحيحة مجردة من الموضوعة وكانوا قبل ذلك يدونونهما معا اكتفاء بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصحها، جامع الصحيح للبخاري والجامع

(١) قد فصلنا القول في القرآت حيث الكلام على جمع القرآن وروايته في كتابنا عن صدر الاسلام والعصر الأموي

الصحيح للنيسابورى والسنن لابن ماجه القزوينى والسنن كذلك لأبى داود السجستانى، والجامع لأبى عيسى الترمذى والسنن أيضا لأبى عبدالرحمن النسائى، وبعدهذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث فى العصر الثالث واتجه اهتمام أئمته إلى ترتيب شيوخه وتبيين مراتبه والتوسع فى مصطلحه. ومن كبار المحدثين فيه، الحاكم النيسابورى وأبو الفتح الرازى وتلميذه أبو بكر البيهقى وكان كل جهدهم خدمة الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة أما فى العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوى التآليف كثير منهم البغوى صاحب مصابيح السنة، والجزرى صاحب جامع الاصول فى أحاديث الرسول، والنهاية فى غريب الحديث

٣ — الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون فى الفقه موطأ مالك بن أنس إمام الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأى لوقوفهم عند الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا بالقياس والرأى فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم أبى حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل المحدثون اليه بالعراق مزجوا بالرواية الرأى وظهر ذلك جليا فى صاحبيه أبى يوسف ومحمد. واتفق أن رحل الشافعى إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب مالك وأبى حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ من بعض أصحاب الحديث عن الشافعى، ومن بعض أئمة القياس والرأى عن أبى حنيفة، فكان مذهبه المعروف. وبذلك تمت فى العصر العباسى

الأول المذاهب الاربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبحرين وبعض الشام. ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك ،والفقه الأكبر لأبي حنيفة ، والأم للشافعي، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كمذهب الطبري القريب من الشافعي، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الاربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضا غير التلخيص والشرح والتعليق، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع، ومن فقهائه أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع ،والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز في فقه الشافعي، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه في الأئمة رسوخا جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي: الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الاخيرين، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد سايرت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه

٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام فى العصر العباسى على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف فى التوقف عن البحث فى المتشابه ومايوهم التشبيه. فانهم حين تناولوا البحث فى الأمرين ضل كثير منهم فى التأويل ووقع فى التجسيم المنافى للتنزيه، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخلين فى الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والأوهام، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف الى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام. وظهر الخلاف أول ماظهر من واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقة الحسن البصرى واتبعه فى ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال. وقد نمى هذا العلم ماكان عليه الخلفاء من اختلاف، فبعضهم كان ينصر أهل السنة، كالمهدى وبعضهم ينصر المعتزلة كالمأمون. ثم زاد الاعتزال نموا فى العصر الثانى وفرة الفلسفة، لما كثر من ترجمة كتبها ولم يقف تياره إلا ظهور أبى الحسن بن إسماعيل الاشعرى الذى استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم، كما ألحق به مبحث الامامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالأشعريين. وقد أيده فى العصر الثالث أبو بكر الباقلانى فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذى بقى عليه كثير من الاتباع. ثم لقى مثل هذا التأييد فى العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازى وحجة الله الغزالى صاحب التآليف الكثيرة الواسعة فى هذا الباب، ومنها كتاب الاحياء. وفيه كثير من مباحث الكلام

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج فى علم الكلام، على شق الطريق إلى علم المنطق فنبغوا فيه وساعدهم على هذا النبوغ ما نقلوه عن اليونان فى جميع مباحثه من فصول ؛ ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقى عليها من بعدها إلى الآن .

العلوم اللسانية

١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلى النحو بالبصرة فى العصر الاموى كما عرفت فى كتابنا الثانى، فاختلف إليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه ، كان منهم عنبسة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى . وعنهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبى اسحق، وأسماء الحضرمى وأبو الخطاب الاخفش الأكبر وأبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفى وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسى، وقد تبارت فى التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الاولى فيه سوى أوراق، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمال، وهما أول ما ألف فى النحو البصرى، وكان لأبى جعفر الرؤاسى كتاب الفيصل أول ما ألف فى نحو الكوفيين ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسى فتشققت عليهما الطبقة التى وضعت أساس التأليف فى النحو وسائر علوم اللغة ، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقد بينهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذى لا يأخذون به إلا لضرورة ، وقد ساعدهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجام. ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط[1] شارح كتاب سيبوية ؛ وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفى ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصرى . وبعدهما كانت في البصرة طبقة التوزى والجرمازى والجرمى والمازنى والسجستانى، وفى الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثانى . ولما توالت فتن الزنوج والقرامطة على المصرين جلا علماؤها إلى بغداد؛ ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهى خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم نجد فى العصر الثالث جديد إذ كان أكثر ما دون شروحا وتعليقات على المذهبين .

---

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه، أما الاكبر المذكور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أستاذ سيبويه ، والاصغر هو أبو الحسن على بن سليمان تلميذ المبرد .

من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحو فيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس فى كلام العرب » وصاحب رسالة فى إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جنى صاحب الخصائص فى أصول النحو، وسر الصناعة فى النحو، وشرح تصريف المازنى واللمع فى النحو، والمحتسب فى إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافى والرمانى ولكل هؤلاء مؤلفات . وفى العصر الخامس وضعت أهم كتب النحو والصرف التى عليها معول العلماء الآن كالكافية فى النحو، والشافية فى الصرف وهما لابن الحاجب، وتصريف العزى لعز الدين الزنجانى فى الصرف، ومفتاح العلوم للسكاكى وغيرها

٢ — متن اللغة

كان المرجع فى معرفة معانى المفردات طوال العهد الأموى ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأدباء . ولما جاء العصر العباسى فكر بعض الأئمة فى تدوين رسائل صغيرة فى فئات من الالفاظ كالتى تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر فى اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها، فوضع كتابه العين الذى رتبه على حسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفة مبتدئا إياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى أتمه جماعة بعد وفاته، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم فى متن اللغة. وفى العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجمهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى للأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما، ورتبه على حروف الهجاء من الهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر كتابه التهذيب على ترتيب الخليل فى عشر مجلدات ، كما ألف الصاحب بن عباد المحيط فى سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس المجمل حاذفا الشواهد ، والجوهرى الصحاح الذى جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروزابادى القاموس المحيط ، والزمخشرى أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغانى المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعباب، ثم جمع بينهما فى مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحى أخرى من اللغة كالأجناس فى فقه اللغة للثعالبى، وشرح غريب الحديث للجزرى وغيرهما .

٣ — البلاغة

تطلق البلاغة فى عرف العلماء على علوم ثلاثة هى المعانى والبيان والبديع، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذى خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهى فى البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاص لها قبل هذا الكمال، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه اليه فى معنى قوله تعالى « طلعها كأنه رءوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر:

أيقتلني والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال[1]

---

(١) استعمل أبو عبيدة فى تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا بالمعنى الذى اصطلح عليه بعد ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطا من النحو

وكالذى كان من الجاحظ فى تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذى بقيت منه أبحاث كثيرة منقولة فى كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله ابن حسان، وفى كثير من كتابه البيان والتبيين ؛ وكالذى كان من المبرد حين قال له الكندى الفيلسوف « أرانى أجد فى كلام العرب حشوا إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم ،ثم يقولون إن عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ،فقال له أبو العباس « بل المعانى مختلفة،فالأول إخبار عن قيام والثانى جواب عن سؤال سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعانى . ثم جاء ابن المعتز فراقه ماكان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء ، فحصر منها سبعة عشر نوعا سمى كلا منها وسماها فى مجموعها البديع ؛ وإن كان فيها بعض ماهو الآن من البيان كالاستعارة والكناية . ولهذا كله يمكن أن يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثانى ، وإنه وضعت أبحاث كثيرة خلاله وخلال الأول للمعانى والبيان . وقبيل انتهائه عقب قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز فى كتابه «نقد قدامه» الذى أتى فيه عشرين محسنا وافق ابن المعتز فى سبعة منها ، واختص بثلاثة عشر كما اختص ابن المعتز بعشرة ، فتمت المحسنات ثلاثين . وفى العصر الثالث ألف ابن هلال العسكرى كتابه الصناعتين فى معظم أبحاث هذه العلوم الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفى الرابع

والبلاغة وان كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب كان منه كما رأيت .

ألف إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجانى كتابه « دلائل الاعجاز »، وكتابه « أسرار البلاغة » مغايرا على الاول أبحاث المعانى، وعلى الثانى أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا، وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة، وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة فى طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم فى النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزوينى فى كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرى الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث (١)

٤ — الأدب والتاريخ

عالجنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشارقة، أما علماء الممالك الغربية فقد كاد ينحصر عملهم فيها فى كتابى « المثل السائر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعانى و « تحرير التحبير » لعبد العظيم بن أبى الاصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التسعين.

الاسلام أخذت تستخدم فى التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر فى التهذيب، وبذلك تناول مأثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره فى المذام. وعرف من يروى ذلك بالأديب، ومن هنا جاء تعريف الأدب منذ صدر الاسلام بأنه «معرفة كلام العرب نثرا وشعرا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها» وعلى هذا كان التأديب فى عصر الراشدين، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك. وقد عظمت رواية الادب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بكتابنا الثانى. والذى نريد أن نقوله الآن، إن ما روى فى العصر الأموى بقى غير مقيد فى كتاب حتى إذا ما جاء العباسى ودخل الاسلام كثير من الأعاجم الذين تعلموا لغة العرب، وجدت الحاجة إلى التوسع فى قواعد النحو للتحرز من الاخطاء، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة، وقد دفع الحرص على هذين الامرين معا إلى تقييدهما بالتدوين، كما حبب بعد مواطن العباسيين عن البوادى، إلى طائفة من فصحاء الاعراب، التردد على حواضر العراق لمد الرواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحى، وأبو مالك بن كركرة، وأبو الجاموس بن يزيد، وأبو عدنان بن عبد الأعلى، وشبيل بن عرعرة الضبعى. وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد، وأبو محلم الشيبانى. ثم تعدى سيلهم المصرين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمضم الكلابيان

وأبو شبل العقيلي والفقعسي الأسدي . بل تجاوزها إلى خراسان كأبي العميثل مؤدب الطاهريين . ولكثير من هؤلاء كتب لم يصل منها شيء لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ؛ قد دونه الرواة في العصر العباسي الاول فكان مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقائض جرير والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعي عبد الله بن قريب صاحب الاصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الانسان وكثير من الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة وكتابي المطر واللبن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب المصنف والامثال وفضائل القرآن والمواعظ . على أن هناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقات ، والضبي صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ، والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الاول العباسي نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب صاحب جمهرة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الاربعين صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له في عالم الأدب مكان ، ثم كانوا يحيدون في كلامهم عن الاكثار من اللغة التي بدأت تتميز عن الادب ، كما حاد أسلافهم أوله عن الاكثار من النحو ، فتميز منذ أول العصر .

ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العاملين إلا لماما ، وبعني بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التي تتعلق برجاله ، ثم جلا الأدباء في أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير في أمور ، منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروى بما يحلل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا في كل باب طائفة ، ومنها غيرهما الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالى الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اصطبغت به كتب الادب وتوخاه في التصنيف الأدباء ، كالجاحظ إمامهم وفاتح الفتح في التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاضداد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبيه الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف والعرافة والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المغنين والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكابن قتيبة المقفى للجاحظ في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الاخبار في عشرة كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والامامة والسياسة والشراب والاشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكقدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرهما ، ر محمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في بابه فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء وألفاظ المكاتبات ومايكتب من الأشعار على الثياب والأدوات، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره . إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الادب فيه .

أولا :- انتشار الروح القصصية التى أحياها فى العصر الأول ابن المقفع، ونماها فى الثانى من اقتفوا أثره فيها كالجاحظ، وقد قدمنا القول على ذلك مبسوطا فى الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانيا :- انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه فى العصر الثانى بالمعنى الذى نريد قدامة بكتابيه المذكورين فكان فى أدبائه من انتقد الرواية والأخبار ، كأبى الفرج فى كتابه الأغانى أضخم كتب الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد الشعراء كحسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ فى كتابه «الموازنة بين أبى تمام والبحترى » فانه لم يترك لكليهما شيئا مما يقوله متعصب له أو عليه، إلا أورده فى أسلوب جدلى ممتع ونقاش حصيف . وكالصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ فى كتابه « مساوى المتنبى » الذى كان شديد التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله ، وكعبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » الذى تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم ، فانتصف للمتنبى انتصافا مؤيدا بالحجة والبرهان . كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقادا مبنيا على قوانين البلاغة التى وضع

بعض قواعدها فى العصر الأول وتمت فى الثانى واطردنموها فى الثالث، كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ فى « كتاب الصناعتين الكتابة والشعر » فقد ملأه نقدا مؤسسا على ضوابط الفصاحة والبلاغة فى الأساليب والمعانى، بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابغ الشعراء وكبار الكتاب ، كالثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فى كتابه « يتيمة الدهر » الذى سبق القول عنه ، وفى كثير من كتبه المعروف منها نحو الاربعين كالاعجاز والايجاز ، وخاص الخاص ، ونثر النظم ، وحل العقد ، وشمس الادب فى استعمال العرب ، والكناية والتعريض ، وأجناس التجنيس، وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهاية فى الكناية، ولا ننس من نقاد هذا العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعرى الذى جاءت « رسالة الغفران » له مبنية عليه لحمة وسدى .

ثالثا — نضج نوع من الادب هو المحاضرة، وغايته اقتدار الأديب على إيراد كلام غيره المناسب لما يطرأ فى محضره ، وعماده كثرة الحفظ وجودة البديهة ، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدى المتوفى سنة ٤٠٠ و « التمثل والمحاضرة » للثعالبي و « الدرر والغرر » للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ .

ولما جاء العصر الرابع اطرد رقى هذه الظواهر الثلاث . فأما القصة فقد علمت ذلك عنها ، وأما النقد فكان من أصحه وأمتعه ماوقع من عبد القاهر فى كتابيه « دلائل الاعجاز وأسرار البيان » وماوقع للموصلى فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعانى[1] ؛ أما المحاضرة فقد جاءت فيها « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » لأبى القاسم الراغب الاصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢، خزانة أدب لكل مايقال عن الشيء وضده فى خمسة وعشرين بابا – سمى كلا منها حدا – فى العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد عني بتدوينه منذ العصر العباسى الأول فى الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخى الأنساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي صاحب جمهرة الانساب؛ ومن مؤرخى السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبويه لأبى بكر محمد ابن إسحق ، ومن مؤرخى الطبقات أى التراجم: أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخى الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى صاحب المغازى وغيرها فى الفتوح .

وفى العصر الثانى توسع المؤرخون فخرجوا فى الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المشهور ؛ أو خاص بالناس أو البلدان كأبى الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خمارويه؛ أو غيرهما من تاريخ العرب

---

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبى العباس الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ فى كتابه « العمدة » الذى جاء أجل كتاب فى صناعة الشعر ونقده، وفى كتابه « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب » .

المتصل بأدبهم كمحمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والأيام في أكثر من أربعين جزءا . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري — خاتمة مؤرخي الفتح - صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شيء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ؛ ومن كبار الرحالة فيه، علي بن الحسين المعروف بالمسعودي . كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الاشخاص أو المدن ، فمن رجالها في تاريخ الأمم، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر، ومنهم في تاريخ الاشخاص، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي صاحب اليميني في تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلاطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كالوزير جمال الدين علي بن ظافر الازدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب السير كمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذي صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، ومترجمو الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب في معرفة الاصحاب، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار كأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبي الحسن علي بن محمد المعروف بعز الدين ابن الاثير صاحب الكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها وأوضحها وأوسعها. وهو منذ الخليقة إلى سنة ٦٢٨ في اثني عشر جزءا

العلوم الكونيه

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ،طبيعية ورياضية والهية وسياسة . فمن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة والمواليد الثلاثة «الحيوان والنبات والجماد »، ومن الرياضية الجبر والحساب والهندسة والحيل « الميكانيكا »والفلك والجغرافية النظرية؛ ومن الالهية صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن السياسية تنظيم الملك وتدبير المنزل وتدبير المال والاخلاق. وإليك كلمة مجملة عنها مجموعة كما وعدنا، لانها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب تحوج إلى إفرادها كما أفردنا موادالعلوم الاسلامية من شرعية ولسانية قبل.

ذكرنا في صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها، أن الفرس أحرزوا منذ القديم قسطا وافرا من العلوم أوجدوا بعضه، ثم ورثوا بعضا عن الآشوريين والبابليين، وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين ، كما ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها سابور بن أزدشير إلى بلاد اليونان، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنو شروان . وبذلك كان العلم القديم كله تقريبا مستقرا في بلاد الفرس فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسى اختلاطا كبيرا؛ ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم ، فعمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه فى ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس فوقه اهتمام؛ حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لا عن اللغة الفارسية كما حدث قبله، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولاسيما الفرس واليونان والهنود على أيدى تراجمة ماهرين .

وقد كان خلفاء الدولة يتخيرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه، فكانوا يعتمدون فى السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس ، وفى الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان ، وفى الحساب والنجوم والعقاقير والاقاصيص على الهنود؛ على أنهم نقلوا علوما أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ، كالفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم عن الانباط والكلدان ، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين . ثم مزجوا ذلك كله بعضه ببعض وأخرجوه فى طابع عرفوا به ونسب إليهم فى العصر العباسى الأول ، فكانوا فى ذلك مثار الدهش والاعجاب . ومما ينبغى أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جعلهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركوهم النفوذ وأرادوا إظهار مآثر أسلافهم فيها كما ظهرت فى سائر العلوم ، ولو كان لأبناء الأمم الاخرى مثل ما لأبناء للفرس فى هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء .

وقد كان معظم النقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضرهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الاعسم، وآل سرجويه، وآل ثابت الحرانى وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا ، والحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقى وأبو بشر بن يونس ويحيى بن عدى . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن على بن زياد التميمى، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذرى، وإسحق ابن يزيد، ومحمد بن الجهم، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى، وعمر بن الفرخان، وجبلة بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم فى النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم.

هذا والكتب التى نقلت تعد بالمئات ولكن الباقى منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطى لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر، والسياسة فى تدبير الرياسة ترجمة يوحنا البطريق، ورسائل فى الطب ترجمة قسطا بن لوقا، والمدخل فى الطب ورسائل أخرى فيه، والنواميس لحنين بن إسحق ، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهى هذا العصر الاول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل؛ فهو قد أدرك

العصر الثانى وله تآليف كثيرة فى معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة فى كل علم ولكن الباقى منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى فى السماء وذات الشعبتين «آلة فلكية» واختبارات الأيام ورسالة فى الموسيقى ، ومقالة فى تحاويل السنين .

وفى العصر الثانى زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم . ومن نبغائهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى فى المكانة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا فى المنطق و٨ فى السياسة والأدب و٢٧ فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فمؤلفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقى منها بضع وعشرون أغلبها فى الطب الذى يقال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكمله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى فى الامراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الملوكى ألفه لصاحب طبرستان ، والمرشد والكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيميائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعمله إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله فى الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبغ كثير أشهرهم أبو على الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف فى كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقى منها إلى اللغات الاوربية فأثر فى نهضتها الحاضرة تأثيرا بينا. منها فى الطب القانون فى ١٤ جزءا والشفاء فى ١٨ جزءا «بعض أجزائه فى علوم أخرى» وفيها فى الفلسفة الاشارات والنجاة وفى الالهيات النفس الالهيات وقصيدة النفس، وفى المنطق الاشارة والعروس، غير كتب أخرى فى الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضا جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعا فى كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة. وقد تقدمت فى هذا العصر الكيمياء فأنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة: وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائرا إلى الامام بالمشرق فى هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهتم الاندلسيون بها.

وفى العصر الرابع اطرد نمو هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب ولكن الاندلس فى أواخره فاقت المشرق الذى كان له السبق فى أوائله فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفى أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ صاحب الكتب الكثيرة التى كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور.

وإن المقام ليضيق عن عد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال العصرين الثالث والرابع : فلنكتف بالعلمين المذكورين «ابن سينا وابن رشد» اللذين جاء أولهما فخر المشرق فى العصر الرابع، وجاء ثانيهما فخر المغرب فى الخامس :

هذا - وقد خلق تدوين العلوم بنوعيها كتابة علمية هى لغة التأليف . كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التى انتهت بانشاء المدارس فى العصر الأخير بالمعنى الذى نعرفه الآن : وهذى كلمة عن كليهما تلائم المقام .

الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوعى العلوم من إسلامية وكونية.

فكانت فى العلوم الاسلامية من شرعية ولسانية فى العصر الأول العباسى، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليلا ماكان يزيد المصنف على هذا الجمع مايربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر فى اللسانية منها فى الشرعية، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا فى الفقه والكلام، فقد كانت فيهما أقل درجات فى البيان . ولما جاء العصر الثانى نمت هذه الزيادات على مارأيت آنفا فى تاريخ العلوم واطرد نموها فى الثالث لنمو العقلية واتساع الأبحاث : فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد فى الرواية وبخاصة فى علوم اللسان مع بقائها ذات قوة فى التعبير وجمال فى الأداء، حتى إذا ماجاء العصر الرابع فسد هذا الجمال فى أوله بالصناعة اللفظية التى أضرت

بالتعابير ، وفى آخره بالصناعة المنطقية التى أصابته بالتعقيد .

وكانت فى العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول ـ ماعدا الادبية التى كانت آية فى البيان ـ لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية فى ثوب ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة فى آخره على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الحذاق الذين أعادوا ماترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة فى معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة فى العصر الثانى . أما فى الثالث حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن اختمرت معانيها فى نفوسهم . فقد اقتربت لغة التأليف فى العلوم المترجمة ، من لغته فى العلوم الاسلامية الشرعية ، بل فى بعض اللسانية لأن التأليف حينذاك كان وضعا لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من الاغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلا فى العصر الأخير الذى تسرب فيه من الفساد مثل ماتسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه كان فى تعقيد المعانى شراً منه فى تكلف الالفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى مااستحدثه تدوين العلوم بنوعيها وخاصة الكونية فى اللغة من تأثير فى الالفاظ . فقد خرج كثير منها عن معانيه الاصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة فى جميع العلوم ، وهأنت ذا تعرف طوائف منها فى العلوم الاسلامية شرعية ولسانية ، وهاك بعضها فى الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فمن الطبية ، الكحالة والصيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، فى فنون الطب ، والرطوبات والامزجة والاخلاط كالحار والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء فى مصطلحات هذه الفنون : والمسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر وسائر مشتقاتها فى الأدوية، والفسخ والرض والخلع والفتق والجبر فى الجراحة، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير فى الامراض ، ومثلها ماجاءفى وصفها كالمزمنة والحادة والغب والربع وغيرها فى أوصاف الحمى مثلا .

ومن الفلسفية القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها فى الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة فى التصوف .

وقد نقلت ألفاظ أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها فى أسماء العقاقير والأمراض والأدوات والفلسفة . كالبقدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والمالنخوليامن الأمراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية، وكالاصطراب والانبيق من الأدوات اليونانية ،والبركاروالاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطلسم فى الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب؛ كالمعرب من الكلام الأعجمى لأبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الالفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الاصلية . فكثر استخدام فعل الكون ، وأدخلت أل المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره؛وصيغت كلمات من الاسم أوالضمير أومنهما معا كالكمية والهوية والماهية.وكثر استعمال الجمل المعترضة والفعل المبنى للمجهول والألقاب وهكذا

مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الاول إلى آخر العصر الأموى بالادب والشعر، وما كان على عهودهم من علم، فيما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثانى، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت فى العصر العباسى كما كانت فى سابقيه ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى والمسجد الاموى، وجامعى البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، مساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الحاكم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسى الاول وولع خلفاؤه بهما ولعا شديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكاهم فى ذلك الامراء والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات فى العلوم اللسانية والشرعية وتغدق العطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا فى المال. قال أسامه بن معقل «كان السفاح راغبا فى الخطب والرسائل يصطنع أهلهم ويثيبهم عليها فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب، يدنى أهلها ويجيزهم عليها، فلم يبق شىء منها الا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادى مغرما بالشعر يستخلص أهله فما تركت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها» ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيد لتحدث عنه أضعاف ماتحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة ؛ ولكن لم تكن المناظرة فى هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الادبية ، فقد احتدم فيها النقاش واشتد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كالكلام وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون لحرية البحث وانغماسه فى أعقد مسائله كخلق القرآن إلى العامة ، وتشدده فى ذلك تشددا أوقع الناس فى الفتن والمحن طوال عهده وعهد المعتصم والواثق من بعده ، ولم ينجهم منها إلا المتوكل الذى قضى على ماكان يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت فى العصر الثانى الذى بدأه المتوكل بهذا التسكين ، خلافات كانت تثور حينا وتهدأ حينا بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت المناظرات الدينية حية إزاء الادبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخلق خلافا صحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شىء كثير كاد يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت الايام فى العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة والايوبيين ؛ فحيي للسنة فيه مثل ماكان للشيعة فى سابقه ، ولكن مع خمول المناظرات فى الادب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبى والعلمى ؛ أما النوعان المذهبى والفلسفى فمناظراتهما طويلة يمكن الرجوع فى مثلهما فيهما إلى ماكان من المأمون فى علويته وفى قوله بخلق القرآن .

١ ـ حضر عند الرشيد الأصمعي والكسائي فسأل الرشيد عن بيت الراعي:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا

فقال الكسائي كان قد أحرم بالحج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال الرشيد ماعندك؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضا أنه دخل في شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام. فقال الكسائي ماهو إلا هذا وإلا فما المعنى للاحرام ؛ قال الاصمعي نخبرني عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

أي إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعني؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا محرما يوجب تحليل دمه، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ماتطاق في الشعر.

٢ ـ جاء عيسى بن عمر الثقفي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال ماشيء بلغني عنك أنك تجيزه قال وماهو؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدلج الناس ثم قال ليحيي بن المبارك وخلف الاحمر امضيا إلى أبي مبدية فلقناه الرفع فأنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نبهان فلقناه النصب فانه يأبى ، فمضيا إلى أبي مبدية فقال ماخطبكما قالا جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب قال هاتياه، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أتأمراني بالكذب على كبر سني فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر مالهم غير التمر؟ قال يحيي « ليس ملاك الامر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لادخل فيه ليس ملاك الامر إلا طاعة الله، والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى . ثم جاءا إلى المنتجع

فقالا له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك» ونصبا فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبراهما بما سمعا. فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس ـ انقضى العصر الاول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة فى مثل المربد، ثم المجالس الخاصة فى دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهليهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتاب أو استفتاء فى موضوع ، مع غلبة التقشف فى المعيشة والزهد فى الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث فى الدروس اضطرابا وفى النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا فى حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الامر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الايام فى الوزاره نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ فى تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأتمها بعد سنتين وافتتحها فى حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازى رياسة التدريس بها، وفرض لأساتذتها وطلابها المرتبات فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن فى الاسلام (١) ثم بنى أخرى باسمها

(١) أنكر الحافظ الذهبي فى كتابه تاريخ الاسلام هذه الأولية لنظام الملك وذكر بعض مدارس فى نيسابور ، منها البيهقية نسبة إلى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ ، والسعيدية التي أسسها فيها الأمير نصر أخو محمود الغزنوى واليه بها ،

فى نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم،فأنشأ السلطان نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس فى معظم بلاد الشام،والسلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها فى القدس والاسكندرية والقاهرة . ومما كان يحبب فى هذا الانشاء،رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار بيلاط السلاطين فى وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الابقاء على شيء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على مافعلوا من الله، ويضمنوا لبنيهم بقاء هذا الشيء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب، ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه حين أبطل المذهب الشيعى من الازهر ، مدرسة لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الشافعى والمالكى والحنفى . وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل انتهاء القرن السادس ـ ذكر ابن جبير فى رحلته أنه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد ـ فكانت هذه الكثرة ماطفة للأحداث الخطيرة التى نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسى وتعدته إلى ما بعده من العصور .

على أن تاج الدين السبكى قد وفق بين الأمرين بقوله فى طبقاته « قد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها — أى فى المدارس — المعاليم للطلبة،فانه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معاليم أم لا ، والظاهر أنه لم يكن لهم — أى للطلبة — معلوم »

الشعـــــر

أولا — نماذجه

١ — قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين[1]

ياليلة تزداد نكرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرا
تنسى التقى معاده وتكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبا وعطرا[2]
وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
جنية إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحببت خبرا
إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى عشرا وتحت الموت عشرا[3]

---

(١) هو بشار بن برد الفارسى أصلا ، العقيلى ولاء الضرير الشاعر المتصرف فى فنون الشعر الذى أجمعت الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين. وهو من مخضرمى الدولتين، وقد عمر نيفا وتسعين سنة (٢) تقاءلون وطيب رائحة (٣) ليس هذا العدد مرادا لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه لهواها وألمه لخوف موتها من شكاتها .

٢ — وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا (١)

أزين نساء العالمين أجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه ... لشدة إعوالي وطول نحيبي
أخط وأمحو ما خططت بعبرة ... تسح على القرطاس سح غروب
أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني ... لطول نحولي بعدكم وشحوبي
وأنت من الدنيا نصيبي فان أمت ... فليتك من حور الجنان نصيبي
وإني لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام اليكم ... فان هي يوما بلغت فأجيبي
أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرب دار كل حبيب
أقول وداري بالعراق ودارها ... حجازية في حرة وسهوب (٢)
وكل قريب الدار لا بد مرة ... سيصبح يوما وهو غير قريب
سقى منزلا بين العقيق وواقم ... إلى كل أطم بالحجاز ولوب (٣)
أجش مديم الرعد دان ربابه ... بجود تمريه شمال وجنوب
أزوار بيت الله مروا بيثرب ... لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا ... على جاب للحادثات جايب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا في حبال شعوب

---

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفي الشاعر الرقيق الحاشية اللطيف الطباع الغزل الخاص للغزل . فجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الأرض الصلبة السوداء الحجارة ، والسهوب جمع سهب بالضم وهو الأرض المستويه السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والأطم القصر أوالحصن أو كل بيت من حجارة ، واللوب جمع لوبة كالألاب جمع لابة وهي الحرة

به سقم أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطىء ومصيب
إذا ما عصرنا الماء فى فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا الى منها جرعة فى زجاجة ... ألا إنهـا لو تعلمون طبيبى
وسيروا فان أدركتم بى حشاشة
لها فى نواحى الصدر وجس دبيب [1]
فرشوا على وجهى أفق من بليتى ... يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فان قال أهلى ما الذى جئتم به ... وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائه بذنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم ... وبينى بيوم المنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة ... حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبرى من الماء واندبوا ... قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحله [2]

لا يصرفنك عن قصف وإصباء ... مجموع رأى ولا تشتيت أهواء
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة ... من كف ساقية كالريم حوراء
لها ذيول من العقيان تتبعها ... فى الشرق والغرب فى نور وظلماء
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها ... لكن إلى العسل الماذى [3] والماء
نتاج نحل خلايا غير مقفرة ... خصت بأطيب مصطاف ومشتاء

---

(١) صوت خفى لنفس يدب

(٢) هو أبو على الحسن بن هانىء الفارسى أصلا الحكمى ولاء، أرق الشعراء حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعانى الرقيقة، وثانى الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) الأبيض

ترعى أزاهير غيطان وأودية ... وتشرب الصفو من غدر وأحساء

فطس الأنوف مقاريف مشمرة ... خوص العيون بريئات من الداء

من مقرب عشراء ذات زمزمة ... وعائذ متبع منها وعذراء

تغدو وترجع ليلا عن مساربها ... إلى ملوك ذوى عز وأحياء

كل بعقله يمضى حكومته ... فى حزبه بجميل القول والراء (١)

حتى إذا اصطلك من بنيانها قرص ... أروينها عسلا من بعد اصداء

وآن من شهدها وقت الشيار (٢) فلم ... تلبث بأن شيرت فى يوم أضواء

وصففوها بماء النيل إذ برزت ... فى قدر قس كجوف الجب روحاء (٣)

حتى إذا نزع الرواد رغوتها ... وأقصت النار عنها كل ضراء

استودعوها رواقيدا (٤) مزفتة ... من أغبر قاتم منها وغبراء

وكم أفواهها زهر على ورق ... من حر طينة أرض غير ميثاء (٥)

وعمرت حقبا فى الدن لم يرها ... حى من الناس فى صبح وامساء

حتى إذا سكنت فى دنها وهدت (٦) ... من بعد زمزمة منها وضوضاء

جاءت كشمس ضحى فى يوم أسعدها ... من برج لهو إلى آفاق سراء

كأنها ولسان الماء يقرعها ... نار تأجج فى آجام قصباء

لها من المزج فى كاساتها حدق ... ترنو إلى شربها من بعد إغضاء

كأن مازجها بالماء طوقها ... منزوع جلدة ثعبان وأفعاء (٧)

فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا ... على مساعدة العيدان والناء (٨)

---

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة، الدن والخابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى (٨) مهموز ناى .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيبانى فى قتله الوليد ابن طريف (١)

لولا يزيد وأيام لنا سلفت عاش الوليد مع الغاوين أعواما
كالدهر لا ينثنى عما يهم به قد أوسع الناس إنعاما وإرغاما
ترى العفاة عكوفا حول حجرته يرجون أروع رحب الباع بساما
منية فى يدى هارون يبعثها على أعاديه إن سامى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا وأكرم الناس أخوالا وأعماما
تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته وبأس أول من صلى ومن صاما
إن يشكر الناس ما أوليت من حسن فقد وسمت بنى حواء إنعاما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيب منك مع الآمال صاحبها حلما وعلما ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبها وما يلم بها الركبان إلماما
إذا علوا مهمها كان النجاء لهم إنشاد مدحك إفصاحا وترناما

---

(١) هو صريع الغوانى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر المتصرف، البالغ المدح، الجيد القول فى الشراب، كأبى نواس وهو على ماقيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبعه فى ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو يلى بريد جرجان للمأمون. وجل مدائحه فى البرامكة والمهالبة ويزيد ابن مزيد الشيبانى .

لو كان يفقه رجع القول طائرها　　غني بمدحك فيها بومها الهاما

لو لم تكونوا بني شيبان من بشر　　كنتم رواسي أطواد وأعلاما

٥ — وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ فى الحكمة (١)

الحرص داء قد أضر　　م بمن ترى إلا قليلا

كم من عزيز قد رأيت　　الحرص صيره ذليلا

فتجنب الشهوات واحـ　　ـذر أن تكون لها قتيلا

فلرب شهوة ساعة　　قد أورثت حزنا طويلا

من لم يكن لك منصفا　　فى الود فابغ به بديلا

وعليك نفسك فارعها　　واكسب لها فعلا جميلا

ولقلما تلقى اللئيـ　　ـم عليك إلا مستطيلا

والمرء إن عرف الجميـ　　ـل وجدته يبغى الجميلا

اضرب بطرفك حيث شئت　　فلن ترى إلا بخيلا

٦ — وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثى محمد بن حميد الطوسى (٢)

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر　　فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الآمال بعـد محمد　　وأصبح فى شغل عن السفر السفر

وما كان إلا مال من قل ماله　　وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

وما كان يدرى مجتدى جود كفه　　إذا ما استهلت أنه خلق العسر

---

(١) هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسى أصلا، العنزى ولاء شاعر سهل الألفاظ حكيم المعانى. أكبر الشعراء زهدا وحكمة.

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى واحد عصره فى ديباجة اللفظ وصناعة الشعر وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالاقى شعر المتنبى من عنايه

ألا فى سبيل الله من عطلت له ... فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... اليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر (١)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمرا فما دجا ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بني نبهان (٢) يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى ... الى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتر فهى الآن من بعده بتر
أمن بعد طى الحادثات محمدا ... يكون لأثواب الندى أبدا نشر
إذا شجرات العرف جذت أصولها ... ففى أى فرع يوجد الورق النضر

---

(١) الأخمص كاصبع مالم يصب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده ... لعهدى به ممن يحب له الدهر

لئن غدرت فى الروع أيامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدر

لئن ألبست فيه المصيبة طيء ... فما عريت منها تميم ولا بكر

كذلك ما ننفك نفقد هالكا ... يشاركنا فى فقده البدو والحضر

سقى الغيث غيثا وارت الارض شخصه

وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر

وكيف احتمالى للغيوث صنيعة ... باسقائها قبرا وفى لحده البحر

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضه ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ... ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

عليك سلام الله وقفا فاننى ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

٧ — وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الاول وكتابه يرثى أم ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان (١)

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان

رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان

وبات وحيدا فى الفراش تجنه ... بلابل قلب دائم الخفقان

فلا تلحيانى أن بكيت فأنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريان

فهذى عزمت الصبر عنها لأننى ... جليد فمن الصبر لابن ثمان

ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر المتصرف والعالم الأديب.

فلم أر كالأقدار كيف نصبنني ... ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتى ... فبئس إذن ما فى غد تعدانى

٨ — وقال البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفرا المتوكل ويصف خروجه فى عيد فطر (١)

الله مكن للخليفة جعفر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها ... والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل ... تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى ... فيها المقل على الغنى والمكثر
بالبر صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددا يسير بها العديد الأكثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والارض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة (٢) توقد بالضحى ... طورا ويطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

---

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء وهو نقى الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يعده أبو العلاء المعرى، الشاعر ويعد أبا تمام وأبا الطيب حكيمين .

(٢) يقال متعت الشمس إذا بلغت غاية ضوئها قبل الزوال

وافتن فيك الناظرون فاصبع   يومى اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها   من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا   لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا   نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع   لله لا يزهو ولا يتكبر
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما   فى وسعه لمشى اليك المنبر
أبدت من فصل الخطاب بحكمة   تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى برد النبي مذكرا   بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى   يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول وأخلصت   نفس المروى[1] واهتدى المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة   من ربهم وبذمة لا تخفر
الله أعطاك المحبة فى الورى   وحباك بالفضل الذى لا ينكر
فلأنت أملأ للعيون لديهم   وأجل قدرا فى الصدور وأكبر

٩ — وقال ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن المدبر[2]

يابن المدبر غرنى الرواد   عمرا وليس لهم سواك مراد
أدعو على الشعراء أخبث دعوة   إذ مجدوك وغيرك الأمجاد
قل لى بأية حيلة أعملتها   هتفوا بأنك «لاحفظت» جواد

---

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى ، شاعر فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعانى النادرة فيستخرجها ثم يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد فى كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

ماأنت والمعروف أو مفتاحه ... ذهبت بذينك دونك الأجواد
لكن إخال معاشرا خيبتهم ... نصبوا الحبائل للأسى فأجادوا
أثنوا عليك ليستميحك غيرهم ... فيخيب خيبتهم وتلك أرادوا
أرويت بالاصدار عنك حوائمى[1] ... لما أطال غليلها الأيراد
وسلوت ذكراك التى من مثلها ... تجوى القلوب[2] وتقرح الاكباد
خيبتنى ثقة بلؤمك إنه ... لمن استعد لشاتم لعتاد
عن مثله نكص الهجاء مقهقرا ... ونبت سيوف الشتم وهى حداد
لا أن لؤمك جنة لكنه ... نجس يعاف وروده الوراد
فاهرب وأين بهارب من طالب ... فى كل مطلع له مرصاد
خذها إليك من الملابس ملبسا ... تشقى به الأرواح والأجساد
ضنكا إذا زرت عليك زروره[3] ... ضاق الخناق فلم تسعك بلاد
ولئن شقيت بلبس برد مثلها ... فلطالما شقيت بك الأبراد
شنعاء تضرب فيك نار شناعة ... تبقى نوائرها[4] وأنت رماد
تحبوك بدأتها بذكر نابه ... عقباه إخمال هو الاخماد
ولقلما يجدى على متبجبح ... ذكر يمات بنشره فيباد
ماينفع الحطب المحرق فى الصلى ... ضوء جريرته عليه فساد

١٠ — وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقيها ومجلسها والصيد لشوائها[5]

---

(١) جمع حائمة وهى العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة (٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسى عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب
سقاني وقد سل سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب
عقارا إذا ما جلتها السقا ة ألبسها الماء تاج الحبب
فأصلح بيني وبين الزما ن وأبدلني بالهموم الطرب
وما العيش إلا لمستهتر تظل عواذله في شغب
يهيم إلى كل مايشتهى وإن رده العذل لم ينجذب
ويسخو بما قد حوت كفه ولا يتبع المن ما قد وهب
فكم فضة فضها في سرو ر يوم وكم ذهب قد ذهب
ولا صيد إلا بوثابة (١) تطير على أربع كالعذب
وإن أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجد الطلب
فزوبعة من بنات الريا ح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضم المحب لمن قد أحب
لها مجلس في مكان الرديف كتركية قد سبتها العرب
فظلت لحوم ظباء الفلا ة على الجمر معجلة تنتهب
وطافت سقاتهم يمزجو ن بماء الغدير بنات العنب
وخثوا الندامى بمشمولة إذا شارب عب فيها قطب
فراحوا نشاوى بأيدى المدا م قد نشطوا من عقال التعب
إلى مجلس أرضه نرجس وأوتار عيدانه تصطخب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف القدير ذو التشبيهات الفائقة والتخيلات الرائعة فى شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .

(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة | وأعلاه من ذهب يلتهب

١١ — وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فاتحة شعراء العصر الثالث يمدح سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة سائقا المثل والحكمة فى ثنايا ما يقول (١)

هنيئا لأهل الثغر (٢) رأيك فيهم | وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه | فان شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوما بخيل تطرد الروم عنهم | ويوما بجود يطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق (٣) هارب | وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشا (٤) يستقرب البعد مقبلا | وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الاعداء من يكره القنا | ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل رد عنه باللقان (٥) وقوفه | صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماحان ساعة | كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة | إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه | حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى | وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد | إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

---

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى اليمنى شاعر أشهر من أن يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملأ بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره العالم بأمره (٢) يعنى مدينة بالثغر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

وما الفرق ما بين الأنام وبينه[1]
إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدته الخلافة للعدا وسمته دون العالم الصارم العضبا
إذا الدولة استكفت به فى ملمة
كفاها فكان السيف والكف والقلبا
تهاب سيوف الهند وهى حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
ومن تكن الأسد الضوارى جدوده
يكن ليله صبحا ومطعمه غصبا
فبوركت من غيث كأن جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا

١٢ ـ وقال أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ يفتخر ويعتذر عن أسر الروم له[2]

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

---

(١) الضمير لسيف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبى سعيد بن حمدان بن حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة، وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثانى فى قول الصاحب بن عباد « بدىء الشعر بملك وختم بملك » والأول امرؤ القيس ، ويغلب على شعره الحماسة والفخر وقد أسر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده بالروميات .

ولو سد غيرى ماسددت اكتفوا به
وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر(١)
وإنى لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدى إلى أن ترتوى البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله
ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر
ولا راح يطغينى بأثوابه الغنى ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى
ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعيبنى
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو
يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دمائهم حمر
ونحن أناس لاتوسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

(١) التبر الذهب، والصفر النحاس الأصفر

١١ ـ وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ يرثى فتى من بني شيبان كان له صديقا فقتل وصلب[1] :

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل ... فأصبح مفقودا وليس بآفل
أتته المنايا وهو أعزل حاسر ... خفى غرار السيف بادى المقاتل
غلام إذا عاينت عاتق ثوبه ... رأيت عليه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا ... يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوابغ مرة ... ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه ... وبين ظبا أسيافه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى ... فلم يعر من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر ... مقيم ولكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه ... فتعبق من أنفاس تلك الشمائل
هو القدر المحتوم والسيف لم يكن ... ليخضب الا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة ... نأت بك عن ضنك الثرى والجنادل
وليس بعار ما عراك وإنما ... حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ ـ وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى سجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته[2] :

---

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولع بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواه، ولذا كان مطبوعا عذب الألفاظ ، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف .

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترسل على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك بويه، والشاعر المطبوع المكثار فى جميع الفنون، وصاحب المنزلة العالية على صابئيته فى النفوس

يعيرنى بالحبس من لو يحله ... حلولى لطالت واشمخرت مراكبه
ورب طليق أطلق الذل رقه ... ومعتقل عان وقد عز جانبه
وإنى لقرن الدهر يوما تنوبنى ... سطاه (١) ويوما تنجلى بى نوائبه
ومن مد نحو النجم كيما يناله ... يدا كيدى لاقته أيد تجاذبه
ولا بد للساعى إلى نيل غاية ... من المجد من ساع تدب عقاربه
وإنى وان أودت بمالى نكبة ... نظيرى فيها كل قرم (٢) أناسبه
فما كنت كالقسطار (٣) يثرى بكيسه ... ويعلق ان أنحى على الكيس سالبه
ولكن كليث الغاب إن رام ثروة ... حوتها له أنيابه ومخالبه
يبيت خميصا طاويا ثم يغتدى ... مباحا له من كل طعم أطايبه
كذلك مثلى نفسه رأس ماله ... بها يدرك الربح الذى هو طالبه
وللمال آفات يهنأ ربه ... بها إن تخطته اليه مصائبه
ومن يكن السلطان فيه خصيمه ... فلا عار فى الغصب الذى هو غاصبه
وماضرنى أن غاض ماملكت يدى ... وفى فضل جاهى أن تغيض مذائبه (٤)
إذا كان مالى من طريف وتالد ... قتيل يدى فضل ففنيه جالبه
ولى بين أقلامى ولبى ومنطقى ... غنى قلما يشكو الخصاصة صاحبه

١٥ — وقال ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ يتحدث عن قصة ناسبا (٥)

كيف العزاء وأين بابه ... والحى قد خفت ركابه

---

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالقسطر. (٤) جمع مذوب وهو كل مايذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدى التميمي الشاعر المجيد ذو السبك الحسن والمعنى الجيد في النسيب والمدح والاوصاف

بأعز منتقب يم م على محاسنه نقابه
والبدر فى قزع[(١)] يشف م كما تشف به ثبابه
متأود حـلو الشما ئل من أساوره حقابه[(٢)]
زعم المخبر أنه ضربت على ساع[(٣)] قبابه
فطلبته كالأيم[(٤)] أو كالسيل فى الليل انسيابه
فاذا أحم المقلتـين يشين أنمله خضابه
يهتز مثل السمهرى م تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأعـلم أن حرمانى جوابه
ويلى على متلون الأخلاق يعجبه شبابه
لارسله تترى اليـنا بالسلام ولا كتابه

١٦ ـ وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابى فى الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التى رثاه بها حين موته :[(٥)]

أيعلم قبر بالجنينة أننا أقمنا به ننعى الندى والمعاليا
حططنا فحيينا مساعيه إنها عظام المساعى لاالعظامَ البواليا

---

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.

(٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى الكاظم الراجع بنسبه الى الحسين بن على. نبغ فى الشعر يافعا وأكثر منه مبدعا حتى أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا ، وهم بين مجيد مقل أو مكثار غير مجيد . وكان ذا هيبة وجلال، تولى نقابة الطالبيين فى حياة أبيه وله ديوان شعر كثير الأبواب حافلها ثم هو عالم ذو مؤلفات .

وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت ... من الدمع أوشال ملأن المآقيا
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا ... نكفكف بالأيدى الدموع الجواريا
أقول لركب رائحين تعرجوا ... أريكم به فرعا من المجد ذاويا
ألموا عليه عاقرين فأننا ... إذا لم نجد عقرا عقرنا القوافيا
وقفنا فأرخصنا ا لدموع وربما ... تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذى ضم لحده ... حساما على هام النوائب ماضيا
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا ... هلالا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى ... نواضب ماء أم بواق كما هيا
هو الخاضب الأقلام نال بها علا ... تقاصر عنها الخاضبون العواليا
مفيد ضراب باللسان لو انه ... بيوم وغى فل الجراز اليمانيا
مرير القوى نال المعالى واثبا ... اذا غيره نال المعالى حابيا
خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه ... وأصبح تقروه النوائب واديا
ملأت بمحياك البلاد فضائلا ... ويملأ مثواك البلاد مناعيا

١٧ ـ وقال التهامى المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف (١)

قالت أأنساك نجدا حب مطرف ... فقلت خبرك يغنينى عن الخبر
أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم ... فكيف أهوى بلا سمع ولا بصر
وقد أخذت فؤادى قبل فاطلعى ... هل فيه غيرك من أنثى ومن ذكر
فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى ... إلا هواك فلا تبقى ولا تذرى
بيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا ... فى الطول منه وحسن الليل فى القصر

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب اللسان مشهور، له ديوان يغلب عليه المدح والرثاء والنسيب .

يحكى جنى الأقحوان الغض مبسمها ... فى اللون والريح والتفليج والأشر
لولم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ... ما كان يزداد طيبا ساعة السحر
أهتز عند تمني وصلها طربا ... ورب أمنية أحلى من الظفر
تجنى على وأجنى من مراشفها ... ففى الجنى والجنايات انقضى عمرى
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها ... حتى اقتنصنا ظباء البدو فى الحضر
فبات يجلو لنا من وجهها قمرا ... من البراقع لولا كلفة القمر
وراعها حر أنفاسى فقلت لها ... هواى نار وأنفاسى من الشرر
فما نكرنا من الطيف الملم بنا ... ممن هويناه إلا قلة الخفر
فسرت أعثر فى ذيل الدجى ولها ... والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض ... كأنها حبب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا ... كأنها قطعة من جلدة النمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم ... وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
فروع السرب لما ابتل أكرعه ... فى جدول من خليج الفجر منفجر
ولو قدرت وثوب الليل منخرق ... بالصبح رقعته منهن بالشعر

١٨ — وقال مهيار المتوفى سنة ٤٢٨ يمدح أبا القاسم الحسين بن على المغربى عند تقليده الوزارة ويهنئه بالنيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد سنة ٤١٤ (١)

---

(١) هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمى أحد من أسلم من نبغاء المجوس، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى، وعليه تخرج فى الشعر فجاء على نحو منه فى جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية، وقد فضل شعراء عصره، وله ديوان ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالصفات

قد رفعت فى بابل راية　　للمجد من يلق بها يغلب
يصيح داعى النصر من تحتها　　ياخيل محي الحسنات اركبي
جاء بها الله على فترة　　بآية من يرها يعجب
لم تألف الأبصار من قبلها　　أن تطلع الشمس من المغرب
فارتبعوا بعد مطال الحيا　　وروضوا بعد الثرى المجدب
وزارة قلبها شوقها　　منك إلى حولها القلب
قمت بمعناها وكم جالس　　يكفيه منها سمة المنصب
وهى التى إن لم تقد رأسها　　بمحصدات الصبر لم تصحب (١)
مزلقة راكب سيسائها (٢)　　راكب ظهر الاسد الأغلب
راحت على عطفك أثوابها　　طاهرة المرفع والمسحب
فتحت فى مبهم تدبيرها　　تنفس البلجة فى الغيهب
رد بنو يحيي وسهل لها　　والطاهريون بنو مصعب
فاضرب عليها بيت ثاو بها　　قبلك لم يعمد ولم يطنب (٣)
وامدد على الدنيا وجهالها　　ظلال حلم لك لم يعزب
واطلع على النيروز شمسا إذا　　ساق الغروب الشمس لم تغرب
يوم من الفرس أتى وافدا　　فقالت العرب له قرب
فاغرس ونوه منعما واصطنع　　ترض مضاء الصارم المقضب
ولوقة الاعطاف لم تعتسف (٤)　　بالكلم المر ولم تتعب

---

(١) لم تسلس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يقم عمودا ولم يمد طنبا

(٤) الولوقة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لاصطنع.

حاءك معناها وألفاظها
في الحسن بالأسهل والأصعب
أفصح ماقيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ — وقال المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ خاتمة شعراء العصر الثالث يسجل رأيه فى النساء [1]

ترنم فى نهارك مستعينا بذكر الله فى المترنمات
ولاترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالأساور معلمات
وسام[2] مااقتنعن بحسن أصل فجئنك بالخضاب موسمات
رأين الورد فى الوجنات خيا فغادين البنان معنمات[3]
وشنفن المسامع قائلات وكلمن القلوب مكلمات[4]
خمور الريق لسن بكل حال على طلابهن محرمات
ولـكن الأوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات
فمن ثـكل يهاب ومن عقوق وأرزاء يجـئن مصممات

---

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخى المعرى الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فاتحة العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند واللزوميات

(٢) جمع وسيمة وهى الحسنة (٣) مخضوبات كالعنم (٥) جرحنها متحدثات

وإن تعط الأناث فأى بؤس | تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا | ويلقين الخطوب ملومات
يلدن أعاديا ويكن عارا | إذا أمسين فى المتهضمات [1]
ولا ترمق بعينك وانحات | إلى حمامهن مكمات
فكم حلت عقود النظم وهنا | عقودا للرشاد منظمات
ولا تحمد حسانك إن توافت | بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى | بهن من اليراع مقلمات
سهام إن عرفن كتاب لسن | رجعن بما يسوء مسممات
ويتركن الرشيد بغير لب | أتين لهديه متعلمات
وإن جئن المنجم سائلات | فلسن عن الضلال بمنجيات [2]
ليأخذن التلاوة عن عجوز | من اللائى فغرن مهتمات
فأبعدهن من ربات فكر | سواحر يغتدين معزمات
ولا يتأهلن شيخ مقل | بمعصرة من المتنعمات
فان الفقر عيب إن أضيفت | اليه السن جاء بمعظمات
وواحدة كفتك فلا تجاوز | إلى أخرى تجىء بمؤلمات
وإن أرغمت صاحبة بضر | فأجدر أن تروع بمرمات [3]
وصن فى الشرخ نفسك عن غوان | يزرن مع الكواكب معتمات
فقد يسرى الغوى إلى مخاز | بجنح فى سحائب منجمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل | تكون به من المتحرمات

---

(١) ذوات الرخاوة (٢) بمقلعات (٣) بشدائد ذات حدة

يحور ذمارها [١] من كل خطب ... ويمنعها مصائب مقرمات [٢]
إذا الغاران غرتهما [٣] بجهل ... فدينك بالتورع والصمات [٤]
فهذا قول مختبر شفيق ... ونصح للحياة وللممات

٢٠ ـ وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواة والقلم والقراطيس [٥]

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه ... فى فرع دهماء تجرى بالأساطير
كانت مفارقها مسكا مضمخة ... فما لها بدلت منه بكافور
ومقلة عهدت كحلاء مرهها ... طول البكاء على بيض الطوامير
ياحبذا هى والأقلام واردة ... فيها وصادرة سحم المناقير
كأنما كرعت فى ناظرى رشأ ... أو فى سويداء قلب غير مسرور
تحوى القراطيس منها روضة أنفا ... بها مفاخرة الظلماء للنور
فكيف لى بخضاب تسترد به ... من الشبيبة لونا غير مهجور
لو أن صبغته فاز الشباب بها ... لما رمى الدهر فوديه بتغيير
وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت ... إذا سمحت بها مثل الدنانير

٢١ ـ وقال الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

---

(١) يسترحماها ويحفظه (٢) نهمات (٣) الغاران الفم والفرج وغرتهما سددتهما (٤) الصمت (٥) هو الرئيس أبو منصور على بن الحسن من فارس كاتب شاعر، لشعره طلاوة وبهجة فى جودة سبك وحسن معنى، وكان أبوه الحسن يلقب صربعر لشحه فلما نبغ هو فى الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح والنسيب والرثاء .

أمراء الشام ويهنئه بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه [١] : —

ذم الزمان فما وجدت صروفه — إلا ذلولا فى القياد وريضا
صفحت نوائبه عن ابن مقلد — كرما فكيف ألومه فيما قضى
ولقد ألم به فأظهر فضله — والنار لاتشتب حتى تحتضى [٢]
راض الزمان فأصحبت أخلاقه — وأعاد صبغ شبابه لما نضا
من معشر بذلوا النفوس سماحة — وحموا بيوت المجد أن تتقوضا
عادت بهم ظلم الخطوب مضيئة — والجدب موشى البرود مروضا
لولا مخالطة الصوارم والقنا — منع السماح أكفهم أن تقبضا
قوم إذا استنجدتهم لملمة — ملأت عليك جيادهم رحب الفضا
أسيافهم فى راهط [٣] معروفة — منعت دمائم عزهم أن تدحضا
يامن إذا ما ذاد عن أحسابهم — يوم النضال أصاب لما أنبضا [٤]
خفض عليك فكم ظفرت بغاية — وكبا وراءك جاهد ماخفضا
بينى وبينك ذمة مرعية — حاشا مرائر عهدها أن تنقضا
فأصخ إلى وللحديث شجونه — حتى أبثك ما أمض وأرمضا
ما أخرتني عن جنابك همة — وجدت من الاهواء عنك معوضا
لكنه قدر أناخ ركائبي — قسرا وقيد همتى أن تنهضا

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى من شعراء الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الاول ، وله ديوان ليس بالكبير، (٢) يلهب جمرها بالمحضى وهو الكور أو يقلب بالمحضأ وهو العود (٣) مرج معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرمى .

وعلمت أنك كالنسيم مخلد أبدا وليس يصح حتى يمرضا
فاغفر لخــــل لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضا

٢٢ ـ وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج المـلوك محمود بن نصر المرداسى وما فيها من تصاوير (١)

لك فى العلاء محجة (٢) لايهتدى فيها الملوك وحجـة لاتدفع
وخصصت فى زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع
دار بها اكتست البسيطة زينة ويزينها منك الأمام الأروع
مازال مبصرها يعود بخاطر يشكو الـكلال وناظر لايشبع
وترى طيور الجو فى جنباتها بعض محلقة وبعض وقع
وسوابقا ليست تفارق أرضها وكأنهـا تحت الفوارس تمزع (٣)
بالمصلتين صوارما لاتمتدى واللابسين يلامقـا (٤) لاتنزع
رهط نضوا بيض السيوف وآخر قد جر قوسا ليس فيها منزع
وسهامه لاتستطيع فراقها وحباله أبدا لطـير مصرع
وزرافتان أقيمتا كلتاهما ترنو إليك بمقلة لاتهجع
وظعائن تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع
أبدا يقاد بهـا ويبدى عيسها وخدا حثيثـا للنواظر يخدع
هل ساقهـا ما عاينته فـلم تسر أو راقها هـذا الجناب الممرع

---

(١) هو الامير أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفى الدولة أحد شعراء الشام المحسنين وفحولهم المبرزين وكان منقطعا إلى آل مرداس الـكلابيين أصحاب حلب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جد قليل أو تبيع . «٢» طريقة (٣) تعد ومسرعة (٤) دروعا

وابن الملوح قائم وسقامه الـــ بادى طليعة ماتجن الأضلع
يشكو إلى ليلى الغرام إشارة شكوى لعمرك لم تعنها أدمع
ومواضع فيها كمرضك وضح ثلجية الألوان بل هى أنصع
ومن النضار بها سحائب جمة لزمت أماكنها فما تتقشع
سحب جوامد قد أظلت عارضا تحيا بصيبه البــــلاد وتمرع
وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لاالغيوث الهمع
روض على الأفواه يعسر رعيه لـكن للأبصار فيه مرتع.
فابجح[1] فانك أوحد الزمن الذى لم يفترق فى أهله ماتجمع

٢٣ ـ وقال الطغرائى المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا[2]

وهاجرة سجراء[3] تأكل ظلها ملوحة المعزاء[4] رمضى الجنادب[5]
ترى الشمس فيها وهى ترسل خيطها
لتمتاح[6] ريا من نطاف المذانب[7]
سفعنا[8] بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود القاديم شاحب[9]

---

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن على الطغرائى نسبة الى الطغرى وهى الطرة التى ترسم فى أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها. وقد لقب بالأستاذ وبالمنشىء لجودة إنشائه، ووزر للسلطان مسعود السلجوقى بالموصل. وكما كان فخر الكتاب كان نابغة فى الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه فى كثير من الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف، ولاميته المعروفة بلامية العجم ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة الحصا (٥) محروقتها (٦) لتستقى (٧) من صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

فلما اعتسفنا[١] ظل أخضر غاسق   على قمم الآكام[٢] جون المناكب
وردنا سحيرا بين يوم وليـلة
وقـد علقت بالغرب أيدى الكواكب
على حين عرت منكب الصبح جذبة
من الشرق واسترخى عنان الغياهب
غـديرا كمرءاة الغريبة تلتقى   بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب
إذا مانبال القطر تاحت له اتقى   بموضونة حصداء من كل جانب
بمنعرج من ريد عيطاء[٣] لم تزل   وقائعها يرشفن ظلم السحائب
تقبل أفـلاذ الحيا وتـكنها   بطامية الأرجاء خضر النصائب
بعيس كأطراف المدارى[٤] نواحل   فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب[٥]
نشحن به[٦] عـذبا نقاخا كأنما   مشافرها يغمدن بيض القواضب
رأين جمـام المـاء زرقا ومثلها   سنا الفجر فارتابت عيون الركائب
فـكم قامح[٧] عن لجة المـاء طامح
إلى الفجر ظن الفجر بعض المشـارب
إلى أن بدا قرن الغزالة مائعـا   كوجه نظام الملك بين المواكب

٢٤ ـ وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التى سارت بذكرها الركبان[٨]

---

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط (٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى الدمشقى شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس يمدح العظماء وأغلب ديوانه مدح ورثاء ونسيب .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه — فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياكما ذاك النسيم فانه — إذا هب كان الوجد أيسر خطبه

خليليّ لو أحببتما لعلمتما — محل الهوى من مغرم القلب صبه

تذكر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى — يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

غرام على يأس الهوى ورجائه — وشوق على بعد المزار وقربه

وفى الركب مطوى الضلوع على جوى — متى يدعه داعى الغرام يلبه

إذا خطرت من جانب الرمل نفحة — تضمن منها داءه دون صحبه

ومحتجب بين الأسنة معرض — وفى القلب من إعراضه مثل حجبه

أغار إذا آنست فى الحى أنة — حذارا وخوفا أن تكون لحبه

فيالسقامى من هوى متجنب — بكى عاذلاه رحمة لمحبه

أهيم إلى ماء ببرقة عاقل (١) — ظمئت على طول الورود بشربه

وأستاف حر الرمل شوقا إلى اللوى — وقد أودعتنى السقم قضبان كثبه

ولست على وجدى بأول عاشق — أصابت سهام الحب حبة قلبه

٢٤ — وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على ابن الحسن البيهقى (٢)

أرى الخلق متفقا فى الهوى — ومختلفا فى المنى والمنن

فراعى حقوق وراعى حقاق — وبانى معال وبانى مدن

وإنى لأكره مدح الورى — ويشغلنى عنه هجو الزمن

---

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق ابراهيم بن يحيي الكلبي أقام بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بجودة شعره . وله ديوان ضخم غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعتني فلبيتها ... خلال أبى الحسن بن الحسن
غريب وإن كان فى داره ... وفقد النظير كفقد الوطن
يقوم الرجاء بتعويلنا ... عليه وبالروح قام البدن
علىّ العلا وظهير الندى ... إذا لم تمد بضبعى فمن
كلامى سلافة أهل العراق ... وصيتى عرافة أهل اليمن
ومن كل هزة ذى همة ... تعلمت الريح هز الفنن
بسعاك رمت التقاط النجوم ... وأملت للضرع رد اللبن
وكنت امرأ أرخص النفس فى ... هواها وأغلى بنات الفطن
ففرج على أملى قبل أن ... يزيد الملام وتقوى الأحن
فأنت المبرز فى الحالتين ... بنظم القريض ونظم المنن
ومن جعل الشمس خريته ... كفته التماس وضوح السنن

٢٦ — وقال الأرجانى المتوفى سنة ٥٤٤ يهجو أهل زمنه ويصف سوءهم (١)

ومعشر شرهم دان وخيرهم ... مكان بدر الدجى من باع معتنق
أدى اليهم خلو الربع من أنس ... وطالما كرع الظمآن فى الرنق
قل للذى شخصه فى القصر محتجب ... وعرضه الدهر مطروح على الطرق
يشرى الثناء ولا يعطى به ثمنا ... وذاك مبلغ رأس الجاهل الحمق
لحاكم الله من أغصان عارية ... من الندى والجنى والظل والورق

---

(١) هو القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجانى شاعر مكثار فى رقة لفظ وجودة رصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعره، وهو متصرف فى كثير من الفنون ولاسيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما ... وإن تركناهم ناموا على حنق
ونستسك اذا ازوروا مسامعهم ... بكل منظومة كاللؤلؤ النسق
مدائح لاتقاه الشر تحسبها ... رقيا العقارب تكسو أوجه الورق
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم ... وأحمد الله أدنى المن فى عنق
وما خلقنا حمامات فنطربكم ... سجعا ونملك أطواقا من الحلق
والله لولا محامانى وإن لؤموا ... على الكريمين من نفسى ومن خلقى
إذا لسارت بما يخزيهم كلم ... أربها من حواشى مقول نطق
إذا شننت على عرض أو أبدها ... أجلين عن قدد منه وعن مزق
تهتز منهن أعطاف الورى طربا ... إلا الذين أباتتهم على قلق
كالسيف يحمده غير القتيل به ... يوم الجلاد إذا ما احمر من علق

١٧ — وقال الابيوردى المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته [(١)]

أنا ابن الأكرمين أبا وأما ... وهم خير الورى عما وخالا
أشدهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهم إذا عقدوا حبالا
وأرجحهم إذا قدروا حلوما ... وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
وأصلبهم لدى الغمزات عودا ... إذا الخفرات خلين الحجالا
وإن دعيت نزال مشوا سراعا ... إلى الاقران وابتدروا النزالا
يكبون العشار لمعتفيهم ... ويروون الأسنة والنصالا
ويثنون المغيرة عن هواها ... إذا الوادى بظعن الحى سالا

---

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الابيوردى نسبة الى أبيورد بخراسان وهو سفيانى كان راوية نسابة شاعرا رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وفخر ونسيب .

ويحتقبون أعمارا قصارى ويعتقلون أرماحا طوالا
على أثباج مقربة تمطت بهم ورحالها تنضو الرحالا
فجروا السمر راجفة صدورا وقادوا الجرد راعفة نعالا
بأيد يستشف الجود فيها تفيد محامدا وتفيد مالا
وهم فتحوا البلاد بباترات كأن على أغرتهـــا نمالا
ولولاهم لمــــــــادرت بقىء ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومى أعزهم وأكرمهم فعـالا
وأصرحهم اذا انتسبوا أصولا وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالى وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ – وقال عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك (١)

فتمل دارا شيدتها همة يغدو العسير بأمرهـا متيسرا
جملتهـا وتجملت مصر بهـا لمـــا علت بك عزة وتكبرا
فاقت على الآطلاق كل بنيـة وسمت فما استثنت سوى أم القرى
وسقيت من ذوب النضار سقوفها حتى لـكاد نضارها أن يقطرا
لم يبـد فيهـا الروض الا مزهرا والنخـــــل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهر لبس الوشيج العبقرى مشهرا
وكأن صولتك المخوفة أمنت أسرابهـا ألا تراع وتذعرا

---

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن على الحكمى اليمنى العالم الأديب الشاعر المجيد ، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمى ووزيره طلائع الدين صالح بن رزيك . ومعظم شعره مدح فيهما ولما ملك صلاح الدين صلبه فيمن صلب

أنشأت فيها للعيون بدائعا | زفت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيرا ومسهما | ومنمنما ومدرهما ومدنرا [1]
والعاج بين الآبنوس كأنه | أرض من الكافور تنبت عنبرا
قد كان منظرها بهيا رائقا | فجعلتها بالوشي أبهى منظرا
وكذاك جيد الظبي يحسن عاطلا | ويروقك البيت الحرام مسترا
ألبستها بيض الستور وحمرها | فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيما أبيضا | ومجالس كسيت طعيما أصفرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق | إلا غدا فيها الجميع مصورا
فيها حدائق لم تجدها ديمة | أبدا ولا نبتت على وجه الثرى
والطير قد وقعت على أغصانها | وثمارها لم تستطع أن تنفرا
لا تعدم الابصار بين مروجها | ليثا ولا ظبيا بوجرة [2] أعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها | فظباؤها لا تتقى أسد الشرى
وبها زرافات كأن رقابها | فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشا [3] تريك من المها | روقا ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الأقعاء من أعجابها | فتخالها للتيه تمشى القهقرى

٢٩ — وقال ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر يصف غلمانه الأتراك [4]

---

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المنقط ببياض، والمدرهم المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا لامنزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط ابن

القائد الغلب [١] الكماة عوابسا والبيض فى أيمانهم تتبسم
سيان سلمهم وحربهم فما ينفك يقطر من أكفهم الدم
ترك اذا لبسوا الترائك [٢] أيقنت صم العوالى أنها ستحطم
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقتم
فهم إذا حسروا ظباء خميـــــلة
وهم أسود شرى إذا ما استلأموا [٣]
ركبوا الدياجى [٤] والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم
وكأن إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحاب مظلم
من كل من بجماله نار الهوى وبيأسه نار الوغى تتضرم
فى ثنى بردته قضيب نقى وفى الد رع المفاضة منه طود أيهم [٥]
بشر أرق من الزلال وتحته كالصخر قلب لا يرق فيرحم
يصمى الخلى [٦] بطرفه وبكفه يصمى الكمى فجؤذر أم ضيغم
هو تارة للحسن فى أترابه علم وطورا فى الكتيبة معلم

٣٠ – وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين عيسى بن أبى بكر الايوبى ، الروم بثغر دمياط وطردهم منها [٧]

التعاويذى نسبة إلى جده لأمه أبى محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى لأنه كفله صغيرا .كان شاعر وقته وله ديوان ضخم جمعه وبوبه بنفسه فى المدح والنسيب والصفات والرثاء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه المدح (١) الشجعان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهى البيضة كتركه (٣) لبسوا اللأمات وهى الدروع (٤) يعنى الخيل السود كالدياجى (٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا. إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يخفى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى (١) كل مفاضة
دلاص (٢) كقرن الشمس قد أحكمت وضنا (٣)
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من فقد الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغني
رأو (٤) الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقـــلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا ولوغا ولـكنا ملكنا فأسجحنا
وقد جربونا قبلها فى وقائع تعلم غمر الموت منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
وكم يوم حر قد لقينا هجيره بصبر وقر ما طلبنا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ريحانة شعراء عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسيبا .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينة وبراقة (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو ضرورة وأصلها الفتح

فان نعيم الملك من شظف الشقا ينال وحلو العيش من مره يجني
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقل به مغني
لعمرك ما آيات عيسى خفية هى الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا[1]
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خافتها سيوفه لهـا نبأ يفني الزمان ولايفنى
لقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيهم فان عاودوا عدنا

٣١ — وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية من بغداد » يصف تلهفه على حبيبه وإعراض حبيبه عنه[2]

يعاهدنى لاخاننى ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبى لايزال ودأبه فيامعشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صلنى يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازئا بى ويعبث
وماضر بعض الناس لو كان زارنى وكنا خلونا ساعة نتحدث
أمولاى إنى فى هواك معذب وحتام أبقى فى العذاب وأمكث
فخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا فى النهار وأبعث

(١) مسهل الأهنأ (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على المهلبي نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل بالملك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الانشاء وكان فوق اجادته النثر شاعرا مكثارا جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقة المصرية وديوانه ملىء بفنون الشعر الذى يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإنى لهـذا الضيم منك لحامل ومنتظر لطفا من الله يحدث
أعيذك من هذا الجفاء الذى بدا خلائقك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فينا وأكثروا أقاويل منها مايطيب ويخبث
وقد كرمت فى الحب منى شمائلى ويسأل عني من أراد ويبحث

ثانيا ـ حياته

لم يزل الشعر ومازال فى كل عصر مرءاته الصافية التى تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور و نبع الوجدان، ولأن رجاله أدق الناس شعورا وأرقهم وجدانا . ولذا رأيته فى الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعني؛ حتى عده المؤرخون ديوانها وسجلها. ورأيته فى صدر الاسلام قد بقى كما كان فيما بقى، وحاد عن الخوض فيما ترك؛ وتلون فيما تلون على شاكلته وغراره . ثم رأيته فى العصر الأموى قد جنح جنوحا قويا إلى مااختطه العصر حتى كاد يكون قصرا على ماكان الغرض الذائع فيه . فجاء فى العصبية والسياسة تأييدا ومعارضة، وفى رفع الأولياء ووضع الخصماء مدحا وهجوا ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه فى هذين العصرين الاسلاميين لم يبتعد كثيرا مما اختطه له العصر الجاهلى لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبتها وبداوتها بقوة حادت بها عن التأثر الكبير بما لسواها . أما فى العصر العباسى الذى اختط عاصمته فى ديار الأعجام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

واتخذ منهم بدل العرب ، الوزراء وسائر الأعوان، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ماشرحنا آنفا فى الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مرآة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهورا بينا يخالف ماكان لماضيه فى الأغراض والمقاصد، وفى المعانى والأخيلة، ثم فى الألفاظ والأساليب، على ماسترى فى هذا البيان الذى يتناول على مايسمح المقام ، تفصيل مايخص الشعر فيا أجملنا سابقا من تأثر اللغة فى هذه النواحى الثلاث .

١ ــ ناحية الأغراض والفنون

لعله من الملائم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التى كانت أهم أغراض الشعر فى العصر الأموى أن نبدأ بها الآن فى هـذا العصر العباسى، وبعدها نزجى القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ — العصبية والسياسية — أحيت الدولة الأموية العصبيات وكانت أقوى ماتكون بين اليمنية والمضرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيسا، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها، وقد زاد العنصر اليمنى قوة على المضرى أن أم السفاح كانت منه ــ ولذلك خلفه أبوه قبل أبى جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد ــ هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولاء وهم كثير منهم أبو نواس الحكمى الذى يقول فيهم :

وقد نافحت عن أحساب قوم ... هم ورثوا مكارم ذى نواس
فان تك أوقدت للحرب نار ... فما غطيت خوف الحرب راسى

سأبلى خـــير ما أبلى محام ... إذا ما النبل ألجم بالقياس[1]
فما بال النعاج ثغت بشتمى[2] ... وفى زمعاتهن دم الفراس[3]
وما حامت عن الأحساب إلا ... لترفع ذكرها بأبى نواس

غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمناداة هذين العنصرين العربيين معا كان من شأنه أن يخضد شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت، ولذا بقى الفخر لها وحدها دون اليمن حتى على ألسنة الخلفاء الذين ينبغى أن يكونوا آخر المتعصبين كما تلمح ذلك فى قول ابن المعتز مفتخرا :

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا ... وسارت ورائى هـاشم ونزار
وعم السماء النقع حـــتى كأنه ... دخان وأطراف الرماح شرار

وقد استغل العباسيون الشعر فى تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من آل على كما كان يفعل الأمويون ؛ فقوبل شعراؤهم الموالون أمثال مروان ابن أبى حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء المعارضين الذين يتعصبون لآل على ، كالسيد الحميرى ودعبل الخزاعى ومسلم بن الوليد ، وطالت الملاحاة بين الطبقتين فى شدة واحتدام كما ترى فى هذين المثلين :

قال مروان يخاطب بني على طالبا اليهم تخلية الطريق لبنى العباس :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الاله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيد حامى

---

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الاعمام (١)

وقال الحميرى وكان يفضل علياعلى الراشدين كمايفضل أبناءه على العباسيين

---

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا ونقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لوكان جدكم هناك وجدنا   فتنازعا فيه لوقت خصام

كان التراث لجدنا من دونه   لخواه بالقربى وبالاسلام

حق البنات فريضة معلومة   والعم أولى من بنى الأعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى نقضه زائدا أيضا

لم لايكون وإن ذاك لـكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله   والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللتراث وإنما   صلى الطليق مخافة الصمصام

وذكر صاحب الأغانى أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى عمن حدثوه عن عطية الأضجم أنه قال « لزمت مروان لما قال هذا البيت وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلت ألاطفه وأبره وأ كتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا ، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن ومافطن بما فعلت أحد ولا اتهمنى به »

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمـــد ولا عهده يوم الغدير المؤكدا[1]
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أو عدى وإنما أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
تتم صلاتى بالصلاة عليهم وليست صلاتى بعد أن أتشهدا
بكاملة إن لم أصل عليهم وأدع لهم ربا كريما ممجـــدا
بذلت لهم ودى ونصحى ونصرتى مدى الدهر ماسميت ياصاح أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم أحق وأولى فيهم أن يفندا
فإن شئت فاختر عاجل الغم ظلة وإلا فأمسك كى تصان وتحمدا

وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من تقريب، ما كان مالئا نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى: فأخذوا يفاخرونهم ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم مايقولون، حتى نشأت عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم، قوى فيها سلطان العجم لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى. فعان أمر الشعوبية وصار لها شأن خطير، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن[2] والخريمى[3] وغيرهم، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء، أمثال

---

(١) يعنى غدير خم بين مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن أبى طالب وقال لمن معه ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالو بلى يارسول الله، قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وهذا حديث يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى.
(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مولى آل خريم المريين الذبيانيين

يزيد المهلبي ولكنهم قليل وهاك مثالين مما كان يقال .

دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أ
بشار فقال بشار .

خليلى لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الاعراب عنى وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع بنى الاحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح شركت الكلب فى ولغ الاطار[1]
تريغ[2] بخطبة كسر الموالى وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها ولم تعقل بدراج الديار[3]
وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب على مثلى من الحدث الكبار

ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على
بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى

لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتق
ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حملتكم السادة المذكورة الحش
قومهم الجذم والانساب تجمعهم والمجد والدين والآرحام والبـــا
إذا قريش أرادوا شد ملكهم بغير قحطان لم يبرح به أو

(١) خليط من دم ورماد تلطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمان طا

أضحى شهيد بنى العباس موعظة ‏ لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل مانا له أحـــد ‏ ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا ‏ حتى كأن الذى نيلوا به رشد
من الألى وهبوا المجد أنفسهم ‏ فما يبالون مانالوا اذا حمدوا؟

وقد ضعف أمر هذه العصبيات جميعا بتغلب الأتراك على العرب فى العصر الثانى ثم بانحلال الدولة إلى دويلات فى الثالث إلا ماكان من الاشادة بالعلوية فى مصر أيام الفاطميين وبالعربية فى الشام أيام الحمدانيين على أن هذه الأشادة لم تلبث أن زالت فى العصر الرابع الذى تملك فيه الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ — المدح والهجاء : وكما فنى الشعر السياسى فى المدح والهجاء على العهد الأموى فأصبح لهما تبيعا لا استقلال له ، لم يلبث أن صار كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا كثر قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجاراة ذوى اليسار والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة [1] ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الأغانى أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا تفوقونهم كسبا ولكنهم لايبقون على شىء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا فى بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجزل العطايا وأسني الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفا به من التشدد فى خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم   إلى السماء فأنتم أطهر الناس
وقدموا القائم المنصور رأسكم   فالعين والأنف والأذنان فى الراس

قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لى هذه الخريطة دراهم فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدى أخذت الأموال تتدفق على الشعراء. قيل دخل عليه عمرو بن سلم الخاسر فأنشده

أليس أحق الناس أن يدرك الغني   مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا   كأنهما عدل النبي ونائله

فقال له أما ماذكرت ياسلم من الجود فوالله ماتعدل الدنيا عندى خاتمى هذا، وأما العدل فانه لايقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه، وإنى لأتحراه جهدى . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة   حتى استقرت فى بنى العباس
شدت مناكب ملكهم بخلافة   كالدهر يخلط لينه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده

أفنى سؤال السائلين بجوده   ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله   نفد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .

وقد أعطى ابنه الهادى عشرين ألف درهم لشاعر أجاد وصف الصمصامة سيف عمرو بن معديكرب الزبيدى حين حصل عليه وكان مغرما باقتناء السلاح وسيأتى هذا الوصف

أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ماكان لأبيه وأخيه . مدحه مروان بقصيدة يقول فيها

وسادت بهارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر

وما انفك معقودا بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكر

وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر

ترى حوله الأملاك من آل هاشم ... كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعته وأمر له بعشرة من رقيق الروم وحمله على برذون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء يجاوز كل أمل فى محافل البيعات

وكذلك كان أبناؤه الأمين والمأمون والمعتصم ولاسيما المأمون على طول مدته فى الخلافة ·قال محمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء، الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وبخاصة المتوكل، ومدائح البحترى فيه وعطاياه للبحترى مما ضربت به الأمثال. ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء فى ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك فى هذا أشهر من أن تذكر أو ينالها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم فى نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالنماذج فى مدحتى مسلم وأبى تمام

هذا وإذ كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا فى هذا الباب يهيب بها على الماطلين، وينال بأذاها البخلاء والمانعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المديح، على أن مما أكثره غير ذلك، تحاسد الشعراء وما أنتجه فى نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجرير وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبيات الماضية وما خافته من ألوان الهجاء.

ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلا حين هجاه بقوله:

أيسومني المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفى على هام الخلائف مثل ما ... توفى الجبال على رءوس القردد
ويحل فى أكناف كل ممنع ... حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن التراث مسهد طلابها ... فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله   واستنقذوك من الحضيض الاوهد

لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت خاملا وفى حجر الخلافة ولدت وبدرها غذيت، وفى مهدها ربيت »[1] فتنزل الشعراء لذلك فى عهده - كما تنزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات - إلى الاقذاع فى الهجو والبذاءة فى الألفاظ، وقد جعلهم يغلون فى ذلك أشد غلو، ضعف الوازع الدينى ومجاراته مثالب المدنية على النفوس من الانغماس فى مفاسدها والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقابح فى الحضيض. هذا إلى أن التسابق فى التهاجى كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض دون أن يرتكز فى نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواه

قال بشار يهجو المهدى ويحرض على وزيره يعقوب بن داود:

بنى أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا   خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيابة بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم   وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز المفضل مكتوب عليه ألا   لابارك الله فى ضيف إذا شبعا
إنى أحذركم من خبز صاحبنا   فقد ترون بحلق اليوم ماصنعا

وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن:

فصغ ماكنت حليت به سيفك خلخالا

«١» روى أن أبا سعد المخزومى دخل على المأمون وأنشده شعر دعبل هذا ثم قال « أتأذن لى ياأمير المؤمنين أن أجيئك برأسه » فقال له « لا، هذا رجل فخر علينا فافخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيـــف إذا لم تك قتالا

وشاع هجوهم بدمامة الخلق كما قال البحترى يذم بكبر الأنف

رأيت الخثعمى يقل أنفا   يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعدا فقصر كل سام   لهيبتة وغص به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه   إذن وقعت على الأرض السماء

وقد ساد الهجاء المديح فى العصر الثانى لقلة الأجواد وعدم معرفة ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظهر تبرم الشعراء من هذه الحال والاكثار من هجو الناس والزمن ، ونبغ فى هذه الناحية ابن الرومى نبوغا لم يصله سواه كما رأيت فى ذمه ابن المدبر آنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء زمنه لبخلهم على مدحه لهم، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما   مسخوا كلابا غير ذات خلاق
ردوا على صحائفا سودتها   فيكم بلا حق ولا استحقاق
ما كان مثلى مادحا أمثالكم   لولا اتهامى ضامن الأرزاق
أسخطت خلاق البرية فيكم   فباغتم منى رضا الخلاق
أغرقت فى نزعى لكم ولربما   حرم الرماة الصيد بالأغراق

ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدى حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتسابق الفواطم والحمدانيون وآل بويه فى الاغداق على الشعراء، وبذلك بلغ المدح الذروة التى ليس فوقها ارتفاع، ولكن مع بقاء الهجو مسايرا له إذ لا غنى عنه فى تقريع اللؤماء . قال المتنبى يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن حمدان بالنماذج

أكلما اغتال عبد السوء سيده | أوخانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها | فالحر مستعبد والعبد معبود
من علم الأسود المخصى مكرمة | أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه فى يد النخاس دامية | أم قدره وهو بالفلسين مردود

غير أن حال الشعر عادت فى العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة على الحكام فالتفت الشعراء بمدائحهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر التصوف بالغزل فى ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ — الغزل — لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسى عما كان له فى عصر بنى أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفنين السابقين معه ، وكان المنشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التى تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فمات بذلك التنسيب العذرى ولم يعد يظهر الا على ألسنة القليل كالعباس بن الأحنف وقد رأيت له قصيدة فيه . أما جمهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء المتعة والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى فى الغزل اللاهى أيام بنى أمية ، من كشف فى الوصف ، وتبذل فى القصة ، وفحش فى الالفاظ ، كما يقول بشار فى معشوقته فاطمة

عجبت فطمة من نعتى لها | هل يجيد النعت مكفوف البصر
أذرت الدمع وقالت ويلتى | من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتا بدد هذا نقبى | ووشاحى حله حتى انتثر
فدعينى معه ياأمتا | علنا فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها | واعتراها كجنون مستعر

بأبى والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالغلمان استمتاعهم بالنساء، أن يتغزلوا فى المذكر كما يتغزلون فى الاناث، وتلك عادة سيئة قذرة كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالى ومن لف لفهم من ذوى الاباحة والمخنثين، كأبى نواس وحماد عجرد ومطيع بن اياس ويحيي بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع على الشراب مع القيان والغلمان، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق، ولا يزعهم دين، فكان غزلهم دعارة وعهرا، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.

قال أبو نواس العاهر فى غلام :

يا بدعة فى مثال يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام بعين ظبى فلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات
زها على بصدغ مزرفن الحلقات [1]
من فوق خد أسيل يضىء فى الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليع فى غلام يستحم

وابأبى أبيض فى صفرة كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدى يتثني على مأكمة مثقلة النهضه

«١» زرفن صدغه، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده ... طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها ... فبعضه يذكرنى بعضه

وقد أنتج الانحدار فى هذه الحمأة القذرة ، وصف محاسن المذكر كالعذار [1] وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة، مع الاسترسال فى هذه السبل بصراحة فى الوصف والحكاية؛ صارت سبة للأدب العربى وقذى فى عيون قارئيه . ثم كان أن عمد المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه بصورة المذكر، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس

ياقمرا أبصرت فى مأتم ... يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها ... برغم دايات [2] وحجاب
لاتبك ميتا حل فى قبره ... وابك قتيلا لك بالباب

وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الحملة التى وجهت إلى ماكان من ابتداء القصائد فى كل الأغراض ماعدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتألم لمفارقة أصحابها لها وسير الابل مفرقة أو محققة للقاء ، مع مايأتى خلال ذلك كله من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزلين فنقول: إن أول من قادها أبو نواس [3] فقد رفع عقيرته ينعى على الشعراء هذا التشبيب بالقديم

«١» من ذلك قول بعضهم

أيا قمراء من شمس طلعة وجهه ... وظل عذاريه الدجى والاصائل

«٢» جمع داية وهى الظئر أى المرضع واستعمل فى العاطفة على ولد غيرها

«٣» قيل إن أول من تنبه إلى ذلك مطيع بن إياس وقد اجتمع بفتى من

ويطلب إليهم فى سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملائما من جديد .
كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد   لادر درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار فى الرسم فيقول :

دع الرسم الذى دثرا   يعانى الريح والمطرا
ألم تر مابنى كسرى   وسابور لمن غبرا

ثم يطلب أن يكون البديل صفة الخمر فيقول :

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويفعل هذا فى قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كمطلعه :

لاتبك رسما بجانب السند   ولا تجد بالدموع للجرد
ولا تعرج على معطلة   ولا أثاف خلت ولا وتد
ومل إلى مجلس على شرف   بالكرخ بين الحديق معتمد
ممهد صففت نمارقه   فى ظل كرم معرش خضد
ثم اصطبح من أسيرة حجبت   عن كل عين بالصون والرصد
محجوبة فى مقيل حوبتها   تسعين عاما محسوبة العدد

أومكتفيا بالتنبيه تارة كمطلعه :

دع الربع ما للربع فيك نصيب   وما إن سبتنى زينب وكعوب

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع

لأحسن من بيد يحار بها القطا   ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما   له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

ولـكن سبتنى البابلية إنها　　لمثلى فى طول الزمان سلوب

وكثيرا ماكان يقصد إلى الخمر قصدا كان يقول :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء　　وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها　　لو مسها حجر مسته سراء (١)

ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخمـــرا

دعانى إلى نعت الطلول مسلط　　تضيق ذراعى أن أرد له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة　　وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا

وقد أثرت هذه الحملة فى شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه فيها كل ذى هوى للخمر ، وابتدأ بالمقصود فى القصيدة من صد عنها ، إلا طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين فى الابتداء ، واستحدث الجميع المعانى إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو فى المعنى المراد كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقبضا　　وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا

فى بذل المال للثناء :

قالت سلامة أين المال قلت لها　　المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

هذى سبيلى وهذا فاعلمى خلق　　فارضى به أو فكونى بعض من غضبا

«١» نرى أن نثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ؛ مثلا لما طالما نبهنا عليه من الفحش فى المعنى والبذاء فى اللفظ وهو

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر　　لها محبان لوطى وزناء

وقد استمرت المبادىء على هذه الانحاء طوال العصر الثانى بعد الاول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريبا فى العراق وفارس وخراسان وعادت إلى القديم فى الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول فى جميعها إلى هذا المنزع الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذرى القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت فى قصيدة ابن الخياط.

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسى الاول جولات واسعات فى فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة، جاء بعضها أول ماجاء نتيجة لها، كالفخر الذى دفعت اليه العصبية، والمجون الذى أنشأه الاستهتار، والخمريات التى شغلت المطالع أولا واستقلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلا عنها كالرثاء والزهد والصفات. فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الاجمال

١ - الفخر - حالف الفخر العصبيات منذ العهد الجاهلى إلى آخر العصر الاموى وكان ينزع فيها جميعا عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غلابة على النسبية العصامية حتى العصر العباسى الأول الذى قامت فيه الشعوبية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم. ثم توارى الأمران تقريبا فى العصر الثانى وعادا إلى الظهور كفرسى رهان فى الثالث الذى حظى الفخر فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبى وأبافراس والشريف الرضى وأبا العلاء، فقد جمعوا فى مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبى دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب. ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت فى مفخرة الابيوردى بسفيانيته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سيأتى لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له نخر من تلك الشخصيات

قال المتنبى من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة [1] إلا … كمقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكنّ … م قميصى مسرودة من حديد .
أنا تِرب الندى ورب القوافى … وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله … م غريب كصالح فى ثمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من علمت قديمه وحديثه … علم اليقين وإن جهلت فسائل
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها … أفلج بمثل أواخرى وأوائلى [2]
نحن الولاة العادلون ولم تزل … آثارنا حلى الزمان العاطل
واذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم … ظهرت دلالة مجدنا فى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى … دوين مكانى السبع الشدادا
يؤجج فى شعاع الشمس نارا … ويقدح فى تلهبها زنادا
ويطعن فى علاى وإن شسعى … ليأنف أن يكون له نجادا
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا … ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ — المجون — كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر العباسى كما قلنا : الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والالحاد ،

---

(١) موضع بجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واستهتر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد ، ثم استهزأ بالعرف فكان الفحش فى المعانى والبذاء فى الألفاظ . وشياطينه الأوائل وغارسو بذوره هم تلك الطائفة التى ذكرنا فى الخروج على القديم

وقدساعد على انتشار هذه السموم ماغزا البيئات العربية من الآراء الفلسفية المختلفة، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان فى كل شىء، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواجر الاديان ، ذكروا أن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتحادثان فقال لهما فيم أنتما قالا فى قذف المحصنات فقال « أو فى الأرض محصنة تقذفانها » كماساعد عليها أيضاما كان يعقده بعض الأمراء والوزراء من مجالس الشراب والمنادمة التى يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة ويحا كونها فى صورة أشنع منها بمنازل بعضهم، كما كانوا يفعلون فى منزل إسماعيل القراطيسى بالكوفة . ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير من أبناء الخلفاء ، فالأغانى يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن إياس ، ومحمدا الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك .ولم يلبث اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها فى أذهان الناس بما نقل واستنبط من حقائق فلسفية مختلفة فى الدين والرياضة والفلك والطب وسائر العلوم ، أن فصل ذوى المجانة فى الدين عن مجان الفضيلة والعرف، فكان من الأولين طائفة الزنادقة الملحدين الذين كان دأبهم التشكيك فى حقائق الدين بشكل جدى لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان ابن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم ، وكان من الآخرين مجان الهزل الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبى نواس . ومن أمثلة مجونهم

قول دعبل عن ديك له أخذه صالح [redacted] لضيوفه .

أسر المؤذن صالح وضيوفه　　أسر الكمي هفا خلال المأقط (١)

بعثوا عليه بناتهم وبنيهم　　ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا　　خاقان أو هزموا كتائب ناعط (٢)

نهشوه فانتزعت له أسنانهم　　وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث ومن مشهوري رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج ، ومنهم بالشام أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي . فمن مجون ابن سكرة قوله في جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجرة　　مربحة ما مثلها تجره

سيرى إلى البصرة واسترزقي　　ربك بالنكهة في البصره

يزكو بها النخل وتحمر في　　غير أوان الحمرة البسره

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلفه

أين نصيبي من الطعام وما　　طمعت في لعقة من المرقه

أشفقت مني وكان يقنعني　　عندك ما ليس يوجب الشفقه

قطعة لحم في وزن خردلة　　على رغيف كأنه ورقه

ومن مجون أبي الرقعمق قوله عن قيادته من قصيدة .

فأطيب العيش كان عندي　　أيام للفسق قلدوني

«١» بالتسهيل ، مكان الصراع ومفعول أسر [redacted] «٢» خاقان لقب ملك الترك ، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمداني صاحب مخلاف باسمه

وكنت طبا به بصيرا ... وأقود الناس فى سكون
فكم غزال أخذت قسرا ... وكم مليح حوت يمينى
والناس يسعون نحو دارى ... من كل أرض ويقصدونى

٣ - الخمريات — قلنا إن الخمريات شغلت مطالع القصائد أولا مكان التشبيبات القديمة، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من الفنون الجديدة فى العصر العباسى. نعم إن الخمر نالها فى عهد بنى أمية شىء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو الهندى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى، وكان شاعرا مطبوعا من مخضرمى الدولتين، فأشاد بذكرها لأدمانه المعاقرة وشغفه بالشراب مع ما كان يرمى به فى الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله فيها وكان فى تلك الاشادة كثير الحض عليها كقوله

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ... ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت ... فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حمياها ولذتها ... ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ ما قاله فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد إمام واصفيها بالاجماع، واقتدى به فى ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم يساووه. وكذلك كانت الخمريات فى العصر الثانى ثم استفحل أمرها فى الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق زيادة لمستزيد. وعلى هذا الطغيان كانت فى العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبى نواس ولابن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبى العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج نأتى به من العصر الرابع نخذه للطغرائى يصفها فى شيبه ويجعلها بديلة الشباب

قد كان لى فى شبيبتى مرح   يحدث لى بغتة بلا سبب
فمـــذ تولى الصبا تبين لى   أن الصبا كان موجب الطرب
حظ تولى فلست أدركه   إلا بعون من ابنة العنب
فهاتهـــا من شبيبتى بدلا   أقضى بها بعض ذلك الأرب
صفراء مثل النضار ألبسها   مزاجها لؤلؤا من الحبب
فأسعد الناس من حوت يده   ماشاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ — الرثاء — ليس الرثاء محتاجا بعصر مافى وجوده إلى تعليل، مادامت رحى المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزيز. وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن،أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا وراء المديح،وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير،ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ،وقدرأيت من مراثى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميدوهى مضرب الامثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثاني مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر:وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث ـ وهو أرقى العصور رثاء لأنه أرقاها مدحا ـ رثاء الرفاء لصديقه المصلوب،وهو نوع من الرثاءجديد،ورثاءالرضى للصابى، ولعله أروع رثاء يتبين فيه صدق الأخاء . وإليك فى الرابع نموذجالابن

سنان الخفاجى فى والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :

قبحا ليومك فالنوائب بعده جلل وكل رزيـــة لا تفجع
لو كان ينفعـني السـلو نبذتـه أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
هيهات يجمع شمـل صبر نافر قلب بأيدى الحـادثات مروع
أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن ادكارك أنهـا لا تنقـع
عجبا لمن يبقى ذخـــائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع
لا يغبطن على البقــاء مرزأ إن المودع إلفـه لمودع

٥ — الزهد — من النواميس المقررة فى حياة الجماعات، أن نزوع طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضى نشوء أخرى مضادة لها فى الاتجاه، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج عليه فى تبجح وتظاهر، لم تك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان. أما حين غزت الاباحية الشعب العربى على عهد بني العباس للاسباب الكثيرة التى ذكرناها فيما قدمنا، ونشأت من غزوها طائفه المستهترين، فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك، همها التزهيد فى هذه الحياة بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها. وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن هو إلا حطام، بقدر ترغيبها فى الآخرة ومافيها من لذة وخلود. نعم جدت هذه الطائفة، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الاشخاص، أمكنها بقوة الدين ومدده القويم، أن تنتج من المواعظ ونواحى الارشاد ماأنار السبل على أيامهم، وبقى بعدهم هدى للناس. ثم كان أشخاصها ذوى مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام؛ إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء الوعاظ ، وقد كان إمامهم فى العصر العباسى الأول أبو العتاهية الذى سلف من قصصه ووعظه مافيه الغناء ولقد تفرع عن هـذا الوعظ بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص الحكايات ، وأول من فعل ذلك أبان بنظمه كليلة ودمنة ، وتبعه من ذكرنا آنفا حيث الـكلام على هذا الكتاب . ثم اتصل الزهاد والمؤدبون فلم تخل الآرض من حجج منهم لله على توالى العصور . على أن التأديب بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين فيكون حجة عليهم وتقوية للزاهدين . وهذا أبو نواس يقول :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى … كأنك لاتظن الموت حقا
ألا يابن الذين فنوا وبادوا … أما والله مابادوا لتبقى
ومالك فاعلمن فيهـا مقام … اذا استكملت آجالا ورزقا
ومالك غير ما قدمت زاد … اذا جعلت إلى اللهوات ترقى
وماأحد بزادك منك أحظى … وما أحد بزادك منك أشقى

٦ — الصفات — وعلى قدم الوصف فى الشعر العربى منذ العهد الجاهلى لم يبلغ فيه ولا فى العصرين بعده شيئا مما بلغ فى عصر بني العباس. ذلك بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعية وآثار حضارة ، والمعنوية من مشاعر نفوس ومدركات عقول ، كانت محدودة فى الأول واقفة عند حدود قريبة فى الآخرين . أما فى العصر العباسى وقد تجلت فيه مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة ، وخطت فيه الوجدانات والعقول خطوات لم تك فى حساب ، فقد أصبح الشاعر إذا غار فى أعماق الفكر

لاينتهى بقرار ، واذا طار مع الخيال لايصل إلى سماء ، ولذلك بلغوا فى الناحيتين مبلغا يدهش عقل من لايحيط بنواحى هذا الانقلاب الشمول. وليس يألو ماذكرنا من نماذج ، وما استشهدنا به فى معظم مامضى وبخاصة فى ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة، وآيات بينة على صدق مانقول، فارجع اليه وإنه لقريب . ويكفى أن الوصف قد خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا مستقلا كما تقدم فى الخمريات . ولم يقف دون السير فى هذا العصر نفسه بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما رأيت فى بعض مااخترنا ؛ ثم ماكاد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزراع؛ وصدر فيه على ألسنة كثير من الشعراء مايبهر الناظرين، وإليك بعض ماقيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع

ماترى[1] نعمة السماء على الأر ... ض وشكر الرياض للأمطار
وغناء الطيور كل صباح ... وانفتاق الأشجار بالأنوار
وكأن الربيع يجلو عروسا ... وكأنا من قطره فى نثار

وقال على بن الجهم يصف الورد

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ... حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ... وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده ... إلى الترائب[2] والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته ... أو مانعا جفن عينيه من السهد

(١) ما هنا مخفف أما (٢) عظام الصدر.

بين النديمين والخلين مصرعه   وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته   إلا تبينت فيـه ذلة الحسـد
قامت بحجته ريح ممطرة   تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعذبه   بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى ـ وكان مولعا بالخلاف ـ يفضل النرجس على الورد

خجلت خدود الورد من تفضيله   خجلا توردهـا عليـه شاهـد
لم يخجـل الورد المورد لونـه   إلا وناحله الفضيلة[1] عانـد
للنرجس الفضل المبين إذا بدا   بين الرياض طريفه والتالد
فصل القضية أن هـذا قائد   زهر الربيع وأن هـذا طارد
شتان بين اثنين هـذا موعد   بتصرم الدنيا وهـذا واعـد
فاذا احتفظت به فأمتع صاحب   بحياته لو أن حيـا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه   وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سميه   أبدا فانك لامحالة واجـد
والورد إن فتشت فرد فى اسمه   مافى الملاح له سمى واحد[2]
هذى النجوم هى التى ربتهما   بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الولدين من أدناهما   شبهـا بوالده فـذاك الماجـد
أين الخدود من العيون نفاسة   ورياسة لولا القياس الفاسد

وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شىء مما تنبت الرياض على اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضى

---

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بياسمين دون ورد

على بن محمد التنوخى يقول :

وریاض حاکت لهن الثريا حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها فتحلت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ فى خدود الغيد
وكأن الندى عليها دموع فى عيون مفجوعة بفقيد

وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات فى العصر الرابع، قال الأرجانى يصف روضة فى مطلع قصيدة غزلية

ماروضة أضحكت صبحا مباسمها دموع قطر عليها الليل ينسفك
فالنرجس الغض عين كلها نظر والأقحوانة ثغر كله ضحك
وللشقائق زى وسطها عجب إذا تمايلن والأرواح تأتفك(١)
حمر الثياب تطير الريح شائلة أذيالها وهى بالأزرار تمتسك
إذا الصبا نبهت أحداقها سحرا حسبت مسكا على الآفاق ينفرك
أتم طيبا وحليا من ترائبها(٢) إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات، ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فان الباب طويل .

١٠ — وأخيرا هذا فن عاشر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتماوج فى تصرفها (٢) أتم خبر ما النافية المفتتح بها الشعر

المزدوجات، نعم إن هذا الفن قد ابتذل الشعر وحط من قدره لأنه أخرجه فى معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به فى لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب ، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال ، وإذ قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه فى كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثرته فيهما نظراً لتقدم العلوم .

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ فى الحد من منظومة له فى المنطق

إذا أردت أن تحد حدا فرتب الجنس القريب جدا
فانه يحصر كل ذاتى يكون للمحدود فى الصفات
ثم اطلب الفصول فهى الحاده من صورة أخذتها أو ماده

وقال الحريرى فى أدوات الشرط من ملحة الاعراب

هذا وإن فى الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما وحيثما أيضا وما وإذما
وأين منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافتى

٢ ـ ناحية المعانى والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث فى العهد العباسى من تدوين العلوم وترجمتها، عاملا مهما على تفسيح ميادين المعانى وتفجير ينابيعها ، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتخييل ، ومظهر الحضارة المصحوبة بمحاسن الطبيعة وجمالها، منميا لملكة التصور ومكثرا لأنواع الأخيلة . كما كانت الملاحاة الدائبة بين الجماعات من جنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدرة على الجدل والسفسطة فى النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحجة والدليل . وكل هذا عاد على المعانى والاخيلة بتقدم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب. وهانحن أولاء مفصلوه فى الشعر تفصيلا يعتمد أول مايعتمد فى التمثيل له على ماأسلفنا من نماذج .

١ ــ استنباط الدقيق والجديد من المعانى ــ جال الشعراء فى هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحى فى كل ماعالجوا من فنون الشعر، حتى لقد تزاحم الكثير منها فى القصيدة الواحدة تزاحما كان غير معروف، كما فعل ابن الرومى فى قصيدته السابقة التى تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المدبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستميحه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لأنه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يضنى روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التى طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعانى الدقيقة التى عالجها . وكما فعل الرفاء فى رثائه صديقه الفتى المصلوب من بنى شيبان، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل، وإذ سوى بين ثنى عطفه فى غلالة الصلب وسابغة الحرب، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضنك الثرى، إلى آخر ما عالج (١) وكما فعل الصابى فى قصيدته التى يعزى بها نفسه وهو

(١) معظم ما وقع من معان فى المصلوبين جاء جديدا، لأن التمثيل بقتلاه يكن شائعا ، ومن أسير القصائد فيه قصيدة أبى الحسن الانبارى فى أبى

فى السجن،من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله هذه النائبة أثرا لمنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمد يده إلى النجم وسعيه نحو المجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعانى وإن لم يك فى القصيدة بالكثير كالذى رد به التهامى تهمة حبيبته إياه أنه نسيها بجديد، من أنها أخذت حواسه وعقله،فكيف يعشق لو أراد ، وكالذى ألم به مهيار فى تهنئته ابن على المغربى بالنيروز وهو يهنئه بالوزارة ، وكالذى عالجه الغزى فى مدحه البيهقى من خلطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس،فى شبه تخويف بما قد يحمله عليه المطل من هجاء ، ثم كالذى قاله الأرجانى فى هجو أهل زمنه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدها إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمنى فى عاص قتل وصلب

ومد على صليب الصلب منه ... يمينا لا تطول إلى شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من المعانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قال بشار ينسب العشق إلى الأذن كالعين

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة　　والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم　　الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك ماله بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى　　ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى　　أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب ـ فكان يمدح الخمر ولا يشربها ـ بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها　　قعدى يزين التحكيما

كل عن حملة السلاح إلى الحر　　ب فأوصى المطيق ألا يقيما

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا فى الحلة الغداة كأنى　　علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى فى فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها　　فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة　　ولكننى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة　　أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره　　فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله　　فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاعلا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آبائه على الأمم

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من　　حكم الخلائف آبائى على الأمم

فكل مافيه مبذول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم

وقال أبو فراس فى أثر سنان أصاب خده فعز ذلك على حبيبته

لما رأت أثر السنان بخده ظلت تقابله بوجه عابس

خلف السنان به مواقع لثمها بئس الخلافة للمحب البائس

حسن الثناء بقبح ماصنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال ابن الرومى يحالل لنفسه عدم تغاضيه عن خطأ صديقه

ياأبا القاسم الذى كنت أرجو ه لدهرى قطعت متن الرجاء

أنت عيني وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء

وقال فى الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

وقال أبو تمام يجعل نغمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقال يذكر فضل قبور بنى مالك على الثرى

بنى مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم

غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلالم

وقال يجعل المجد شفيعه فى عدم التقاضى

وإذا المجد كان عوني على المر ء تقاضيته بترك التقاضي

وقال المتنبي يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك فى ابن العميد

من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس راوى كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدما وأتى فذالك[1] إذ أتى متأخرا

إلى غير ذلك مما لايتناوله إحصاء

هذا ـ ولقد كانت رغبة المحدثين فى تدقيق المعانى حاملة لهم على استخراج المكنون وتجلية المستور ، فجاءت لذلك لابسة ثوب الجدة والابتكار، ولعلهم لهذا كانوا إذا ألموا بقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة أو يدا بجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم فى كثير من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات . وقد ذكر منها طائفة صالحة أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين: وهذا بعض ماجاء فيه وفى غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نواس، وله فى هذا الباب باع طويل

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

فكان أوثق وأسخى وأرق من الفرزدق حيث يقول

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

وقال فى محاسن حبيب باك

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والرقة إذ يقول

---

(١) يريد أتى فى النهاية جامعا لما سبقه من فذلك حسابه اذا أنهاه بقولك فذلك جملته .

يسعى بها ذو توأمين كأنما قنأت أناملة من الفرصاد[1]

كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كالوأواء الدمشقي في قوله .

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فكان بيته أعم معني وأشد مبالغة من بيت جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردى اجتهاده عذرا في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره

فكان له فضل الايجاز مع الايضاح على النابغة حيث يقول .

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ماالتقى الجيشان أول غالب

وقال في ذلك مسلم

---

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت اشتدت حمرتها، والفرصاد التوت الأحمر أوصبغ أحمر

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال فيه أبو تمام

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول

يفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وماضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

وقال أبو تمام فى إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد

يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وقال منصور النميرى

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها لخلتك إلا أن تصد ترانى

ففضل النابغة حيث يقول

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا، قال سلم الخاسر .

ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية مافاتك الطلب

وقال البحترى .

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وقال على بن جبلة .

وما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

على أنا لا نغمط المتقدمين حقهم فى أن لهم من المعانى ما لم يزد فيه المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار

فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول

ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

وكقول عمر بن أبى ربيعة .

لقد دب الهوى لك فى فؤادى دبيب دم الحياة إلى العروق

فقد أخذه مسلم كما هو فى قوله

تجرى محبتها فى قلب عاشقها جرى السلامة فى أعضاء منتكس

وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله .

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

٢ — الاكثار من ضرب المثل وحسن التمليل - كن من أهم الدواعى إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر فى البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأقاصيص فى الحكم والامثال،ووضع قواعد العلم فى مختلف الفنون،ولذلك نعد منها ماسبق آنفا فى استخدام مصطلحات العلوم . وأنت اذا رجعت إلى ماأسلفنا من نماذج ألفيت ذلك كثير الانبثاث فى ثناياها لابن الرومى والمتنبى وأبى فراس والصابى والخفاجى والأرجانى وابن عنين ،فارجع إلى ما اختير لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

قال أبو العتاهية

يارب ذى نشب تكنفه　　حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه　　صفرا وصار لغيره سلبه
ياصاحب الدنيا المحب لها　　أنت الذى لاينقضى تعبه
إن استهانتها بمن صرعت　　لبقدر ماتسمو به رتبه
وان استوت للنمل أجنحة　　حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخلق　　لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة　　إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـــدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعـد اهتزاز　　قبل روض الوهاد روض الروابى

وقال

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالى

وقال

يأيها الملك النائى برؤيتـه　　وجوده لمراعى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا　　إن السماء ترجى حين تحتجب

وقال البحترى

دنوت تواضعا وعلوت مجدا　　فشأناك انحـدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى　　ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

وقال

وقدزادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارىّ الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

وقال ابن الرومى

وما الحسب الموروث لادر دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب
اذا العود لم يثمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس فى الحطب

وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد
والا فما يبكيه منها وإنها لأحسن مما كان فيه وأرغد

وقال المتنبي

وشبه الشىء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذى بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفى السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من شدة الفتك نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وقال ابن نباتة السعدى من وصف فرس أغر محجل

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وقال ابن قلاقس الاسكندرى

مضى معهم قلبى فالله دره لقد سرنى إذ مرمع من يسره
وأطول من هجر الحبيب وصبوتى ويوم النوى ليلى وهمى وشعره
وليس دما ماء الجفون وإنما فؤادى بماء الدمع قد ذاب جمره

وقال ابن شبل البغدادى

يفني البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

٣ — استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية — لم تكن شاعرية الشاعر قبل العصر العباسى تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقى شعره فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم. أما فى العصر العباسى فقد انخرط الشعراء فى زمرة العلماء، وأصبح منهم فى كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل الفطرى، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار ونقاش فى الدين وغير الدين منميا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام. ولعل أول خطوة فى سلوك هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان

التعليل على ألسنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية، وبعدها كان اقتباس بعض المعانى الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا الاقتباس على ألسنة بعض شعراء العصر الثانى كابن الرومى

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا،اغترف الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبي ، ثم زاد غزارة وعمقا بعقلية فيلسوفه وآخر شعرائه المعرى · ولكن بعد هذا المعين فى العصر الرابع على الشعراء فعجزوا عن الامتياح ، ومن حاول منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع فى الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار فى الحكم القريبة من وحى الفطرة

إذا كنت فى كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال فى فلسفة الحيرة وكان من أصحابها

طبعت على مافى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته فى الزهد والدين ـ وله فى ذلك الأرجوزة التى قلنا آنفا إن بها أربعة آلاف مثل ـ يعظ ويذكر

ياعجبا للناس ، لو فكروا　　وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها　　فانما الدنيا لهم معبر
الخير مما ليس يخفى هو الـــمعروف والشر هو المنكر
والموعد الموت وما بعده الـــحشر فذاك الموعد الاكبر
لافخر إلا فخر أهل التقى　　غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى　　والبر كانا خير مايذخر
عجبت للانسان فى فخره　　وهو غدا فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة　　وجيفة آخره يفخر
أصبح لايملك تقديم ما　　يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره　　فى كل مايقضى وما يقدر

وقال ابن الرومى فى الحيرة بين حب المال والخوف من طلبه

أذاقتنى الأسفار ماكره الغنى　　إلى وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الاثراء أزهد زاهد　　وان كنت فى الاثر أرغب راغب
حريصا جبانا أشتهى ثم أنتهى　　بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه　　فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعني رغب ورهب كلاهما　　قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة　　وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها　　وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى　　ومن أين والغايات بعد المذاهب
وصبرى على الاقتار أيسر محملا　　على من التغرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغوفا بمخالفة المألوف فى فلسفته[1] يمدح الحقد ويحسنه

وخير سجيات الرجال سجية ... توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها ... بل العيب أن تدان دينا ولا تقضى
ولولا الحقود المستكنات لم يكن ... لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى إساءة ... فثم ترى شكرا على حسن القرض

وقال المتنبي ـ وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا ـ يعبر عن آماله وآلامه

أود من الأيام مالا توده ... وأشكو إليها بيننا وهى جنده
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه ... فما طلبى منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيرا ... تكلف شىء فى طباعك ضده
وأتعب خلق الله من زاد همه ... فقصر عما تشتهى النفس وجده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبى ماله ... مدى ينتهى بى فى مراد أحده

وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى

أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وللفلسفة عاش، وحسبه أن خلف

---

(١) يدل على تأصل هذه الهوية فى نفسه قوله

فى زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وان ذممت فقل قىء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما ... حسن البيان يرى الظلماء كالنور

فى آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تتعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى تائيته التى اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته فى المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع ،وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقمات وأبان وجه ذلك فى الذكور والاناث وعاد يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى تعليم المرأة الفصاحة والبيان ،فجعله فى يدها أداة شر ومعول فساد ،وأبان أن خير ماتتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز ،وأن خير ماتعمل حمل المغزل لاحمل الأقلام، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من المعصر المرفهة ،وإلى الرجل مطلقا أن يجاوز الواحدة إلى ضرة ،وإلى الشاب أن يسرف فى شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه فى ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لايكون إلا بيعل يسد غاريها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحى قد عالجها فى تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير فى تحديد معان وبسط آراء ،فجاءت عنوانا ظاهرا لمعالجاته الفلسفية ودليلا واضحا على نضوج عقله وغور فكره ،وعليك أن ترجع اليها لترى أن ماذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال ـ كانت هذه الناحية أظهر النواحى فى شعر العصر العباسى منذ أن بدأ إلى أن زال. ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية ضاربة فى القدم إلى عهد سحيق، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة ،ومن صناعات الأيدى

الصناع ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلفتوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفى من الزلال، ولذلك جروا فى ميدانه وطاروا فى سمائه إلى مدى بعيداً نتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ماجاء فتنة للناظرين، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب فى الحواضر والأمصار ، المأخذ ومحل المحاكاة ، فى مصر والشام وغيرها من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ماكان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة فى هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه فى النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبته وكيف أبدع فى تشبيهات محاسنها ، ووصف أبى نواس سلاف الشهد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحترى خروج المتوكل فى عيد فطر للصلاة ، وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالا ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الخمر وساقيها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخيله فى وصف الكأس والبذل والاستهتار بالشراب ، وفى السلوقية كيف تصيد وفى طواف السقاة ونشوة الشاربين، ثم فى مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامى للثغر والطيف ومظاهر الليل فى ثباته أولا وفى انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانيا إلى آخر ما أغرب به من خيال. ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليمني . الأول دار تاج الملوك المرداسي بالشام، والثاني دار آل رزيك بقاهرة المعز وماجريا إليه وراء الخيال فيما عالجا من وصف النقوش والتهاويل على اختلاف أنواعها وتنوع مرائيها ووصف ابن التعاويذي غلمان الناصر الأتراك وصفا عقد فيه بين فتنة الجمال وجرأة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنويه بتعرض الطغرائي لمظهر بدوي دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب، هو وصفه هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته إلى السحر منه حيث وردوا غديرا اشتبه ماؤه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث عليهم من الشرق، إلى غير ذلك مما بلغ في تصويره حدا نرى من الظلم له التعرض لوصفه دون ذكره، فلترجع إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا به من خيال وتشبيه بعد الاشارة إلى هذه الاوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد كرة ترامى ... حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شيء ... مخافة أن يكون به السرار(١)
أقول وليلتي تزداد طولا ... أما لليل بعدهم نهار
جفت عيني عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

وقال في نوع شرابه ومحاسن محبوبته

أيها الساقيان صبا شرابي ... واسقياني من ريق ثغر برود

---

(١) المسارة مصدر ساره يساره سرارا ومسارة

إن دائى الصدى وإن شفائى شربة من رضاب بيضاء رود[1]
عندها الصبر عن لقائى وعندى زفرات يأكلن قلب الجليد
ولها مبسم كثغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القـــلب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال والليالى يبلين كل جديد
لا أبالى من ضن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود

وقال فى تشبيه العظام بالخيزران وهو جديد

ودعجاء المحاجر[2] من معد كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا.

ويوم كتنور الأماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
كأسا إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمرتها فى العين والخد

وقال إسحاق بن ابراهيم الموصلى فى غزو محاسن محبوبته إياه

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فعبى لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادى فى يديها على الغصب

---

(١) متمهلة لينة (٢) سوداء العين فى سعة

وناديت من وقع الأسنة والقنا   على كبدى يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر   قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا   يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل
اذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى   له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل
اذا انتشرت أعلامه حوله انطوت   بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال البحترى من وصف بركة المتوكل

تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة   من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا   مثل الجواشن (١) مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها   وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها   ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقال فى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث

ولما التقينا واللوى موعد لنا   تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها   ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال ابن الرومى فى خباز رقاق

ما أنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء (٢) كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح (٣) دائرة   فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال فى صانع زلابية

---

(١) الدروع جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسيه تعب | روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحرا يقلى زلابية | فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله | فيستحيل شبابيكا من الذهب

وقال ابن المعتز فى الخمر

وأمطر الكأس ماء من أبارقه | فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا | نوراً من الماء فى نار من العنب

وقال فى أثر النشوة

وقد شربوا حتى كأن رءوسهم | من اللين لم يخلق لهن عظام

وقال فى قيام الساقين على رءوس الندامى

وكأن السقاة بين الندامى | ألفات بين السطور قيام

وقال فى سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوامن | فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند[1] كأنه | بقية غيم رق دون سماء

وقال فى فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملنى | طرف كلون الصبح حين وقد
وكأنه موج يسيل إذا | أطلقته وإذا حبست جمد

وقال السرى الرفاء فى حدائق

وحدائق يسبيك وشى برودها | حتى تشبهها سبائب[2] عبقر
يجرى النسيم خلالها فكأنها | غمست فضول ردائه فى عنبر
باتت قلوب المحل تخفق بينها | بخفوق رايات السحاب الممطر

وقال أبو الفرج الببغاء فى كانون

---

(١) ما يظهر على صفحتيه من تموجات (٢) جمع سبيبة وهى الشقة الرقيقة كالخمار

وذى أربع لا يطيق النهوض ولا يألف السير فيمن سرى
تحمله سبجـا [1] أسودا فيجعله ذهبا أحمـرا

وقال فى ناره

إذا رمت بالشرار واضطرمت على ذراها مطارف اللهب
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب

وقال فى فحمه

كان كالآبنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس
لقى النار فى ثياب حداد فكسته مصبغات عروس

وقال أبو الفضل الميكالى فى شرار النار

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر إذا ما علا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك فى غدير تعتدل عليه الغصون وتميل

وغدير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لما ضاق عنه مجال
قمر الرياض إذا الغصون تعدلت واذا الغصون تهدلت فهلال

وقال الصابى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها يد لك لاتسود إلا من النقس [2]
إذا رقشت بيض الصحائف خلتها تطرز بالظلماء أردية الشمس

وقال أبو العلاء فى ليلين مختلفين

وليلين ، حال بالكواكب جوزه وآخر من حلى الكواكب عاطل
كأن دجاه الهجر والفجر موعد بوصل وضوء الصبح حب [3] مماطل

---

(١) فحما (٢) المداد الاسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبته فى حوار

هى قالت لما رأت شيب رأسى ... وأرادت تنكرا وازورارا
أنا بدر وقد بدا الصبح فى رأ ... سك والصبح يطرد الأقمارا
لست بدرا وإنما أنت شمس ... لا ترى فى الدجى وتبدو نهارا

وقال ابن سناء الملك

ياعاطل الجيد إلا من محاسنه ... عطلت فيك الحشا إلا من الحزن
فى سلك جسمى در الدمع منتظم ... فهل لجيدك فى عقد بلا ثمن
لا تخش منى فأنى كالنسيم ضنى ... وما النسيم بمخشى على الغصن

٥ — المبالغة والتهويل — لعل أول ماحبب الى شعراء العصر العباسى المبالغة والتهويل ؛ أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين فى نسبهم الى أصل فارسى ؛ وللفرس ولع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذ كانت هذه الفئة المولدة فى العصر العباسى الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع الى هذه الظاهرة رغبة فى التحبب وأكثروا منها فى مدائحهم طمعا فى ابتزاز المال . على أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة فى جذب المال ؛ هو تفتح أبواب المعانى واتساع مناحى التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا فى هذا الميدان وطمع كل أن يكون المجلى فى تلك الحلبة أمام مناظريه ؛ فان هذا الطمع لابد يحدوه الى الاتيان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه فينزع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من

نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا فى المديح . فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيبانى فى شجاعته إلى حيث شابه رسول الله ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام فى رثائه ابن حميد الطوسى قد بالغ فى كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب نصرا وحياة . وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثانى فى مدحه المتوكل على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يمقت قبلا من غلو وإغراق، فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب المتنبي فأتى بما لم يدر بخلد فى المدائح وفى غير المدائح على السواء وهاهى تلك المدحة التى اخترنا آنفا من مدائحه فى سيف الدولة ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر أن يحدث خطوبا اذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى الى آخر ماقال . ، وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، فى غير المديح كما سيأتى ، ثم كان العصر الاخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا فى هذا الباب كما ترى ذلك فى قصيدة الأبيوردى التى اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه فى النماذج من المبالغات قال بشار فى نحافته من أثر الحب

سلبت عظامى لحمها فتركتها عوارى فى أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فجعلتها أنابيب فى أجوافها الريح تصفر
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى ضنى جسدى لكننى أتستر
وليس الذى يجرى من العين ماؤها ولكنها نفس تذوب فتقطر

وقال المتنبي فى ذلك

روح تردد فى مثل الخلال[1] اذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أنني رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال أبو نواس من مدح الرشيد

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان
ماتنطوى عنه القلوب بنجوة إلا يحدثه بها اللحظان[2]
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وقات منصور النميرى من مدحه أيضا

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه ومن وضعت من الاقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أوضاق أمر ذكرناه فيتسع

وقال ابن الرومى من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله إبر يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال ابراهيم بن سيار النظام

توهمه طرفى فآلم خده فصار مكان الوهم من نظرى أثر[3]
وصافحه كفى فآلم كفه فمن صفح كفى فى أنامله عقر
ومر بفكرى خاطرا فجرحته ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

---

(١) فى جسم كعود الخلال نحافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الثاء

مارست من لوهوت الافلاك من　　جوانب الجو عليه ماشكا
ولو حمى المقدور منه مهجة　　لرامها أو يستبيح ماحمى
تغدو المنايا طائعات أمره　　ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى

وقال المتنبى

لو كان علمك بالاله مقسما　　فى الناس مابعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ماأنزل التـــوراة　　والقرآن والانجيلا

وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا

لولا انقطاع الوحى بعد محمد　　قلنا محمد عن أبيه بديل
هو مثله فى الفضل إلا أنه　　لم يأته برسالة جبريل

وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويله .

سوى يهـاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخـــلدا
ولكننى لاأرهب الدهر إن سطا　　ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا
توقد عزمى يترك المـاء جمـرة　　وحيلة حلمى تترك السيف مبردا
ويأبى إبائى أن يرانى قاعـــدا　　وأنى أرى كل البرية مقعدا

٦ — تمحيص الافكار وترتيب العناصر — أظننى فى غير حاجة أن أعلل هذه الظاهرة الآن ، لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى أجمل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى الفطرة الشعرية لاعن تلك الفطرة وحدها كما كان أسلافهم ، بل عنها ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع العقل والفكر ، فنون حضارة وارفة الظلال تنمى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال. ولذلك كانوا يحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها فى ثوب ذى جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيتيه ظاهرا فى النماذج أتم ظهور.

فقصيدة العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسج قوية الأداء. وقصيدة أبى نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهد منذ خرج النحل يتغذى لخلاياها الى أن غادرت الدنان بعد حقب الى آفاق السراء. وقصيدة ابن المعتز وصف يحكى العيان فى الدعوة الى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك فى مجلس شرابها. وقصيدة ابن نباتة حكاية زورة ليلية لحبيب ذات تسلسل وانسجام. وقصيدتا ابن حيوس وعمارة اليمنى تناولتا فى دقة وإحكام كل مايجول فى الخاطر من محاسن القصور. وقصيدة الطغرائى أحسن مايصف به واصف رحلة بدوية فى هاجرة نهار وظلام ليل، ترد بعدها الابل غديرا فى منبلج الصباح. وقصيدة ابن عنين خير تعبير لما يجول فى نفس هازم ومهزوم لكليهما من الشجاعة حظ ونصيب:

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها فى ابتداء القصيدة، وفى الانتقال خلالها من المطلع الى ماهو الغرض المقصود فيها، ثم فى إنهائها، الى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة فى البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء، ومن الاول تفرعت براعة الاستهلال.

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعانى الصحيحة الملائمة، والالفاظ الرشيقة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعانى ومايستكره ويجفى من الألفاظ ، لأن المطلع أول مايقرع السمع فيسترعى الآذان أو تمجه الآذان . فأذا أضاف الى هـذا الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها فى إشارة لطيفة فقد ضم الى براعة المطلع براعة أخرى هى براعة الاستهلال وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول ابى نواس

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ماأقوت وطيب نسيم

وقول البحترى

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق

وقول صريع الغوانى

أجررت ذيل خليع فى الهوى غزل وشمرت همم العذال فى عذلى

وقول أبى العلاء

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر

وقول التهامى

حازك البين حين أصبحت بدرا إن للبـدر فى التنقل عـذرا

ومما ضم الى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبى تمام فى الرثاء

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقول المتنبي فى الشفاء من مرض

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم وزال عنك الى أعدائك السقم

وقول أبى فراس على وشك رحيل

ياطول شوقى إن كان الرحيل غدا لافرق الله فيما بيننـا أبـدا

وحسن التخلص ويسمى براعة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع القصيدة من نسيب أوغيره الى الغرض الأصيل ، على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين فى دقة لطف وحسن وئام كقول مسلم فى يحي وابنه جعفر

أجدك هل تدرين كم رب ليلة   كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بهـا حتى تجلت بغرة   كغرة يحي حين يمدح جعفر

وكقول البحترى فى الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبـات مجودة   بكل جديد الماء عذب الموارد
اذا رواحتها مزنة بكرت لهـا   شآبيب مجتاز عليهـا وقاصـد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت   عليهـا بتلك البارقات الرواعد

وكقول المتنبى فى سيف الدولة

خليلى مالى لاأرى غير شاعر   فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة   ولكن سيف الدولة اليوم واحد

وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ فى صلاح الدين بن العزيز

أهوى التذلل فى الغرام وإنمـا   يأبى صـلاح الدين أن أتذللا
مهدت بالغزل الرقيق لمدحه   وأردت قبل الفرض أن أتنفلا

وحسن الانتهاء ويسمى براعة الختام أن تختم القصيدة بمايشعر بالانتهاء فهو فى النهاية نظير براعة الاستهلال فى الابتداء وهو آخر مايعى السمع ويرتسم فى النفس كقول المتنبى

فلا حطت لك الهيجاء سرجا   ولاذاقت لك الدنيا فراقا

وكقول أبى العلاء

ولازال لك الأيام ممتعة   بالآل والمال والعلياء والعمر

وكقول الأرجانى

علاك سوار والممالك معصم   وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق   وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب فى نعمة   تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لازلتم ملوك الورى   شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب. أما فى العصر العباسى فقد عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب (١)

---

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى اذ دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصر فأنشده

يادار غيرك البلى ومحاك   ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البحترى

وهوى تجــدده الليالى كلما   قدمت وترجعه السنون فيرجع

يأيها الملك الذى سقت الورى   من راحتيه غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ماكان من أبى نواس إذ دخل على الفضل البرمكى فأنشده مبتدئا

٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر فى العصر العباسى من الدقة فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التأنق فى صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض فى إحكام وقوة أداء ، أوفر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعى عذوبة تنسجم مع وجدان الشاعر، ويطلب خفة تطير مع خياله، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له فى نفس الناثر ولا مطلب له فى القول المنثور .

غير أن الشعراء فى هذا العصر قد وقع لهم فى ناحية الالفاظ

أربع البلى إن الخشوع لبادى   عليك وإنى لم أخنك ودادى

ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى برمك من رائحين وغادى

فكان ذلك منه عجبا وهو البارع فى البراعات يجمعها فى قصائده جمعا كما فعل فى قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخصيب فقد تحدث عن زوجته فى مبدئها يقول

تقول التى من بيتها خف محملى   عزيز علينا أن نراك تسير

وتخلص من المدح بقوله مخاطبا لها

ذرينى أكثر حاسديك برحلة   إلى بلد فيه الخصيب أمير

ثم ختمها بقوله مخاطبا الممدوح

فإن تولنى منك الجميل فأهله   وإلا فإنى عاذر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملائهم السالفين ومن ثم وسمهم العلماء باسم المولدين أو المحدثين [١] وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة واستشهاد .

١ — فهم قد تصرفوا فى بعض الكلمات العربية تصرفا أخرجها عن معانيها القديمة إلى معان لم تك معروفة للعرب ثم كانوا كثيرا مايشتقون منها بعد هذا الاخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا فى كلمة « قصف » وأصل معناها كسر الغصن الضغير فأنهم أطلقوها على اللهو كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصباء ⠀⠀ مجموع رأى ولا تشتيت أهواء

وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد إلى اليمن لولاية

أيرحل آلف ويقيم إلف ⠀⠀ وتحيا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو منى ⠀⠀ سلام ما سجا للعين طرف [٢]

ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

---

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرفا كان أم هجينا، ولكن المولدين أطلقوا فى اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ولو كانوا عربا خلصا دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصى العروبة كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أى الذين حدثوا بعد الأصيلين

(٢) أشار إلى المعنيين فى العصر المغولى عفيف الدين التلمسانى حيث يقول

تبسم زهر البان عن طيب نشره ⠀⠀ وأقبل فى حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذة ⠀⠀ فان غصون البان تصلح للقصف

٢ — وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولعل كثيرا منها كان من تعريبهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون معرب آذركون أى لون النار لورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز

وطاف بها مباق أديب بمنزل　　كخنجر عيار صناعته الفتك
وحمل آذريونه فوق أذنه　　ككأس عقيق فى قرارتها مسك

كما يشبه الأصفر بمدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلاط طيب سوداء كقوله أيضا

سقيا لروضات لنا　　من كل نور حاليه
عيون آذريونها　　والشمس فيه كاليه[1]
مداهن من ذهب　　فيها بقايا غاليه

والألفاظ المعربة أكثر من أن تحصى ـ وقد ذكرنا منها طائفة كبيرة فى التعريب قبل .

٣ ـ وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الاعجمية على حالها من غير تعريب تظرفا وتملحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى

لما هوى بين غياض الأسد　　وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد

وكلفظة بر للكأس الملأى فى قول ابراهيم الموصلى

اذا ما كنت يوما فى شداه[2]　　فقل للعبد يسقى القوم برا

---

(١) أى ناظرة من كلأ بصره فى الشىء ردده فيه (٢) كغراب تبلبل فكر

فان السقى مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا

وقد ذاع استعمال كلتى نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هى، على ألسنة جمهرة الشعراء ولاسيما فى البيئات الفارسية (١)

قال عبدالصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد

لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عبـاد سقى المزن نشره فجاد برشاش من الوبل ساجم

وقال أيضا يمدح فخر الدولة بن بويه ويهنئه بالمهرجان

أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان

٤ — ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستى

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا وهذا لإنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأنى نون الجمع حين يضاف

---

(١) كلاهما عيـد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الأيام الأوائل من أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه الى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه الخمسة الأولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك آخرها يسمى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصابى فى سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما   زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة   كيما يحل إلى ثراك رجوعها
فالآن قد عادت وآلت حلفة   ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادى المتوفى بمصر سنة ٤٢٢

ونائمــة قبلتهــا فتنبهت   وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى فديتك غاصب   وما حكموا فى غاصب بسوى الرد

وقال ابن الرومى :

ماعذر معتزلى موسر منعت   كفاه معتزليا معسرا صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطه   إن قال ذاك فقد حل الذى عقدا

وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة   كخط إقليدس لاعرض له
وقد تناهى عقله خفة   فصار كالنقطة لاجزء له

وقال أبو الحسن بن أبى الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠

نعس الزمان فللغرام قضية   ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم   عرض وتفنى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبيه المتوفى سنة ٦٠٨

وبى هندسى الشكل يسبيك لحظه   وخال وخـد بالعذار مطرز
ومذ خط بيكار الجمال عذاره   كقوس علمنــا أنما الخال مركز

٦ — ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتذلوا الشعر بألفاظ العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية فى كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تتزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها فى نهاية العصر ، ومن مثلها فى تلك النهاية ملحة الأعراب للحريرى وقد سبقت الأشارة اليها

٦ — هذا وقد انحدر الشعراء الى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجانة كما اتضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التى تستدعيه كالهجاء والغزل والمجون .

٧ — على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله فى استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكناية مما رأيته حيث القول على الابداع فى التصوير والاغراب فى الخيال من الكلام على المعانى والأخيلة قبل.

٨ — ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس، وسنكتفى بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات فى اللفظ والاسلوب وأكثرها أنواعا .

فمن الجناس المماثل وهو المتفق اسمية وفعلية قول ابن الرومى وكان مولعا بالجوارى السود

للسود فى السود آثار تركن بها وقعا من البيض يثنى أعين البيض (١)

ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعلية قول البستى

---

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب، والبيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء المرأة

فقال لي دعني ولا تؤذني إلى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أبي الفضل الميكالى

تفرق الناس فى أرزاقهم فرقا فلابس من ثراء المال أو عار
كذا المعايش فى الدنيا وساكنها مقسومة بين أدماث وأوعار
من ظن بالله جورا فى قضيته افتر عن مأثم فى الدين أو عار

ومن المفروق وهو المتفق لفظا لا خطا قول البستى

كم من أخ قد هدمت أخلاقه فى آخر ما قد بنى فى أول
يرمى سهاما إن أسر المقت لى بالكيد لا يقصدن غير المقتل

ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحترى .

فان صدفت عنا فربت أنفس صوادإلى تلك الوجوه الصوادف

ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين

فيالك من حزم وعزم طواهما جديد الردى تحت الصفا والصفائح

ومن المشتق وهو ما يرجع إلى أصل واحد قول أبى تمام

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ومن المطلق وهو مالا يرجع الى أصل واحد قول أبي نواس

فما السلاف ازدهتنى بل سوالفه ولا الشمول دهتني بل شمائله

ومن المحرف باختلاف الشكل قول المعرى

لغيرى زكاة من جمال فان تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

ومن المضارع وهو مااختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضى

لايذكر الرمل الا حن مغترب له الى الرمل أوطار وأوطان

ومن اللاحق وهو مالا تقارب في حرفيه قول البحتري

لست عن ثروة بلغت مداها   غير أنى امرؤ كفانى كفافى

ومن اللفظى وهوما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجانى

وبيض الهند من وجدى هواز   باحدى البيض من عليا هوازن

ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأمير بهرام

قيل كل القلوب من   رهب الحب تضطرب

قلت هـذا تخرص   قلب بهرام مارهب

ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين

خبروها بأنه ما تصدى   لسلو عنها ولو مات صدا

والقول فى الجناس يطول .

٩ ـ وقد حلا لكثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير. ومن أعلامهم فى ذلك الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا ميدان النثر الى الشعر فأتى بالعجب العجاب

قال من مقطعة عاطلة الأبيات

أعدد لحسادك حد السلاح   وأورد الآمل ورد السماح

وقال من أخرى حاليتها

شغفتنى بجفن ظبى غضيض   غنج يقتضى تغيض جفنى

وقال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والاخرى معجمة

اسمح فبث السماح زين   ولا تخب آملا تضيف

وقال من رابعة خطية الجناس

زينت زينب بقد يقد   وتلاه ويلاه نهد يهد

وقال من خامسة مطرفته

سم سمـــة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه

وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارا واختراعا .

١٠ — ومما ظهر واضح الأثر بألفاظ الشعر وأساليبه فى العصر العباسى ما اخترع فى أوزانه وقوافيه، وهذى كلمة عما جد فى كل منهما .

الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التى نظم عليها العرب فى خمسة عشر بحرا معروفة، وأجهد تلميذه الأخفش نفسه أن يجد غيرها فلم يظفر إلا ببحر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .

وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد الأموى لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء فى العصر العباسى وبعده بقوا ينظمون عليها ، فقد نظم بعض المولدين على أوزان غيرها جريا وراء الأنغام الموسيقية الجديدة التى نقلتها اليهم الحضارات المختلفة ، أو رغبة فى عدم التقيد بالقديم وولوعا باختراع جديد فى الاوزان كما اخترعوا فى كل شىء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البحور بالقلب أو التحريف

فما جاء بالقلب : المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلن فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقى غرير الطرف أحور

أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

والممتد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا

والمتئد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن » مرتين مثل .

كن لأخلاق التصابي مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

وقد يقع القلب فى تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل صورة اسما كما حدث فى المضارع وأجزاؤه «مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن» مرتين فقد أخرت فيه فاع لاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .

على العقل فعول فى كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى

وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

ومما جاء بالتحريف، المتوافر المأخوذ من محرف الرمل وهو «فاعلاتن» ست مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيلتى الضرب والعروض السبب فصار وزنه «فاعلاتك فاعلاتك فاعلن «مرتين مثل :

ماوقوفك بالركائب فى الطلل ماسؤالك عن حبيبك قد رحل

ما أصابك يافؤادى بعدهم أين صبرك يافؤادى مافعل

والثانى ماجاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ، ثلاثة لايجوز فيها اللحن مطلقا وهى الدوبيت والسلسلة والموشح ، وثلاثة ملحونة دائما وهى الزجل والكان وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الاعراب واللحن فى

دور واحد منه وهو المواليا

فالدوبيت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى الرباعي أيضا لأن في البيتين أربعة أشطر. وقد اقتبسه البغداديون ونظموا منه على أوزان أشهرها « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » مرتين مثل

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد   فاذكر ولهى وما جناه البعد

قد كنت أقاسي الصد حتى رحلوا   ياليتهم عادوا وعاد الصد

والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتان » مرتين ومنه

يامعتدل القد إن صبري قد بان   والدمع لخافي الغرام أظهر اذ بان

جددت شجوني وقد كحلت جفوني   بالسهد فبيني وبين نومي شتان

والموشح نشأ أول ما نشأ بالأندلس ومنها انتقل الى المشرق في عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها « فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن » مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ ومطلعها

كللي ياسحب تيجان الربى بالحلى   واجعلي سوارك منعطف الجدول

ومنها « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني   هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس في هذه الفنون أكثر أوزانا منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه   والخلائق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد   والوصال م الملاح يشتق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمـار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب لِ صفرار

والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه فى النصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلن وشطره الأول دائما أطول من الثانى ومنه قول بعضهم .

ياقاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار

والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس فى رمضان كى يقوموا للسحور ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد على أقل العبيـد
ولا عدمنا نوالك فى صوم فطر وعيد

٧ — أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى عاميا ويأتى صحيحا. فمن عاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد عنى وأقسم ما يطاوعـني
كم ذا يصد وكم يرجع يصدعنى إن كنت آنا المطاق لا يراجعنى

ومن صحيحه قول آخر :

ياطاعن الخيـــل والأبطال قد غارت
والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواءك قد غارت

القوافى - التزمت العرب القافية فى القصيدة الواحدة كما التزمت فيها الوزن فلم يغيروا حرف القافية فى قصيدة مهما طالت بل لم يحيدوا عن نظم راعوها فى مجموع الحروف التى تشملها القافية بنهاية البيت - وهى من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية العصر الأموى كما كانت الحال فى الأوزان ثم أفلت الشعراء بعده من القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة فى النزوع عن القديم إلى جديد، وقد تختلف كالفرار من تضييق الحرف الواحد فى القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية وحدها، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الاوزان . على أنهم فى هذا الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه فى الأوزان فانحصر فيما يأتى : —

١ - المزدوج وهو مااقتصرت فيه التقفية فى كل بيت على عروضه وضربه دون ماحولهما فى الأبيات ، وأهم ماحمل القوم عليه إطالتهم الباسقة فى نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد عرفت ماكان من نظم أبان بن عبدالحميد لكليلة ودمنة، ووضع الحريرى

ملحته فى قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبى العتاهية مزدوجة
فماها ذات الحكم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :

لكل مايؤذى وإن قل ألم　　　ماأطول الليل على من لم ينم

ولبشر بن المعتمر مزدوجة فى فضل على كرم الله وجهه على الخوارج
يقول فيها عنهم .

ماكان من أسلافهم أبو الحسن　　　ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجب　　　أولئك الأعلام لا الأعارب

وللصابى مزدوجة كتب بها الى أبى الفرج الببغاء فى وصف الببغاء
أولهـــا .

ألفتها فصيحة مليحه　　　ناطقة باللغة الفصيحه

وللببغاء رد عليه بمزدوجة أخرى يقول فيها .

تميزت فى الطير بالبيان　　　عن كل مخلوق سوى الانسان

ولابن المعتز مزدوجة فى الشراب يقول فيها .

لى صاحب قد لامنى وزادا　　　فى تركى الصبوح ثم عادا

ولأبى فراس الحمدانى مزدوجة فى اللهو بالصيد يقول فيها

ماالعمر ماطالت به الدهور　　　العمر ماتم به السرور

وللحسن بن وكيع مزدوجة فى فصول العام أولها .

ياسائلى عن أطيب الدهور　　　وقعت فى ذاك على الخبير

٢ — المشطر وهو أن تتحد القافية فى أشطار القصيدة أربعة أربعة
أو أكثر فيسمى مربعا أو مخمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع
المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كلف عميـــد حياته فى قبضة الصدود
بلغه الشوق مدى المجهود مافوق مايلقاه من مزيد
جار عليه حاكم الغرام فدق أن يدركه بالأوهام
فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣ ـ المسمط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسيم من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية أخرى وبعدها قسيم من قافية القسيم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة فى الأقسمة المتعددة والاتحاد فى القسيم المفرد. ثلاثة كانت الأقسمة كما تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأمير تميم بن المعز الفاطمى

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومبدى الحب معذول
وإن لم يصغ للائم
وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف
مليح الدل والظرف جنت ألحاظه حتفى
فمن يعدى على الظالم

وقد يبتدأ ببيت مصرع غير الاقسمة يأتى عليه القسيم الملتزم مثل

توهمت من هند معالم أطلال
عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى
مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق[1] ميله
فجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على سرباله نضح جريال [2]

كما قد يبتدأ ببيت غير مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسيم كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع
مالعينى غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ماشئت فاسمع خبرى
غشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى[3]

(١) طرائق جمع سفسقة بفتحتين أو كسرتين مع سكون الثانى وفتح الثالث

(٢) الجريال صبغ أحمر قيل هو العصفر، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب إلى امرىء القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء

(٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا كل ماعددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٤٤ ، ٤٥ ماعدا الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طالت القصيدة جدا فى العصر العباسى الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى بعض مامضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن كأبى العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا . والمرء يطغى كلما استغنى

هـــذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا فى تلك النواحى الثلاث ، يتبين القارىء فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه، كما لا يعدم أن يجد لهم فى كل ناحية بعض السيئات، كنقل الأعجمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية، وغيرها فى الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلسفة إلى درجة الخفاء ، والتصور إلى حد الاغراب ، والغلو فى المبالغات إلى قمة الاغراق ، وغيرها فى المعانى والاخيلة، وكعدم التعفف عن الغزل فى المذكر، والانحدار فى الخمريات، والاسفاف فى المجون ، وغيرها فى المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بجودته كما كان يفعل فى الحالتين كثير من القدماء[1] فان العقل يقضى بالعدل فى الحكم لهم وعليهم كالاقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق فى ذلك بعض الانصاف [2]

---

(١) من رجال الحالة الاولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان يأنف أن يروى للشعراء الاسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذى جالسه الاصمعى حياة طويلة فما سمعه يحتج ببيت اسلامى وكذلك كان الاصمعى ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الاعرابى المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبى تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسروانى » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لابى تمام فلم يخجل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »

(٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهى الكلام على الشعر بعد الذى أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب فى تلك النواحى الثلاث دون أن نتعرض إجمالا لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة . هى مواطن الشعر وطبقات رجاله، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه، ثم الغناء ومجالسه ، لاتصاله الوثيق بالشعر والشعراء

ا — مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة فى حياة اللغة أن بغداد فى العصر الأول كانت محط الرحال وكعبة الآمال ومظهر العظمة والجلال. لقوة الخلفاء فيه وقوة تجماهم مناط تحقيق الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام، ولذلك تركز فيها كل شىء وقصدها ذوو الغايات من كل فن وفى مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن وإقامة لازيارة وإياب . ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا فى النشأة والنسب متعددى الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها فى العصر الثانى بقيت مركز الادب وعش الشعر ولكن فى تطامن وخضوع . وقد ظهر من الشعراء فى العصرين ست طبقات ، أولاها

مرجع النحوى فى الشواهد واللغوى فى معانى المفردات والتراكيب ، ويقدم الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن

طبقة بشار من مخضرمى الدولتين وأشهر رجالها بشار وحماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة ، ومن رجازها رؤبة بن العجاج. وثانيتها طبقة أبى نواس التى نشأت فى صدر الدولة العباسية وأشهر رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو السلمى وسلم بن عمرو الخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف وأبان بن عبد الحميد وكلثوم بن عمرو العتابى وأبو الشيص محمد بن رزين ومن رجازها عمارة بن عقيل، والثالث طبقة أبى تمام التى نشأت فى آخر العصر الأول ومعظم رجالها أدرك العصر الثانى وأشهرهم أبو تمام ودعبل الخزاعى وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلى بن الجهم . والرابعة طبقة البحترى التى ظهرت شاعريتها فى أول العصر الثانى وأشهر شعرائها البحترى وابن الرومى وابن الزيات . والخامسة طبقة ابن المعتز فى وسط هذا العصر ومن شعرائها عبدالله بن المعتز وأبو الحسن على بن محمد البسامى البغدادى . أما السادسة فهى الناشئة فى آخره ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخبز أرزى وأبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العلاف . ومن الشواعر فى الأول علية بنت المهدى . ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى وكان منزلها مجتمع الأدباء .

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها لتفكك أوصال الدولة بانشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت به ذات استئثار فأخذ كل شيء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبق لها إلا نصيب يسير،وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل أقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

وإنك بالرجوع إلى ما ذكرنا فى التصوير السياسى لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين فى الممالك الشرقية لامارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان، فى حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمدانيين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر ، أما الأخشيديون الاتراك بها فلم تكن مدتهم وهى ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم نحكم بأن الشعر فى الممالك الغربية كان خيرا منه فى الشرقية،كما نحكم بأنه كان فى العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان فى الشام والجزيرة خيرا منه فى مصر ،وأنه كان فى الوسطين خيرا منه فى الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فمن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمدانى وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيبانى وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملى والسرى الرفاء وأبو الفرج الوأواء وأبو الفرج الببغاء وأبو العباس النامى وأبو طالب الرقى وعبد المحسن الصورى وأبو الرقعمق وأبو القاسم الواسانى وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمته صاحب المعرة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن على بن وكيع التنيسى وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسني وأبو القاسم بن أبي العفير الأنصاري ومحمد بن عاصم الموقفي وأبو على الامير تميم بن المعز الفاطمي والتهامي وكان في الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس الصابي وتاج الدولة بن عضد الدولة البويهي وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلبي أبو محمد الحسن بن محمد وابن دريد والقاضي التنوخي أبو القاسم على بن محمد وابن لنكك أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن على النمرى وأبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي وابن نباتة السعدى والشريف الرضي ومهيار وأبو الحسن على بن زريق وابن سكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد الطاهرى وأبو الحسن على بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن على المطرانى وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأمونى وأبو محمد عبدالله ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الرقاش والخوارزمى والهمذانى وأبو الفتح البستى وأبو الفضل الميكالى وأبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي،

وقد كان للثعالبى هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس لغيره مثله بتدوين أخبارهم فى كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذى الاقسام الاربعة،فقد جعل القسم الاول وهو أضخمها لشعراء الشام وماحواليها من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثانى لشعراء أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما اليها من جرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان مواطن السامانيين والغزنيين . وعقد فى أول القسم الاول بابا فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان ممـــا قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والاسلام . والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر ، قربهم من خطط العربية ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم. ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم بقية العرب المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم فى الاجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا » .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه فى العراق وفارس ، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالحمدانيين فى الجزيرة والشام، اضمحل الأدب والشعر فى خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون وليسوا للعربية بنصراء، وبقى ضعيفا فى فارس والعراق ، ثم تنزل عن الهامة التى كانت له فى الجزيرة والشام ولكنه ارتفع اليها فى مصر لبقاء الفاطميين . حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب فى نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه فى فارس وصار

وسطا فى العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة فى مصر حتى كاد يصل مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم مرتبة على حسب التنازل فى القوة من الغرب الى الشرق

فى مصر ـ ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندرى وأبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الأزهرى وعمارة اليمنى وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وكمال الدين بن النبيه المصرى وابن عنين وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة وأبو حفص عمر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح والامير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ .

فى الشام ـ ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن على الساعاتى والملك الأمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبى وشهاب الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبى وأمين الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي وصدر الدين محمد بن عمر بن على بن حمويه الدمشقى ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين على بن أبى فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

فى الجزيرة والعراق ـ الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد ابن على الخزرجى وابن التعاويذي ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحي عيسى بن سنجر

الحاجرى وأبو الطيب أحمد بن محمد المعرف بابن الحلاوى والصرصرى أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى والأمير علم الدين أيدمر المحيوى التركى ثم محيى الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس ـ صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخرزى ومعين الدين أحمد بن عبد الرازق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والابيوردى السابقون فى النماذج [1]

ب ـ العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ماجاء مقويا لعوامل النهضة الاولى التى شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة فلنكتف هنا بذكر أهمها : ـ

١ ـ تذوق الخلفاء ورجالات الدولة للأدب ـ فقد كانوا منذ أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون الحسن والأحسن، قال الربيع بن زياد ـ قلت للمنصور يوما إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد فانما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فانما هى دويبة منتنة تأكل التراب ولا بالجبل فانما هو حجر أصم ولا بالبحر فانما هو لجب غطامط فمن ليس فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف، قال الربيع فانصرفوا كلهم إلا ابرهيم بن هرمة فانه قال أنا له يا ربيع فأدخلنى فادخلته قال فلما مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لايجيبك أحد غيره

---

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نسبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

هات يابن هرمة فانشده قصيدته التى يقول فيها

له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل
له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. وقد تبعه فى ذلك ابنه المهدى وحفيداه الهادى والرشيد وتناهى ذلك فى الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن سلم قدم على الرشيد أعرابى فمثل بين يديه فقلت يا أعرابى خذ فى شرف أمير المؤمنين فاندفع فى شعره فقال الرشيد ياأعرابى أسمعك مستحسنا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين فى هذين — وأشار إلى الامين والمأمون وكان حفافيه — فقال ياأمير المؤمنين حملتنى على الوعر القردد وأرجعتنى عن السهل الجدرد ، روعة الخلافة وبهر الدرجة ونفور القوافى على البديهة فأرودنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى قال قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال ياأمير المؤمنين نفست الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول

بنيت لعبد الله ثم محمـــد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد وأنت ياأعرابى بارك الله فيك فسل ولاتكن مسألتك دون إحسانك ؛ قال الهنيدة ياأمير المؤمنين — والهنيدة مائة من الابل — فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وابسط له فى

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده فقال الرشيد ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث أصحه وأبلغه ومن البيان أفصحه وأوضحه إذا رام أن يقول لم يعجزه قال سهل ياأمير المؤمنين ماظننت أحدا تقدمنى الى هذا المعنى فقال الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى   وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا   كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد كان المأمون كأبيه الرشيد ، أنشده مرة مروان بن أبى حفصة قوله :ـ

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا   بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب له فساءه ذلك وذهب الى عمارة بن عقيل يقول له أعلمت أن المأمون لايبصر الشعر فقال له عمارة ومن ذا يكون أعلم به منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال عمارة إنك والله ماصنعت شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا فى محرابها وفى يدها مسابحها فمن القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبدالعزيز بن مروان .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم فى عظائم الذنوب ، خرج محمد بن البعيث على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى — إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة — وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين الى العلا — ولاشك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لجلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايع خلفاء العصر الأول فى ذلك رجالات الدولة وأعيانها وقصص البرامكة فى هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء فى التقدم بهم اليهم والى الخلفاء ثم بقى لخلفاء العصر الثانى من ذلك شبه ما كان لأسلافهم فى الأول ولكن غض منه وخفض من همتهم جهل الخدم الأتراك المستبدين عليهم ، بمعانى الشعر وأقدار الشعراء فلم يظهر بمظهر أسلافه منهم الا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة فى نواحى البديع والمعانى وميادين الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس ملوك الدويلات وأمراؤها وأعيانها بعضهم بعضا فى النهوض بالأدب كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث فى صدر الكتاب عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرقى الشعر بهذا النهوض . أما العصر الرابع فقد أخذ حكامه يسيرون نحو الجهل بالأدب الى الوراء فقلت رغبة الشعراء فيه وإن بقى للشعر على أيامه وجود فى مصر والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ،على النحو الذى ذكرناه فى مواطنه وطبقات رجاله مذ الآن .

٢ — عقدهم لمجالس الشعر — لعل أول خليفة إسلامى عقد مجالس للأدب عامة وللشعر خاصة بالمعنى الذى نريده الآن ،عبد الملك بن مروان

الخليفة الأموى العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية فى كتابنا الثانى الشيء الكثير ، وقد جاراه فى شبه ذلك أبناؤه من بعده وخاصة هشام . ثم جاء العصر العباسى ولخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر واضحا أيام أولهم أبي العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة ليل نهار ، ثم ظهر فى عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة إلى الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد . وقد سخا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدى فعقد منها الكثير ، عقد يوما مجلسا لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما تتام الناس دعاه فأنشده .

كأن أمير المؤمنين محمدا   لرأفته بالناس للناس والد

على أنه من خالف الحق منهم

سقته به الموت الحتوف الرواصد .

فأشار اليه فأمسك ، فقال يابني العباس هذا شاعركم المنقطع اليكم المعادى فيكم فآتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم وأعطاه هرون مثلها وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ماأعطوه أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفا ثم قال له وسيأتيك مني مايؤديك الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ماسأزداد به شعرا وستسمع ويبلغك، فلا يبلغ ما أعطيتنى لشاعر بعدى.قال أجل قال فأذنى فى زيارتك قال آذنتك فقال لى فيك وفى أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال لاسلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادى حين

وقع اليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى وكان معنيا بجمع السلاح مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من بيـــــن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمـــس ضياء فلــم تكد تستبين
مايبالى من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المشعــــل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان فى مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

فانهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك فعل حين عقد البيعة من بعده للمأمون . وحتى المعتصم على أميته كان يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث اليهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النميرى فى الرشيد ـ وأنشد الأبيات التى تقدمت فى المبالغات ـ

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميرى، فينا من يقول خيرا منه ودخل فأنشده قصيدته التى منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الاشراق طالعة   إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا   إذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة البحترى فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب وقمع الشعراء حتى أحياها ملوك الدويلات فى الشام ومصر والعراق كما علمت آنفا . ثم عاودها الكساد فى النصف الأول من العصر الرابع حتى زالت فى نصفه الأخير .

٣ — إثابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما فيه الكفاية .

٤ — رقى الغناء ومجالسه، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار الشعراء كما سترى فى الكلام عليه الآن

ج — الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا فى العصر الأموى أن الغنـــاء نهض فيه وأنهض معه الشعر، لحاجة الحياة المترفة إليه فى مدن الحجاز . وإذا كان الترف منذ العصر العباسى الأول قد بلغ أقصى الغايات فلابد أن يكون الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر فى النهوض بالشعر أوضح تأثير وإليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى توخى

السهولة والرشاقة فى الأساليب، وتطلب الجمال والرقة فى المعانى، وابتكار الجديد اللائق فى الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر فى حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير فى نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ما يقوى فيه ملكة الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق فى هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع فى أن يكون المجلى فى هذا السباق وفى ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه فضلا آخر هو إشاعته فى الناس لما هو طبيعى فى الانسان من حب الغناء والميل إلى استماعه سيان فى ذلك الفرح والمحزون لحسن موقعه فى القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك سببا فى أن يلهج الناس بالشعر الذى يغنى فيه ويكثروا إنشاده فى المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بترديد أبياته استمتاعا بمعانيها أو الترنم بها استعادة لأنغامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إخاء وثيق، بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أتقن الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعا وأكثر عددا من مجالس الشعراء وإليك مجلسا منها للرشيد

جمع الرشيد يوما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كابراهيم الموصلى وابنه إسحق، ونصراء الجديد كاسماعيل بن جامع [1] ثم أمر إبراهيم أن

---

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسى على القديم فلما جاء ابراهيم ابن المهدى لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ماألتذ، وانضم اليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبى العوراء ويحيى المكى وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقى ابراهيم الموصلى على القديم وانضم اليه

يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

فكان كل من من فى المجلس يجيبه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى

كأن أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أمل ولا توفى المواعيدا
كأننى حين أمسى لا تكلمني ذو بغية يبتغى ماليس موجودا

فاستخف الطرب الرشيد أيما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال « والله ما الغناء الذى يلين العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا إلا غناء إسحق » ثم أومأ إلى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفا بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين

جماعة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزبير بن دحمان ومحمد بن الرف واحمد بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ماخرجوا فيه فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسمار وأسقطوا الكلفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل بعضهم على الغناء يتعلمه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد منهم كابراهيم بن المهدى وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدى وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز . بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين كالواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل الذى كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها.

جمع مرة بين المشدود وزنين ودبيس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه ... واخضر فوق حجاب الدر شاربه
وأشرق الورد فى نسرين وجنته ... واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة ... فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه ... وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعنى ... يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بى ... ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى دبيس

بدر من الأنس حفته كواكبه ... قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخلفه ... أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافيـة   فقام يشد وقد مالت جوانبه

ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة، فى كل ثلاثة أصوات كما رأيت فى هذه، حتى تم لكل أحد عشر صوتا، فطلب أبو عيسى من المشدود وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغناه إياه فأثابهم جميعا ولولا أنه قطعهم ماانقطعوا، وهذا هو الصوت :ـ

يالجة الدمع هل للدمع مرجوع   أم الكرى من جفون العين ممنوع

ما حيـلتى وفؤادى هائم أبدا   بعقرب الصدغ من مولاى ملسوع

لا والذى تلفت نفسى بفرقته   فالقلب من حرق الهجران مصدوع

ما أرق العين إلا حب مبتدع   ثوب الجمال على خديه مخلوع

هذا وقد مال القوم استكمالا المتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا الجوارى ويعلموهن الغناء، فكان من ذلك قينات يجمعن إلى جمال الأنوثة أدب الشعراء وصنعة المغنين، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة إذ كانوا يستحضرون الجارية غفـلا بنحو مائة دينـار فاذا ما ثقفوها باعوها بعشرات الآلاف (١) وغالى الناس فى اقتنائهم حتى كان عند الرشيد ثلثمائة من المغنيات، واليك حكاية عنان جارية الناطفى فى أدبها رواية بكر بن حماد وفى وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر.

قال بكر ـ وقد انتهى اليه أدبها ـ خرجت معترضا لها فما راعنى إلا الناطفى مولاها قد ضرب على عضدى فقال هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فمضينا حتى أتينا منزله فدخل

---

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجوارى بمائة ألف دينار بل روى أن الأمين ثمن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبذيره فى لهوه ببعيد.

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم فقالت لا والله إنى كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لى ادخل فدخلت ودمعها يتحدر كالجمان فى خدها فطمعت بها فقلت

هذى عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

ثم قلت أجيزى فقالت

فليت من يضربها ظالما تجف كفاه على سوطه

فقلت إن لى حاجة فقالت هاتها فمن سببك أوذينا ، قلت لها بيت وجدته على ظهر كتابى لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس فى أحشائه فتكلما

قال فأطرقت ثم أنشدت

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

فقلت لها فما عندك فى إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدى له ملاذا

فأطرقت ثم قالت

فعاتبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال ابراهيم — جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير التى يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

فطرب طربا شديدا وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهن وله هذه البدرة — وكانت بين يديه بدرة من دنانير — قال فقالوا فلم يصنعوا شيئا فقال خادم على رأسه أنا بهاذلك

يا أمير المؤمنين قال شأنك فاحتمل البدرة ثم أسرع الى الناطفى فقال له استأذن لى على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك وما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذى قد قلته — داء بقلبي ما يزال كمينـــا

قد أينعت ثمراته فى طينها — وسقين من ماء الهوى فروينا

كذب الذين تقولوا ياسيدى — إن القلوب إذا هوين هوينا

فدفع اليها البدرة ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنقى إن باتت إلا عندى، وبعث إلى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا مؤلفات [1] وزادها رقيا اختصاص كل مغن بلحن أو أكثر يضع فيه الكثير من الأصوات [2] كما رقيت بجوار الغناء مع الشعر الذى هو مدد

---

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتبا جلها ضائع الآن منها كتاب النغم للخليل ، وأخبار المغنين لاسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه، والآداب الرفيعة فى الغناء والمنادمات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لجحظة البرمكي وحسن بن موسى النصيبي تأليف فيه أيضا . والباقى الآن هو الأغانى ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وغلب عليه الصبغة الأدبية فى أخبار المغنين والشعراء

(٢) كانفراد فليح بن أبى العوراء بالنواقيسى وإبراهيم الموصلى بالماخورى وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا لا يقدر عليها شبعان ، وأخرى لا يقدر عليها متكئ حتى يقعد وثالثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود وناى وطبل وغيرها ،وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون بأبدع الأوصاف . قال ابن الرومى يصف القيان وفى أيديهم الآلات

وقيان كأنهـا أمهـات　　عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينـا　　مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالهن ثديا　　ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى　　بين عود ومزهر وكران (١)
أمه دهرها تترجم عنه　　وهو بادى الغنى عن الترجمان

وكأن القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن ينقشن بعض أبيات الشعر فى أكفهن بالحناء ،أو يكتبنها على ما يرتدين من ملبس ويمسكن من أدوات. نقشت إحداهن بالحناء فى كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى　　حسن كفى زين لكل خضاب

وكتبت أخرى على عصابتها

ألا بالله قولوا يارجـال　　أشمس فى العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بى طاب العيش فى الصيـف وبى طـاب السرور
ممسكى ينفى أذى الحـر م إذا اشتد الحـرور
الندى والجود فى وجـه أمين الله نور
ملك أسلمه الشبـه وأخـلاه النظير

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه الفارابى بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة فضرب لحنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام (١) الكران الصنج

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغا الأوج العصرين الأول والثانى . وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آنفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى مالا يحتاج اليه الشعر من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء ؟

السباعى بيومى



فهرس

تاريخ اللغة العربية فى العصر العباسى

« بغير الاندلس والمغرب »

دار العلوم

من

محاضرات الادب العربي

لطلبة السنة النهائية

للدكتور

احمد ضيف

١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ



أدب العرب فى الاندلس

وصف بلاد الاندلس

تقع شبه جزيرة إيبريا بالجنوب الغربى من قارة أوربا ، وتحيط بها مياه بحر الروم وبحر الزقاق والمحيط الاطلانطى من جميع جهاتها ما عدا جزءا صغيرا من الشمال الشرقى الذى تمر به جبال الأبواب (جبال البرانس) حيث يتصل بالقارة الأوربية . وقد سمى العرب شبه الجزيرة هذا بجزيرة الأندلس . ولعلهم سموها جزيرة لظنهم أن الماء يحيط بها من كل جهاتها، لأنهم عندما عبروا إليها من بلاد المغرب رأوها محاطة بالماء ، أو سموها جزيرة كما سموا بلادهم بجزيرة العرب من باب التغليب (كما قال بذلك ياقوت الحموى) وقد سرت هذه التسمية فى جميع المؤلفات التاريخية والجغرافية، وأطلق عليها جميع المؤلفين جزيرة الاندلس

والحقيقة أن بلاد الاندلس ليست إلا جزءا من شبه جزيرة « إيبريا » وهذا الجزء هو القسم الجنوبى الذى يمر به نهر الوادى الكبير وغيره من الأنهر ، فهو أقليم من أقاليم شبه الجزيره يحد شمالا بنهر الوادى الكبير . ومن الجنوب ببحر الزقاق ، ويتصل من الغرب ببلاد البرتغال ، ومن الشرق بأقليم بلنسية ولكن العرب عندما فتحوا هذه البلاد ملكوا شبه جزيرة ايبريا كله ماعدا الجزء الشمالى المتصل بجبال البرانس وجزءا من القسم الشمالى الغربى أيضا ،وأطلقوا على كل البلاد التى ملكوها اسم الاندلس

وقد اشتملت بلاد الأندلس الاسلامية على جزء كبير من الهضبة العظيمة التى تشغل الجزء الأكبر من شبه جزيرة ايبريا ، وتمتد من الشمال إلى سلسلة جبال تسمى « كنتبريان » ومن الجنوب إلى جبال « سريا مورينا » وتخترق شبه جزيرة ايبريا وديان كثيرة يفصل بعضها عن بعض سلاسل جبلية تجعل كل واد مستقلا عن الآخر

وتجرى فى هذه الوديان أنهار كثيرة يصب بعضها فى المحيط الاطلنطى كنهر الوادى الكبير ، وواديه من أخصب الوديان هناك ، به كثير من الحدائق الغناء والرياض النضرة « مطرزبالأزهار تصدح فى جنباته الاطيار فتنعر النواعير ويبسم النوّار » وبهذا الوادى مدينة « قرطبة » أشهر مدن الأندلس وقاعدة الدولة الاموية زهاء قرنين ونصف قرن ازدهرت فيها علوم العرب وفنونهم وآدابهم ، واشتهرت بآثارها الفنية ومبانيها العظيمة ، ومدارسها الكثيرة ، ومساجدها الفخمة التى من أشهرها جامع قرطبة العظيم الذى كان من أكبر المدارس الاسلامية ،وجامعات العلوم الدينية والكونية ، ومنه خرج كثيراً من العلماء والفلاسفة المسلمين وغيرهم . وعلى نهر الوادى الكبير تقع أيضا مدينة «أشبيلية» التى كانت قاعدة بني عباد من ملوك الطوائف ، ومن المدن العظيمة الجميلة ؛ قالوا من محاسنها : اعتدال الهواء وحسن المبانى وانها أحسن مدن الدنيا وقال أحد الشعراء فى وصف نهرها :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءا فضم من الحيـــاء أزاره

وكانت هذه المدينة محط الشعراء والأدباء زمن المعتمد بن عباد

أشهر ملوك الطوائف . وعلى فرع من نهر الوادى الـكبير هذا تقع مدينة «غرناطة» التى كانت قاعدة بنى الأحمر ، والتى لا يزال ماثلا بها قصر الحمراء معجزة الفن العربى .

ويقسم شبه الجزيرة نهر تاجه العظيم الذى يصب فى المحيط الاطلنطى أيضا ، وتقع عليه مدينة طليطله . وواديه من أخصب الوديان وكانت طليطلة قاعدة ملوك القوط قبل دخول العرب هناك ثم صارت قاعدة لبعض ملوك الطوائف . قال المقرى « وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان ، وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديعة وقلاع منيعة . وهى مطلة على نهر تاجة ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها . وكانت على قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب » .

ومن الأنهر التى تصب شرقا فى بحر الروم نهر إبرة وعليه تقع مدينة « سرقسطه » و « طرطوشة » وهو أيضا نهر عظيم ذو واد خصيب وأشجار باسقة . وقد كانت « سرقسطة » من بلاد العرب الصناعية ومدن العلم الشهيرة نبغ فيها جملة من العلماء المعروفين .

السكان

لقد سكن بلاد الأندلس أمم كثيرة من قبائل مختلفة وأجناس متعددة ، ففى أول الأمر كان بسكن الجهة الشمالية الشرقية بجبال الأبواب « جبال البرنس » وامتدادها جماعة لا يعرف التاريخ مبدأ ظهورهم فى هذه البلاد ، وهم قبائل الأيبر . ثم نزل بها من شمال هذه الجبال ومن بلاد الغال . « بلاد فرنسا » قبائل السلت والبسك والجلالقة

وتفرقوا فى شبه الجزيرة بالشمال والشمال الغربى ، واستقر بعضهم فى الشواطىء وبعضهم فى داخل البلاد ، ثم اختلط بعضهم ببعض وامتزجوا امتزاجا حتى صاروا كأنهم أمة واحدة من جنس واحد . ونزح إلى هذه البلاد من شواطىء افريقية الشمالية الغربية كثير من البربر واستقروا هناك كما نزل بها الفينيقيون من أهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون واستولوا عليها .

ولما امتد ملك الرومان وتوسعوا فى الفتح وحاربوا القرطاجنيين وهزموهم استولوا على هذه البلاد (١٣٤ ق .م) وسموها هسبانيا . ونشر هناك الرومان حضارتهم وعلومهم كما نشر قبلهم بها صناعتهم وفنونهم أهل قرطاجنة . وبقى سلطان الرومان ممتدا على هذه البلاد إلى أن ضعف أمرهم وأغار عليهم قبائل الفندال من الشمال ، وهم من أصل جرمانى ونزلوا على ضفاف نهر الوادى الكبير وأسسوا دولتهم هناك وسموا المكان الذى نزلوا به « فاندالوس » وعربها العرب بعد ذلك « أندلس » . ثم سطا على هؤلاء القوط ، وهم قبائل من الجرمان أيضا كانوا استوطنوا جنوب بلاد الغال وقد أزالوا ملك الفندال من الأندلس وبقوا أمراء البلاد إلى أن دخلها العرب .

وعند ما دخل العرب بلاد الأندلس كان سكانها خليطا من كل هذه الأمم فكانوا مزيجا من الأمم اللاتينية ـ بقايا الرومانيين ـ ومن الجرمانيين النازلين من الشمال ، والبربر النازحين إليها من أفريقية فامتزج العرب بهم وامتزجوا بالعرب ، وكان لذلك أثر عظيم فى الحياة العقلية كما سنبين بعد .

بعض اقوال الادباء فى وصف بلاد الاندلس وسكانها

وصف لسان الدين بن الخطيب بلاد الاندلس بقوله :

« خص الله بلاد الأندلس من الريع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان،ودرر الفواكه ، وكثرة المياه،وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية،وكثرة السلاح،وصحة الابدان، وابيضاض الوان الانسان ، ونبل الاذهان ، وفنون الصنائع ،وشهامة الطباع ونفوذ الادراك وإحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار »

وذكرها أحمد بن محمد بن موسى الرازى بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع إلى المغرب . وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ، ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسطة من الحال لايتولد فى أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقه غير مفقوده ؛ وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان،وله خواص فى كرم النبات .... وللأندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر »

ومما ذكروه فى وصف سكانها قول صاحب فرحة الأنفس .

« وأهل الأندلس عرب فى الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمة وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الأذى

والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم . يونانيون فى استنباطهم للحياة ، ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لاجناس القواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس بأسباب الفلاحة . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجديد الاعمال ومقاساة النصب فى تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضروب » .

ومن كلام الحجارى فى المسهب يصف الأندلس وأهله من العرب بقوله :

« الاندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة أداب واشتغالا بفنون العلوم وافتنانا فى المنظوم والمنثور . لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة . وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى فى بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس ، لا ينازعهم أحد فى هذا الشأن . وأما إذا هب نسيم ودار كأس فى كف ظبي رخيم ورجع بم وزير وصفق للماء خرير ، أو رقت العشيه وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع ثغر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودع حين أقبل زائر الصباح ، أو أزهرت دوحة السماء

بزُهر كواكبها ، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ، فأولئك هم الاولون ، الذين لا يجارون ولا يلحقون، وليسوا بالمقصرين فى الوصف إذا تقعقعت السلاح وسالت خلجان الصوارم بين قضبان الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنة وأجرت شبه الشفق دماء . وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية وبقاءهم النضرة وهممهم الأبية » .

العرب فى الاندلس

ظهر الاسلام فى العرب فانتشروا فى الارض وأوغلوا فى الفتح واختراق الآفاق ، وانسابوا فى البلاد وأنساب عليهم الظفر والغنائم . فوجدوا فى ذلك مطمعا لهم ؛ وسعة لدولتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً لمجدهم . ففتحوا فى نحو ثلاثة قرون مالم تصل اليه أكبر دولة فى العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالقَيْروان فبلاد البربر فالأندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء ، كانت من أعظم دولة أقامها العرب ، وأزخر مدنية جاء بها الاسلام . توغل المسلمون فى أفريقية سنة ٥٠ من الهجرة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، بقيادة عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان وانتشروا فى بلاد البربر (شمال افريقية) فأسلم سكانها . وفى سنة ٨٩ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموى الى موسى بن نصير بولاية افريقية . فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر . ثم سار الى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد وأسلم أهلها . وترك موسى بن نصير جنده بقيادة مولاه

طارق بن زياد . ثم تطلع إلى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة فى ذلك ، ونزل الشواطىء فى سنة ٩١ هـ ، وفى سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه . وانتشروا فى بلاد الاندلس انتشارا عظيما

ولما استقرت قدمهم هناك نزح اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم . فمن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود . ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومى الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير بن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالاندلس . أما القحطانيون أو اليمنيون فكانوا أكثر انتشارا . ومن قبائلهم كهلان ومنها محمد بن هانىء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجم الغفير بالاندلس [1] ورحل الى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر إليها من مراكش وشمال افريقية جماعة من البربر واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة

ولكن هذه الأمم لم يكد يجتمع أمرها حتى دب فيها دبيب التنازع وكانت العصبية العربية فى أشد ماتكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمضريين ، وتنافسوا فى الملك ، حتى أدى ذلك إلى انقسام الامارة فيهم

(١) راجع الباب الثانى من نفح الطيب

وإدالتها بين الجندين سنة لـكل دولة [١] . وكان خلفاء بنى أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا لملـكهم ، ويميلون إلى اليمنيين الذين نصروهم فى واقعة مرج راهط . فـكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد : وقد دامت هذه الفتن مدة وجوب الدول الاسلامية فى بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس إلا رويت بدماء المسلمين : ولم يكد يخلو يوم من الايام التى خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين المسلمين انفسهم .

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرائحهم وجهودهم. وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى إلى الرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة . وربما كان ذلك التنافس فى الملك من أسباب رقى تلك البلاد. لان كل أمير أو خليفة كان يريد أن يوطد ملـكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدنيتهم ازهرت فى بغداد ، فأرادوا أن يجاروهم فى قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من حضارة هناك. هذا إلى ما كان عليه العربى من ميله الى العلم ونشره ، لانه كان يرى فى ذلك نشر المدنية على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مَثَلُ الامة العَرَبِية [١] مَثَل النائم المستغرق فى نومه ، فاذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الأندلس أدخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التى كانت

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هـــذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفتح العظيم ؛ التى تدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد . وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند ؛ وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الامل فى نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكثر منهم عددا وعدّة ، لأنه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أرهب بهم سبعين ألفا من الاعداء

وهذه الخطبة هى أول ريح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل أول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها فى الاسلوب وحده، بل فى الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربى ، وهى من نوع الكلام الذى يوحى به حب الجهاد ، والرغبة فى نيل الاجر الدنيوى والاخروى معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ؛ أو الموت فى سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين. وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب فى القتال مالا يكون إلا من قلب حديد وقائد عظيم مجرب

وهذه هى خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين المفر البحر ورائكم . والعدو أمامكم . وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مادبة اللئام وقد استقبلتم عدوكم بجيشه وأسلحته؛ وأقواته موفورة .وأنتم لا وزر

لكم إلا سيوفكم ولا أقوات الا ما تستخلصونه من أيد عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبتها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ابرأ منها بنفسى واعلموا أنكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة إصهارا واختنانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين . وأعلموا أنى أول مجيب الى مادعوتكم اليه . وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملو معى فان هلكت بعد فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا البهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون

وقد كان للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية.
أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح الى سنة (١٣٨). تولى الأمر فيها عشرون أميرا كانت مدتهم ستة وأربعين عاما (٩٢ ـ ١٣٨). وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء فى المشرق زمن الأمويين والعباسيين. ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لاينقطعان. ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى بما هناك من المنافسة بين اليمنيين والمضريين، وكان قد فر من ظلم أبى جعفر المنصور الذى نكل ببنى مروان، التجأ إلى بلاد البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه، وأسس هناك دولة بنى أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ ﻫ واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين، فتأسست دولة بنى أمية التى كان عصرها من أزهى عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها. وبقيت هذه الدولة ٢٨١ سنة (الى سنة ٤٢٢ ﻫ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة. وقد بلغت الدولة ذروة مجدها فى زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق. فكان نور المدينة الاسلامية يسطع من المشرق والمغرب معا. فان عبدالرحمن الداخل عاش من عصر أبى جعفر المنصور إلى زمن هرون الرشيد (١٣٨ ـ ١٧٢) وكان الحكم ابن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ ـ ٢٧٦) فكانت الدولتان تتسابقان فى ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعبتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون.

وبعد زوال بنى أمية انقسم الناس أحزابًا وشيعاً. فكانت

هناك ممالك كثيرة مستقلة سمى ملوكها بملوك الطوائف فقام ابن عباد فى أشبيلية . وابن الافطس فى بطليوس . وذو النون بطليطلة . وابن هود بسرقسطة الخ . وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطرابا (١)

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادر الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفّرى) كان يقع فى نحو ٥٠ مجلدا . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر قالوا : وكانت أيام بني المظفر أعيادا ومواسم،وكانوا ملجأ لاهل الادب وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سرقسطه ومايليها ، من أهل العلم وأنصاره فقد كان المؤتمن بن المقتدر بالله قائما على العلوم الرياضية وله فيها تواليف منها كتاب « الاستكمال والمناظر » ومن أشهر ملوك الطوائف أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد كان شاعراً أديباً وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون

---

(١) قال صاحب المعجب ، وأما حال أهل الاندلس بعد انحلال دعوة بنى أمية فقد تفرقوا فرقا وتغلب فى كل جهة منها متغلب ؛ وضبط كل متغلب ماتغلب عليه وتقسموا القاب الخلافة فنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفى ذلك يقول أبو على حسن بن رشيق .

مما يزهدنى فى أرض اندلس　　أسماء مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها　　كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

أديباً وشاعرا ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون . ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف . ولم تذهب دولته إلا بعد أن استعان بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه وأسره فى افريقية بعد أن أبلى بلاء حسنا فى محاربته (سنة ٤٨٤ هـ)

ومنذ ذلك الزمن ملك البربر اسبانيا وسموا بالمرابطين، وأصبحت الأندلس ولاية تابعة لافريقية . وملك يوسف بن تاشفين بلاد الاندلس وأصبح هو وأبنه من أكابر الملوك (١)

ولم يكد يستتب لملوكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين وابتدأت الحالة العقلية تنحط ، وحركة اللغة والعلوم تقف . وفى زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الامام مالك ، حتى قالوا إنه نسى النظر فى كتاب الله . وصودرت كتب الكلام، ومنع الكلام فى العقائد ، وأمر باحراق كتب الغزالى . ثم عمت الفوضى جميع البلاد واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، ووكلت الأمور للنساء وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحدين التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بنى أمية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة . فقد كان لأمرائها ميل عظيم للعلم كأبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذى اشتهر بحبه

(١) قالوا وانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يسبق اجتماعه فى عصر من العصور

للعلم والاشتغال به وبجمع الكتب . وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى قال ابن رشد أنه هو الذى حملنى على تلخيص مالخصته من كتب الحكيم ارسطاليس .

ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الأحمر ملوك غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الأحمر وبنى هود ، كما كانت عند الفتح بين الامراء . وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت صوت المسلمين هنالك . وقد ظهر فى هذه المدة الأخيرة كثير من الأدباء والشعراء ، كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية ولم يأفل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية ظاهرة فى الشعر والنثر لأنها كانت أشبه بما فى بلاد المشرق . فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون فى أواخر الدولة وفى دولة بنى عامر وفى عصر ملوك الطوائف ظهرت الاباحة فى كل شيء وظهر كل هذا فى أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام فى وصف مجالس اللهو والطرب وأغرب الشعراء والكتاب فى هذه الانواع . وأكثر مشهوريهم ظهروا فى زمن ملوك الطوائف وبعده كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والأدباء .

ومازالت النهضة الادبية سائرة سيرا حثيثا ، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت فى البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على

السياسية ، والحيـاة العقلية فى عز مجدها . وعلماؤها وأدباؤهالايزالون فى إبان نشاطهم ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا فى البـلاد ، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الامم التى نزلوا فيها .

وقد كانت آداب العرب تسرى فى هذه العصور سريان الحياة فى الأجسام منذ وضع العرب أقدامهم فى تلك البلاد فالعصر الأول وهو عصر الولاة كان يسوده الروح العربى فى العادات والأخلاق من حماسة وشهامة وحب للفتح والجهاد وتمسك بالعصبية العربية . وكانت هذه الأخلاق تتمثل فى الخطب والرسائل بين الولاة . ولكن هذا العصر كان عصر فتح واضطراب بين العرب والقوط وغيرهم من سكان البلاد كما قلنا وبين القبائل العربية لما أثارته فى نفوسهم الأطماع والأحقاد القديمة التى كانت بينهم . فلم يكن للغة والأدب شيء يذكر فى تلك الأيام

وأما عصر بنى أمية وعصر ملوك الطوائف وهو زهاء أربعة قرون فكان أزهى عصور اللغة العربية فى الاندلس .

ففى هذا العصر ارتقت العلوم والفنون والآداب وكثر الشعراء والكتاب كما كثر الوافدون من أهل العـلم والأدب من المشرقين ، فوجدوا هناك صدراً رحباً ، وأخصبت بهم موارد العـلم والأدب فعالجوا الكتابة والشعر فى كل ما كان هناك من مظاهر الحضارة فى المجالس والمحافل وضروب الاجتماع من جد وهزل ؛ وحاجات الدولة ومرافقها السياسية والادارية ؛ فكانت الصبغة العـامة للحياة العقلية

والأدبية صبغة عربية دينية . كذلك كانت أساليبهم رصينة عربية بحتة أشبه بأساليب الأمويين ومن عاصرهم فى بلاد المشرق لأنهم لم يشتغلوا هناك بالعلوم الكونيه والفلسفية إلا فى آخر عصر ملوك الطوائف وعصر البرابرة .

على أن كل ما حصل هناك من جديد فى الكتابة كان فى انتشار السجع وتعمد الصنعة مجاراة لأهل المشرق وقد انسع الخيال فى الشعر من جراء الحالة الاجتماعية ومظاهر الحضارة كما سنبين ذلك .

وأما عصر المرابطين والبربر فكان عصر ركود فى اللغة والآدب وعصر تعصب أعمى لبعض مسائل الدين ، وعصر وقوف لفنون اللغة وآدابها . وقد دام هـذا العصر زهاء قرن ونصف قرن . وكان نذيرا بسوء حالة اللغة .

وجاء بعد هذا العصر عصر بنى هود وبنى الأحمر (٦٣٠-٨٩٧) م ولم يبق فى اللغة الا بقية رمق لم تقو على ما أدركها من الفناء ولم تحتفظ بما كان لها من ذماء ،

الحياة العقلية فى الاندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الاندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا ، ثم دخل كثير من غير العرب فى الاسلام ، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع فى بقعة واحدة ، وهى صلة الدين ، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم فكانت لهم نزعة عقلية جديدة ونمت مواهبهم الفطرية ،

وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادا واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحى ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخلص . فاشتغلوا بأنفسهم فى نقل العلوم ونشرها ، ورحلوا إلى البلاد فى طلبها ، ورحل إليهم كثير من العلماء ، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب إذ ذاك من يزاحمهم ، لأن معالم الحضارة كانت خفيت والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان وكان العرب أبطال تلك الأيام ، فأصبحوا زعماء المدنية . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم . وقد عرفوا أن ذلك لايكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لاتؤسس إلا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لاتحيا إلا بالعلم فأراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بني أمية فى المغرب أثبت دعامة من دولة بني العباس بالمشرق ، وأبقى وأفخم من ملك آبائه فى ربوع الشأم (١) فتمهدت فى زمنه وسائل السعادة والمدنية ، وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثانى المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨) شديد الرغبة فى الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر الفنون الجميلة . فكان خلفاء بنى أمية يجارون دولة بنى العباس

---

(١) فقد رووا عنه

أبنى أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلى امام قائم ... فالحكم فيكم ثابت متواصل

فى حضارتهم وفى كل شىء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد فأدخل عبد الرحمن الثالث فى أسبانيا أكثر ماكان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ فى قرطبة كثيرا من المبانى الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهاها فى أيامه . وفى عصره كانت المدنية الاسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يفدون من المغرب الى المشرق ،ومن المشرق الى المغرب والطريق من بغداد الى قرطبة لايغيب عنه ضوء العلم ، ولاتنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضىء فى ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم فى نقل الحضارة من اليونان وغيرهم مما كشفوا مخبآته وفتحوا معمياته . وقد نمت مواهب العرب فى اسبانيا كما ينمى النبات الصالح للحياة فى الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله فى العلوم والفنون ، كما ظهر فى أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ماتركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر فى كل شىء اطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، ممالايكاد يحصى ، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل فى زمنهم . لانها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعا .

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب فى كل علم وفن . فقد كان فى اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم ، أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التى ترجمها وألفها العرب فى الزراعة والفلك والرياضة . وفى الطب والكيمياء والموسيقى

وفى أصول الدين كـكتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفى فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعا جمعا منظما فى مـكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون [١] . واشتدت رغبة الحكم فى اقتناء الكتب فـكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتى ألف مجلد . جمعها من افريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس مايقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكم نفسه عالما بالاخبار والانساب ، محبا للقراءة ، حتى قالوا إنه قلما يوجد كتاب فى مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بغرائب لاتوجـد إلا عنـده وكان يجمع فى داره الحُذّاق فى صناعة النسخ والضبط والاجادة فى التجليد ، ويجود عليهم بالمال . فـكانت داره أشبه بمجمع علمى . وكان يبعث فى الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ، يعطيهم الأموال لشرائها ، حتى جلب منها الى

---

(١) كان الحكم من أشد أنصار العلم ؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمهر الأساتذة ووكل أمر تعليمه الى أبى على القالى . وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وجعل فى قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مديرا لها ومحافظا عليها ؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التى تأسست فى قرطبة

الاندلس مالم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ماجمعته ملوك بنى العباس فى الازمان الطويلة . واستخدم العلماء فى كل مايساعد على العلم ونشره، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث فى كتاب الاغانى الى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه الى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم إلى أكرام العلماء والاخذ بناصرهم (١) فكان المنصور بن أبى عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها فى أنحاء الدولة لدى الرعية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة، ويمدح المدرسين ويكافىء التلاميذ على جدهم ويجلس فى مجالس العلماء للمناقشة والبحث ؛ ويختار من نابغيهم القضاء والقراء والخطباء

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدءون بانشاء مسجد ومدرسة وكأنهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهذيب الامم؛ وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف . وعنهم أخذ أهل أوربا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التى يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان فى كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مـــدارس لتعليم

---

(١) راجع خبر دخول أبى على القالى فى الأندلس والاحتفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب ـ نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صفحة ٢٥٠

القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفا بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوربا كانوا من العامة الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، لان التعليم كان منحصرا لديهم فى طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم، وان تعداهم فالى بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس غاصة بالعلماء والفضلاء ، ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين .

وكان للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والاجناس فى قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية

هذا شىء يسير عن الحركة العلمية والادبية فى الاندلس . منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف، وما وصلوا اليه فى الحضارة والاطلاع وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأدباء والفقهاء . وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين ، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين . لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علوم اللغة والدين . فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو و اللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه والحديث والاخبار والجدل . وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم النــــاس بالهندسه وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية ،حتى لا تكاد تجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر

والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية فى بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت فى كل انحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكت منهم ملكة البيان : قال بعض المؤرخين

« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك ، وقال اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية. وكل شبابنا الاذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها ، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بآداب العرب. فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها ، وقالوا أنها لا تستحق عناية قارىء أو مستفيد من أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم ، فلا تكاد تجد فى الالف منا واحدا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية . أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربيه فان كثيرا منهم يكتب بعبارات بليغه ، وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك ، حتى فى الشعر وكتابه القوافى . »

كذلك دخلت الالفاظ العربية فى اللغه الاسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجه جديدة فى زمن شارل الاصلع

« وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق

الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجدَ أحد العلماء هناك على أهل دينه،وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينيه .وقددامت هذه الحال زمناطويلا في قرطبة وطايطلة ، حتى أن القسس لجهلهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك الى أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م

وليس لاحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل أسبانيا ماهو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولاشك في أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفاسفية الخ . »

وأما اهتمامهم بالفنون كالادب والغناء والموسيقى فقدكان أكثر انتشارا ، لانهم كانوا أحوج اليها في ساعات اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ؛ ولدى ذوقهم أعذب ، ولنفوسهم أقرب .

الفنون والترف وأبهة الملك في الاندلس

كانت همة العرب في إبّان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة إلى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيما أيضا ، حتى فاقوا غيرهم في بعضها وأخذوا بعضها عن

الامم الاخرى . ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم فى ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بنى الاحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الامويين لفنى النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزها ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ، وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقليه . وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبه كانت عليها نقوش وصور فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . أما تصوير الآنيه والاثاث والاشكال الهندسيه فقد برعوا فيها براعة عظيمه ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر الى مدينه الزهراء فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا

ومن آثارهم فى فن العمارة هناك مالا يزال ناطقا بما كان لهم من البراعه فى بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان فى ذلك مالم يكن لغيرهم فى زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنيه مسجد قرطبه الشهير الذى ـ فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة ـ يدل على ذوقهم الفنى ، وعلى بلوغهم درجه عظيمه فى الترف ومجاراتهم غيرهم

فيما عرفوه من آثار الرومان فى المدن العظيمة والقصور الشامخة والكنائس المنمقة

أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل واتمه ابنه هشام . فكان إنشاؤه فى أول أيام الدولة الاموية ؛ مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان فى هذا المسجد الف ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، محيط كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، واثنتان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بابدع صنعة ورمانة ذهب . قال المقرى انها احدى غرائب الارض : وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف عثمان الذى خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ؛ وعليه أغشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب وارتفاع المنارة الى مكان الآذان ٥٤ ذراعا ؛ ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس وأربعة وثمانين ؛ كلها موشاة بالذهب . وفى عضادتى المحراب أربعه اعمدة ؛ اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبه العاج والابنوس والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا ويقولون إنه كان بالجامع حاصل كبير ملآن من آنيه الذهب والفضه لاجل وقوده

راجع الكلام على مسجد قرطبه فى نفح الطيب جزء ١ صفحه ٣٥٨ — ٣٦٩

وقد أخذ أهل أوربا عن عرب الاندلس كثيرا من الفنون وغيرها . فقد كانوا لايعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فاما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ماأضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدينة الحاضرة وأطلعوهم على تلك الآثار التى بنوا على أنقاضها حضارتهم.. فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوربا الكتب العلمية اليونانية من العربية الى اللاتينية . ومن أول الكتب التى ترجمت فى ذلك كتاب اقليدس فى الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوربا عن عرب الاندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بعض الفنون التى اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر (١) . أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوربا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوربا على الوصول الى الدرجة التى عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل

(١) أخذ العرب كثيرا من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ماعند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى لأن أصلهما مأخوذان عن الشكل البوزانتى . وكانت آثار البناء فى أوربا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا إنه يوجد شيء من ذلك فى كنيسة باريس الكبرى: فياردو جزء ٢ ص ١٨٠

على ما كان للعرب من التقدم فى ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات فى الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر : التى كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية. وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنساويين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون فى اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون فى مدارسهم . وكان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الاسبانى المأخوذ عن الشعر العربى ، لا عن الشعر اليونانى أو الرومانى . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم إذ لم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم تشبه الشعر العربى من حيث أنه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر مايكون فى فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، وبعض القرن الخامس عشر . حتى أن أسماء هذه المقطوعات أو الاصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى . قال « ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربى ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسليا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من اسبانيا » .

واقتبس الأروبيون كثيرا من أعمال العرب فى الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه . وانما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويها بفضل العرب وأثرهم فى المدنية الحاضرة .

وقد بلغ عرب اسبانيا درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك .

ولعل ذلك مايسمونه الآن « رد فعل » . فقد كانوا فى خشونة من العيش ، بعيدين عن كل رفاهية ، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه ، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكوا العالم ، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية ، فتشبهوا بالدول العظمى . وكان العربى بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة لأنها هى التى كونت فكره وادراكه وتصوره ، وأوحت إليه هذه المعانى الشعريه . وقد رأى ذلك كله فى البلاد التى فتحها . فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والأبهة والترف . فاهتم ببناء القصور الضخمة ، والابنية المشمخرة ، وحيازة الاشياء النفسيه ، ولبس الحلل الفخمة المزركشة ، وامتلاك الاوانى الذهبية والاثاث المرصع بالاحجار الكريمة ، وغلبت عليه طبيعة السخاء ، فكان يجود بالهدايا الثمينة ، ويستهين بالأموال .

فقد رووا عن عبد الرحمن الثانى أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها . فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها . وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه . فأغلقت بابها فى وجوههم وآلت أن لاتخرج اليهم إلاطائعة ولو انتهى الامر إلى القتل . فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنوه فى كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج ببدر الدراهم . ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها على أن لها جميع ماسد به الباب . فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال .

وقد اتخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمنتزهات ، وجاب اليها الماء من الجبال وأقام الجسور ؛ وبنيت فى أيامه المساجد الكثيرة والمدارس . على ما كان عليه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى .

أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقيل له إن مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك فقال إن لابسه أنفس منه

وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس فى غايةالفخامةوالضخامة كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ؛ فقد أمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه

ورتب الناصر لحجابته رجالا من الموالى ووجوه الحشم وصاروا إلى قصر منية الحكم ولى العهد ، وكانوا ستة عشر رجلا لاربع دول لكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقعد فى بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتبهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والأمراء . وقد بسط صحن الدار بعتاق البسط وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ، ورفيع الستور ، حتى أن رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر

وامتدت الثروة والابهة إلى الحجاب والوزراء.فقدأهدى أحمدبن عبد الملك بن شهيد الذى استوزره الناصر هدية لسيده ، وقال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدوله الاموية واتساع أحوالها . وقالوا إنها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل

من التبر ، وخمس وأربعين الف دينار من سبائك الفضة ، واثنى عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات وعشرة افريه ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك

وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الابنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور فى قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفا وثلاثين وكان عدد دور الرعاية مائه ألف وثلاثه آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف ، وعدد الحمامات سبعمائة

الغناء ومجالس الادب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل ، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل ، وفتحت عليهم أبوابا من الخيال ، وزاد فى الاقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر ؛ فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته

جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق ، لأنها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة ، ومن أكبر وسائل السرور والتسلى . واستاذ المغنيين فى الاندلس زِرْياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى العباسى) ، قدم الى الأندلس بأمر الحكم ابن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله إلى الأندلس هم بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم

يذكر تطلعه اليه وسروره بقدومه عليه . وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة · وأمر خصيا من أكابر الخصيان أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلا ، وأنزله فى دار من أحسن الدور ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وكتب له فى كل شهر بمائة دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مُدٍّ . وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار · ولما استدعاه الى مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه ، وأحبه حباً جمّا : وقدمه على جميع المغنين وشرفه بالاكل معه ، لما علمه من فضله وأدبه . وكان زرياب مغرما بفنه ، حتى انه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه ، فكان يهب من نومه فيدعو بجاريتيه ، غزلان وهنيدة فيأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ، ثم يعود عاجلا الى مضجعه . وزاد زرياب فى أوتار العود وترا خامساً اختراعا منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغانى بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة فى تعليم الغناء وضرب العود ، صارت منهجًا لمن جاء بعده ، وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، اديبا ظريفاً ، حسن الحديث والمسامرة ، وكانت له جارية اسمها مُتْعة أدَّبها وعلمها أحسن أغانيه · وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة .

وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء

وكانت مجالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص والراقصات ، وفى جميع البلدان أصناف من الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب ، « الذى كان وحيد دهره فى الغناء الرائق ، والادب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الانيق . ورقة الطبع ، واصابة النادرة والتشبيه المصيب . ، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود »

كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

« انتظم من اخوانك أعزك الله عقد شرب يتسابقون فى ودك ، ويعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، ومامنهم إلا شره المسامع الى رنة حمامة ناد ، لاحمامة بطن واد . والطول لك فى صلتنا بجماد ناطق ، قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجمانا . وهو على الاساءة والاحسان لاينفك من ايقاع به ، فى غير ايجاع به ، فان هفا عركت اذنه وأدب . وآن تأبى واستوى بعج بطنه وضرب . لازلت منتظم الجذل ملتئم الامل »

هــــذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع : اذ كلما أمعن الانسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئا من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم فى مجالس الأدب والغناء واللهو

والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها ،

واشتملت أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ؛ فكانت تشمل مدح الامراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك ، وأوحت بها الى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .

وقد كانت أغاني العشق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء في الشعر والادب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لاغير ، بل كانت صلة احترام واجلال ، لظهورها في ميدان الجد والعمل ، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع ؛ ولأثرها في مجالس الأدب وفنونه وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة . معدودة من علماء اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوربا ، وحبها ممزوجا بشيء من الوجد والاجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجواري وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه الصنعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالمغنية فضل التي اشتريت

من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت فى بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت فى هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبدالرحمن على غيرها لجودة غنائها وكانت قمر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمى صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحان ، قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب .

وكانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأفخم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللهو الجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية .والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البايغة . وكان الشعر نشوة الشارب وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغنى ، ومعزة الشريف والسوقى ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال فى مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس فى الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون فى أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس فى فنون الادب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس وكانت مجالسهم لذيذة ومحاضرهم فكهة . والشعراء كثيراً ماتحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شُهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ فى تقويض خيام الظلام . وكانت تسمى أسماء ، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا .

أفدى أُسماء من نديم ملازمٍ للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب »

ومن البداهة فى المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الابداع فى النفوس ، ماقيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « ان جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجالب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتى منك ، هاز لعطفك عند النادرة ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هـذا ، وكان الذى طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا كان صلفاً ثقيلا على النفس ، قبيح الصورة عنـد الحس ، كانت الفكرة عنه وان كانت ماضية ، وأساءت القريحة فى وصفه وان كانت محسنة . وكان مافى المجلس باب مخلوع معترض على الارض، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند حاشيته . فقال مسرعا

وفتية كالنجوم حسناً كلهمُ شاعرٌ نبيلُ
منفّذ الجانبين ماضٍ كأنه الصارمُ الصقيلُ
راموا انصرافى عن المعالى والغَربِ من دونها كليلُ

فاشتد فى أثرها فسيح ‏ كل كثير له قليلُ
فى مجلس زانه التصابى ‏ وطاردت وصفه العقولُ
كأنما بابهُ أسيرٌ ‏ قدعرضت دونه نصولُ
يُرادُ منه المقالُ قسراً ‏ وهو على ذاك لا يقولُ
ننظر من لبدةٍ لدينا ‏ بحر دمٍ تحتنا يَسيلُ
كأن أخفافنا عاليه ‏ مراكبٌ مالها دَليلُ
ضلّت فلم تدر أين تجرى ‏ فهى على شطه تقيلُ

فعجب القوم من أمره .

« ودخل الوزير أبو العلاء زُهر بن الوزير بن مروان على الامير عبد الملك بن زرين فى مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من كأسه ومن لحظه ويبدى دُرّين من حبابه ولفظه ،وقد بدأ خط عذاره فى صفحة خده ؛ وكمل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلا فى شمس ، وجعل يومه فى الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها

تضاعف وجدى اذا تبدى عذاره ‏ وتم نخان القلب منى اصطباره
وقد كان ظنى أن سيمحق ليله ‏ بدائع حسن هام فيها نهاره
فأظهر ضد ضده إذ وشت له ‏ بعنبره فى صفحة الخد ناره

واستزاده فقال بديها .

محيت آية النهار فأضحى ‏ بدر تم وكان شمس نهار
كان يعشى العيون نورا إلى أن ‏ شغل الله خده بالعذار

وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر ومجاراة بعض

الأدباء بعضا فى ذلك . قالوا : « إن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعـــامرية تزهى على جميع المبـــانى
وأنت فيها كسيف قد حل فى غمـــدان

فقام صاعد وكان مناقضا له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قاله قد أعده ، وأنا أقول أحسن منه ارتجالا . فقال له المنصور ، قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة :

يأيها الحاجب المعـــتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمـانى
العامـــرية أضحت كجنة الرضوان
فـــريدة لفريد مابين أهـل الزمان

إلى أن قال:—

أنظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سكرا بميّس القضبان
والروض يفتر زهواً عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعـــمان
وراحة الريح تمتـا ر نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها في غبطة وأمان »

هذا أدل فى جملته على مكانة الشعر فى النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربى ؛ وهى جمال الشعر الوجدانى . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال ، حيث يذوق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها وذلك هو الغرض من فنون الجمال لأننا إذا كنا فى حاجة دائمة إلى الاتصال بالحقائق وإدراكها لفهم الأشياء فأننا كثيرا مانكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك .

« حضر أبو المطرف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهطلها ؛ وأتبعت وبلها بطلها ، وأعقب رعدها برقها ؛ وأنسكب درا كا ودقها ، والازهار قد تجلت من كمامها وتحلت بدر غمامها ، والأشجار قد جلى دماها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد ، إذا بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لايفصح ، مستعجم لايبين ولايوضح ، متنمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسنة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤتمن فى الخروج الى موضع بعثه ووجهه اليه ، فكل من صده عنه نهره ، حتى وقف إلى مكان انفراده ، ووقف بأزاء وساده فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده اليه وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك العذير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤتمن بخلعه وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دبت فيه الحميا وسبت

غرامه بهجة ذلك المحيا ، واستنزلته سورة العقار ، من مرقب الوقار قال :—

وهويته يسقى المدام كأنه ... قمر يدور بكوكب فى مجلس
متأرج الحركات تندى ريحه ... كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسقى بكأس فى أنامل سوسن ... ويدير أخرى فى محاجر نرجس
ياحامل السيف الطويل نجاده ... ومصرف القوس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس ... خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر القناع فإنما ... كشف الظلام على النهار المشمس
يطغى ويلعب فى دلال عذاره ... كالمهر يدرج فى اللجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة ... حوراء قائمة بسكر المجلس

قالوا اجتمع المعتصم بن صمادح مع ندمائه يوما فابرز لهم وصيفة متصرفة فى أنواع اللعب والطرب . وكان هناك لاعبه مصريجل فارتجل أبو عبد الله بن الحداد :—

كذا فلتلح قمرا زاهرا ... وتجنى الهوى ناظرا ناضرا
وسيبك سيب ندى مغدق ... اقام لنا هاليا هامرا
وأن ليومك ذا رونقا ... منير الكنور الضحى باهرا
صباح اصطباح بإسفاره ... لحظنا محيا العلى سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤس ... فما زال كوكبها زاهرا
واسمعتنا لاعبا فاتنا ... وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان ... فتنظر مايذهل الناظرا
ويحفظها ذيل سرباله ... فتنظر طالعها فائرا

فظاهرها يلتنى باطنا وباطنها يلتنى ظاهرا
وثناه ثان لألعابه دقائق تثنى الحجى حائرا
وفى سورة الراح من سحره خواطر دلهت الخاطرا
اذا ورد اللحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا
ومن حسن دهرك ابداعه فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يجتلب المغريات فيجعل غائبها حاضرا

بمثل ذلك كانت تنطق ألسنة الشعراء فى تلك المجالس فيأتون بالعجيب الرائع . واذا وازنا بين مجالس الادب هذه ومجالس الغناء هناك من حيث أثرها فى الشعر . اذا لوجدنا ان هذه المجتمعات اكثر أثرا وأكثر توليدا للمعانى فى نفوس الشعراء وادعى الى قول الشعر وابتكار الاخيلة لأن منظرا من المناظر أو رأيا من الآراء أو فتاة بجمالها أو كأسا بخمرها تحرك النفس وتدعوا الشاعر الى تصوير مايرى أو يشعر ، فيقول ما ولدته فى نفسه تلك المؤثرات ، ولاشك أن هذا من دواعى الاكثار فى قول الشعر ، بل من دواعى إيجاد أنواع جديدة تغنى بها البلاغة ، لان كل مايقال جديد مبتكر فى نظر قائله، وقد يكون كذلك فى نفس الحقيقة . لذلك كان أثر مجالس الأدب فى الشعر عظيما . وأكثر هذه الاشعار كانت فى الاوصاف وهو مما يدخل فى باب التصوير للمحسوسات إذا لو كان المصور يصور بريشته وألوانه فأن الشاعر يصور ببراعته وبلاغته . ثم أوصافا للاشخاص والنفوس وهو مايدخل فى العشق والاجتماع . ولقد غصت المجالس بهذين النوعين وجرهم وصف الاشخاص الى الدخول فى المجون من التمدح بذكر الخمر

والتغني بها . وقد وصفوا الغلمان وجمال المرأة ورشاقتها وكل الاوصاف التي تحرك الميول وتملأ العيون والقلوب كما قال بعضهم :—

ومهفهف طاوى الحشا   خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة   تليت محاسنها صور
فاذا رنا واذا مشى   اذا شدا واذا سفر
فضح الغزالة والغما   مة والحمامة والقمر

وقد قال آخر :—

وشاديين ألما بى على مقة   تنازعا الحسن فى غايات مستبق
كأن لمة ذا من نرجس خلقت   على بهار وذا مسك على ورق
وحكما الصب فى التفضيل بينهما   ولم يخافا عليه رشوة الحدق
فقام يدلى عليه الرأى حجته   مبينا بلسان منه مطلق

هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع فى الاندلس

الثقافة فى الاندلس وفى بلاد المشرق

اتصل العباسيون بالفرس ومن جاورهم ، وامتد سلطانهم فى بلاد المشرق من أقاصى الصين والهند وتركستان وخراسان إلى سواحل البحر المتوسط وجزره . ودخل أهل هذه البلاد فى الاسلام واستعان خلفاء بنى العباس بالفرس فى إزالة دولة بنى أمية فأصبح الأمر والنهى لأبناء الأكاسرة الذين قبضوا على ناصية الاجتماع وصاروا قادة الفكر ، وآل الأمر والنهى . وكان منهم العلماء والأدباء والوزراء والشعراء والكتاب وجاءوا بتراث آبائهم العقلى والاجتماعى فبذروه فى المملكة الاسلامية وفى عقول العرب ومن انتمى إليهم . وساعدوا الخلفاء فى نشر ثقافة اليونان بالعمل على نقل كتبهم العلمية والفلسفية . كما عملوا على نقل علوم بعض الأمم الأخرى إلى لغة العرب واجتمع فى بغداد العلماء والأدباء من كل أمة وصنف وكل مذهب ونحلة كما هو معروف حتى كانت قاعدة بنى العباس مدينة كأنها دولية أو جامعة لجميع الأمم . فانتشرت الثقافة الفارسية واليونانية وصبغت العقول بهذه الصبغة الأجنبيه ، وكان بجانب هذه الثقافة العلمية ثقافة عربية اسلامية .

قام بنشرها علماء اللغة والدين من العرب والعجم ، وامتزجت هذه بتلك ، فكانت هناك حياة علمية هى مزيج من أدب العرب وعلومهم ودينهم وأحكام شريعتهم ، وأدب الفرس وعلوم اليونان . وتولد من هذه الثقافة مذاهب أدبية واجتماعية وسياسية وفلسفية . حتى سرى ذلك إلى الدين وأصوله فأحدث هذا كله فى الحياة العقلية الاسلامية

نوعا من التخبط والاضطراب ، وكانت الصبغة الأجنبية أظهر من الصبغة العربية فى ذلك كله

أما فى الأندلس فكانت الحال على غير ذلك ؛ فقد فتح العرب بلاد الأندلس وكانوا هم قواد الجيوش وأمراء البلاد وأصحاب الأمر والنهى . وقد أرادوا أن يؤسسوا لهم دولة عربية خالصة من كل شائبة أجنبية لينافسوا دولة العرب الفارسية فى بغداد ؛ وملك بنى العباس الذين دمروا ملك بنى أمية فى ربوع الشام ونكلوا بخلفائهم وأبنائهم أشد تنكيل .

وكان فى نفوس العرب الأندلسيين حفيظة من الأجانب الذين أحلوا الروح الفارسى محل الروح العربى فى كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية

لهذا ؛ أراد حكام الأندلس من العرب وبخاصة بنى أمية أن يكون ملكهم هناك عربيا خالصا وأن تكون ثقافتهم عربية اسلامية

فعملوا على تحقيق ذلك ولم يحفلوا بادىء الامر بما كان بالبلاد التى فتحوها وملكوها ، من ثقافة لاتينية أوغيرها ، ولا بنقل شىء من علوم اليونان وفلسفتهم ، وكان الذين يرحلون منهم إلى بلاد المشرق فى طلب العلم يأخذون عن علماء الدين واللغة لاغير كما كانوا يستقدمون من بغداد وغيرها جماعة من أئمة الفقهاء وأهل الأدب « كأبى على القالى » الذى استقدمه عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحكم وتعليمه ولقد ألف القالى لعبد الرحمن كتابه « الأمالى » « وكأبى الفرج الاصبهانى » الذى طلب اليه عبد الرحمن نشر كتابه « الأغانى » بالأندلس قبل نشره فى بغداد ، ووهبه على ذلك مالا عظيما قيل انه مقدار ألف دينار .

« وكيحي بن يحي الليثي » الذي رحل إلى مكة وأخذ الفقه عن الامام مالك وروى عنه الموطأ

وإذا كان أهل الاندلس يجارون المشارقة فى العلوم والمعارف ويأخذون عنهم ذلك فقد كانت تلك المجاراة مقصودة على علوم اللغة العربية ، والشريعة الاسلامية بادىء الأمر لهذا بقيت ثقافة أهل الأندلس عربية إسلامية إلى أواخر القرن الخامس الهجرى

فكانت علوم اللغة والشريعة أساسا لثقافتهم كما كانت أساسا لثقافة العالم الاسلامى فى كل بلد كان للمسلمين فيه أثر علمى أو عقلى . وكان ذلك اشبه بالثقافة اللاتينيه المنتشرة الآن فى بلاد فرنسا وايطاليا واسبانيا التى سكانها من اصل لاتينى ، بل وفى بلاد الروسيا وعند أمم الصقالبه لاحتكاكهم بالفرنسيين وأخذهم عنهم الآداب والفنون كذلك كان العالم الاسلامى متأثراً بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين فظهر ذلك فى الحياة العقلية القومية للأمم التى دخلت فى الاسلام كالفرس والترك وأمم البربر ، وأصبحت عقولهم واخيلتهم عربيه وأساليب التفكير لديهم عربيه اسلاميه وهذه أمة الفرس لم تظهر سطوتها الأدبية إلا بعد أن أسلموا وتأدبوا بلغة العرب وعطروا عقولهم الآريه بعبير التفكير السامى وبالثقافة العربية . فان الشهنامة التى هى اعظم أثر ادبى فى لغة الفرس على مانعلم نظمت فى القرن الرابع الهجرى : فقد نظمها أبو منصور محمد بن احمد الدقيق المتوفى سنة ٣٦٥ من الهجره وأتمها ابو القاسم المنصور الفردوسى المتوفى سنة ٤١١ هـ

فالثقافة العربية الدينية اساس كل التفكير الاسلامى. ولكن عرب

الأندلس على رغم ذلك كانوا كجميع الامم الناهضة تتطلع الى معرفة الحياة العقلية والعلمية للأمم الاخرى حتى تجاريهم فى ذلك أو تفوقهم إذا كان لا بد من هذا ، فرغم تشبعهم بالثقافة العربية الاسلامية الخالصة وتعصبهم لهذه الثقافة ، كان من بينهم جماعة من علماء الطب النابغين وعلماء الرياضة والفلك الذين ذاع أمرهم فى جميع الاصقاع وانتشرت مؤلفاتهم فى كل بلد ، وكانوا مع ذلك شعراءاً وكتابا وعلماء فى اللغه والأدب والشريعة . نذكر منهم الحفيد أبا بكر محمد بن أبى مروان بن زهر الطبيب « كان حافظا للقرآن ، سمع الحديث ، وأشتغل بعلم الأدب والعربية ولم يكن فى زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة ويوصف بأنه أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه . وله موشحات مشهورة يغنى بها وهى من أجود ماقيل فى ذلك ، وكان ملازما للأمور الشرعية .... ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب » (طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعه جـ ٢ ص ٦٨) وكان أبو بكر محمد بن يحيي بن الصائغ المعروف بابن باجه أستاذ ابن رشد « فى العلوم الحكمية علامه وقته وواحد زمانه ... وكان متميزا فى العربية والأدب حافظا للقرآن ، وكان مع ذلك بارعا فى علوم الموسيقى وله كتاب فى هذا الفن ، قالوا عنه « إنه فى المغرب بمنزلة ابى نصر الفارابى فى المشرق وإليه تنسب الألحان المطربة فى الاندلس التى عليها الاعتماد (نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٧ ، طبقات الاطباء جـ ٢ ص ٦٨)

اشتغال أهل الأندلس بالفلسفة :

أما الفلسفة فقد كانوا أقل عناية بها من أهل المشرق كما قلنا لأنهم كما روى المؤرخون لم يكونوا من أهل الجدل الديني . إذ كان جمهرتهم من أهل السنة كما ذكر ابن حزم فقال « أما علم الكلام فان بلادنا وان كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك معرفتهم فى هذا الباب فهى على كل حال غير غريبة عنه » ومع هذا فلم تخلو مكاتبهم من كتب الفلسفة ولا جهل علماؤهم دراستها ولا سيما بعد القرن الرابع ، فقد عرفها أهل الاندلس منذ عنى الحكم بن الناصر بجمع الكتب واقتناء النفيس منها . قال ابن أبى أصيبعة فى فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : « .... فان هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالاندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ماصنف بالمشرق ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها فنضر الله وجهه » (حـ ٢ ص ٦٢)

وقال فى ترجمة أبى بكر محمد بن الصائغ (توفى سنة ٥٣٣ هـ) وانما انتهى النظر فى هذه العلوم بهذا الحبر وبمالك بن وهب الاشبيلى فانهما كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه إلا القليل النذر : واضرب الرجل النظر ظاهراً فى هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات فى دمه لسببها (ح ٢ ص ٦٣) . وكان أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى المهندس الرياضى أول من جلب معه من المشرق رسائل أخوان الصفا « توفى الكرمانى بسرقسطه سنة ٤٥٨ وأكثر الاطباء المنجمين فى الاندلس كانوا فلاسفة ، ولكن تعصب بعض الامراء

وعامة العلماء على الفلسفة والفلاسفة ، جعل المشتغلين بهذا العلم يخفون اشتغالهم تجنبا لما عسى أن يلحق بهم من الأذى . حتى لقد كان كبار الفلاسفة ينكرون مؤلفاتهم ، كما قالوا « وأما كتب الفلسفة فامامها فى عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبى وله فيها تصانيف جحدها لما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن من هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن المنصور على هذا العلم بأشبيلية . وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره فلذلك تخفى تصانيفه » . (نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨)

وبلغ من كراهة المنصور هذا لعلوم الفلسفة أنه أمر أن تجمع كتب الفلسفة من المكاتب وأن تحرق «وأنه قصد ألا يترك شيئا من كتب المنطق والحكمة باقيا فى بلاده وأباد كثيرا منها باحراقها بالنار وشدد فى ألا يبقى أحد يشتغل بشىء منها وأنه إذا وجد أحد ينظر بهذا العلم ، أو وجد عنده شىء من الكتب المصنفة فيه فانه يلحقه ضرر عظيم » (طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩)

من هذا يمكن معرفة الفرق بين ميول المسلمين العلمية والعقلية فى الأندلس وفى بلاد المشرق وبين نوع التفكير هنا وهناك ، ويمكن التمييز بين الثقافتين وأيهما أقرب إلى حرية الفكر ونضجه . ولا سيما إذا وازنا بين خلفاء بنى العباس فى بغداد وملوك الأندلس من المسلمين . إذن لعلمنا بأن الاشتغال بالعلوم العربية والدينية فى بلاد الأندلس كان وجهة جمهرة العلماء والمثقفين هناك . وأن الاشتغال

بالفلسفة كان من صفات خواص العلماء المفكرين . فلسنا نقول مع القائلين إن دراسة الفلسفة لم تقم لها قائمة فى بلاد الأندلس ولم يكن لها رجال قائمون بها ولا مؤلفات تضارع مؤلفات أهل المشرق فى ذلك بل كان من فلاسفة المسلمين هناك من يحسب فى مقدمة الفلاسفة كابن الصائغ المعروف بابن باجه الذى كثرت مؤلفاته فى هذا العلم وشرح كتبا لأرسطاليس ككتاب الكون والفساد وكتاب الحيوان والنبات وكتاب السماعى الطبيعى وغيرها من الكتب التى ألفها فى ذلك وكأبى الوليد محمد بن رشد فيلسوف الأندلس الذى شرح جوامع كتب أرسطاليس فى الطبيعيات والالاهيات والمنطق ولخص له كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب الأخلاق وكتاب البرهان وشرح كتاب السماء والعالم والنفس وغير ذلك من كتب أرسطاليس وجالينوس . ومنهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ صاحب « الفصل فى الملل والنحل وابن طفيل وقدقالوا عنه أنه أعلم زمانه فى الفلسفة وهو من أساتذة ابن رشد وصاحب القصة المعروفة حى بن يقظان « توفى سنة ٥٨١ هـ »

التأليف والتدوين

لقد تبين مما سقناه فى الكلام عن الحياة العقلية والثقافة فى بلاد الأندلس مقدار عناية العرب هناك بنشر العلوم والمعارف والاشتغال بها بما جمعه الحاكم المستنصر فى مكتبة قرطبة وما بذل من المال فى مساعدة العلماء والأدباء واشتغال الخلفاء والامراء أنفسهم بالعلم

والأدب . ومن أجل ذلك أيضا كانت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس العظيمة مقصد العلماء والأدباء والوافدين إليها من بلاد المشرق وقد حالف خلفاء بنى أمية فى الأندلس خلفاء بنى العباس فى بغداد فى العناية بالعلوم والآدب واتبع سنتهم بعدهم ملوك الطوائف . فكثر الوافدون على بلاد الأندلس من العلماء كما كثرت رحلة أهل الأندلس إلى بلاد المشرق فى طلب العلم فكان لهذا الاتصال أثر عظيم فى ترقية الحياة العقلية ببلاد الاندلس . وقد عمل على ذلك العلماء الذين رحلوا من هنا وهناك . فمن رحل من الاندلس إلى المشرق عبد الملك بن حبيب السُّلمى القرطبي صاحب الكتب الشهيرة وشارح تفسير موطأ مالك (ولد سنة ١٧٤ وتوفى سنة ٢٣٨ هـ) . ومنهم الفقيه المحدث يحيي ابن يحيي الليثى الذى قرأ الموطأ على الامام مالك ولازمه هناك (توفى يحيي بن يحيي سنة ٢٢٤ هـ)

ومنهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة ومنهم تقى بن مخلد صاحب التصانيف العظيمة فى الفقه والحديث الذى روى عن مائتى رجل واتصل بالامام أحمد بن حنبل . ومنهم الشيخ الأكبر محى الدين بن العربى الذى رحل الى بلاد المشرق فدخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . ومنهم الطبيب الشهير ضياء الدين احمد بن البيطار المالقى الذى رحل إلى القاهرة وألف هناك كتابا جمع فيه تصانيف الأدوية وغيرها وسافر الى يلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وعاين منابت الغابات وألف كتابه بناءً على تجاربه وقالوا عنه انه انتهت إليه

معرفة تحقيق النبات وصفاته

وممن وفد الى الاندلس أبو علي القالى صاحب النوادر على الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر مربيا لابنه الحكم وألف كتابه هناك

ومنهم صاعد البغدادى اللغوى وفد الى قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر . وألف كتابه النصوص فأثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار . ومنهم زرياب المغني رئيس المغنين مولى المهدى العباسى تلميذ اسحق الموصلي الذى زاد في العود وترا ونشر الغناء المشرق ببلاد الأندلس .

الأدب واللغة : أما كتب الادب واللغة فمن أشهرها كتب أبي علي القالى المتوفى (٣٥٦) وهي كتاب الامالى وكتاب النوادر . ومن الكتب النادرة كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨) وهو من أجمع كتب الادب المعروفة , وكتاب الذخيرة لابن بسام، وهو كتاب جامع لذكر أدباء الاندلس وشعرائهم ، يقع في أربعة أقسام. القسم الاول في أدباء قرطبة وماجاورها ، والثاني في أدباء الجانب الغربي من الاندلس ، والثالث في أدباء الجانب الشرقي والرابع في من طرأ على هذه الجزيرة من الادباء . وهذا الكتاب من أجمع كتب الأدب وأوفاها لذكر أهل الاندلس وأخبارهم وشعرهم ونثرهم. ومن كتب الأدب المعروفة كتاب قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، للفتح بن خاقان الاشبيلي المتوفى سنة (٣٣٥) وهذان الكتابان من أشهر وأجمع ما كتب عن أدباء الاندلس ولولا أنها مسجعة العبارة لكانت من أجل الكتب في موضوعها ،

ومن كتب الأدب المسهب في فضائل المغرب تأليف عبد الله بن

ابراهيم الحجارى . ومنها سراج الأدب لأبى عبد الله بن أبى الخصال رئيس كتاب الأندلس . صنفه على منزع كتاب النوادر لأبى على القالى وكتب الأدب التى الفها علماء الأندلس كثيرة لا تكاد تحصى .

اللغة والنحو : اشتغل أهل الأندلس بعلوم اللغة فضارع كثير منهم أهل المشرق فى ذلك ، وبعضهم فاقهم فى تأليف المعجمات العظيمة كالامام على بن اسماعيل المعروف بابن سيده صاحب كتابى المحكم والمخصص . وقد كان حافظا واعيا لكثير من قضايا اللغة ومفرداتها ومسائلها ، وكان ضريرا كأبيه . «توفى سنة ٤٥٨» ومن علماء اللغة أبو بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، وأبو على القالى صاحب الامالى وذيله .

وأخذ أهل الأندلس عن المشارقة النحو والرواية ، وكان فيهم أئمة انفردوا بالتآليف فى بعض مسائله . فمن العلماء المشهورين فى ذلك عمر بن محمد الشلوبين وكان من أئمة اللغة وحفاظها ، ولد باشبيلية سنة ٥٦٢ وتوفى بها سنة ٦٤٥ ، ومنهم ابن مالك صاحب الألفية ، وابن خروف وابن عصفور وغيرهم .

أما علوم البلاغة فلم يجاروا فيها علماء أهل المشرق ، ولم يظهر لهم تأليف خاص فى ذلك لأنهم اشتغلوا بالصناعة اللفظية وبخاصة علم البديع وأنواعه .

العلوم الشرعية : كان أهل الأندلس يرحلون إلى المشرق ويأخذون عن أئمته ، وكانت عنايتهم بالعلوم الشرعية لا تفوقها عناية . ولذلك ظهرت لهم مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقه والتفسير وكانوا على

مذهب مالك والاوزاعى ، وفى مدة الحكم بن هشام كانت الأحكام سائرة على مذهب مالك ولم يعمل بغيره .

فمن علماء التفسير أبو عبد الرحمن بن بقى بن مخلد القرطبى ، وكان من الحفاظ والمحدثين (٢٢١ ـ ٢٧٦) وكان من أشهر أئمة الحديث فى الأندلس روى عن ألف وثمانمائة راو ، ومنهم القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى (٤٨١ ـ ٥٤٢) ومن أشهر كتبه . الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز وهو من أجل كتب التفسير ومنهم القاضى عياض إمام الأئمة فى الحديث ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ وولى القضاء بها وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ . ومن أشهر كتبه كتاب الشفا لتعريف حقوق المصطفى ، وطبقات الحاكمين ، ومشاهد الأنوار فى غريب الحديث . ومن الفقهاء عبد الملك بن حبيب السلمى القرطبى (١٧٤ – ٢٣٨) كان فقيه عصره سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس وتوفى بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك عالما بالتاريخ والأدب ألف كتبا كثيرة منها طبقات الفقهاء وطبقات المحدثين وتفسير موطأ مالك . ومن أشهر الفقهاء هناك يحيى بن يحيى الليثى الذى ذهب إلى المشرق والتقى بالامام مالك ورجع فنشر مذهبه كما سبق . ومنهم أبو الوليد الباجى . وكان الفيلسوف ابن رشد فقيها أيضا ألف فى الفقه كتابا أسماه النهاية . وغير هؤلاء كثيرون .

أما علم الأصول ، وعلم الكلام فكان اشتغال أهل الأندلس بهما قليلا ، لتفرغهم إلى العلوم الشرعية الأخرى ، كالفقه ، والحديث والتفسير وإلى علوم اللغة العربية ، وفنون الأدب ؛ فانهم لم يعنوا

عناية عظيمة بالجدل وعلوم الفلسفة ، والمذاهب الدينية التى شاعت فى بلاد المشرق بسبب اختلاط المشارقة بالفرس ، واطلاعهم على علوم اليونان وبعد أهل المغرب عن ذلك

وأما التاريخ : فمن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣٧٧ وتوفى سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين فى تاريخ الأندلس فى عشر مجلدات

ومما ألف فى الجغرافيا كتاب المسالك والممالك لأبى عبد الله البكرى ومعجم مما استعجم من البقاع والاماكن أيضا .

وللقاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد الطليطلى كتاب التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم .

العلوم الرياضية والطب : وكان اشتغال أهل الاندلس بالرياضيات والطب والفلسفة أقل عناية من غيرها ـ كما قلنا ـ ، وظلوا على هذه الحال إلى أواخر القرن الرابع قال المقرى فى نفح الطيب « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ؛ فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثير ما يأمر بأحراق كتبه إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن »

وهذا موجز لبعض المشتغلين بهذه العلوم .

فمن أشهر المنجمين ابراهيم بن ازراحيل الاسرائيلى من رجال القرن الخامس الهجرى . ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصدا لتحقيق نقطتى الرأس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن أفلح الاشبيلى الذى اختصر كتاب المجسطى لبطليموس

ومن أئمة الفلاسفة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد . تعلم فى قرطبة ودرس بها العلوم الشرعية والطب والفلسفة والرياضة والفلك حتى قالوا عنه أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس وكتب وألف فيها .

وبعد أن درس فى قرطبة ذهب إلى مراكش واتصل بأبى يعقوب يوسف أحد ملوك الموحدين وصار من اتباعه كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن طفيل ثم رجع إلى الاندلس تولى القضاء بقرطبة واشبيلة وتوفى سنة ٥٩٥ . وعن ابن رشد أخذ أهل أوروبا كتب الفلسفة اليونانية ودرسوها وقد كانوا يجهلونها قبله .

وكثير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة فى الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية .

ومن فلاسفة الأندلس ابو محمد بن احمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتعلم علوم اللغة والدين حتى أصبح من كبار العلماء . وألف فى الحديث والأصول والفقه وعنى عناية خاصة بدراسة المذاهب الدينية وعقائد الامم ونحلهم فألف فى ذلك ومن أشهر كتبه كتاب «الفصل فى الملل والنحل» ذكر فيه مذاهب الفلاسفة وعقائدهم وسرد

مذاهب الطوائف الاسلامية وكان مع ذلك عالما وأديبا وشاعرا وكاتبا توفى سنة ٤٥٦

وألف فى الفقه والحديث ومراتب العلوم فكان اجمع اهل الاندلس قاطبة للعلوم الشرعية

ومن كتبه كتاب اخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم

ومن الفلاسفه ابن باجه السرقسطى المعروف بابن الصائغ توفى بمدينة فاس سنة ٥٥٣ وكان طبيبا شهيرا مولعا بالموسيقى ووضع الألحان

وهو من أكابر العلماء فى الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنهم ابن طفيل الذى كان معاصرا لابن الصائغ . ويقولون إنه أول من قال بتدرج الحيوان إلى إنسان ، وهو صاحب الرسالة الشهيرة التى سماها « حى بن يقظان » ومن تلاميذه أبو الوليد محمد بن رشد المذكور آنفا

وقد ألف ابن طفيل فى الطب ولخص بعض مؤلفات جالينوس فى الأمزجة والعلل والحميات .

ومن أطباء الأندلس بنو زهر وهم : ابو العلاء بن زهر وابنه أبو مروان عبد الملك ، وأبنه أبو بكر . وعبد الملك هذا هو صاحب كتاب التيسير ، وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة فى المشرق والمغرب

ومن المشتغلين بالعلوم النباتية ابن البيطار واحد أهل عصره فى معرفة النبات ، سافر إلى بلاد الأغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بكثير ممن يعانون هذا الفن ، وعاين منابته وتحققها . ومنهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنه ٥٠٠ من الهجرة ، كان

أشهر أطباء زمانه : صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف . وهو أول من ألف فى فن الولادة ، ورسم فى كتابه الآت الجراحة .

النثر فى الأندلس

كان الشعر فى اكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر . ولذلك كان الشعراء أشهر من الكتاب . لأن البلاغة فى الشعر أظهر ، والأخيلة فيه أبين ؛ وقراء العربية كانوا إلى التأثر بهذه الأساليب والصناعة أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب مالا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر كان أقل من الشعر انتشارا من حيث الاعتماد عليه فى الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ؛ وظهرت له مذاهب وطرق ، كمذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب الجاحظ وأسلوبه : وطريقة ابن العميد والحريرى ؛ وغيرهم كما هو معروف

أما فى الأندلس فقد دخل العرب هناك بعصبيتهم العربية : ونفوسهم تغلى كالمراجل من جراء الفتن والاحقاد التى انتشرت ببلاد المشرق ، فاشتغلوا بالفتح ومد سلطانهم ونشر الدعاية لحكمهم ودينهم ، وقمع الفتن والتغلب على أعدائهم ، وبث الحماسة فى نفوس الجند والقواد . بل كانت هناك فتن ثار عجاجها بين الامراء والفاتحين ؛ ايقظتها الاطماع والضغائن بين القبائل اليمنية والمضرية مدة حكم الامراء فى الاندلس . فكان كل هذا مدعاة لاستفزاز النفوس ، لالقاء الخطب الحماسية وكتابة الرسائل على نحو ماكانوا يكتبون ويخطبون فى بلاد المشرق . فلم يكن للكتابة

الفنية مجال طيال عصر الامراء وشطر عظيم من عصر الدولة الاموية فكانت الكتابة مقصورة على الرسائل والخطب السياسية ، وكانت هذه هى أنواع النثر ، لان القوم لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالعلوم ولا بأنواع الآداب الاخرى التى تفسح المجال للكتابة الادبية كالقصص والرسائل المنمقة ، كما كانت الحال منذ أواخر القرن الثانى .

وكان لكل وال أو أمير كاتب يتولى الكتابة ويكتب بأرشاد سيده ، وكانت أساليبهم جزلة رقيقة كما كانت الحال فى بلاد المشرق .

قال المقرى : « وأما الكتابة فهى على ضربين . أعلاها كاتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الاندلس ، وأشرف أسمائه : الكاتب ؛ وبهذه التسمية يخصه من يعظمه فى رسالة ... والكاتب الآخر كاتب الزمام ... الخ » ومن كتاب هذا العصر أمية بن يزيد كاتب الأمير يوسف الفهرى الذى كان واليا قبل عبد الرحمن الداخل . وقد كتب أمية لعبد الرحمن أيضا ، ومنهم أبو عثمان عبد الله كتب لعبد الرحمن الداخل أيضا ؛ وكان عبد الرحمن نفسه كاتبا ،

وكان أسلوب الكتابة فى العصر الاول عربيا خالصا من كل شائبة اعجمية ، لأن الكتاب من أمراء ووزراء كانوا عربا خلصا لم تتطرق العجمة إليهم لعدم اختلاطهم بالأعاجم : وعدم تأثرهم بغير علوم العرب وآدابهم ، فكانت كتاباتهم جزلة سهلة غير متكلفة خالية من ألفاظ التعظيم والتبجيل والملق ، قليلة السجع إلا ما كان عفوا أشبه بما كانت تكتب فى عصر بنى أمية ببلاد المشرق .

ومن نماذج الكتابة فى هذا العصر « كتاب يوسف بن عبد الرحمن

الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل وهو :

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأشب من تأشب إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الايمان المؤكدة ، التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعينه عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرا كنف ، ورفاهية عيش . حتى غمطوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته على ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية ولا غيره ، »

وكتب بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده ، وقد هجره .

« أما كان جزائى فى قطع البحر وجوب القفر ، والاقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذى أهاننى فى عيون أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهيى عند من يلوذ بى ، وبتر مطامع من كان يكرمنى ويخدمنى على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بنى العباس لو حصلت بأيديهم مابلغوا بى أكثر من هذا . فأنا لله وإنا إليه راجعون »

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك . والعجب أنك متى أردت أن تبنى لنفسك عندنا متاتاً ، أتيت بما يهدم كل متات مشيد . بما تمن به ، مماقد أضجر

الاسماع تكراره ، وقد حت فى النفوس إعادته : مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك . وزدنا فى هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يقمع منك ؛ ويردعك حتى نبلغ منك مانريد إن شاء الله تعالى فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب فى مثالبنا ، وخيرك معدود فى مناقبنا» .

وكتب المنذر بن الامير عبد الرحمن الاوسط إلى أبيه يستعطفه وكان قد نفاه إلى مكان موحش لسوء خلقه وكثرة إصغائه للوشاة :ـ

« إنى قد توحشت فى هذا الموضع توحشاً ماعليه من مزيد . وعدمت فيه من آنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقير الامر والنهى . فان كان ذلك لذنب كبير ارتكبته . وعلمه مولاى ولم أعلمه ، فانى صابر على تأديبه ، ضارع إليه فى عفوه وصفحه:

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بمافعل الدهر

ومنذ أوائل القرن الثالث أخذ خلفاء بني أمية يفسحون صدورهم للعلماء والأدباء والشعراء مجاراة لخلفاء العباسيين فى بغداد ، فكثر الوافدون من بلاد المشرق الى الاندلس من أهل العلم والأدب، ووفد كثير من أهل الاندلس إلى المشرق لورود مناهل العلم هناك، واتسعت معالم الحضارة فى الأندلس وكثرت المدارس والمكاتب كما رأينا . ودب الترف فى كل مرافق الحياة . وكثرت مجالس العلم والأدب ومظاهر اللهو والطرب والمجون ، فصبغت العقول بصبغة فنية أدبية بما نقل هناك من علوم وفنون ، وما كان لديهم من جمال

الطبيعه ومظاهر الحضارة . فأحدث هذا كله نوعا جديدا فى التفكير والادراك، وتهذيب الشعور وسعة الأخيلة. وتمثل ذلك كله فى الكتابة فسالت أقلام الكتاب بمظاهر هذه الحياة، ودخل النثر فى طور جديد لأن كل هذا كان عاملا من عوامل التجديد فى شحذ ملكة الكتابة الفنية التى لم تعرف قبل ذلك هناك، إذ بعد أن كان النثر مقصوراً على المراسلات والخطب السياسية لا غير انتقل الى طور جديد

فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة . مسجعة أو مرسلة. فى العشق والغرام . أو فى الذم واللوم، أو فى المدح والاستعطاف وغير ذلك مما ظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعانى العامة الاجتماعية ، بل شملت كل شيء فى الاجتماع هناك، وكان مظهرا لتلك المدنية والحياة العقلية والسياسية والعامية. وكان أثره فى الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المبانى الفخمة من مساجد وكنائس ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتماثيل . وكوصف الاشياء الجميلة التى غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك. والمجادلات والمخاصمات، ومجالس العلم والأدب وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية، بشكل قصصى ، كما فى رسالة « حى بن يقظان » لابن طفيل وكتابة الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى ؛ كما فى رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن مروان بن شهيد، التى هى من نوع رسالة الغفران، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التى ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من

علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان . ولسان الدين بن الخطيب وما يشابهها مما لم يكن مثله كثيرا في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الانواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الاصغر . وكالمناظرة بين بلدان الاندلس لابي بحر صفوان بن ادريس التي كتبها للأمير عبدالرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن وكما كتبوا في الدعوات والارشاد والتوسل إلى الرسول : وفي شعائر الحج . وكانت لهم أساليب في الزهد والأسرار الربانية . عرف الكتاب كيف يتصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف ، « من فلك المعرفة في الملكوت ، ونجوم الحكمة في الجبروت ، وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم » وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة . وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ، كما بعث بعض الكتاب بأترجة وكتب معها كتابا يقول فيه :

« قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها ، فشربت على وردها رطلين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التي رضعناها ، إلا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللئام ، فخصالها عجيبة . وصفاتها غريبة ، إن خزنتها عطرت أثوابك ، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك ، إن أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وأرتك الكتب عن

وجه الحبيب . يا لها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة .
رقت من العاشق سماه ؛ ومن المعشوق طعم ثناياه »

ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ للنفس تذوقه؛ مثل قولهم « خرج الوزير أبو بكر بن عمار مع الوزير أبي الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشبيلية إلى منظرة لبني عباد بموضع يقال له الفت. تحف به مروج مشرقة الأنوار، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة من ثغور النوار ، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسيمها ووبلها ، وحلتها من زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالازار الخضر من نباتها . وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهى على مداهن النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان · وقد نووا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب . وبعثوا صاحبا لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ... الخ »

وبرعوا كذلك فى فن المقامات . ولأبى حفص عمر بن الشهيد : فصول جيدة فى ذلك، تشبه ما عند الفرنجة الآن، أو يشبهها ما هو عندهم . وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة فى انتقاء الألفاظ المعانى، وأمعان فى الصناعه وضروب الخيال ، كقول أبى حفص بن الشهيد:

«وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رءوسكم مرارا عدة ، أوقظكم بالاسحار وأوذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا : وربيت لكم من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى. أنعى إلى دجاجى .

وتنحى الشفرة على أوداجى. وحين أدركنى المشيخ ، يمزق لحمى ويطيخ. يا للكرام من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفح من دمه . والحزن يطبق على فمه . ثم غشى عليه . فاجتمعت الناس إليه ، يضربون وجهه بالماء . ويخلصون له فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيته . وأنشد :

علام يقتل شيخ   من كل ذنب برى

محقق متحد   موحد سنى

هل نص هذا كتاب   أو قال هذا نبى

لا ذنب لى غير أنى   مؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم . وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم . فقال ويحكم ، إن هذا الديك ذو نخذ وصدره قد أصابتنى عليه ضجرة ولى فى ذبحه سر ، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشبع من لحمه الضيفان . أما ترونه قرة العين والقلوب . سبيكة لجين . وتمثل

ومن شيمتى مهما تزين منزلى   لضيفى أن أقريه أحسن ماعندى

لو أن دمى خمراً لأرويته به   ولو صلحت كبدى شويت له كبدى

بذلك أوصانى أبى مذ عقلته   وقد كان أوصاه بذا قبله جدى

فقال الديك : لا أكذب . الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين . أما أنه على خلق عظيم ، كريم ابن كريم . غير أنه لؤم فى أمرى وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط . أما علم أن هرمات الديوك، ليست من مطاعم الملوك ، وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية وأقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور، ووضعنى من مثله على تنور ، لا أقضى به حاجة

ولا عدم منى فقرا ومجاجة . فزكى قوله من حوله ، ولم يألوه تعظيما ، واتخذوه من ذلك اليوم حكيما ، وصرف البدوى من الطافه،ما أحسن منه قرى أضيافه ، وختم توبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره وسمعنا منه ورحلنا سحرا عنه . . . إلى أن قال

فأصغيت فاذا انا بصوت ناقوس فى دير قسيس ، وقرية كاهاحانة دار البطاريق : وملعب الكأس والاباريق . سائمتها خنازير وحياضها المعاصير : ومياهها الأنبذة والخمور .وشكلها مثلث مسطوح هندستها حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود .وتثمر رمانا من نهود وتفاحا من خدود، وعقارب من أصداغ . وأفاعى من أسورة وعقود ، وفيها مدام من رضاب. وشفاه من كواعب أتراب ، وغيد تهوى بقرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان النطاق ، وعض الخلخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بألحاظ ،وقلوب تكلف وتشغف ، ونفوس ، تنشأ . وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه ، قطبنا له وجوه الاستكراه،وعضضنا له الشفاه فبينما نحن كذلك نكثر لغطا ، ونرى الحلول بالمستحسن غلطا ، إذ نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة ،وخصور هيفه ، وشموس وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزرار :لاسيوف إلا من مُقل ولا دَرَقَ إلا من عجل. ولاعارض إلا من خلوق ، وأقسم بنعمة قدودهن ألاجز متم النية ، وثنيتم الاعنة ، تعريجا علينا إلبنا ، وتحكما فى المال والولد لدينا . فكرمت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة . »

وتجد لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع مع رقة فى اللفظ

وجزالة فى المعنى ، وطولا لا يمل ، وصراحة فى القول، وحرية فى الفكر كما فى رسالة لابن الحداد :

« لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقذاء ،وصقال لاصداء،وعقال الأدواء ، وسمتنى منه بوسام ، ولفحتني منه بسموم وأمررت حسوا فى ارتغاء ، وأدمجت ذما فى ثناء ، والحر يأنف من الضيم . ويشمئز من الذم . ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القطا ليلا لنام وفى العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوغ مره . فمن الحكم العدل والقضاء الفصل . أن ألذعك بما لذعتنى وأجرعك ما جرعتنى . غير آفك فى حال . ولا مباهت بمحال . والتمويه ليس خلق الكاذب النبيه . والحر على ما أساء يصبر . وكل مجر فى الخلاء يسر . والفضل لمن حواه . لا لمن زخرف دعواه . وتحقيق البرهان ، غير تنميق البيان . والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال . لافى امكان الزمان ، وإقبال السلطان . وقيمة كل امرىء ما يحسن . أمثال أضربها عليك واضحة المناهج . ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج وجمل تشتمل على تفصيل حالينا ، ونبذ تشير إلى ما فيه جرينا . وقد قابلنى عتابك . واجلابك . بريح تعصف ورعد يقصف ، واستقبلني خطابك وأطنابك بوبل يخسف . وسيل ينسف . بلغ الزبى وزاد . وغمر الربى والوهاد ... الخ »

وأحيانا نجدهم وصلوا إلى درجة فى النثر لا تفرق بينها وبين الشعر إلا فى الوزن وقواعد العروض ، كما فى رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم : « إذا شرب روض الشكر من حوض البر ،وأطلع

من الزهر ما يخجل مسك الغرر . وتنسم عن نسيم، يشفى حرارة القلوب الهيم، ولم يزل يجرى خلف الطلب ، بيد الادب ، ويسرى فى ظلام الأمور بسراج المنظوم والمنثور ..الخ » الذخيرة جزء «١»

ومن السجع الجميل والأساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسام فى الذخيرة وترجمته الأدباء والشعراء . كقوله فى ترجمة ابن شهيد : « كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها. ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ينبوع آياتها ، ومادة حياتها وأسانها ومعنى أسمائها ومسمياتها . نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار . ان هزل فسجع الحمام ، وإن جد فزئير الاسد الضرغام . نظم كما انشق الدر على النحور ، ونثر كما خلط المسك والكافور . . الخ . »

ونجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبى الفني ، أنواعا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعا متكلفا مملا ، مملوءة بالتعمل ، كثيرة الصناعة ، قليلة المعانى . وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب . والفتح بن خاقان طريقته معروفة فى كتبه حتى أصبح السجع طابعا من طوابع الأدب العربى فى الاندلس وتسلل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة . فنفحوا الأدب بنفحة جافه جف من أجلها عوده ، حتى كسر أو كاد يكسر . وبلغ هذا منتهاه فى أيام ابن تاشفين .

~~وعلى الرغم من رقى النثر فى الاندلس فانه لم يخرج عن صبغته العامة وهى الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية . فأن الكتاب~~

حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة كالقصص والحكايات الخيالية كما فى رسالة لابن شهيد على لسان الاوزة، والمناظرات وغيرها، وابتكروا

هذه الاساليب فى النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات فى الشعر .

أما طول الكلام والاطناب فيه ، فيكاد يكون عاما فى جميع كتاباتهم . وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحته ، والافتنان فى التصور والخيال ، وبعضه مل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لاغير فى نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة ، كما فى كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح ابن خاقان وغيرهم من الكتاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التى قلنا أنها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غرسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة فى تلك الايام الى أواسط دولة بنى أمية . لأن الوافدين جاءوا من المشرق الى المغرب ، والدولة عربية فى بيت بنى أمية ، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول فى نفس كل خطيب وكاتب وشاعر فالذين هاجروا الى بلاد الاندلس فى الازمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابا فى أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر فى تلك المدة يشبه كثيراً نثر الامويين فى المشرق ، وخطباؤهم فى الأندلس أشبه بخطبائهم فى الشام وبلاد العرب . ولما كثر الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا اليها طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق فى الكتابة . وسرى هذا فى كل أغراض الكتابة ، حتى فى الكتب الفنية والعلمية ، من تاريخية وغيرها . ومن تراجم للعلماء والادباء ، ومن كتب جدية وهزلية ونعود فنقول كان النثر فى الاندلس يشتمل على أكثر ما كان

معروفا فى بلاد المشرق من الموضوعات أو الاغراض بل قد يمتاز ببعض هذه الاغراض الخيالية كالمحاورات بين الازهار بعضها بعضا وبين البلدان فى تفضيل بعضها على بعض وقد يكون هـذا النوع من خواص الأندلسيين أو من مبتكراتهم ، كما جاء ذلك فى رسائل أبى حفص بن برد الاصغر . فنجد فى نثر الأندلسيين الرسائل السياسية والاجتماعية والقصص الخيالية . التى تحاكى المقامات والمحاورات وغيرها مما جاء فى رسائل ابن شهيد .

ومن أشهر كتاب الاندلس أمية بن يزيد كاتب يوسف الفهرى. آخر أمراء الاندلس قبل الدولة الأموية وعبـد الله بن عثمان كاتب عبد الرحمن الداخل والوزير أبوعامر احمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز كاتب المنصور بن أبى عامر . والوزير أبو حفص احمد بن برد كاتب المنصور .

ومن أشهر الكتاب زمن ملوك الطوائف الوزير أبو عمر الباجى وأبو محمد بن عبد البر . وأبو الوليد بن زيدون وممن كتب لملوك البربر، الوزير أبو المطرف بن الدباغ والوزير أبو عبد الله بن أبى الخصال أشهر كتاب الاندلس فى وقته وأبو المطرف بن عميره والفتح ابن خاقان

ومن أشهر الكتاب لآخر دولة المسلمين هناك لسان الدين ابن الخطيب .وزير وكاتب السلطان أبى الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر وابن زمرك تلميذه .

الخطـــــابة

تحسب الخطابة فى الادب العربى من أنواع النثر المعروفة . بل قد تكون فى بعض العصور النوع الوحيد الذى عرف من الكلام العربى المنثور الموثوق بصحة روايته ، كما فى العصر الجاهلى . وقد يكون أكثرها وأعمها وأعظمها تمثيلا للغة العرب ونوع التفكير لديهم كما فى العصر الاسلامى الأول وعصر بنى أمية وزهاء مائة عام من أيام بنى العباس . وكل زمن من الازمنة التى ساد فيها نفوذ العرب والروح العربى والنعرة العربية انتشرت فيها الخطابة ولاسيما أيام الفتح واستثمار روح العصبية فى ذلك . لأن العرب أهل فصاحة وبيان. فكانوا يتخذون السنتهم عدة وعونا . فكانت الخطابة فى مقدمة أنواع الكلام تزاحم الشعر ويزاحمها فى الوصول الى قرارة النفس والاستيلاء على العقل . حتى أن الادباء عندما أرادوا أن يقسموا كلام العرب الى منظوم ومنثور جعلوا من أنواع المنثور الخطابة وقدموها على القصص ، بل لم يذكروا القصص فى هـذا التقسيم . لملازمة الخطابة لهم فى فتوحاتهم ومجالسهم ومحافلهم .

***

فلما دخلوا الاندلس كانوا أحوج مايكونون الى الخطابة لبث روح الشجاعة والحماسة فى روح الجند ، وايقاظ العصبية العربية والتفانى فى سبيل نشر الدين وسعة الملك . كما رأينا ذلك فى الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد .

وقد أنتشر هذا الروح الخطابى زمن الفتح مدة الولاة وفى عصر الدولة الاموية لاحتياجهم الى الخطابة فى هـذه العصور فى ميادين الحماسة والمحافل وأستقبال الوفود . وكان من بين الخطباء من الولاة يوسف بن عبدالرحمن الفهرى ، ومن ملوك بنى أمية عبدالرحمن الداخل وعبد الرحمن الثانى · وكان محمد المنصور بن ابى عامر المعافرى (توفى سنة ٣٩٤) من مشهورى الخطباء . ومن أشهر الخطباء قاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى . (توفى سنة ٣٣٥) كان خطيب عبد الرحمن الناصر ، ومنهم ابوعبد الله بن الفخار قاضى مالقه زمن يوسف بن تاشفين وغير هؤلاء كثير ممن كان بعضهم من الولاة أو القضاة أو الفقهاء أو الادباء .

ولم ينحط أمر الخطابة فى بلاد المغرب إلا قبل زمن البرابرة ، حين أخمدت العصبية العربية · وانتشرت العجمة على الألسنة . وسادت الصناعة فى الكلام ، ولم يعد هناك حاجة لها ، واقتصر منها على الخطب فى المساجد .

وجملة القول أن الخطابة مرت بأدوار ؛ فكانت أول الأمر ترمى إلى تأييد العصبية وبث الشجاعة فى نفوس الجند ، ولما اتسع ملك بنى أمية هناك ، وذاعت العلوم وانتشرت المناظرات فى المجالس والمحافل أمام الخلفاء من بنى أمية ، والأمراء من ملوك الطوائف نشأت أغراض أخرى فى الخطابة . ولما ملك البربر الأندلس انحط شأنها لجهل هؤلاء باللغة وانطفاء شعلة الحماسة العربية فى النفوس ؛ ولم يكن هناك غير خطباء المساجد .

وبعد أن كان أساليبها جزلة سلسلة أصبحت متكافة مسجعة العبارة على أثر انتشار السجع فى أساليب الكتابة النثرية الأخرى. وأكثر الخطب المعروفة لاتحسب فى شىء من التفكير الصحيح، ولا من الكلام الجيد، ولا من الأدب الناضج، ولا من أساليب الكتابة الفنية.

وليس لدينا مايدل على عظم أمرها، ولاعلى حلولها المحل الذى كان لها فى بلاد المشرق فى أى عصر من عصورها هناك: إذ ليس لدينا شىء من كلام الخطباء يدلنا على ماكان لها من منزلة أو شأن رفيع فى الأدب العربى؛ ولم يعرف أحد هناك بأن مكانته فى ذلك كانت أشبه بما كان لأبى بكر أو عمر أو على، أو معاوية أو الحجاج أو زياد أو أبى العباس السفاح أو المأمون؛ أو غيرهم من مشهورى المشرقيين، فى أى دولة من دول الاسلام وأكثر من اشتهر من خطباء الأندلس كانوا من الفقهاء لامن الأدباء والفصحاء؛ وربما كان أشهرهم جميعا منذر بن سعيد البلوطى، وكلامه يدل على بعده عن تذوق البلاغة، وأنه ليس من رجال الأدب أوالفصحاء.

وهذا شىء من خطبته فى حضرة عبد الرحمن الناصر عند وفود ملك الروم إليه، وقد ارتج على غيره من الخطباء لهيبة الموقف؛ فقام سعيد ابن المنذر وقال هذه الخطبة وهى من الخطب الطويلة التى تدل على روح ذلك العصر فى الخطابة وأسلوبها المتكافف الذى هو أول مايدل على روح الفقهاء وآرائهم قال.

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه

والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فأن لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق إلا الضلال ، وأنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغو إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وافقهوا عنى بأفئدتكم ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وان الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفاته واسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم ، وآمنت سربكم ، ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم . ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتقليد ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم . فانشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان وهى الاوطان ورفض الدعة وهى

محبوبه وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبه وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب مستقلا لما ناله » .

ومن خطبة لأبى عبد الله بن الفخار يشكو بعض الخارجين أمام يوسف بن تاشفين .

« إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم :

أما بعد فأنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيف نصيرا وظهيرا ، ونفزع إليك ممادهمنا فى حماك ، ونبث اليك مالحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك . ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المسلمين . ويصاب بضيم من أدرع بحصنه الحصين بشكوى قمت بها بين يديك فى حق أميرك الذى عضده مؤيداة لتسمع منها ماتختبره برأيك وتنقده . وأن قاضيك ابن الوحيد الذى قدمته فى مالقة للاحكام ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام . لم يزل يدل على حسن اختيار بحسن سيرته . ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريرته ماعلمنا عليه من سوء ، ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل جاريا على مايرضى الله ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرض بنو حسون إلى الطعن فى أحكامه ، والهدم من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع إلى المقدم بل جمحوا فى لجاجهم فعموا وصموا وفعلوا وأمضوا مابه هموا . وإلى

السحاب يرفع الكف من جف عنه مسيل عين ونهر ، فكف يد بني حسون عنه » .

الشعر فى الاندلس

الصفات العامة للشعر

العرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . وكان العربى شاعراً بطبيعته . وكانت الفصاحة والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلا على جهود العقول وآثارها وكلما نزل العربى بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعهدها بالنمو ، فلما نزل أرض الأندلس غرسها هناك ، فنمت فى تلك الأرض الخصبة ، فكانت كالزهرة الطيبة العَرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أرج الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربى فى بلاد الاندلس .

جاء الشعر بلاد الاندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن أخذ صبغة جديدة باتساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على كثير من العلوم والآراء ؛ فشمل كل مظاهر الافكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون فى أساليبهم وأفكارهم إلى الأساليب والأفكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنيناً إلى وطنهم وعيشتهم الاولى . إذ رغم ماكان فى نفوسهم من الاثر الذى اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التى لم يكن لهم بها عهد فى بلادهم ؛ كانوا لا يزالون يميلون الى أخيلتهم الأولى ، ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم ، لان العُجْب والخيلاء ؛ اللذين كانا لهما السلطان على عقولهم ، جعلاهم — حتى فى تلك البلاد البعيدة ، وحتى

بعد عدة قرون من انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجا لهم فى الصناعة والخيال .

والذى يقرأ الشعر الأندلسى يجده أخا الشعر فى بغداد ، بل وفى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة ؛ والموضوعات التى كانت عند القدماء

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جملته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة ، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام الرشيق ، والذوق النقى ؛ والافتنان فى أساليب الخيال ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربى: فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض ،والبساتين والازهار ، والانهار،والمياه الجارية ؛ وظلال الاشجار والنسيم العليل ، والآراء العامة والخاصة ؛ وأحوال الاجتماع والعادات

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، هذا كله فى الشعر . لان الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وصور الحياة النفسية والاجتماعية . ولبث منتشرا زُهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الاصليين كالقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال فى ذلك فكن أحيانا يسبقنهم ، وعني الناس هناك بالشعر عناية عظيمة فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقى ، ومن دواعى السلم والحرب، وفك اسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكد تخلو رسالة نثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر. وانتشرت طريقة السجع فى جميع المكاتبات ، وهى محلاة بأبيات من الشعر ، حتى فى الكتب العلمية،ومكاتبات الحكومة واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة، وروايته واجبة لمن يريد أن يندمج فى حواشى الملوك . فقد كان الادباء يجتمعون فى حضرتهم للانشاد والمسابقة فى ذلك،كما كانت الحال فى حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء الذين كانوا يجرون المرتبات والجوائز على الشعراء .

وقد قال « فرنسيسكو فيلاسباسا » شاعر الأسبان لهذا العهد :

« لم يصب شعب من موهبة الشعر الآلهية بقدر ما أصاب الشعب العربى منها . فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التواقة إلى الحرية والبطولة ماوسم شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الاسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربى أيضا . وسيطر إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الارض وامتزجوا بهم،فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون مناحى جديدة بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعد هذا التأثير الخلابة فى التركيب والتلاعب بالالفاظ . وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالارث الثمين يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أو فى الشعوب خبرة فى تخير الأخيلة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعريه ، ولم تتهيأ للشعر العربى فى عامة الاقطار التى اكتسحتها

العرب تربة أصلح من تربة الأندلس ، ولازها فى بلد من البلدان زهوته فى هذا البلد » .

قال « وكان قواد العرب أولا ومن بعدهم الخلفاء والامراء مثالا للشعب فى بث الفكرة الأدبية فى الأندلس العربية ، تكاد لاتستثنى منهم واحدا لم يخلد اسمه بقصيدة غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن الأول تحية الوطنية الممتعة التى خاطب بها النخلة الأولى التى غرسها بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم موشحته المشجية راصفا قوافيها بفلذات قلبه المنفطر الدامى . وإن أنس لا أنس المعتمد آخر ملوك أشبيلية ، وفى رأيى أن شعره أجلى مثال للشعر العربى ، إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذى فيه ، وبالشؤم الذى رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين ناوأهم القدر فى مختلف أدوار التاريخ .

ونسج الاشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب الغنائى ، وأزهرت فى ظلال السيوف فتفشت عدوى الاشتغال بالأدب العربى بين أساقفة النصارى ممن استعربوا فى ذلك العهد ، فراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية ، وهو لعمرى حدث وحيد من نوعه فى التاريخ . وفاضت أرض الأندلس الممرعة بعلوم الاسلام وآدابه التى عمت العالم ، وقامت النفوس التواقة إلى العرفان فى أقاصى البلدان ، تبرد شفاهها الظمأى بترشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر العربى فى قرطبة وطليطلة أولا ، وأشبيلية وغرناطة آخرا ونظم سلفستر الثانى بابا رومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

وظلت اللغة العربية لغة التقاليد فى الحب والعلم والشعر فى كل من صقلية وبروفنسا وإيطاليا وبيزنطية بل فى قلب بلاد ألمانيا . ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوادم ، فكانوا يولجونها فى الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لاذاعتها نشاطهم لاذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغانى شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الاندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقى . وبالعربية نظم الامبراطور فريدريك الثانى ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع فى بلاطه رهطا من علماء الاسلام وشعرائه ليتخذهم ذريعة يبعث بها فى ملكه ما كان للأدب العربى من بهاء فى دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهى المدائن الاربع التى كانت فى ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية فى العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن فى شعر دانتى الذى هو فخر أمته بأسرها ، مآخذ صريحة مردودة الى الادب العربى » .

وقد كان لنشاط العرب العقلى وصفاء قرائحهم فى قول الشعر ماكان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك فى الشعر لما لهم من ميلهم الفطرى اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شىء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء والعلماء ، ويمدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات . ويبثونه شكواهم وآلامهم ، ولهم قصائد فى التقرب الى الله ومدح الرسول عليه السلام ، والزهد والتصوف والرثاء ، ولهم أشعار رقيقة فى المزح والتهكم والمجون : أغراض الشعر

كما فى قصيدة قاضى الجماعة بغرناطة أبى عبد الله بن على بن الازرق نذكر منها شيئا على سبيل الفكاهة قال :

عم باتصال الزمن ولاتبالى بمن
وهو يواسى بالرضا من سمج أو حسن
أو من عجوز تختطى والظهر منها منحنى
أو من مليح مسعد موافق فى الزمن
مهما تبدى خـــده يبدولك الورد الجنى

* * *

أفدى صديقا كان لى بنفسه يسعدنى
فتــارة أنصحه ونارة ينصحني
وتارة ألعنـــه وتارة يلعـــنني
وربمـــا أصفعه وربمـــا يصفعنى
أستغفر الله فهـــذا القول لايعجبني
ياليت هـــذا كله فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا الا حديث من يسمعني
دهر تولى وانقضى عنى كطيف الوسن
ياليتنى لم أره وليته لم يرنى
دنست فيه جانبي وملبسى بالدرن
وبعت فيه عيشتى لكن ببخث الثمن
كأننى ولست أد رى الآن ماكأننى

والله ما التشبيه عند شاعر بهين

* * *

ومنها

هل أمتطى يوما الى الـ شرق بطون السفن
وأجتلى ماشئته فى المنزل المؤمن
حينئذ أخلع فى هذى القوافى رسنى

* * *

ومنها

هل للثريد عودة الى قد شوقني
تغوص فيه أنملى غوص الاكول المحسن
ولى الى الاسفنج شو ق دائم يطربنى
وللارز الفضل إذ تطبخه باللبن
وللشواء والرقا ق من هيام أنثنى

* * *

ومنها

إيه خليلى هذه مطاعم لكننى
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شعبا فذكرها أشبعني
وإن تكن جوعا يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن
يصور الاشياء وهى أبدا لم تكن

فقوله يريك ما ليس يرى فى الممكن
فاسمح وسامح واقتنع واطو حشاك وأسكن

* * *

وقد نظموا التاريخ وحوادثه . وبرعوا فى وصف الابنية الفخمة وما فيها من الصور والاشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسّمر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يا ربّ لَيلٍ قد هتكتُ حجابه بزُجاجةٍ وقّادةٍ كالكوكب
يَسعَى بها ساق أغن كأنها من خده ورضاب فيه الاشنب
بدران ، بدر قد أمنت غروبه يسعى ببدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر طالع فأنعم ببدرٍ آخر لم يغرُبِ
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرّة ربربٌ فى مشرب
والليل منحصر يطير غرابُه والصبحُ يطردُهُ ببازٍ أشهبِ

* * *

ووصفوا التنزه بالليل فى ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح وهى تعبث بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ، والفاكهة والأثاث والمساكن . والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصرٌ بمدرجة النسيم تحدثت فيه الرياضُ بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سُموُّه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مِسكية وأقام فى روضٍ من الكافورِ

غنى الربيع به محاسن وصفه فافتن عن نوْر يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس تزهى بلؤلؤ طلها المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما أبدى غضون سوالف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه درع أُشن بمِعطفَىْ مقرورِ
وكأننا والقصرَ يجمع شملَنا فى الأُفق بين كواكب وبدورِ



ومما قاله شعراء الاندلس فى هرم مصر « قيل إن جماعة من الشعراء خرجوا متنزهين إلى الاهرام ليروا عجائب مبانيها . ويتأملوا ماسطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى .

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على ما رأت عيناك من هرمى مصر
أنافا بأعناق السماء فأشرفا على الجو إشراف السماك أو النسرِ
وقد وافيا نشزاً من الارض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وأنظر وبينهما أبو الهول العجيب
وفيض البحر عندها دموع وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون كئيب

(نفح ج ٢ ص ٢١٠)



ومن مراسلاتهم الظريفة ماروو ان الوزير أبا عامر أصطحب يوما والجو سما كي العوارف ، لازوردى المطارف . والروض أنيقة لباته رقيقة هباته ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ومعه قومه ، وقد رقهم يومه والراح تشعشع ، وماء الامانى ينشع ، فكتب إلى ابن عمار وهو ضيفه .

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت فى ودى مسراً ومعلنا
فاو تسأل الأيام من هو مفرد بواد ابن عمـار لقالت لها أنا
فان حالت الأيام بينى وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

***

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل المعانى والفصول فقال أحد الحاضرين إنى لأعجب من قعود ابن عمار عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال ذو الرياستين : أن الجواب تعذر فلذا اعتذر لأنه يعانى قوله . ويعلله ويرويه ولا يرتجل ، ويقوله فى المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلاجواب أخلال لأدبه وأخلال فى الشعر ورتبه . فلما كان من الغد ورد ابن عمار وخصه الجواب وهو .

حصرت لى الآمال طيبة الجنى وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنى
والبستني النعمى أغض من الندى وأجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها فبت سمير للسناء وللسنى
أعلل نفسى بالمكارم والعـلا وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما تعاورت الاسماء غيرك والكنى

لأوسعتنى قولا وطولا كلاهما يطوق اعناقا ويخرس إلسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى تناثر فيها الطبع وردًا وسوسنا
تروق بجيد الملك عقداً مرصعا وتزهوا على عطفيه ردا مزينا
فدم هكذايافارس الدستوالوغى لتطعن طورا بالكلام وبالقنا
(نفح ج ١ ص ٣١٣)

***

ومما جاء فى الوصف الجميل قول ابن شهيد يصف روضا .

وروض كساه الطل وشيا مجددا فأضحى مقيما للنفوس ومقعدا
إذا صافحته الريح خاست غصونه رواقص فى خضر من القطب ميدا
إذا ما انسكاب الماء عاينت خلته وقد كسرته راحة الريح بددا
وإن سكنت عنه حسبت صفاءه حساما صقيلا خافى المتن جردا
وغنت به ورق الحمائم بيننا غناءا ينسيك الغريض ومعبدا
فلا تجفون الدهر مادام مسعدا ومد إلى ما قد حباك به يدا
وخذها مداما من غزال كأنه إذا ماسقى بدر تحمل فرقدا
(ج ١ ص ٣١٣)

***

ومن أخيلتهم الجميلة أنه كان فى دار محمد بن اليسع شاعر الدولة العامرية وردة وكان يهدى وردها كل عام إلى عارض الجيش احمد بن سعيد فغاب العارض سنه فقال :

قال لى الورد وقد لا حظته فى روضتيه
وهو قد أينع طيبا جمع الحسن لديه

اين مولاى الذى قـد كنت تهدينى اليه
قالت غاب العام فأيئس أن ترى بين يديه
فبدا يذبل حتى ظهر الحزن عليه

ومن أوصافهم الجميلة قول ابن الزقاق يصف روضا .

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بهـا نسيم الرياح
زرتها والغمام تجلب منها زهرات تريك لون الراح
قلت ماذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

***

ووصفوا التماثيل وبرك المياه وأوانى الأزهار . كما قال بعضهم فى دائرتين من ورد وياسمين :

يا حسنَهـا دائرةً من ياسمينَ كالحلى
فالورد قد قابلها فى حُلةٍ من خَجَل
كعاشق وحِبِّه تغامزا بالمُقَل
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجلِ

***

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس اللهو والشرب والرقص . كما قال ابن شهيد :

هاك شيخاً قاده السكر لنا قام فى رقصته مُستهلكاَ
لم يطق يرقصها مستثبتاً فانثنى يرقصها مستمسكاَ

عاقه عن هزها منفرداً ... نِقْرسٌ أخنى عليه فاتّكا
مَنْ وزيرٌ فيهم رقاصة ... قام للسكر يناغى مَلِكا
أنا لو كنتُ كما تعرفُنى ... قمتُ اجلالا على رأسى لكا
قهقهه الابريق منى ضاحكا ... ورأى رَعشة رجلى فبكى

***

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح ، ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال ؛ والشجاعة والجبن والاقدام ، والنصر والخذلان . ووصفوا النفوس وما يجول بها من الميول والاهواء وما تحدث فيها من لذة وألم ؛ والعشق وأثره فى النفس كما قال الشاعر :

قُبلة كانت على دَهش ... أذهبت مابى من العطش
ولهـا فى القلب منزلةٌ ... لوعدتْها النفس لم تَطشِ
طرقتني والدجى لبست ... خلعاً من جِلدة الحبش
وكأن النجوم حين بدت ... درهم فى كف مرتعش

وكقول بعضهم :

بتنا كأن حداد الليل شملتنا ... حتى بدا الليل فى ثوب سحولى
كأن ليلتنا والصبح يتبعها ... زنجية هربت أمام رومى

وكقول الشاعر :

ولما تجلى الليل والبرق لامع ... كما سل زنجى حساما من التبر

وكقوله : « فى وصف زنجى يسقيهم »

وزنجى أتى بقضيب نور ... وقد زفت لنا بنت الكروم

فقال فتى من الفتيان صفه   فقلت، الليل أقبل بالنجوم

وكقولهم: ، فى ملاقاة الأحبة وأوقات الوصل .

وواعدتها والشمس تجنح للندى   بزورتها شمساً وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح فى الدجا   وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الافاق حولى فأشعرت   بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها   كما يتقصى قارئ أحرف السطر

* * *

وبرعوا فى هذا النوع براعة لا تجارى حتى أتوا بالغرائب من المعانى الجزلة التى تثير النفوس ، وتحملها على التعشق ؛ كما قال الشاعر :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً   واستنهبوا قضب الاراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم   فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدق المهى أجفانهم   فسبوا بهن ضراغما وأسوداً
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا   حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بضفائرهم أبدوا لنا   ضوء النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثغور من الاقاحى بينها   ماء الحياة لو اغتدى موروداً

* * *

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصا فى الوصف ، كقول ابن شهيد :

فكأن النجوم بالليل جيش   دخلت للكمون فى جوف غاب

وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

ومن أبدع كلامهم فى الوصف الجميل والشعر الذى لا يجارى فى طريق الخيال والابتكار ، ورقة العبارة وحسن الاسلوب ، وجزالة المعنى ، قول أبى الفضل بن شرف القيروانى .

مَطَلَ الليلُ بوعد الفلقِ وتشكى النجم طول الارقِ
ضربت ريح الصَّبا مسك الدجى فاستفاض الروضِ طيب العَبقِ
وألاح الفجر خداً خَجِلا جال من رشح الندى فى عرقِ
جاوز الليل الى أنجمـه فتساقطن سقوط الورَقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة أيقن النجم لهـا بالغرقِ
فانجلى ذاك السنا عن حلك وانمحى ذاك الدجى عن شفقِ

* * *

بأبى بعد الكرَى طيف سرى طارقا عن سكن لم يُطرقِ
زارنى والليل ناع سَدْفَهُ وهو مطاوب بباقى الرمق
ودموع الطّـل تَمريها الصَّبا وجفون الروض غرقى الحدق
فتأتى فى أزار ثابت وتثنى فى وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته فحبا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حَدّىْ سيفه وتحلى خـده بالرونق

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد « أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا

يسرج لمعه ، والقس قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح ، قدهجروا الأفراح وطرحوا النعم كل اطراح

لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام منهم يعملها حميا ، كأنما يرشف من كلسها شفه لميا ، وهى تنفح له بأطيب عرف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل :

ولرب حان قد شممت بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مُقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مُخفرٍ كالخشف خفَّره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره »

***

ومن خواص شعر الأندلسيين ذلك الروح الخيالى المجونى ، مع حسن الدعاية وخفة الروح وجمال التشبيه مما لا يكاد يوجد له مثيل فى شعر غيرهم كقولهم : —

وصهريج تخال به لجيناً يذاب وقد يُذهِّبه الأصيل
كأن الروض يعشقه فنه على أرجائه ظِلٌّ ظليل
وتمنحه أكف الشمس عشقا دنانيرا فمنه لهـا قبول
إذا رفع النسيم القضب عنها فحينئذ يكون لها سبيل .
وللنارنج تحت الماء لما تبدى عكسها جمر بليل
ولليمون فيه دون سبك جلاجل زخرفت نصبا تجول

فيا روضا به: صقلت جفونى وأرهف متنه الزهر الكليل
تناثر فيك أسلاك الغوادى وقبَّل صفح جدواك القبول
ولا برحت تجمع فيك شملا من الأكياس والكأس الشمول
بدور تستنير بها نجوم مع الأصباح ليس لها أفول
يهيم بهم نسيم الروض إلفاً فمن وَجْد له جسم عليل

وقد تفننوا فى المراسلات وأبدعوا فيها أيما ابداع فقد دعا أبو عبد الله بن رشيق القلعى ثم الغرناطى بعض أصحابه إلى أنس فقال: —

سيدى عندى اترج ونارَنج وراح
وَجَنى آس وزهر وحمـــانا لا يباح
ليس الا مطرب يسلى الندامى والملاح
ومكان لانتهاك قد نأى عنه الفلاح
لا يرى يطلع فيه دون اكواس صباح
فيه فتيان لهم فى لذة العيش جماح
طرحوا الدنيا يسارا فاستراحت واستراحوا
لا كقوم أوجعتهم لهم فيها نُباح

وكان من بين الشعراء الفقهاء والحكماء والمتصوفون والمؤرخون. فنظموا حوادث التاريخ والحكم والمواعظ ومسائل الدين والفقه وقواعد اللغة، ومسائل النحو والصرف: ولكنهم فى كل ذلك لم يخرجوا كما قلت عن المذاهب التى كانت معروفة فى أصول الشعر وأنواعه، لأنهم كانوا يجارون أهل المشرق فى كل شيء، ولم يريدوا أن يتخطوا دائرة الفكر العربى ولا (تقاليد اللغة العربية) ولا أن يخرجوا على أئمة الشعر

العربى ، ولا أن يبتكروا أو يزيدوا عنهم شيئا ، سوى ما حصل فى الأوزان من الموشحات ؛ لأنهم تعففوا عن الاطلاع على آداب الامم الأخرى مما كان يكون له أثر فى ابتكار أنواع جديدة ، بل انصرفوا عن ذلك إلى التوغل فى الصناعة اللفظية والمبالغة فى الافتنان ، والعناية بالخيال اللفظى ومظاهر البلاغة . لأن الشعر كان فى جملته هناك من دواعى التسلى والمجون . وكانت حياة الشعراء حياة أقرب إلى اللهو منها إلى الجد . فكان من يريد منهم أن يكون حكيما فى شعره يحاول محاكاة المتنبى وأمثاله من أهل المشرق ، كما كان يفعل ابن دَرّاج القسطلى ، وابن هانىء . فكانوا يقولون عن كل منهما أنه متنبى الأندلس .

وقد بلغوا الذروة فى أنواع الوصف وذكر جمال الطبيعة حتى جعلوا الشعر العربى شعرا فنيا جميلا يرقق الشعور ويهذب النفوس لادراك الجمال ، وجاءوا بالعجب العجيب فى ذلك

ولذلك كانت أساليبه رقيقة ، وعباراته متعملة كثير منها من السهل الممتنع ، ومن السلاسة بمكان عظيم

هذه أمثله من الشعر الاندلسى تدل على رقة ذوقهم ودقة بيانهم وحسن اختيارهم وسعة خيالهم فى كل معنى من المعانى النفسية أو الوجدانية وفى كل شىء منظور أو محسوس ، وفى كل فكر ظاهر أو ملموس وفى كل معنى من المعانى النفسية ، أو الاجتماعية المعروفة لديهم وفى جمال الطبيعة وماتوحيه إلى النفس وغير ذلك مماهو مجموع ومعروف من أشعارهم مما لاينكره أديب أو عالم :

ولكن الذى يخامر الانسان وهو يقرأ هذا الشعر الجميل ويملأ

نفسه بالأعجاب هذه المسألة .

ترى هل أتى الأندلسيون بشيء فى الشعر العربى لم يكن معروفا ببلاد المشرق فى أدب العرب من نوع جديد طرأ عليه هناك ، أو ولدته فى نفوسهم مناظر بلادهم وانتقالهم من بلد إلى بلد واختلاطهم بشعب جديد وتفكير لم يكن لهم عهد بمعرفته ؟

وهل هناك فرق واضح بين الشعر الاندلسى والشعر فى بلاد المشرق ؟ .

والجواب أنه إذا تأمل الانسان شعر الاندلسيين وجده كغيره من الشعر العربى فى كل مكان وفى كل بقعة من بقاع الارض حل به العرب ونظموا فيها الشعر وحده منبعثا من فطرة سليمة وخيال واسع وصور لما وقع عليه نظرهم وأوحته اليه أفكارهم وآراؤهم الشخصية معتمدين فى ذلك على وجدانهم ومايجول بنفوسهم سالكين مسلك آبائهم واجدادهم فاتباع الانواع التى سبقهم بها الشعراء الاقدمون من الوصف والمدح والذم والحماسة ، وغير ذلك من الانواع التى لاتخلو منها نفس الشاعر ولا عواطفه والتى لاتمت إلا قليلا الى الحياة الاجتماعية العامة ووصف النفوس البشرية العامة والاجتماع العام : فشعرهم هو نفس الشعر القديم فى موضوعاته أو أغراضه وأخيلته مصبوغة بصبغة خاصة بهم أو كما يقال الآن بصبغة محليه .

فلم يحدث فى شعر الأندلسيين نوع جديد لم يكن فى الشعر العربى مثل الشعر القصصى أو التمثيلى أو الاجتماعى الذى يصور النفوس العامة

من غير نظر إلى حالة خاصة بالشاعر .

ولكن تلك الصبغة الفنية التى انغمس فيها شعراء الاندلس من وصف بديع وبلاغة نادرة هى التى ميزت الشعر الاندلسى من سواه ، وقد كان أعمادهم على الصناعة اللفظية وجمال القول وتعمقهم فى الوصف للطبيعة والمجالس والمحافل أظهر مايكون حتى أبعدهم ذلك قليلا أو كثيرا عن التعمق فى التفكير فلا تـكاد تجد بينهم شاعرا مفكرا أوفيلسوفا من أمثال المتنبى وغيره . وان جاء شىء من التفكيرفى أصل كلامهم فهو عارض إليهم لامطبوع فيهم

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التى ابتكروها فى الشعر العربى ، والمقطوعات الشعرية جديه أو هزلية أو اجتماعية ، فقد أظهروا منها من البراعة مالا يقدر عليه إلا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هـذه الانواع إلى المشرق فأحدثت حركة جديدة فى أوزان الشعر العربى .

الموشحات

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب فى أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث مادعا إلى الابتكار فى العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الاشياء إلى الالسنة ، وأكثرها انتشارا فى المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره . لـكثرة قائليه وسامعيه والمتأثرين به ، فتطلعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضرى وان يزجوا به فى مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء فى إلهاماتهم الجميلة ،

وفطرهم النقية ، وسذاجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيرا فى الخروج به عن أغراضه التى تكلم فيها القدماء ، مماهو ألصق بالصبغه الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا فى وجدانياته مما استدعته الحضارة من التوسع فى الخمريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه . أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الاوزان فى الشعر والصناعة مالم يبتكروه فى المعانى والأغراض . وتوسعوا فى ذلك حتى لقد يخيل إلى المطلع على الشعر العربى القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم وطورا من الأطوار الحديثة التى تخطاها الشعر وكان ذلك أظهر مايكون فى الاوزان والقوافى ، والقوانين التى وضعوها فى رقة الاسلوب وبعض الخيالات التى لم تكن معروفه . حتى أخذ الشعر العربى صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الانواع المختلفة فى الأوزان، الجارية على غير ما كان معروفا فيه، وخرجوا عن التقيد بنظام القوافى المعروف . قال ابن خلدون فى « فصل أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد » :

« ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم، يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثه فى رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى اخر القصيدة ، تشبيها بالمربع والمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين ... الخ . »

وقسم بعض المتأخرين الانواع التى حدثت فى الشعر ، إلى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان كان والقوما وغيرها .

واشتهر (١) من هـذه الأنواع فى الأندلس ماهو معروف « بالموشحات (٢) » وأصل الـكلمه من الوشاح ، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح

(١) راجع خلاصة الأثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر جا ص١٠٨

(٢) قالوا فى مخترع هذه الموشحات انه مقدّم بن معافى القبرى ؟ من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المروانى ، وأخذ عنه عبد الله احمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . هكذا فى مقدمة ابن خلدون . وجاء فى الذخيرة فى الـكلام على الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرابته مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الاندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فاقام عبادة هذا مناآداها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالاندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بافقنا فيما بلغنى محمد بن حمود العمرى الضرير وكان يضعها على أشطار الأشعار . غير أن أكثرها على الاعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى فيسميه المركز ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان ، وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات

ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادى ، فـكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكز يضمن كل موقف يقف عليه فى المركز خاصة . فاستمر على ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابن أبى الحسن . ثم نشأ عبادة فاحدث الصغير ، وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف فى الاغصان فيضعها ؛ كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز

المرأة به ، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات ؛ وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والتغني بأقوال الشعراء . فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . فيلحنون كلامهم هذا ويغنون به ؛ لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال [١] :

« وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه . وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطا أسماطا ، ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك الى الغاية ، واستظرفه الناس وجملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله ، وقرب طريقه . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري القبري [٢] من شعراء

---

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

(٢) قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون الفريري ، وفي الذخيره

الأمير عبد الله بن محمد المرواني ؛ وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد . ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية .

العود قد ترنم   بأبدع تلحين   وشقت المذانب   رياض البساتين

وفى انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم   عساك المأمون   مروع الكتائب   يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلى ثم يحيى بن بقى ؛ وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله :

كيف السبيل الى   صبرى وفى المعالم   أشجان
والركب وسط الفلا   بالخرّد النواعم   قد بانوا

وسبب اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ،

محمد بن محمود أو حمود العمرى وفى فوات الوفيات فى ترجمه عبادة ابن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو بن حمود المقبرى الضرير وهو ناقل عن الذخيره ، وفى نفح الطيب فى الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم ابن معافى القبرى . وفى مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث مقدم بن معافر أو معارف والقبيرى بدل الفرير أو التبريزى وهو خلط يدل على تحريف هذا الاسم

لضيق تلك الأوزان عن احتمال عيب الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد.

لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص ، وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لانفسهم التغيير فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الاوزان ما لا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهوائهم. واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم تمشى فى نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعا من أنواع الشعر العام . فنظم على أساوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ؛ ومنهم التقى المشهور الصوفى المعروف محيي الدين بن العربى

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبغ شعراء كثيرون فى هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة أو من الآراء والأفكار التى كانت تدور فى رؤوس كثير من الناس ، فنظمها كبار الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها إلى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أ كانت من

طريق الكلام أم من طريق الأغانى ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربى . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية فى الموشحات أكثر وضوحا منه فى الشعر العربى الفصيح

فلا غرو أن نجد فى الموشحات خلطا بين الشعر العربى الصحيح والكلام العامى الملحون ، لان أصلها مأخوذ من الشعر العربى ؛ لذلك لاتخلو من آثره فى الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحيانا يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتا غير عربية وعبارات غير معربة فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربى ، ولكن فى غير الأسلوب الشعرى العربى الصميم وصناعته المعروفة .

وقد كان للموشحات أن تحدث فى الشعر نوعاً جديداً لولم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعانى المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا فى الموضوعات العامة الاجتماعية ، ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام ومايشبهها كما قلنا ؛ لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا فى التعبيرات الشخصية ، وبعض هذه التعبيرات لايمكن أن تؤدى المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة ، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية . ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت هذه اللهجات ، وكثير منها لهجات عامية لايتذوقها كل من يعرف

العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامى المعروف .

فالموشحات علامة من علامات الانتقال فى الشعر العربى ، لأنها حادث جديد فى الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضا ، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما فى جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية فى كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى . على أن لذلك ميزة وهى أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية



الوزير ابن زيدون(١)

اقترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب فكان الوزير كاتباً وشاعراً وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء. وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب وأصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة. وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك، وتقلبوا فى مراكز الدولة وتغلبوا على شئونها. وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية.

ومن أشهر هؤلاء الوزراء والأدباء والشعراء المجيدين، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومى الاندلسى القرطبى أشهر من عرف فى حلبة الأدباء، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب فى الاندلس

(١) ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شىء من حياته المنزلية أو تربيته الاولى. أو اما يتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية، ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الذخيرة لابن بسام. حتى انهم لم يذكروا عن أبيه أبى بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة. وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال فى كتابه (الصلة) أنه أثنى عليه، وكان يكنى أبا بكر وتوفى سنة ٤٠٥ هـ ودفن فى قرطبة. وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد وفى بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل.

وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب فى بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤ هـ وتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون: أحدهم أبو بكر عبد الله ابن أحمد بن غالب والده والثانى أبو بكر ابنه، وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا فى آخر أيامه : وهم من أصل عربى كما أشرنا الى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضيا مشهورا بين قضاة قرطبة ، وعالما وأديبا . مات سنه ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك احدى عشرة سنة . وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا الى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة ، فحفظ منها شيئا كثيرا ، كما وعى كثيرا من أخبار الادباء والشعراء وامثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى اصبح فى مقدمة الشعراء والادباء . واندمج فى مجالس الادب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال فى أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها فى رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والادب ومجالسة الادباء . فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على ان يسبق غيره وان ينال شهرة واسعة بين أترابه .

وكان للنساء أثر عظيم فى هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء الى التفوق فى هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الادباء وصورة البلاغة من نظم ونثر : وكأنما ضاعت كل صبغة جدية فى المجامع الادبية ، تجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدن أحد أبطال هؤلاء فجذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفى الخليفة الأموى شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها . فوقع ابن زيدون فى شركها ووقعت فى شركه واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليهما وحسدهما الناس عليه . وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها اليه ، واغتصبها من صديقها ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته بعدم الاخلاص لها ، كما اتهمها بذلك أيضاً ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما ؛وحالت بين قلوبهما . لذلك غلب ابنُ عبدوس ابنَ زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة . ثم حدث ان رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية . ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية ؛وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين . وهذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون .

عاش ابن زيدون فى بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وتربى ودرج

في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جَهْوَر أحد ملوك الطوائف ، الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ ، وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذه ابن جهور وزيراً له فملك أزمة الامور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا . فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الامير ، فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيرا لابنه المعتمد ، وبقي هناك إلى آخر عمره .

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ، ومنها يرى إن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوه . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاخلاق ابن زيدون والبيئة التى عاش فيها ، وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم فى شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة فى النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون فى الغزل وكثير من شعره فى ذلك كان منبعثاً عن ثوران فى نفسه وغليان فى ميوله وأهوائه : أذكى ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هـذا فتح له بابا واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه . كذلك كانت آلامه ومالاقاه فى السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه . وإلهاماً من الهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه فى حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته فى إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطىء فى نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأى وصحته . فاذا نال ابن زيدون مكانة فى نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى ، أثارتها آلامه فأخذ يئن أنينا جميلا ويفتن فى آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعرا ومرة نثرا . . . والفني يمزج فنه دائماً بكل

مايرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التى اذا أنت تئن أنين الموسيقى ، واذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصور والادراك الدقيق الجميل ، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبى حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه ، وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى ولا يترك شاردة تمر بخاطره إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه ، يستسلم أحيانا إلى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به . ويرجع الى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلسة . ثم يعود فيذكر أعداءه ونيلهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه

ان قسا الدهر فللمـــاء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخريه والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجِّع أنينه وألمه وحقده على الناس ولاسيما حاسديه ، ويضرب الأمثال كى يسكن من نفسه وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الاسفل من اليأس ، ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه فى شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج : حيث يقول :

ماعلى ظـــني باسُ يجرح الدهر ويأسو (١)
ربما أشرفَ بالمر ء على الآمال ياسُ
ولقد ينجيك إغفا لٌ ويرديك احتراسُ
والمحاذير سهـامٌ والمقـادير قياسُ (٢)
ولكَمْ أجدَى قعودٌ ولكم أكدى التماسُ (٣)
وكذا الحكم ، إذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيـا ف ٤ سراةٌ وخساسُ ٦
نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباسُ
ياأبا حفص وماسا واك فى فهم إياسُ
من سنا رأيك لى فى غسق الخطب اقتباسُ
ووداى لك نص لم يخالفه القيـاسُ
أنا حيران وللأمـ ـر وضوح والتباسُ
لايكن عهدك وردا ان عهدى لك آسُ
وأدر ذكرى كأسا ماامتطت كفك كاسُ
فعسى أن يسمح الدهـ ر، وقد طال الشماسُ (٧)
واغتنم صفو الليـالى انما العيش اختلاسُ
ماترى فى معشر حا لوا عن العهد وخاسوا (٨)
أذؤبٌ هامت بلحمى فانتهاب وانتهاسُ (٩)

---

(١) يداوى من آسى الجرح داواه (٢) قياس هنا جمع قوس (٣) اكدى بخل أو قل خيره (٤) مختلفون (٥) أشراف (٦) أدنياء (٧) العصيان (٨) غدروا (٩) مثل الانتهاش وهو الاكل بمقدم الاسنان

كلهم يسأل عن حا لى وللذئب اعتساس[1]
ان قسا الدهرُ فللما ءمن الصخر انبجاسُ
ولئن أمسيت محبوسا فللغيث احتباسُ
ويَفُتُّ المسكَ فى التر ب فيوطى ويداسُ

***

هذه هى نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لانه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لانه ساحر بمعانيه وجماله . كل معني فيه تحتاج اليه النفس فى مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لان الشاعر صادق فى قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألمة . لهذا كان الشعر جميلا

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن فى ذلك ، وكأنما كان يبكى حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخرى أو كأنما كل معنى من هذه المعانى كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه فى قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى . وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف اشم حتى انه مدح نفسه اكثر من ابن جهور ، فكان عاتباً اشد منه مادحًا ، لأنه كثيراً ماكان فى مثل هذا الموقف لاينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد ان يملى عليها ولو همسا انه فى موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى ان اعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى إنه قال متهكما

ولو انى أسطيع كى ارضى العدا شربت ببعض العلم حظاً من الجهل

---

(١) تجسس

فقال :

ألم يأن أن يبك الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب فى الآفاق ماضاع من نُبلى
فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى
لَعَمْرُ الليالى إن يكن طال عُمرها لقد قرطست بالنَّبل فى مقتل النُّبل (١)
تحلت بآدابى وإن مآربى لسارحة فى عرض أمنية عُطْل (٢)
أُخص لفهمى بالقلى وكأنما يبيت لذى الفهم الزمان على ذَحل (٣)
وأُجفى على نظمى لكل قلادة مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
ولو أنى أسطيع كى أرضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
وإن رجائى فى الامام ابن جهور لمستحكم الاسباب مستحصد الفتل
كريم عريق فى الكرام وقلما يُرى الفرع إلا مستمداً من الاصل
يرف على التأميل لألاء بشره كما رف لألاء الحسام على الصقل
ويغنى عن المدح اكتفاء بِسَرْوه (٤) غنى المقلة الكحلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم إنى فى عتابك مائل إلى جانب تأوى إليه العلا سهل
حمائم شكوى صبحتك هوادلا تناديك من أفنان آدابى الهُدل

***

وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة

---

(١) النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف (٢) لا فائدة فيها ، من عطلت المرأة إذا خلا جيدها من القلائد (٣) الذحل الحقد (٤) رفعته وعلو شأنه .

المملوءة هما وغما .

ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره وما اشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسالته الجدية . وكأنما كان فكره سجينا مثله من شدة تألمه في السجن . فانه لم يخرج عن عادته في ضرب الامثال والفخر بنفسه ، وإنه افضل إنسان واكرم من دب على وجه الارض .

غير ان كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفه بل به كثير من الحقائق التي كان يمليها عليه شعوره كما قال :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر   الا ذكرتك ذكر العين للأثر
ولا استطلت ذماء[1] الليل من اسف   إلا على ليلة سرت مع القصر

إلى أن قال :

فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي   از الحوار لمفهوم من الحور
لم يسأل الناس عن حال يشاهدها   محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى   برق المشيب اعتلى في عارض الشعر
قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كثب[2]   وللشبيبة غصن غير مهتصر
يا للرزايا؟ لقد شافهت منهلها   غمرا[3] فما اشرب المكروه بالغُمَر[4]
لا يهنىء الشامت المرتاح خاطره   أنى معنى الاماني ضائع الخطر

---

(١) الذماء بقية الروح يريد ما بقى من الليل (٢) قريب (٣) الغمر الكثير
(٤) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى

هل الرياح بنجم الارض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
ان طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر (١)
وان يثبط أبا الحزم الرضى قدَرٌ عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنيه على حذر

* * *

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن فقال

« ... ويلغني أنك أحد اللائمين لي ، ومن أمثالهم : ويل للشجي من الخلي (٢) ، وهان على الاملس مالاقي الدبر (٣) . وعلمت أن العاجز من لا يستبد ، فالمرء يعجز لا المحالة . ولم أستجز أن أكون ثالث الاذلين ، العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب ممالا يطاق ، من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففرت منكم لما خفتكم فنظرت في مفارقة الوطن ، فقديماً ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العلق (٤) في معدنه كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد يكون عود الكباء (٥) من حطبه

فاستخرت الله في انفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن ، إلا أن الغي لم يرتفع ، ومادة البغي لم تنقطع :

شحطنا وما بالدار نأي ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وماشطوا
أأحبابنا ألوتْ بحادث عهدنا حوادث لاعهد عليها ولا شرط

---

(١) سيف ذكر حاذ (٢) الشجى المشغول (٣) مثل يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه ، والدبر الذى في ظهره قرحة ، والأملس صحيح الظهر
(٤) العلق النفيس (٥) الكباء العود المتبخر به

لعمركم ان الزمان الذى قضى ... بِشَتّ جميع الشمل منا ، لمُشتطّ
وأما الكرى مذ لم أزركم فهاجر ... زيارته غب والمـــلمُه فرط

الى أن قال :

هرمت، وماللشيب وخط بمفرق ... ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فأذكرت ... من الروضة الغناء طاولها القحط
وانى لراج أن تعودكَبَدْءِها ... لى الشيمة الزهراء والخلق السبط (١)
وحلم امرىء تعفى الذنوب لعفوه ... وتُمحى الخطايا مثل ماتمحى الخط
فمالك لاتختصني بشفاعـة ... يلوح على دهرى لميسمها علَط (٢)

* * *

الى آخر ماقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضى والحاضر ، والاستغفار والاستعطاف ، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره . ولذلك كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه . كل ذلك هاجه السجن وماتذوقه من الآلام فرسمه فى شعره . لأنه رجل فني عرف كيف يصور مايشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء بن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو علم واسع . وانما هو خياليا اكثر منه مفكرا ، وشاعرا أكثر منه عالما : وهذه كل حال شعره ونثره

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الاخيرة من شعره ، لانه على

(١) يريد الخلق الكريم ، يقال رجل سبط اليدين كريمها ، وسبط الجسم حسن القد فهى من صفات المدح (٢) الميسم أثر الحسن ، والعلط سواد يزين به الوجه .

جمال أسلوبه فى ذلك ، وحسن تصرفه فى المعانى ، لايكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ، ولا يقف على رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ماجاء من المعانى من قبيل معارضة غيره من الشعراء والاخذ بمعانيهم ؛ ممزوجا ذلك بماله من البراعة والصناعة والافتنان

ومن أجمل قصائده فى ذلك كلامه فى المعتضد بن عباد وابنه المعتمد(١) ومن أرق كلامه فى الشكوى : وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب ، بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره ، وماكان فيه من النعيم كقوله :

الهوى فى طلوع تلك النجوم   والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشنا الرقيق الحواشى   لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما انقضى إلى أن تقضى   زمن مازِمامُهُ بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى   ليس يومى بواحد من ظلوم

***

ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنينا مؤلما،فاذا قرأت شعره فى ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية فبكى وبكيت معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح   تقضت مبانيها مَدامعَه نزحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها   فخلنا العشاء الجون(٢) أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لى الوهم جهرة   فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا

---

(١) راجع قصيدته التى يرثى بها المعتضد ، ويمدح المعتمد ابنه فى نفح الطيب طبع أوربا ج ٢ صفحة ٤١٦ (٢) الجون يطلق على الابيض والاسود ، والغرض منه الاسود

محل ارتياح يُذكر الخلدَ طيبُه إذا عزَّ أن يمسى الفتى فيه أو يضحا
هناك الحمام الورق(١) تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان(٢) خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
ومن حملي الكأس المفدّى مديرها تقحمُ أهوال حملت لها الرمحا

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الاندلس ، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الاديبات فى مجالس اللهو والطرب ، ان المرأة شغلت جزءا عظيما من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت رؤوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم . فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخمر تدير العقول وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والعقول ثملة بنشوة الغرام ، والرؤوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لايفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتاوارَوْا عنه لعاقته بنفوسهم ، حتى فى أشد المحن . فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص ابن برد يقول :

وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفَّك كاسُ
واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون فى شرك ولاّدة بنت المستكفى بالله وكانت خليعة ماجنة بارعة فى الجمال ، أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء

---

(١) التى فى لونها بياض ممزوج بسواد (٢) الجوارى

« تناضل الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء ... خرجت على نهاية فى الأدب والظرف حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها ... » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة فى الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها ..... وكانت من الأدب والظرف وتمتيع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتى ‏ ‏ فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح ‏ ‏ وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قال أبو الوليد . « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل . فملنا الى روض مدبج ، وظل سجسج ، وقد قامت

رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ،ورحيق الراح مزرور فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا مابقلبه . وأنشدتها .

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذشيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
أن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك»

وكتبت اليه بعد ذلك تقول :—

الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقى

الى إن قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتق
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

***

لانريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس ومايوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عندعامةالناس؛فان تاريخ الانسانية حافل بحوادثه . ولكننا نقول إن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الادراك الانسانى ، أكثر مايكون ظهورا فى التعبير عن الحب ووصف هذا الضعف الانسانى الذى نسميه عشقاً ، فان العشق أدراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة ، ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها،ولم يتسرب الى نفسه

بصيص ضوء من جمال الكون .ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية . والعشق ومافيه من سعادة وجمال سرٌ كامن فى الشعر ،لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر مايكشف عن سر من أسرار النفوس، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله.

أن النساء منبع من منابع الشعر. والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم ، وهى : وصف شعور الناس .والشاعر الذى يشعر بالحب لايتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحبَّ للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات مايجول بها من المعانى ، ويدفعها إلى النفوس فتصبو إليها ،ويذيعها بين العشاق فيرى كلٌّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته . وذلك لايكون إلا فى الشعر

فاذا أخطأ العرب فى إمعانهم فى هذا النوع والاكثار منه ، فقد أخطأوا فى جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعانى محصورة فى ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرأيت شعراء العرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صديقاتهم؟ وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين.

الأول : احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة ومافيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التى كانت نستطع عليهم ، والأشجار التى كانت تظللهم،والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لاتنسى ، لأنها أثر من آثار العشق .

الثانى : أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ،ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ماتنفد ، فهو يتحايل على بث شيء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كى يتسنى له أن يجول فى ميدان أوسع. ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لاظهار الصورة التى يريد أن يبرزها كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريبا منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وأفتن افتنانا عظيما فى ذلك . فقال :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنما رق لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابته ... فازداد منه الضحى فى العين اشراقا

سرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ ... وسنانُ نبّهَ منه الصبحُ أحداقا
كلٌّ يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك لم يعدُ عنها الصدر إن ضاقا
لو كان وفّى المني فى جمعنا بكم ... لكان من أكرم الايام أخلاقا
لا أسكن الله قلبا عنّ ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفّاقا
لو شاء حملى نسيمُ الريح حين هفا ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
كان التجازى بمحض الود من زمن ... ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
فالآن أحمد ماكنا لعهدكم ... سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

واذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق اليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب . وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والاسلوب كما فى قوله :—

إليك من الانام غدا ارتياحى ... وأنت من الزمان مدى اقتراحى
وما اعترضتْ هموم النفس إلا ... ومن ذكراك ريحانى وراحى
فديتك ؛ انّ صبرى عنك صبرى ... لدى عطش عن الماء القراح
ولى أمل ، لو الراشون كفوا ... لأطلع غرسهُ ثمر النجاح
وأعجبُ ! كيف يغلبنى عدو؟ ... رضاك عليه من أمضى سلاح
ولما أن جلتك لى احتلاسا ... أكف الدهر للحين المتاح
رأيت الشمس تطلع فى نقاب ... وغصن البان يرفل فى وشاح
فلو أسطيع طرت اليك شوقا ... وكيف يطير مقصوص الجناح؟
وحسبي أن تطالعنى الأمانى ... بأفقك فى مساء أو صباح
فؤادى من أسى بك غير خال ... وقلبي من هوى لك غير صاح

وان تهدى السلام الى شوقا ولو فى بعض أنفاس الرياح

ولقد يسمع الانسان أنينه فى شعره ، ويرى نفسه الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته وتذوق الآلام فى سبيلها فيقول :

متى أنبيكِ مابِي يا راحتى وعذابى
متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى أصبحت فيك لما بى
فلا يلذ منامى ولا يسوغ شرابى
يا فتنة المتعزى وحجة المتصابى
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارىء على الاعتقاد بأنه مخلص كل الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته . وأنه يرى فى سبيل العشق مالا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو فخور بهذا كما قال :

أنىّ تُضيّعُ عهدَك أم كيف تُخلفُ وعدك
وقد رأتك الامانى رضى فلم تتعدّك
ياليت شعرى وعندى ماليس فى الحب عندك
هل طال ليلُك بعدى كطول ليليَ بعدكَ

سَلْنى حياتى أهبها فلستُ أملك ردَّك
الدهر عبدىَ لمَّا أصبحت فى الحب عبدك

على أننا لا نبرىء ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول ، لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فان تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا : إن السلطان أمره أن يعارض قطعا كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصِّر قربُك ليلى الطويلا ويشفى وصالُك قلبى العليلا
وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى أطلت العثار ولم يبد عذرى وجها جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ ـمؤيد بالله مولى مقيلا
لأقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، مايدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى قيلت فى العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديدا وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

ياغزالا أصارنى موثقا فى يد المِحَن
إننى منذ هجرتنى لم أذق لذة الوَسَن
ليت حظى اشارة منك أو لحظة تَعِن
شافعى يامعذبى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خِلْوا من الهوى وأنا اليوم مرتهن
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن

ليس لى عنك مذهب　　فكما شئت لى فكن

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره : خفيف الروح عذب الألفاظ سهل الأسلوب

أما نونيته التى أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيرا من شعوره وآرائه المختلفة . فهى على شهرتها وجمالها كـكل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهى التى كتبها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته فى غرامه

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال ، ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والامثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت فى صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله ، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الادب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال فى نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله فى قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويمخضه كما يمخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار فى التأليف المبتدأ وكلما قرب إلى القارىء الاسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه شعر بسعة اضطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت فى نفسه منزلته . وكلما

اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو
إلى قصة لا يظن أن تذكر فى مثل هـذا الكلام ، أو عبارة
من نفسه حب الاستطلاع ، أو مَثَل اتعظ به ، أو ذكر رجل
بمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ
ما ، زاد أعجابه بالكاتب وماكتب ، ورأى أن كل إنسان
در على ذلك ، وإن هـذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل
ـ نثر ابن زيدون ، وهو من دواعى الاعجاب بأسلوبه فى رسائله
رف كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ . بل
أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام
يرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه
لوماته ، واختار منها مايناسب حاجته وموضوعه ، فكانت
أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين
والحجر والمصور الفَنّان الذى يؤلف بين اللون واللون

لقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع
مايجسم بها المعنى فى نفس القارىء لتنهال عليه المعانى ويكون
أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها . فكل ماذكره من الأمثلة
ة والمعانى المختارة قصد به توضيح مايريد :

فى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرىء نفسه
به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل
ارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر اخلاصه له ويتملق إليه أخرى
عنه فيماوقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه فقال :

« يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى ـ أعزك الله ـ لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود اسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو . قد يغص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء

وأنى لأتجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع . فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به اكليله ، ومشرفى ألصقه بالارض صاقلة ، وسمهرى عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدىء منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويحمده على كل شىء ، كما يحمد الله على السراء والضراء . فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يريبنى من سيدى إن أبطأ

سيبة ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ؛ فابطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا ماصادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله .

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا   فأفعاله اللائى سررن ألوف »

ثم وقف موقف المذلة . وكأنما يسمع الانسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟

إلاّ يكن ذنب فعدلك واسع   أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

فهبنى مسيئاً كالذى قلت ظالما   قصاصا فأين الأخذ ياعز بالفضل

حنانيكَ ! . قد بلغ السيل الزُّبى ، ونالنى ماحسبى به وكفى ، وما أُرانى إلا لو أُمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح اركب معنا ، فقلت سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، وأَمَرْتُ ببناء صرح لعلى أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذى ابتلى به جيوش طالوت .. »

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه

الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرىء نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ؛ وأخذ يلوم ابن جهور لوماً لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ؟ ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق وهم الهمازون المشاءون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديما صحيحا ...

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأسا منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . ففيم عبث الجماء بأذمتي ، وعاث العقوق فى مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ؟ ولم ضاقت مذاهبي وأكدت مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالإياب ؟ وأنى غلبني المغلب ، وفخر على العاجز الضعيف . ولطمتني غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع مني قبل أن أفترس وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء حسداً لى على الخصوص بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه إياه وأخذ يرجع الى استعطافه وتملقه فقال :

« وقد زانني رسم خدمتك ، وزهاني اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل فى سماطك ، وقمت المقام المحمود فى بساطك .

ألست الموالى فيك غر قصائد هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنما

وهل لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائلك . وتقلدت الجوزاء إلا عقدا فصلته بمآثرك ؟ واستملى الربيع الاثناء ملأته فى محاسنك ؟ وبث المسك إلا حديثـا أذعته فى محامدك ؟ ما يوم حليمة بسر . وان كنت لم أكسك سليبا ، ولا حليلتك عطلا ، ولا وسمتك غفـلا . بلى وجدت آجرا وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت . حاشا لك أن أعد من العاملة الناصبة ؛ وأكون كالذبالة المنصوبة تضىء للناس وهى تحترق ، فلك المثل الاعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاق من الآلام، مستأنسا بأدبه وفضله فقال

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتني الشمس ونبابى المنزل ، وأصفح عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال، فلا استوطىء العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور . ومن الامثال المضروبة « خامرى أم عامر » . وانى مع المعرفة بأن الجلاء سباء ، والنقلة مثلة

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم مجرا ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وان يسىء يكن ما أساء النار فى رأس كبكبا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله

والنسيب لا يَخْفَى ، والجمال لا يُجْفَى . ثم ما قران السعد للكواكب أبهى آثرا ، ولا أسنى خطرا من اقتران غني النفس به ، وانتظامها نسقا معه فان الحائز لهما ، الضارب بسهم فيهما – وقليل ماهم – أينما توجه ورد منهل بر ، وحط فى جانب قبول ، وضوحك قبل انزال رحله ، وأعطى حكم الصبى على أهله

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبًا   فهذا مبيت صالح ومقيل »

وكأنه شعر بأن هذا يدعوا ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يذان فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه . فأخذ يلطف من حدته ويسكن من هياجه : ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه فى الحياة فقال :

« غير أن الوطن محبوب . والمنشأ مألوف ،واللبيب يحن إلى وطنه حنين النجيب الى عَطَنه . والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله ،ولا ينسى بلدة فيها مراضعه ، قال الاول

أحب بلاد الله ما بين منعج   إلىَّ وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا إلى مغالاتى بعقد جوارك ، ومنافستى بلحظة من قربك ، واعتقادى أن الطمع فى غيرك طَبَع ، والغنى من سواك عنا ، والبدل منك أعور ، والعوض لفاء ؛ وكل الصيد فى جوف الفرا

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى   ضنا به نظرى إلى الأمراء»

ثم أخذ يقوى أمله فى اجابة طلبه ، ويضرب الامثال فى ذلك ، ويمدح فى جوار سيده بقوله :

أعيذك ونفسى من ان اشيم خُلَّبا ، واستمطر جهاما ، وأكرم غير مكرم ، واشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فما أبسَسْتُ لك إلا لتدر ، وحركت لك الحوار إلا لتحن ، ونبهتك الا لأنام، وسريت لك إلا لأحمد السُّرى لديك ، وإنك أن سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى أعذرت فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاء المرءة ، وفضل الجاه يعود صدقة :

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجدية . وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التى تهيج مرة وتسكن أخرى ، وتجمد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يضعف كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون ، يراها القارىء إذا وقف عن كثب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكمة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حمق وخرق فى

الرأى . ويرى نفسه الكئيبة التى أخمدتها الاكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة. ومن هنا جمالها وابداعها . لاما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات المختارة لاغير .

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة . فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى الهجاء . لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس اقذاعا ، وتهكم به تهكما لامثيل له ، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل مايمكن أن يقال فى الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلابا يدل على تمكنه من التصرف فى الكلام، ومعرفة امتلاكه عقول القراء، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذى يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى مافيها من الأمثال المعروفة والابيات المشهورة، والاطناب فى ذكر الاسماء التى يكفى منها القليل، ليس فيها مايدعو إلى الملل، ولا مايشعر بالاستهجان والابتذال . على ان بها شيئا كثيرا من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال، سردها سردا ، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة . وليس أدل على جفاء الطبع وَغلظه من هذه الرسالة فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« اما بعد ايها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه . الفاحش غلطه . العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط

الذباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فان العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب . وإنك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خلياتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوّادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى وتخلف بعدها على

ولست بأول ذى همة   دعته لما ليس بالنائل

ولا شك أنها قلتك اذا لم تضن بك . وملتك اذا لم تعز عليك . فانها أعذرت فى السفارة لك ، وماقصرت فى النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ماكنزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ... »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع فى الذم وأفحش فى صفاته فقال :

« وهبها ، لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ، ملؤها حبيبها ، حسن فيها من تود ، وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسيماك ، ولم تعرك شهادة ... ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالمعيدى تسمع به خير من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، جافى الطبع ، سيء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ،

سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كثير المعايب مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة

مساوٍ لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق »

واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الامثال للاستهزاء والتهكم

ولقد كشف ابن زيدون فى هذه الرساله عن نفس حقودة محبة للانتقام وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة فى طبعه وخشونة فى أخلاقه . مع ذلك . فهى رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها، ولعل ابن زيدون أخذ هذا الاسلوب عن الجاحظ فى بعض رسائله ، كما فى رسالة التربيع والتدوير

ابن هانىء

١) حياته ومنشؤه : هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الاندلسى ، من أكبر شعراء الاندلس وأشهرهم . ذاع ذكره فى المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء ، وعاش فى أرغد أيام دولة بنى أمية فى الاندلس ، فقدمات فى سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين سنة ، فيكون مولده على هذا القول فى نحو ٣٢٦ وهذه الايام هى أزهى أيام دولة الامويين ، وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) فى هذا العصر عاش ابن هانىء وظهر على الشعراء ، ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه ،

وأصل أبيه هانىء من أفريقية ، وكان هو أيضا شاعرا مشهورا وأديبا معروفا ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية وإذا كان أبوه أديبا وشاعرا ، أى صنعته الأدب يعيش منه ويرحل فى طلب السؤال به ، كان ابنه أيضا من عشاق الشعر ؛ وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علما وأدبا ، فنشأ بها وبرع فى الادب واندمج فى صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك ، وقد ورث الذوق الأدبى عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء وأدرك ماكان لهم من رفعة الشأن ، والافاضة عليهم بالمال والثراء ، وكان ذكيا نبيها ميالا للخفة والدعارة ، وكانت بذرة الترف واللهو نبتت فى تلك البلاد فاندفع فى هذه البيئة اندفاعا ، واتصل بصاحب أشبيلية

ونال حظوته وانهمك فى الملاهى والملاذ ، ولم يكن له رادع نفسى ولاديني ، ثم جاهر بشيء من الآراء الممقوته هناك فغضب عليه أهل أشبيلية وساءت المقالة فى حق الملك بسببه واتهم بمذهبه ، فأشار عليه الملك بالغيبة مدة لينسى فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاما ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز) أحد ملوك أفريقية ثم اتصل بيحيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر فبالغا فى أكرامه . ثم علم به المعز العبيدى أحد ملوك افريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والادب ، وسافر المعز هذا الى مصر فشيعه ابن هانىء ورجع الى المغرب لأخذ عياله ولما وصل الى برقة اضافه شخص هناك وبقى عنده أياما فى هناء وسرور ومجون بلغ أشده وقالوا أنه خرج من تلك الديار وهو سكران فنام فى الطريق فأصبح ميتاً ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه . ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفا شديدا وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

(٢) أدبه وشعره : كان محمد بن هانىء من أصحاب الظرف والخلاعة ، ذا أدب جم ، لايبالى بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه إنه كان فى كلامه كثير من الافراط والغلو فى المدح المفضى الى الكفر ، وكان ينتجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويعيش على متون القوافى ، وكانت حياته ككل حياة الادباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة وشيء من تاريخ الادباء وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعى أشهر

كلامه وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعضه ببعض ، والامعان فى معرفة الجيد والردىء منه . لان ذلك كان له ولامثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه افكاره ومعلوماته وتصوراته ، التى هى كل شىء لديه

هذه كانت حياته العقلية وحياة امثاله من الادباء الخاص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانىء نزعة ادبية فى غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكاته فيه . لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء

شعره : أما شعره فهو فى جملته من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية إلى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارىء إدراكا صحيحاً يتعظ به . أو يستفيد منه شيئاً جديداً فى حياته العقلية ، او يذكره برأى نافع ، او مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها وبه افكار عامة فى الحياة . واكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يجد الانسان روح المتنبي تدب دبيبا فى كلامه احيانا ، وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ، ولم يلجوا باب الحقائق الانسانية فى شىء ، ولا طرقوا ابواب الحكمة ، بل اقتصروا على الاوصاف والتشبيهات . على ان ابن هانىء رغم طريقته المعروفة التى نسبت إليه ، كان يظهر عليه

أنه ناقل ومقلد فى تلك المعانى التى حدثت فى زمن المتنبى ، وفى الاساليب العربية التى كانت قبل ذلك ،فان منهجه فى كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع فى جمع المعانى الغريبة ونظمها .واقف على كثير منها، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة وله فى كلامه آراء تشبه آراء الناقد البصير فى الاجتماع والناس،ولعل هذا هو الذى حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوته وسموها آراء فلسفية .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هانى أنه شاعر لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلا على ملكة الشعر لديه . إن الصبغة الخاصة التى تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته فى كلامه هى علامة من علامات الافتنان التى من أجلها يحسب من بين الفنيين . وليس الافتنان غير ابراز الجمال وكشف دقائق ما فيه .

وماهو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الدبيب الذى يدب فى النفوس فيملأها بهجة وارتياحا ويحملها على الاعجاب بالكلام ومافيه ؟ أليس جمال الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر والأغانى ؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعانى وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحايل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره ، وأن يتقرب الى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك القلوب والعواطف،ويحكم على العقول بالاصغاء إليه والتصديق لما يقول؟ . هذا هو جمال الشعر ، كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال

الفنون هو فى معرفة تصوير الاشياء أو المعانى مع دقة الفنى فى ذلك. ولقد يكون الافتنان تقايداً متقنا لشىء معروف. هذا التقايد المتقن هو مايراه الانسان جميلا. فليس من لوازم الافتنان فى الشعر ابتكار المعانى، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها:

وهذا مايشعر به القارىء فى أكثر شعر ابن هانىء، يشعر بسعة خياله، ودقة ادراكه، وحسن اختياره، وتناسيق صناعته، وافتنانه الخاص، الذى يدل على أن الكلام كلامه، والاسلوب أسلوبه. يتغزل ابن هانىء كما يتغزل غيره. ولكنه غزل غير غزل غيره، تشعر عند قراءتك له أنه شاعر ممتاز، له صفة خاصة وذوق خاص. يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته. ويخاطبها ويصفها بما يدعو إلى الاعجاب بها، ويحرك العواطف اليها. وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح، وحبه الصادق، وربما لم يكن شىء من ذلك: أرأيت كيف يتغزل فى قصيدة مدح:

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيكِ وكؤوس خُمرٍ أم مراشفُ فيكِ
أجلادُ مرهفة وفتك محاجرٍ ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكَ
يابنت ذى البردِ الطويل نجادُه أكذا يجوزُ الحكمُ فى ناديكِ
قد كانَ يدعونى خيالك طارقاً حتى دعانى بالقنا داعيكِ
عيناكِ أم مغناكِ موعدنا وفى وادى الكرى ألقاكِ أم واديكِ
منعوكِ من سِنَةِ الكرى وسَروا فلو عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنوكِ
ودعوكِ نشوى ماسقوكِ مدامةً لمّا تمايلَ عطفُكِ اتهموكِ
حسبوا التكحلَ فى جفونكِ حليةً تالله ما بأكفهم كحلوكِ

ولوى مقبلك اللثام ومادروا ان قد لثمت به وقبل فوك

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفا ، وقد يكون تشبيه الريق بالخمر ، والاشارة الى أن التكحل غير الكحل معروفا أيضاً ، ولكن ماليس معروفا هو ذلك الأسلوب ، وهى روح الشاعر التى لبست هذه المعانى ، وكأنما قيست عليها أو كانت من مبتكراتها ولقد يأتى فى أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بديعة مع أسلوبه المعروف فى البدء بالغزل .

كان ابن هانىء يعيش من شعره ولذلك كان أكثر شعره وابلغه فى المدح : فقد مدح المعز لدين الله الفاطمى وغيره من الأمراء بشعر يسيل رقة وجمالا . ولما كان غرضه التملق فى مدحه وطلب الرزق بذلك كان يكيل المدح كيلا ويميل إلى المبالغة حتى يصل بمادحه أوج الكمال ولم تكن قصائده فى المدح مقصوره على تمجيد من يمدحهم وتعظيمهم لاغير ، بل كان يدخل فى مدحه كثيرا من الأغراض اثناء كلامه ولذلك يشتمل شعره على جميع أغراض الشعر وفنون الكلام حتى لقد يرى أنه أجاد ضمنا فى كل هذه الموضوعات فيحسب وصافا وغزالا ومادحا وواعظاً وحكيما وجاداً وهازلا .

وقد يبالغ فى كل معنى من المعانى مبالغة من يريد تجسيم المعنى بالاستعانه بالخيال أو المبالغة ولايبالى بما عسى أن يكون فى شعره من كذب أو هوار لأنه لم يكن يتوخى الحقائق فى كلامه فكان إذا مدح رفع شأن ممدوحه وجعله يختص بصفات الكمال وحده وكأنه كل شىء فى الوجود كما قال يمدح المعز : —

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلـــله ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ماترونها لكن أرضا تحتويه سمـــاء
نزلت ملائـكة السماء بنصره وأطعه الاصبـــاح والامساء

وان أدى ذلك إلى كفر أو إلحاد. ولعله لم يكن يعنى بغير الافتنان فى اختيار المعانى واظهار البراعة فى ذلك وكأنه رجل شاعر لاغير. أو فنى ينمق العبارة ولا يبالى بما يؤدى اليه المعنى. ومثله فى ذلك مثل المثالين أو المصورين الذين يقصدون من أعمالهم اظهار حقيقة فنية أو معنوية فيصورون النساء والرجال عرايا ولا ينظرون إلى ماعسى أن تؤدى اليه آثارهم الفنية من فساد فى الاخلاق، أو انعواج فى النفس

فقد مدح ابن هانىء المعز لدين الله بما لم يمدح به انسان ووضعه فى مقام الألوهية فقال: —

ماشئت لاماشأت الأقـدار فأحكم فأنت الواحـد القهـار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصـارك الأنصـار
أنت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الأحبار والأخبار
هـــذا امام المتقين ومن به قـد دوخ الدويان والـكفار
هـذا الذى ترجى النجاة بحبه وبه يحط الاصر والاقـدار
هـذا الذى تجدى شفاعته غدا حقـــا وتخمد إن تراه النار

وأكثر عيوبه فى شعره ترجع إلى اختيار مثل هذه المعانى وإلى عدم مبالاته بما يقول. ولقد يمدح فيتصيدالمعنىالقليل واللفظ الشريف ويرسله فى عبارة يبعث فى النفس الاعجاب كقوله فى مدح المعتز: —

فاذا بعثت الجيش فهو منية وإذا رأيت الرأى فهو قضاء

ويمدح ويقول فى موضع آخر

قد طيّب الافواه أطيب ثنائه　　من أجل ذا تجد الثغور عذابا
لبس به الصباح صباحا مسفرا　　وسقت شمائله السحاب سحابا
قدبات صواب المزن يسترق الندى　　من كمه فرأيت منه عجابا

أو يمدح فيقول على طريقته فى المبالغة الجميلة :ـ

وما الجود قبلك سابقا　　بل جود شىء فى زمانك حادث

وفى هذه القصيدة يقول: ـ

عبثت زمانا بالليالى وصرفها　　فهاهى بى لو تعلمون عوابث
لئن كان عمق النفس للنفس قائلا　　فانى على حتفى بكفى باحث
وان كان عمر المرء منل سماحه　　فان أمير التراب للأرض وارثه
وإذا نحن جئناه اقتسمنا نواله　　كما اقتسمت فى الاقربين الموارث
وان حراما أن نؤمل غيره　　كما حرمت فى العالمين الخبائث
تبسمت الايام عنك ضواحكا　　كما ابتسمت حول الرياض الدمائث
وسد ثغور الملك بعد استلامها
وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
فما أراد فى بحبوحة الملك رائد　　ولا عاث فى عرشه الليث عائث

ولقد يبدأ المدح بالغزل كغيره من شعراء العرب ، ولكنه يمتاز برقة المعنى والاسلوب وكأنما ينقض على المعنى انقضاضا ويختطفه اختطافا ويلبسه ثوبا من أسلوبه الجميل كما يتصيد المعانى الشاردة البعيدة فلاندرى أيهما تفضل أمعانيه الغزلية الرقيقة التى يخيل اليك أنها مبتكرة، أم مدائحه البديعة التى تخيل اليك أنه مخلص وصادق فيها وفى كلتا

الحالتين تدفعك إلى الاعجاب والطرب .

أمسحوا عن ناظرى كحل السهاد　　وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد
أو خذوا منى ما ابقيتموا　　لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محبًا من هوى　　أو تفكون اسيرا من صفاد ؟
أسلوا عنكم من هجركم　　قلما يسلو عن الماء الصواد
إنما كانت خطوب قيضت　　فعدتنا عنكم إحدى العــواد
فعلى الايام من بعدكم　　ما على الظلماء من لبس الحداد
لامزار منكم يدنو سوى　　أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قد عقلنا العيش فى أوطانها　　وهى انضاء زميـل ووخاد
وحـديث عنكم كثرة　　عن نسيم الريح أو برق الغواد
لم يزدنا القرب الا هجره　　فرضينا بالتنـائى والبعاد
وإذا شاء زمان رأينا　　برقيب أو حسود أو معاد

ثم تطرق من ذلك الى المدح مع اختياره جميل الصفات وتعدادها: حتى أنه ليخيل إلى القارىء أو السامع أن هذا الكلام أفضل ما يمدح به انسان أو أنه ليس من وراء ذلك الاطراء فقال :ـ

من امام قائم بالقسط أو　　منذر منتخب للوحى هـاد
أهل حوض الله تجرى سلسلا　　بالطهور العذب والصفو البراد
اسواهم ابتغى يوم الندى　　أم سواهم ارتجى يوم المعاد
هم أباحوا كل ممنوع الحمى　　واذلوا كل جبار العناد
وإذا ماأبتـ ر الناس العلى　　فلهم عاديها من قبـل عاد
ولهـم كل نجاد مرتدى　　ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب ، حتى لاتعرف أهو شاعر أم مادح أم عاشق أم مبتكر للمعانى أم موحى اليه بها ، كقوله:

قد مررنا على مغانيك تلك ... فرأينا فيها مشابه منك
عارضتنا المها الخرائد أسرا ... باً بأجراعها فلم تسل عنك
لايرع للمَهَا بذلك سرب ... فلقد أشبهتك إن لم تكنك
فخنين مرجع كحنيني ... وتشك مردد كتشكى
فائتد تسكب الدموع تسكبى ... ثم لاتسفك الدماء كسفكى
لا أرى كابن جعفر بن علىّ ... ملكا لابسا جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيبا ... فى مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه ... جانب السجف عن حياة وهلك

ولقد يصف فيبدع فى الوصف، وتظهر ميوله المجونية فى شعره، فيكون أصدق مايكون ، وأرق انسان ، عذب الألفاظ رشيقا ، خفيف الروح مبدعا جذابا :

قمن فى مأتم على العشاق ... ولبسن الحداد فى الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط ... ب المقنا وبالخدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا ... هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم ... ع طليق ومهجة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنو بالفراق قبل التلاقى
ودنو للوداع حتى ترى الاجيـ ... اد فرق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت فى البكاء عيونا ... فتقدمت فى عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن يمـ ... نع جمر الغضى عن الاحراق

رب يوم لنا رقيق حواشي الـ ـهو حسناً جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات المـ ـسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطى . . . .
مصغيات إلى الغناء مطلا ت عليه كثيرة الاطراق
وهى شم الانوف يشمخن كبراً ثم يرعفن بالدم المهـــراق
قدمتها السقاة كي يوقروها صمماً عن سماع شاد وساق
فهى أما يشكون ثقلا من الوقـ ـر وإما يبكين بالاماق

ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتقليده المتنبي ، حيث يبث الحكم ، اوشيئا من التهكم ، بينما هو يتكلم فى المدح أو فى الغزل . ولقد يسبق إلى فكره شيء من المبالغة فيجرى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد . كما فى قصيدته السابقه وما الجود .. الخ

وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. كما سبق ثم ينتقل من معني إلى آخر . ويميل دائماً الى الوصف الغزلى . كقوله :

قمرلهم قد قلدوه صارما لو أنصفوه قلدوه كوكبا
صبغوه يوما بالشقيق وبالرحيـ ـق وبالبنفسج والاقاحى مشربا
وكأنما طبعوا له من لحظه سيفا رقيق الشفرتين مشطبا
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظرا وكان موردا فاحمر حتى كاد أن يتلهبا

فاذا مدح وصف وذكر صورا كثيرة من الحوادث التى مرت فى

حياة الممدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وقصائده فى ذلك كثيرة :

وهو فى رثائه جيد أيضاً . يأتى بالعظة والعبر . وذلك هو الاسلوب الفلسفى المعروف فى المشرق . ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد
كاذب جاه جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
انها شنشنة من أخزم قلما ذم بخيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نمى واذا ما طيب الزاد نفد
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
أبدا يعجم منى نبعه وقناة ليس فيها من أود

أسلوبه ويحسب أسلوبه فى جملة من الاساليب الجيدة السهلة، لتمكنه من التفنن فى صناعة الكلام ولكنه كثيرا ما يتكلف الصنعه ويميل إلى ترصيع شعره بانواع البديع فيأتى من طباق أو جناس أو مقابلة كما يأتى بالاستعارة الغريبة والكناية البعيدة وغرضه من ذلك أن يستعين بصناعته على ابراز معانيه جميلة حلوة واضحة لأنه قد يأتى على المعنى المعروف فيكسبه باسلوبه الجميل صبغة جديده ولقد يدفعه ذلك إلى الميل إلى الغرابة والتكليف والعناية بالصنعة والاسلوب أكثر من العناية بالمعانى واختيارها ولكنه فى جملته جميل الصنعة كثير البحث عن المعانى الدقيقة وعن اختيار الالفاظ الرشيقة

ولقد جرى فى اسلوبه على الاسلوب القديم فى البدء بالغزل والاسترسال فيه وذكر المعانى القديمة المعروفة عند الشعراء ولعل ذلك جاء من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيرا منه ولكنه فى جملته جميل الصنعة كثير البحث عن المعانى الدقيقة واختيار الالفاظ الرشيقة حتى قال عنه ابو العلاء المعرى ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل القعقعة التى فى ألفاظه وقال الضبى صاحب بغية الملتمس « وهو كثير الشعر محسن مجيد إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب على شعره » وربما كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى أن شعراء الاندلس رغم ما كان لهم من الامتياز فى الفكر والاساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء



ابن خفاجة الأندلسى

نشأته وميوله الفنية :

هو أبو اسحاق ابراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة الأندلسى الشاعر الاديب المشهور ، ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣ : عاش فى عصر المرابطين بعد زوال دولة بنى أمية والدولة العامرية ، وبعد انتهاء دولة بنى عباد ، أى فى عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه ، وكان الأدباء فى لهو ومجون ، وكانت الملاهى والاشتغال بالملذات صرفت إليها العقول ، وجذبت إليها الأفكار ، فهذبت منها قليلا أو كثيرا . وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت إلى فهمه ، وما فيه من روعة وإبداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة . أدركت جمال الكون إدراكا عميقا ، وبحثت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة فى ثوب شعرى ، ويظهر الشعر فى ثوب فلسفى . أما إذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر إلى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب مابها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحيه الطبيعة إلى النفس من الاعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر فى النفس بجمال قوله كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه .

وقد وقف ابن خفاجة كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة

المبثوثة فى أنحاء الكون . فهو من الشعراء الذين يهتم بالطبيعة، وهذب إدراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماسا فى ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ،ولا يبحث إلا عن المعانى الجميلة. فقد كان يخرج إلى البرارى ليسمع خرير المياه، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا . وبكل مايقال فيه فكان يجارى الشعراء ويعارضهم فى مثل هذه المعانى التى شغلت عقول كثير من الادباء والشعراء ، وكان الكلام فى مناظر الطبيعة إذ ذاك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الادباء مع أصحاب له فى نهر أشبيليه فى عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها فى سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرُراً وأعطانا. فى زورق يجول جولان الطِّرف ، ويسود اسوداء الطَّرف فقال بديها :ـ

تأمل حالنا ، والجو طلق   محياه ، وقد طَفلَ المساء
وقد جالت بنا عذراء حبلى   تجاذب مرطها ريح رُخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى   تَعبس ووجها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو اسحاق بن خفاجة على القطعة فاستظرفها واستطابها فقال يعارضها :ـ

ألا ياحبذا ضحك الحميا   بحانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياد الماء نهر   ينازع جله ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى   رأيت الماء تحسده السماء »

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيما ، وكانت له ميول

إلى المجون ، فاجتمعت هذه الميول النفسية ، إلى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية وخيالاته وتصوراته ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيمتلىء عليه من المعانى مايرسم شيئاً من أخلاقه وميوله فى الحياة . كما قال .

وما الأنس إلا فى مجاج زجاجة　　ولا العيش إلا فى صرير سرير
وإنى وإن جئت المشيب لمولع　　بطرة ظل فوق وجه غدير

فكانت ميوله وأخلاقه كأخلاق كل الفنيين وميولهم ، خفة وطيشا . ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه . وهذا كله فى شعره ونثره ، وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال ، حتى إنه وصف الأندلس وقال :

يا أهل أندلس لله دركمو　　ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا فى دياركمو　　ولو تخيرت هذا كنت اختار

هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده لا لأنها وطنه ، بل لأنها جميلة تشبه ما يحب فى حياته من الجمال ، إذ يقول .

إن للجنة فى الأندلس　　مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب　　ودجا ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا　　صحت واشوقى إلى الاندلس

هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية فى جملتها ، وأثرها ظاهر فى حياته العقلية ، وفى رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

شعر ابن خفاجة

رأينا أن ابن خفاجة كان مدفوعا بطبعه إلى التأمل فى المشاهدات ، والامعان فى النظر إليها ، وتذوق أسرار جمال الطبيعة . والجرى وراء ذلك؛ وكان هذا كل ما يرمى إليه من إدراك الحياة ومعانى الوجود لأن مشاهداته وأثرها فى نفسه كانت تجذب قوى التفكير لديه ؛ وترسم له طرق الادراك . وكان من أشد الأشياء أثرا فى نفسه واستيلاء على عقله جمال الأشياء ومظاهر الطبيعة وتناسق الألوان فلم يمل إلى معرفة غير هذه الأشياء الجميلة ، ولم يجذبه من الحياة وضروب مافيها إلا الجمال ، فكان دائما فرحا مسرورا مبتهج النفس لا تتعدى معارفه بسائط الأشياء الظاهرة، فلم تجل نفسه جولات المفكرين فى معانى الحياة الخفية، ولا تكاد تجده مضطرب الفكر ولا مترقبا أو ناظر الهول من أهوال الحياة وحوادثها المؤلمة ، بل كان هادئا مطمئنا ، يحمل بين جنبيه روح الأطفال ونشوة الشبان ، ميالا إلى اللهو والمجون .

فكان شعره صورة لنفسه الهادئة وفكره المطمئن ومجانته الخلقية ليس فيه ما يدل على تفكير جدى أو حيرة أوشك فى شىء يدعو إلى النظر أو يشغل الفكر مما يغرى بعض المفكرين ويدفع بالفنيين الى الخروج من عالم الخيال الى عالم التفكير فى الناس وأخلاقهم وأحوالهم ، والوجود ومافيه من خير وشر ليصل من ذلك فى شعره الى ذكر حكمة أو عبرة أو مثل سائر ، أو يدل على كد الفهم أو على صورة من صور الانسانية المفكرة .

ولا تكاد تجد له صورة صحيحة فى شعره تدل على نفسه وشعوره الخفى سوى ميله للجمال وحب الطبيعة الجميلة ، فهو كالمصور الذى يستمد كل شىء مما هو أمامه . ولم تكن تلك حاله لأنه لم يكن يشعر أو يفهم غير هذا ، أو أن نفسه خالية مما يعلق بالنفوس عادة ؛ كالحب والبغض والهم والحزن ، وأهوال الحياة وغيرها ؛ بل لأنه لم يكن يميل إلى ذلك ، لأن هذا يدعو إلى البؤس وتحمل الهموم وكان هو يريد أن يعيش بعيدا عن ذلك ، سابحا فى نوع من الاحلام اللذيذة :

كذلك كانت ميوله وكان ذوقه . ولذلك كان شعره مرآة لاخلاقه من وصف جميل ، ومجون لذيذة ولدت فى نفسه كثيرا من المعانى الشعرية الجميله ، واندفع إلى تصويرها والتعبير عنها بما فطر عليه من دقة فى الادراك شأن جميع المتفننين من الشعراء الذين تسربت نفوسهم فى خفايا الجمال وأسراره فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه بتتبع روائعه ، فاذا امتلأت به نفسه آخذ فى وضعه ورسمه فى كلامه البليغ . فكان شعره رشيقا أنيقا لذيذا جميل الصورة ، ولكنه كما قلنا بعيد عن صور التفكير الانسانى الصحيح ، وعن التأمل العميق فى الحياة وفهم أسرارها النفسية والاجتماعية . لذلك كان جمال شعره فى أسلوبه ، وحسن صناعته ، وبلاغة عبارته .

أنواع شعره والوصف فيه

أما الموضوعات التى عالجها فى شعره فهى : الوصف، والمدح ، والعتاب ، والرثاء والشكوى، والدعابات، وأجمل شعره ما كان فى الوصف لأنه كما قلنا وصاف مبدع ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده فى أى غرض من الأغراض من وصف جميل يبثه فى كل معنى وفى كل غرض، وقد يتخذ الوصف بما فيه من مجاز أو تشبيه جميل ، أو استعارة مستملحة أو كناية بعيدة أو قريبة وسيلته للوصول إلى كشف المعانى .

وقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر فى لوحة مصور ، أو كأن كل معنى فى كلامه « كائن حىّ » يتحرك أمامك، كما قال يصف طيفا ألم به فى الليل الطويل ، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون فى هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه ، والتمتع به فى حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين وهو تشبيه سهل الادراك صعب التركيب : وليس هذا الكلام فى طاقة كل شاعر ، ولا امتلاك البيان بمثل هذا فى طوع كل فنى ؛ تكلم فى الليل ثم فى الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ؛ وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه ،وقد دام ذلك إلى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس أخبارهم ، وضوء الصبح يرقبهم . فقال :

طيف ألم لظبيــة الوعساء ... ورداء ليــل بات فيه معانقى
وشربت من ريق ومن صهباء ... فجمعت بين رضابه وشرابه
شفقا هناك لوجنــة حمراء ... ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة

والليل مُشمَّطُ الذوائب كَبْرَةً — خَرِفٌ يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر بسحب فرعه — ويجر من طرب فضول رداء
تندى يفيه أقحوانة أجرع — قد غازلتها الشمس غِب سماء
وتميس فى أثوابه ريحانة — كرِعت على ظمأ بجدول ماء
نفَّاحة الأنفاس إلا أنها — حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقا حسبها — فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة — عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة — أغرى لها ببنفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل ركن من أركان الفضاء . وما قد توحيه إلى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارىء نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر الليل . كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم فى ظلمائها — يسرى ، ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها — فى كف زنجى الدجى دينار
ترمى به الغيطان فيها والربى — دولا كما يتموج التيار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى — ذئب يلم مع الدجى زوار
طرَّاق سادات الديار مساور — ختال أبناء السرى غدار
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا — فى فروة قد مسها اقشعرار
فعشوت فى ظلماء لم تقدح بها — إلا لمقلته وبأسى نار
ورفلت فى خاتم علىّ من الدجى — عقدت لها من أنجم أزرار

والليـــل يقصر خطوه ، ولربما ... طالت ليالى الركب وهى قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق ... فيها ، ومن خط الهـــلال عذار

وكما قال :

وليل كما مـد الغراب جناحه ... وسال على وجه السجل مـداد
به من وميض البرق ـ والليل فحمة ـ ... شرار ترامى والغمام زناد
سريت به أحييه ، لاحية السرى ... تموت ، ولا ميت الصباح يعاد
يقلب مـــنى العزم إنسان مقلة ... لها الأفق جفن والظلام سواد
يخرق لقلب البرق خفقة روعة ... به ، ولجفن النجم فيه سهـاد
سحيق ولا غـير الرياح ركائب ... هنـاك ، ولا غـير الغمام مزاد
كـأنى وأحشاء البـــلاد تجننى ... سريرة حب والظـلام فـؤاد
أجوب جيوب البيد والصبح صارم ... له الليــــل غمد والمجر نجاد
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب ... عـلاها من الفجر المطـل رماد

ووصف ناراً هبت عليها الريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان . أو كأن النار والريح فى موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح عاشق متيم يلثم خد اللهب الخجل . أو كأن فى موقد النار ماء عليه من نجوم حبب . فقال :

لاعب تلك الريح ذاك اللهب ... فعاد عين الجد ذات اللعب
وبات فى مسرى الصبا يتبعه ... فهو لها مضطرم مضطرب
ساهـرته أحسبه منتشيا ... يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ... ألهب متقـد أم ذهـب
تلثم منه الريح خدا خجلا ... حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد قد رق الصبح به ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلقه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب

ووصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضا ومجلسه ، وكأنما السرور يسيل بين ألفاظه . والنعيم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :

وأغيد في صدر الكلام لحسنه حليّ ، وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فنعم خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نور وجهه وقامته نوارة وقضيب
جلاها ، وقد غنى الحمام عشية عجوزا عليها للحباب مشيب
وجاء بها حمراء ، أما زجاجها فماء وأما ملؤه فلهيب
على لجة ترتج . أما حبابها فنور ، وأما موجها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كنرجس ومبتسم للاقحوان شنيب
فلله ذيل للتصابي سحبته وعيش بأطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من إدراكه ، ويدفعه إلى ابتكار المعاني الجميلة : فقد رأى رجلا أسود أحدب يسقي خمراً فقال في ذلك :ـ

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا والكأس تسطع حمره
كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه جمره
وللمدام مدير يشب جمرة خمره

تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو تة وأصرف دره
حتى تثنيت غصنا وأصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف به من السقم فتره
يجول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر في شعره فيأتي بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى إلى آخر . وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معا لأنه يبدع ويبتكر في التعبير كقوله :

وليل إذا ماقلت قد باد فانقضى تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجي فيه سود ذوائب لأعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعا من الفجر أغبشا تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح من كل وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت اليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل وموطن أواه تبتل تائب
وكم مر بي من مدلج ومأوب وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان ألا إن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وكما فى قوله فى المشيب

أرقت على الصبا لطلوع نجم — أسميه مسامحة مشيبــا
كفانى رزء نفس أن يدى — وأعظم منه رزءا أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغوانى — للافيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعا — إلى أمل ولم أبرح حبيبا
غريبة شيب فود إن تراخت — حياتى آل أسوده غريبا
شنئت بمجتلاها النور حتى — شنئت بمجتلى النور القضيبا
وعفت كراهة لاشىء شيئا — يكون له شبيها أو نسيبا
وأية شيبــة إلا نذير — وهل طرب وقد مثلت خطيبا

ويذكر المعانى الغريبة المستملحة ، فيشبه أوراق الشجر بالعذارى ، والنضارة بالضحك ، واهتزاز الغصون فى مهب الريح بمغازلة النسيم لها ، وأن الريح يلثم خدها الخجل ، وأقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر واشراق جيد الغصن فى حلية الزهر فيقول :

أما والتفات الروض عن أزرق النهر — وإشراق جيد الغصن فى حلية الزهر
وقد نسمت ريح النعامى فنبهت — عيون الندامى تحت ريحانة الفجر
وخدر فتاة قـد طرقت ، وإنما — أبحت به وكر الحمـامة للصقر
وقد خلعت البرد عنه وإنمـا — نشرت به طى الصحيفة عن سطر
لقد جبت دون الحى كل تنوفة — يحوم بها نسر السماء على وكر

ويقول وهو سائر فى جوف الليل : —

وخضت ظلام الليل يسود فحمه — ودست عرين الليث ينظر عن جمر

وجئت ديار الحى والليل مطرف　　منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزهر
أشيم بها برق الحديد ، وربما　　عثرت بأطراف الردينية السمر
فلم ألق إلا صعدة فوق لامة　　فقلت قضيب قد أطل على نهر
ولا شمت إلا غرة فوق أشقر　　فقلت حباب يستدير على خمر

وهو القائل فى وصف النهر وهبوب النسيم تلك الابيات المشهورة :—

لله نهر سال فى بطحاء　　أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه　　والزهر يكنفه مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا　　من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها　　هدب يحف بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيه مدامة　　صفراء تخضب أيدى الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى　　ذهب الأصيل على لجين الماء

ولقد يجمع كثيرا من الصور والأكوان فى أبيات قليلة وهو يبدع فى التصوير أيما أبدع كقوله :—

وصقيل إفرند الشباب بطرفه　　سقم ، وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة ، ولربما　　أطرته طورا نشوة وشباب
شتى المحاسن للوضاءة ريطة　　أبداً عليه وللحياء نقاب
وبعطفيه للشبيبة منهل　　قد شف عنه فى القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما　　أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حبابة　　ويموج من ردف ألف عباب

ويمدح فلا تدرى أهو مادح أم واصف أم يريد تصوير المعانى فى عبارة جميلة لاغير لأنه يميل حتى فى المدح الى تشبيه كمال الممدوح

بالاشياء الجميلة وبمشاهداته التي تراها كما قال وهو يمدح :—

لقد ضحك الصباح بمجتلاء وراء الليل عن ثغر شنيب
وظاهرنى بمغتربى حسام أنست به،ونعم أخو الغريب
أشيم به سنا برق يمان يخفرنى إلى المرعى الخصيب
إلى جذلان وضاح المحيا سليم القلب والصدر الرحيب
إلى يقظان وقاد المعالى مريش السعى بالرأى المصيب
يساور منه طورا ليث غاب ويمسح تارة عطفى أديب
إذا استمطرت منه غمام رحمى أو استنصرت فى يوم عصيب
ملأت يديك ، يسراها بيسر ويمناها بمخترط خشيب

ويصف الثناء بأنه رطب ، وأن الصباح كشف عن ثناياه البيض، وأن ممدوحه وضاح المحيا :— الخ

تشيم بضفتيه بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد

وكان إذا هنأ إنسانا اقتبس المعانى واستعارها واختلسها اختلاسا من مظاهر الطبيعة وجمالها كما قال يهنئ قاضيا :—

بشرى كما أسفر وجه الصباح وأستشرف الرائد برقا ألاح
وارتجز الرعــد بمج الندى ريا ويحــدو بمطايا الرياح
فـدنو الزهر متون الربى ودرهم القطر بطون البطاح
هبت رواحا ، وهى نفاحة فطاب ريحا نشر ذاك الرواح
أفصح غريد بها مطرب نفش من طرس قدامى جناح
فهل ترى أسمع غصن النقا فهز من عطفيه هز ارتياح
أم هل سرى ينعش ميت الربى فمج ريق الطل ثغر الاقاح

غـــز تهادى بالقنا هـــزة　　　واختال بالجرد المذاكى مراح

وكان إذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملى منها ذكرياته ، ويتغنى بها ، وبأوصافها وبما رآه هناك من جمال ونعيم ، كما قال فى قصيدة مدح .

وحن هـــديل على بانه　　　تصدى خطيبا بهـــا أخطبا
فاذكرنا ليلة باللـوى　　　وعهدا بعصر الصبا أطرابا
وماء بوادى الغضا سلسلا　　　ومرتبعا بالحمى معشبا
ليالى عهدى بها فتيـــة　　　وعهـدى باحبابنا ربربا
وما كان أعطر تلك الصبا　　　وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة　　　ورشفة ذاك اللمى مشربا
لحرك من ساكن كامن　　　تعاطى حديث يحل الحبا

ويتغزل فيساعده جمال القول على أن يأتى بالمعانى الرقيقة فى أسلوب رقيق ، ويمزج مجونه بغرامه فيمتلكك بكلامه ويجعلك كأنك فى حضرته تتعاطى المدام معه . وتجنى ثمرة غرامه فتقول:

وليل تعاطينا المدام وبيننا　　　حديث كما هب النسيم على الورد
نعاوده ، والكأس يعبق نفحة　　　وأطيب منه مانعيد وما نبدى
ونقلى أقاح الثغر أو سوسن الطلى　　　ونرجسة الأجفان أووردة الخد
إلى أن سرت فى جسمه الكأس والكرى
وما لا بعطفيه ، فمـــال على عضـــدى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى　　　من الحر مابين الضلوع من البرد
وعاينته قد سل من وشى برده　　　فعاينت منه السيف سل من الغمد

وهزة أعطاف ، ورونق إفرند	ليان مجس . واستقامته قامة ،
وأنم وجه الشمس فى مطلع السعد	أغازل منه الغصن فى مغرس النقا ،

أسلوبه

قد خالف ابن خفاجة جمهرة شعراء العرب فى بدء قصائده بالغزل والنسيب ، وبدأ أكثرها بالوصف ، واندفع فى ذلك اندفاعا . وكان أسلوبه فى جملته سلسا سهلا به كثير من الألفاظ الجزلة أو الغريبة والعبارات الخفية ، ولتتبعه الصناعة اللفظية وأنواع المجاز والكناية ظهر فى كلامه كثير من التكلف حتى لقد يتغلب عليه ذلك فتمتلىء عباراته بالصناعة الظاهرة كقوله : والصبح يمسح عن جبين نهار .

فى قصيدة مدح أولها :—

والصبح يمسح عن جبين نهار	سمح الخيال على النوى بمزار
يعشو إليها من خيال طارى	فرفعت من نارى لضيف طارق

ركب الدجى ، أحسن بها من مركب

وطوى السرى أحبب به من سارى

يروى ، وحيث حشاى موقد نار	وأناخ حيث دموع عينى منهل
أورى بجانحتيه زند أوار	وسقى فأروى غلة من ناهل
قد شف عنه فهو كأس عارى	خلع الهوى ثوبا عليه من الضنى
من شيم برق أو شميم عرار	يلوى الضلوع من الولوع لخطرة
فانهل دمع الطل فوق صدار	والليل قد نضح الندى سرباله
متنزها قد شد من زنار	لبس المجر على السواد نخلته
يلقى بيمنى تارة ويسار	ووراء أستار الدجى متململ

ما طالعته برقة نجدية إلا اجتاتها نظرة استعبار
مترقب رسل الرياح عشية بمساقط الانواء والانوار
ومجر ذيل غمامة لبست به وشي الحباب معاطف الانهار
خفقت ظلال الأيك فيه ذوائبا وارتج ردفا مائج التيار
ولوى القضيب هناك جيداً أتلعا قد قبلته مباسم النوار
باكرته والغيم قطعة عنبر مشبوبة ، والبرق لفحة نار
والريح تلطم فيه أرداف الربا لعبا ، وتلثم أوجه الازهار
ومنابر الاشجار قد قامت بها خطباء مفصحة من الاطيار

وهـذا من بدع التشبيه والاستعارة ، ولا تـكاد تجد شاعرا بيأ آخر أدرك ابن خفاجة فى مثل هذه الصناعة المتعملة الجميلة .

وأكثر وصفه الليل وسواده ، والصبح وبياضه، والرياض والبساتين لاشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ولونها الفضى . وأشعة الشمس هبية عليها ، والنسيم وسريانه كما قال :ـ

تامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الازهار
أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
ت بحجر الارض فيه يد الصبا درر الندى دراهم النوار
د أرتدى غصن النقا وتقلدت حلى الحباب سوالف الانهار
لت حيث الماء صفحة ضاحك جذل ، وحيث الشط بدء عذار
ريح تنفض بكرة لمم الربا والطل ينضح أوجه الاشجار
نسم الالحاظ بين محاسن من ردف رابية وخصر قرار
راكة سجع الهديل بفرعها والصبح يسفر عن جبين نهار

هزت له أعطافها ولربما خلعت عليه ملاءة الأنوار

فكان هذا من دواعى إمعانه فى تتبع أنواع البديع والبيان ، حتى صار كما قلنا كثير التكلف فى معانيه وألفاظه ؛ ولا تكاد تجد عبارة من عباراته إلا استعارة أو مجازا أو تشبيها ، وقد يدعو ذلك أحيانا إلى استغلاق المعنى على القارىء ، ولكن شعره فى جملته يعتبر معجما لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، وتشبيهات بديعة ، ومعرضا يجد فيه القارىء أرق أنواع المجاز وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية ، ومن انغماسه فى الصنعة والتكلف الجميل قوله :ـ

وأراكة ضربت سماء فوقنا تندى ، وأفلاك الكؤوس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول نثرت عليه نجومها الأزهار
فكأنها ، وكأن جدول مائها حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة تجلى ، ونوار الغصون نثار
فى روضة جنح الدجى ظل بها وتجسمت نورا بها الأنوار
غناء ينشر وشيه البزاز لى فيها ، ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها ، وقد نضح الندى وجه الثرى ، واستيقظ النوار
والماء من حلى الحياء مقلد زرت عليه جيوبها الأشجار

نثره

لابن خفاجة قطع نثريه سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال ، وسار فى أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذانى من حيث اتباع السجع المتكلف ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع

حتى كان نثره أشبه بشعر منثور ، وإن رسائله القليلة التى عثرنا عليها هى من قبيل النثر المتكلف

كتب رسالة يصف فيها متنزها وكأنما قلمه ريشة مصور ماهر تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه ، فترى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من نواحيه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك نسيمها العليل ، وتجرى أمامك الجداول والأنهار. ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع ، وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة المسجوعة ، على حين أنك تجد كل واحدة شطر سجعة أو سجعة كاملة قال « ... ذهبت فى لُمَّةٍ من الاخوان نستبق إلى الراحة ركضا . ونطوى التفرج أرضا ، فلا ندفع إلا الى غدير نمير قد استدارت منه فى كل قرارة سماء . سحائبها غماء ، وانساب فى كل تلعة حُباب ، جلده حباب ؛ فترددنا بتلك الاباطح نتهادى تهادى أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى ، على بساط وشى ؛ فاذا مر بغدير نسجه درعا ، واحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول ، . فاحتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان ، سندسية رواق الاوراق ؛ ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل ، ونجيل النظر فى نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كأنه مجرة سماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب ، وقد حضرنا مُسمع يجرى مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها

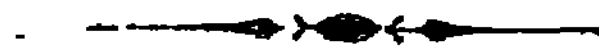
ويغنى لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان النقر ، يشفى من الوقر ، كأنه كاتب حاسب تمشق يمناه ، وتعقد يسراه ، يحرك حين يشدو ساكنات وتنبعث الطبائع للسكون . »

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى ، فقد يضيق الطريق فى وجهه ، وقد يثقل كلامه ويتكلف فى عباراته . كما فى رسالة يعاتب فيها

قالوا ، كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصنا فخاطبه أبو اسحاق برقعة منها . « أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ؛ وتعدية فعل الفصل . وإلى عدو لك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع ، حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ؛ ويدخل الانتقال حال الصمت فلا تتخيل ـ أعزك الله ـ أن رسم أخائك عندى . . . قد درس عفاء ، ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء . وإنما أنا فعل إذا ثنى ، ظهر من ضمير وده مابطن . وبدا منه ما كمن . وهنيئا ـ أعزك الله ـ إن فعل وزارتك حاضر لايلحق رفعة تغيير ، وإن فعل سيفك ماض مابه للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلية

بمطالعة باب الظرف، ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ماحدث من عتبك ، وتوجب بعد النفى ماسلف من عتبك . وتدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن يصح ، وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة، وتصير هذه النكرة معرفة . فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا ، وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا مصغرا ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا دخل عروضك قبض ، ولا عاقب رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطك وجزاؤك . جاريا على الرفع سرورك الكريم وسناؤك ، حتى تخفض الفعل ، وتبني على الكسر قبل ، إن شاء الله »

راجع نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢



لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب فى آخر عصور العرب فى الأندلس ، بل هو من أشهر من عرف هناك وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطى الاندلسى. تنقلت أسرته فى كثير من بلاد الاندلس واستقر أبوه فى غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر فى بلاد المغرب بابن الخطيب السلمانى : نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث عن أبيه كثيرا من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه (١)

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بنى الاحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والادباء والاطباء تعلم الطب على أشهر علماء الاندلس وفلاسفتها فى هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الاصول لحفظ الصحة فى

---

(١) فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى رمز عزم ، ورجل أخاه وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة . وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة . ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها الفرقد ، وكانت له فى الأدب فريضة ، وفى النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه فى مسائل من الطب وأنشدته أبياتا من شعرى ، فتهلل وابتهج ، ومابرح أن ارتجل .

الطب والشعر والكتابة　　سماتنا فى بنى النجابة

هن ثلاث مبلغات　　مراتبا بعضها الحجابة

الفصول » عده هو نفسه من أحدث طراز فى ذلك الفن فقال « العجب حتى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعملى ذلك لاأقدر على مداواة داء الارق الذى بى » ومهما يكن من المبالغة فى كلامه فانه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى فى ذلك فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب ، وامتزج بالادباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالما وأديباً

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر السلطان أبى الحجاج يوسف فأخذه فى حاشيته ، وفى مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التى فتحت عليه باب الكتابة فى كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، على حسب ما كان يعلمه وماكان معروفا فى ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبى الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدوله فى ذلك الوقت فى اضطراب والناس بين مظلوم وظالم ، وخارج على السلطان ومتملق له ؛ وكل ذى نعمة محسود . فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا فى الأيقاع به وكان قد خرج على محمد بن أبى الحجاج أخوه وتغلب عليه ؛ فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما . ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما فجال لسان الدين فى تلك البلاد ، وانتقل

إلى أماكن كثيرة واستقل هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبى الحجاج عاد الى الاندلس وكان استكتب أبو محمد هـذا فى غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميـذ لسان الدين ، فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدوا على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم وملك الدولة منهم ، فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخـذوا الامر بيدهم · فأخذوا فى بث الدسائس وإيغار السلطان عليه ، ولكن عند مارجع لسان الدين إلى الاندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط ، لان البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فاشاع ابن زمرك عن لسان الدين إنه كافر مارق : وأنه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لايبيحها الدين فراجت هـذه الوشايات عند السلطان وأثارت غضبه ، ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف أنه لابد أن ينال منه ، عزم على الهرب إلى افريقية بدعوى أنه ذاهب فى أمور تتعلق بالمملكة ولكن عندما ذهب إلى أفريقية اتفق ملك المغرب على تسليمه لابن الأحمر ، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقتله ، ودسوا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلا وذاعت شهرته فى المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ فى تآليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم ·

شعر ابن الخطيب

وصف بعض أدباء الاندلس لسان الدين ابن الخطيب فقال : —

« كان يحسب لسان الدين بن الخطيب من كبار شعراء الاندلس، بل من اعظمهم جميعا لكثرة شعره واختلاف أغراضه وبراعته فى الصناعة التى كانت مقياسا لمقدرة الشعراء ودليلا على تفوقهم فى ميدان الشعر والادب ، كما كانت له نفس هذه المنزلة فى كل نواحى الكتابة وفنون الادب كما سبق .

والمتأمل فى شعر ابن الخطيب يرى أنه قد جارى جميع الشعراء فى كل ماعرف من الموضوعات والاغراض ، وكان فى كل شعره كما كان فى كل نثره يميل إلى الطول والاطناب . لاشك فى أن هذا دليل على سعة الخيال وتوارد المعانى على ذهنه وعلى أثر اطلاعه الواسع وقوة ذاكرته وتعمقه فى أدراك تلك المعانى وتمكنه من التصرف فى ذلك ؛ فقد كان رأسه خزانة الفاظ وجمل ، وجعبة صور وعبارات لما قرأه فى الكتب وشاهده فى الحياة وكان يصوغ كل ذلك فى شعره ونثره .

ولقد يتساءل القارىء الاديب هل لابن الخطيب صبغة خاصة فى شعره ؟ وهل إذا قرأت له كلاما شعرت بروح يدل على الشاعر ويميزه من سواه ؟ كما تشعر بذلك عند ماتقرأ شعر البحترى فتمتلىء نفسك بتلك الصبغة الخفية الفنية وجمال القول فى حسن العبارة وصوغها ؟ أو كما ترى فى شعر المتنبى تلك الحكم الممزوجة بالكبر والغرور وصور العالم وخبائث الانسان ؟ أو كما ترى تلك الصبغة الفنية المستمدة من

جمال الطبيعة وجلالها فى شعر ابن خفاجة ؟ أو كما تشاهد أو تلمح فى خاطرك تلك النفس المضطربة المتألمة كثيرا المبتهجة أحيانا ، الحساسة التواقة إلى التمتع بالحياة وإلى أن تكون فى مقدمة الادباء والعظماء وغير ذلك مما يمليه عليك شعر ابن زيدون ونثره

لايفتأ القارىء أن يجيب على هذا السؤال بعد أن يقرأ شعر ابن الخطيب ونثره بأنه مثل كثير من كتاب الاندلس وشعرائها ـ حاشى انتاجه الكثير فى كل من فنون الكتابة والشعر ـ وأن الصبغة التى فى شعره ونثره أظهر ماتكون فى الصناعة ، وإنك إذا أردت أن تضعه فى طبقة من طبقات الادباء وضعته بين الوزراء والقضاة الفقهاء الذين تغلب عليهم الصبغة الدينية أو مسائل الفقه وروح التصوف ، وأنه لا يحسب من كبار الشعراء والكتاب الفنيين الذين خلقوا شعراء بطبيعتهم والذين توحى اليهم الطبيعة بجمالها وتلهمهم المعانى الخفية لهذا الوجود فيدركون أسرار النفوس ويرسمونها فى كلامهم ويزينون هذا الكلام بما فطروا عليه من جمال أدراك الاشياء

مع هذا فقد تجد فى شعره كل صفات الشعراء التى اقتبسها منهم اقتباسا وحاكاهم فيها محاكاة من جمال القول وحسن الاسلوب وسعة الخيال . ولكن نفسه كما قلنا ليست نفس شاعر منطبعة على قول الشعر ، وليس روحه روح رجل في يستوحى القول من الهاماته الفنية أو يسبح فى عالم الخيال فيرى أسرار النفوس ويكشف خبايا الانسان فينظمها فى شعره لان ملكة الشعر ليست هى الغالبة على عقله وأدراكه كما هى الحال لدى كبار الشعراء الذين يقصدون الوصول الى كشف

أسرار الحياة بجمال القول وبلاغته وفنون التعبير ، ويمتازون عن العلماء والفلاسفة الذين يعمدون إلى التجارب والبراهين العقلية فى ابراز الحقائق العلمية والآراء الفلسفية . بل رغم أن ابن الخطيب ميال الى الصناعة والمحسنات اللفظية فانه عالماً مفكراً أعظم منه شاعراً متفنناً، على أنه لا تخلو ألبتة من تذوق الجمال أو من الاتصاف بصفات الشعراء

صناعته وأسلوبه

يمتاز ابن الخطيب كما قلنا فى الشعر بصناعته وميله إلى التألق فى كلامه وطول باعه فى معرفة ضروب الكلام وأنواع التعابير وضروب الاطناب وتزاحم المعانى ومحاكاة المشارقة فى ذلك وميله إلى المحسنات البديعية وتكلفه قليلاً أو كثيراً فى ذكر هذه الانواع والعبث بها، كما قال فى الجناس :

مالى أهذب نفسى فى مطامعها   والنفس تألف تهذيبى وتهذى بى
إذا استعنت على أمر بتجربة   تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى

ومن ولوعه بالصنعة قوله :ـ

ومولع بالكتب يبتاعها   بأرخص السوم وأغلاه
فى نصف الاستذكار أعطيته   مختصر العين فارضاه

ومن مبالغاته وكلامه فى حسن التعليل قوله : ـ

ووالله ما اعتل الاصيل وانما   تعلم من شجوى فبان اعتلاله

ومن قوله فى الجناس أيضا :ـ

دعوتك للود الذى جنباته   تداعت مبانيها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما   تناءى، وهل أسلو حياتى وأنت هى

ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى

وكثيرا ما يأتى بعبارات فكاهية وأخرى يعتمد فيها على الصناعة ، على أن أسلوبه يختلف باختلاف المعانى والموضوعات فاحيانا تجده فكها ماجنا. وأحيانا تجده ورعا تقيا أو حكيما واعظا أو فقيها متكلما أو شاعرا جاف العبارة كما قال يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاى، إن الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وجد المختار فى الحفل منصتا له ، وحبا كعبا عليه وحسانا
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا
بأن أبا بكر خليفته الرضـــا وفاروقه الأدنى اليـه وعثمانا
وأن عليا قدس الله جمعهم وكرمنـا بالقرب منهم وحيانا
لهم فى ضروب القول إذ هم نخوله خطاب وشعر يستقران تبيانا
وفاض على أهل القريض نوالهم فروض روض القول سحا وتهتانا
وأنت أحق الناس أن تفعل الذى به فعل المختـــار دينا وإيمانا
فما زلت تهدى فى البرية هديه وتقضى بما يرضيه سرا وإعلانا
وإن قيل قدر المرء ماهو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا

ومما يدل على سهولة استرساله فى القول الذى يبعد كثيرا عن أن يكون شعراً فنيا جميلا قوله .

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى ولى فهو خير ولى
أصبحت مالى من عطف أو ماله من غيره فى مهمات ولا بدل
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل

من بعدما خلصت نحوى الشفاعة ما　　بين العلا والدجا والبيض والأسل
إن كنت لست باهل للذى طمحت
اليه نفسى وأهوى نحوه آملى
فكيف يلغى ولا ترعى وسيلته　　دخيل قبر أمير المسلمين على
من بعدما اشترت حالى به وسرت　　بها الركائب فى سهل وفى جبل
والرسل تترى ولا تخفى نتائجها　　عند التأمل من قول ولا عمل
ولا لليلى من صبح أطالعه　　كان همى قد مد الدجنة لى
لو أننى بابن مرزوق عقدت يدى　　وكان محتكما فى خيرة الدول
لكان كربى قد افضى إلى فرج　　وكان حزنى قد أوفى على جذل
ألحت بالعتب لم أحذر مواقعه　　انا الغريق فما خوفى من البلل
ولست أجحد ماخولت من نعم　　لكنها النفس لا تنفك عن أمل
ولست أيأس من وعد وعدت به　　وإنما خلق الانسان من عجل

ومن شعره الجميل الذى جارى فيه الشعراء فى بدء كلامه بالغزل والمبالغة فى المدح مما لا يحسب من جمال القول فى شىء يسير قوله :—

وقف الغرام على ثناك لسانى　　رعيا لما أوليت من احسان
فكانما شكرى لما أوليته　　شكر الرياض لعارض النيسان
أنا شيعة لك حيث كنت، قضية　　لم يختلف فى حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى　　ميدان نهرك فارس الفرسان
ورويت عن مآثر أسديتها　　لعلاك بين صحائح وحسان
ولأنت أولى بالتشيع شيمة　　لم تتفق لسواك من انسان
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى　　بين الورى فى مطلع شمسان

جبرت بجبرك كل نفس حرة وشدا بشكر الله كل لسان
وبدت سعودك مستقيما سيرها وعلت فمر أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافرا عن أي وجه للرضا حسان
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق بمضاعف الانعام والاحسان
فالشكر يقتاد المزيد ركائبا تنتاب بابك منه في ارسان
ثم السلام عليك يزري عرفه طيبا بعرف العود والبلسان

ومن مدحه الجميل أيضا قوله عقب أيابه من رحلة في مراكش يخاطب السلطان صاحب تلمسان :ـ

افادت وجهتي بنداك مالا قضى ديني وأصلح بعض حالي
ومتعت الخواطر بانشراح وأترفت النواظر باكتحال
وأبت خفيف ظهر والمطايا بجاهك تشتكي ثقل الرحال
وشاني للمعالم غير شان وحالي بالمكارم جد حال
فهب ـ لاك إيذني وعقدي وشكر نداك ديني وانتحالي
كما قد صح لله انقطاعي بتأميلي جنابك وارتحالي
ومايبقى سوى فعل جميل وحال الدهر لاتبقى بحال
وكل بداية فالى انتهاء وكل اقامة فالى ارتحال
ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على المحال

نثره

كان ابن الخطيب يحسب من أكبر الكتاب والمؤلفين كما كان يعد بين معاصريه من أكبر الشعراء. وقال المقري في نفح الطيب: (أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار. وناهيك أن كتبه الآن في المغرب

قبلة ارباب الانشاء التى إليها يصلون ، وسوق دررهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ، ذلك لان تربيته العلمية الادبية وهبته نشاطا عقليا فكان من المؤلفين المشهورين ، وكان كثير الدرس والقراءة ورسائلة الادبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدا حتى قالوا أنه كان يؤلف ويكتب كل هذه الكتب لانه كان يقرأ كثيرا وقد اغترف من كل بحر قطرة وكتب فى كثير من الفنون المختلفة ورسائله الادبية كثيرة منها جملة فى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب . وكانت الصبغه الادبية أظهر ماتكون فى رسائله واغلب عليه من غيرها فانه يمتاز بموضوعاته الأدبية أكثر مما يمتاز بغيرها من الموضوعات العلمية الأخرى .

حتى لقد تجده فى كتاباته العلمية أو التاريخية أديبا أكثر منه مؤرخا أوعالما . كما يظهر ذلك فى كتابه الاحاطة ، وفيما كتبه فى الموضوعات العلمية الاخرى . فان أظهر تلك المميزات فى أسلوبه لا فى طريقة البحث أوالتحقيق ، فاذا رجعت إلى تراجمه للعلماء أوالأدباء رأيته أديبا أكثر منه محققا . فهو فى هذا أشبه بالفتح بن خاقان ، ولكنه فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى حاد اللسان . قادر على الاسترسال والاحاطة بالمفردات والجمل . لذلك كان من اكبر مميزاته فى الكتابة الاطناب فقد كان مطبوعا على ذلك بطبعه ، يجرى وراء ذلك جريانا وهو مثلوج الصدر يعرض عليه فكره وخياله المعانى والالفاظ فلا يكاد يقف قلمه إلا بعد ان يملأ من الفكر الصغير صفحات كثيرة وكأن قدر الكتابة عنده ووزن المعانى

لديه فى الاكثار لافى الاجادة . أو أن الاجادة لا تفارق الاطناب لديه وربما كان عذره فى ذلك أن الكتابة فى تلك الايام كانت سائرة على هذا الطراز . وكان بجانب الاطالة يحب السجع فكانت كتابته لاتخلو من خلتين عند بعض الأدباء أو من ملايين عند آخرين : السجع والاطناب وربما كانت الاطالة والسجع من أظهر عيوب أسلوب ابن الخطيب ولا يكاد المعجب به يفضل أحدهما على الآخر أو الناقد له يدرك أيتهما أدعى إلى الملل وكد الذهن .

وقد تطغى الاطالة على تكلف السجع فيرى القارىء فى السجع من مظاهر البلاغة مالا يجده فى الاطناب، لأن الأطناب أدعى إلى ظهور خلو ذهن الكاتب من المعنى أو الى تكرار المعنى الواحد فى عبارات مختلفة . لذلك كثيرا مايخفى عيب السجع وراء هذا الستار وقد تكون هذه الطريقة دليلا على انحطاط أسلوب الكتابة النثرية . ويكفى هذا الاسلوب مقتا أنه لايقدر على الاسترسال فى قراءته كل انسان وأنه لايعيش إلا فى بطون الكتب ولا يصلح أن يكون نموذجا من نماذج الكتابة البليغة التى يقتدى بها الكتاب .

ولكن ذلك لايدفعنا الى جحود مافى هذه الرسائل من المعانى والافكار الصحيحة أو إلى الشعور بأن الكاتب كان يميل إلى طرق بعض الموضوعات الاجتماعية التى لم يطرقها كثير من الكتاب ، وإلى الاسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات ورسائله حافلة بالآراء التاريخية والاجتماعية والنكات الادبية وبعض الامثال المعروفة . وكثيرا ماكان يبدؤها بأبيات مط الشعر وقد جارى المشارقة فى كل ما كان معروفا

فى كتاباتهم من عبارات مسجوعة والفاظ مختارة ، ومن القاب التعظيم والتبجيل للأمراء والسلاطين . ولكنه لم يصل إلى ماوصلوا إليه من الصنعة المتكلفة قصدا فى ذكر أنواع البديع والبيان ، بل كان اظهر مايكون تكلفه فى السجع والاطناب كما قلنا . وقد يكون اسلوب ابن الخطيب ادعى إلى توجيه ذهن القارىء إليه من الموضوعات التى عالج الكتابة فيها ، ومن المعانى التى اختارها ومن الاخيلة التى أعتمد عليها فى بث آرائه ، لأن كل ماكتب فيه معروف وكل معني ذكره مألوف وإنما ميزته الكبرى بعد اسلوبه كثرة انتاجه العقلى والأدبى الذى جاءه من نشاطه وسعة اطلاعه وكثرة قراءته :

*
* *

فما كتبه معزيا بعض الرؤساء عن أخيه وقد ابتدأ كتابه بأبيات من الشعر وملأه بالمدح والفاظ التعظيم والافتنان وبأنواع الاخيلة والتعمق فى الصنعة .

أيا ثابت كن فى الشدائد ثابتا ... اعيذك ان يلفى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذى ... يليق بعز منك اعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا ... وسرحتك الشماء طابت منابتا
لقد هد أركان الوجود مصابه ... وانطق منه الشجو من كان صامتا
فمن نفس حر اوثق الحزن كظمها ... ومن نفس بالوجد اصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده ... وكيف ترجى ان تصاحب مائتا
وللصبر اولى ان يكون رجوعنا ... إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا

واتصل بى ايها الهمام ، وبدر المجد الذى لايفارقه التمام ماجننته على

علياتك الأيام ، وافتضته محن الردى بعد أن طال الخيام، وما استأثرت به الحمام، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذمام من وفاة صنوك الكريم الصفات وهلاك وسطى الاسلاك وبدر الاحلاك ومجير الاملاك، وذهاب السمح الوهاب وأنا الديغ صل الفراق الذى لا يفيق بألف راق وجريح سهم البين، ومجارى العيون الجارية بدمع العين لفقد أنيس سهل على مضض النكبة ونحى ليث الخطب عن فريسنى بعد صدق الوثبة، وآنسنى فى الاغتراب وصحبنى إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة وعاملنى من حسن العشرة بما سجل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدى حيث لا أهل ولا وطن والاغتراب قد ألتى بعطن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر وما بطن ، ورأيت من تطارح الاصاغر على علو الغريب النازح عن النسيب والقريب ، ما حملنى على أن جعلت البيت له ضريحا ومدفنا صريحا ، لاخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه وأن ظل شفقته منسحب عليه فاعيا مصابى عند ذلك الفرح وأعظم الظما البرح . ونكا القرح القرح إذ كان ركننا قد بانته لى يد معرفتك ومتصفا فى البر بى والرعى لصاغيتى بكريم صفتك فوالهفا عليه من حسام وعز سام وإياد جسام وشهرة بين بنى حام وسام أى جمال خاق ووجه للقاصد طاق وشيم تطمح للمعالى بحق وأى عضد لك ياسيدى لا يهين إذا سطا ولا يقهر إذا خطا يوجب لك على تحليه بالشيبة ما توجبه البنوة من الهيبة ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ويسد ثغرك عند الغيبة ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ودعوت بالصبر فولى وأدبر واستنجدت الدمع فغضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ماروى واقتضب وبأى حزن يلقى

عبد العزيز وقد جل فقده أو يطفى لاعجه وقد عظم وقده اللهم لو بكى
بندى أياديه أو بغمائم غواديه أو بعباب وادية

وهى الايام أى شامخ لم تهده أو جديد لم تبله وإن طالت المدة
فرقت بين التيجان والمفارق والخدور والنمارق والطلى والعقودوالكأس
وابنة العنقود فما التعلل بالفان وإنما هى إغفاءهإجفانوالتشبث بالحبائل
وإنما هى ظل زائل والصبر على المصائب ووقوع سهمها الصائب اولى
ما اعتمد طلابا ورجع اليه طوعا او غلابا فاناياسيدى اقيم رسم التعزية
وإن بوئت بمضاعف المرزية ولا عتب على القدر فى الورد من الأمر
والصدر ولولا إن هذا الواقع مما لايجدى فيه الخلصان ولا يغنى فيه
اليراع ولا الخرصان لا بلى جده من اقترضتموه معروفا وكان بالتشيع
إلى تلك الهضبة معروفا لكنها سوق لاينفق فيها إلا سلعة التسليم
للحكيم العليم وطى الجوانح على المضض الأليم ولعمرى لقد خلدت
لهذا الفقيد وان طمس الحمام محاسنه الوضاحة لما كبس منهالساحة صحفا
منشره وثغورا بالحمد موشرة يفخر بها نبوه ويستكثر بها مكتسبوا
الحمد ومقتنوه وانتم عماد البازه وعلم المفازه وقطب المدار وعامر الدار
واسد الاجمة وبطل الكتيبة الملجمةوكافل البيتوالسترعلى الحى والميت
ومثلك لايهدى إلى نهج لاحب ولا ترشده نار الحباحب ولا ينبه على
سنن بنى كريم او صاحب قدرك اعلى وفضلك اجلى وانت صدر
الزمان بلا مدافع وخير معل لاعلام الفضل ورافع وانا وإن اخرت
فرض بيعتك لما خصني من المصاب ونالنى من الاوصاب ونزل بى من
جور الزمان الغصاب ممن يقبل عذره الكرم ويسعه الحرم المحترموالله

سبحانه الكفيل لسيدو عمادى ببقاء يكفل به الابناء وابناء الأبناء ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء حتى لايوحش مكان فقيده مع وجوده ولايحس بعض زمان مع جوده ويقر عينه فى ولده وولد ولده ويجعل أيدى مناوئيه تحت يده والسلام :

ومن كلامه القايل المعني الكثير اللفظ المملوء بأنواع عبارات التبجيل مما قد يعد من الملق قوله وقد بدأه أيضا بأبيات من الشعر

لاأعدم الله دار الملك منك سنى　　يجلى به الحالكان الظلم والظلم
وأنشدتك الليالى وهى صادقة　　المجد عوفى إذ عوفيت والكرم

من علم أعلى الله تعالى قدرك ان المجد جواد حلاك شياته ، لا بل الملك بدر أنت آياته ، لا بل الاسلام جسم أنت حياته ، دعامنك بالبقاء لمجد يروق بك جبينه وملك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى باعزازه وتدينه فقد ألمت نفوس المؤمنين لآلامك ووجم الاسلام لتوقع إسلامك وتأخرت الاعلام لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ، فانما أنامل الدين والدنيا متشبثة بأذيال أيامك ، ورحال الامل مخيمة بين حلالك وخيامك فاذا قابلت الاشراف نعم الله تعالى بشكر ورمت الغفلة عن ذلك بنكر فاشكره جل وعلا بملء لسانك وجنانك واجر فى ميدان حمده مطلقا من عنانك على ماطوقك من استرقاق حر ، وإفاضة أياد غر واقتناء عسجد من الحمد ودر ، وأتاحة نفع ودفع ضر ، وإدالة حلو من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حماك وعز تبلغ ذوائبه السماك ، ورزق يجره فال منتماك ، ودونك مجاس الامامة فقد تدبيره بزمامك ، وحظوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة

وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلها على منصة أمامك ، ورسوم مبر فاغر بها عن اهتمامك ، وذروة المنبر فامض بها ظبة حسامك ، واجز الآماين زهر الأيادى البيض من كمائم أكمامك ، فيا عز دولة بك ياجملة الكمال قد استظهرت وأذلت المعاند وقهرت ، وبأعمال آرائك اشتهرت فراقت فضائلها وبهرت جزالة كما شق الجو جارح ، ولطافة كما طارح بفن التأليف مطارح ، وفكر فى الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل سارح ، ومكارم محت آثار الكرماء ونسخت ، وحلت عقود أخبار الأجواد فى الاعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكرا ، وتركت معروف يحي بن خالد نكرا . لابل لم يبق لكعب من علو كعب وأنست دعوة حاتم بأى مانح وحاتم ، فصارت سبي جوار ومنع جوار وعقر ناب عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبر وجود خصب الايدى بحناء التبر ، وعز استخدام الأسل الطوال بيراع أقل من الشبر ، وحقن الدماء المراقة باراقة نجيع الحبر وفك العقال ورفع النوب الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعثر الزمان فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال . أقسم ببارى النسم وهو أبر القسم . مافازت بمثلك الدول ولاظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سنتك وكتابك ، والاجماع المنعقد على ادابك العمل والمملوك لما شام مالكه برق العافية وتدرع بالالطاف الخافيه ، كتب مبشرا بالهناء ومذيعا مايجب من الحمد والثناء وشاكرا ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك

ووسطى السلوك . وسلالة أرباب المقامات والسلوك . ويبقيك وحصة الصحة وافرة وغرة العزة القعساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة وكتيبة الأمل فى مقامك السعيد غانمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت بشط نهر المجرة أزهار الكواكب والسلام

ومن هذا الطراز فى الكتابة أيضاً ما كتبه جوابا عن كتاب لخطيب السلطان الذى استقر بتونس

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى
بعثت لكم سوادا فى بياض لانظركم بشىء مثل عينى

بم أفاتحك ياسيدى وأجل عددى ، كيف أهدى سلاما فلا أحذر ملاما أ أنتخب لك سلاما فلا أجد لتبعة التقصير فى حقك الكبير إيلاما ، إن قلت تحية كسرى فى الثناء وتبع فكمامة فى مربع العجمة تربع ولها المصيف فيه والمربع ، والجم والمنبع ، فتروى متى شائت وتشبع ، وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يامطر ، فهو فى الشريعة بطر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الاوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج والعوسج والعرفج

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

وما كان فضلك ليمنعني الكفران أن أشكره ولا لينسيني الشيطان أن أذكره فاتخذ فى البحر سببا ، أو أسلك غير الوفاء مذهبا تأبى ذلك والمنة لله تعالى ، طباع لها فى مجال الرعى باع وتحقيق وأشباع وسوائم من الانصاف ترعى فى رياض الاعتراف فلا يطرقها ارتياع ، ولا تخفيها

سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمس ظهيرة وأذان عقيرة جهيرة فوق مئذنة شهيرة آدت الأكتاد لها ديون تستغرق الذمم وتسترق حتى الرمم فان قضيت فى الحياة فهى الخطة التى نرتضيها ولا تقنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويمضيها وإن قطع الأجل فالغنى الحميد من خزائنه التى لا تبيد يقضيها . ويرضى من يقتضيها وحيا الله تعالى ، أيها العلم السامى الجلال زمنا بعمر فتك المبرة على الآمال بر ، وأتحف وان أساء بفراقك وأجحف وأعرى بعدما ألحف وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزائن ثم أوحش منها أصونة هذه الخزائن فآب حنين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غريبا يقلب كفيه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ونستهديه دليلا فى مثل هذه الفلوات . وأى ذنب فى الفراق للزمن ، أو لغراب الدمن ، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن وما منها إلا عبد مقهور وفى ذمة القدر مبهور ، عقدوا لحمد لله مشهور وحجه لها على النفس اللوامة ظهور . جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب فى الاسباب وتذكر ، وما يذكر إلا أولو الألباب قبل غلق الرهن وسد الباب

وكل كتابة لسان الدين أو جلها من هذا الطراز ، فيرجع إليها من يشاء فى كتبه وفى الجزئين (الثالث والرابع) من نفح الطيب

الادب فى بلاد المغرب

سكان بلاد المغرب :

كان العرب يطلقون بلاد المغرب على ثلاثة أقاليم :

١— (إقليم أفريقية ، وهو المغرب الأدنى . وقاعدته مدينة القيروان وكان يشمل بلاد طرابلس وتونس) .

٢— (إقليم المغرب الاوسط وقاعدته تلمسان) :

٣— (إقليم المغرب الاقصى وهو القسم الممتد من حدود المغرب الاوسط إلى المحيط الاطلنطى . وكان يطلق على هذين القسمين أيضا بر العدوة لأنه يعدى منهما إلى الاندلس) .

وسكان هذه البلاد قبائل كثيرة من أخلاط أمم مختلفة . يقول الباحثون عنها أن أقدمها انحدروا إليها من الصحراء فجاءوها من الجنوب وإن سكان بلاد أفريقيه الشمالية هذه كانت متصلة فى الأزمان الأولى بسكان شبه جزيرة ايبريا وسكان شبه جزيرة إيطاليا . وهؤلاء السكان كانوا من أصل واحد . وقال بعض المؤرخين إن سكان شمال أفريقية نزحوا إليها من جهتين : من الجنوب جهة الصحراء ومن قارة أوروبا الجنوبية وهؤلاء هم أصل البرابرة وهم من الجنس الأسمر الأوروبى والجنس الأسمر الصحراوى الذين يمتازون عن الجنس الأسود . وبعد هؤلاء نزل هذه البلاد جماعة من سكان أوروبا ومن شبه جزيرة إيبريا وهؤلاء من جنس أشقر . ولايزال أبناؤهم يعرفون ويمتازون عن سواهم فى بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وربما كان أكثر سكان البلاد الآن

من نسلهم ؛ ومن هؤلاء القبائل التى تسكن جبال الأطلس . ومن بين السكان القدماء الذين نزلوا هذه البلاد المغاربة ومن هؤلاء جميعا تولدت أمم البرابرة .

وعندما انتشر المسلمون فى شمال أفريقية بقيت هناك بعض القبائل العربية وتولدت وبقى بعضها حافظا لعاداته وأخلاقه وبعضها اختلط بأمم البربر كما حصلت مثل هذه الحال فى بلاد اسبانية وقد اتصل بهم البربر وأسلموا على يدهم بعد حروب طويلة فنعموا فى نهايتها بدين العرب وأسلموا : وبعض المؤرخين يقول إن سكان هذه البلاد من أمم حامية من أهل أفريقية وآسيا .

وقد أطلق عليهم العرب جميعا كلمة بربر ، وكان هذا اللفظ يطلق على كل القبائل غير العربية . وقيل أصله من كلمة فار فاروس اليونانية وهو صوت الألثغ أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم، ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانيا أو رومانيا : كما أطلق العرب على كل من ليس عربيا كلمة أعجمى لعجزه عن التعبير بلغتهم :

والبرابرة الأولون كانوا جفاة غلاظا يميلون الى السلب والنهب شديدى المراس شجعانا كسكان البوادى غير ثابتين على مذهب أو عقيدة ميالين الى الفتن واتباع الضلالة حتى ظهرت فيهم كل البدع فلما ظهر الاسلام هناك آمنو ثم كفروا ثم آمنوا .

وقد دخل المسلمون بلاد البربر فى خلافة عثمان بن عفان حينما أرسل إليها عبد الله بن أبى السرح والى مصر (سنة ٠٢٦ هـ) . وصحبه عقبة بن نافع فدخلوا هناك وحاربوا الروم ورجعوا بعد أن صالحوهم

على مال كثير قيل إنه ثلاثمائة قنطار من الذهب ومازال العرب يجيئون ويروحون إلى أن بعث معاوية عقبة بن نافع فى عشرة آلاف فارس فدخل عقبة أفريقية وأسلم معه من البربر جماعه ووضع السيف فى رقاب أهلها (لأنهم كانوا إذا جاء عسكر المسلمين اسلموا فاذا خرجوا ارتدوا.) وبنى عقبة مدينة القيروان بالجنوب من قرطاجنة القديمة (سنة ٤٥ — ٥٠) ثم أمتد سلطان العرب بعد ذلك إلى بلاد المغرب الاقصى، وحكم هذه البلاد ولاة من بنى أمية ومن بني العباس . ثم نشأت هناك دول مستقلة كدولة الاغالبة الذين كانوا أول أمرهم ولاة لبني العباس (سنة ١٨٤-٢٩٦ هـ) وكدولة العبيدين أو العلويين « ٢٩٦ - ٣٦١ هـ » وكدولة الصنهاجين بتونس« سنة ٣١٦ - ٣٤٢ هـ » وكدولة الادارسة » ١٦٠ - ٣١٣ » وكدولة الموحدين « ٤١٤ - ٦٦١» وغيرهم من الدول التى قامت بالمغرب الاوسط والاقصى .

وقد تداولها جماعة من ولاة الاندلس والمرابطين والموحدين وغيرهم ممن امتد سلطانهم فى تلك البلاد .

أثر العرب فى الحياة العربية .

وكان لولاة العرب هناك أثر عظيم فى نمو الحياة العقلية ونشر الثقافة العربية من علوم وآداب ولاسيما العلوم الدينية واللغوية . ولكن أعظم أيام العرب هناك كانت مدة حكم بنى غالب . حيث ظهر فيهم جماعة من كبار الأدباء والعلماء، وقد امتد أثر العرب على جزر البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة صقلية من أعظم مراكز

الحضارة الاسلامية لأن موقعها وسط بر الروم أكسبها أهمية عظيمة حتى جعل العرب يتطلعون اليها منذ شقت سفنهم عباب هذا البحر فقد توجهت إليها تلك السفن منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان ورجعت الى دمشق بالغنائم الكثيرة من مال وعروض وأسرى ، ومازال العرب يغيرون على هذه الجزيرة إلى أن أرسل اليها زيادة الله بن الأغلب والى أفريقية من قبل المأمون العباسى . (٢٠١ - ٢٢٣) اسطولا قويا (سنة ٢٢٢) بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان ، فانتصر هذا الاسطول على أسطول الروم هناك . ومازال العرب منذ ذاك يغيرون على هذه الجزيرة ويدكون حصونها إلى أن كان عهد إبراهيم ابن أحمد الأغلبي (٢٦١ - ٢٨٩) الذى نال فخر اتمام فتح صقلية وأدخلها فى حوزة العرب .

وقد نشر العرب هناك أيضا علومهم ومعارفهم بين سكان هذه الجزيرة الذين كانت تغذت عقولهم قبل ذلك بالثقافة اليونانية واللاتينية فحدث اتصال بين الثقافة الشرقية والغربية وكان ذلك أشبه بما حدث من بعض الوجوه بين الثقافة الفارسية والعربية فى بلاد المشرق ، وامتد أثر الثقافة العربية إلى زمن روجر الثانى ملك صقلية الذى كانت ثقافته عربية إسلامية ، فكان يعين المؤلفين العرب على نشر مؤلفاتهم . ويساعدهم على بث الثقافة العربية فى أنحاء الجزيرة وبين سكانها ، حتى أتهم من أجل ذلك بأنه خارج على المسيحية داخل فى الاسلام ، وله ألف الشريف الادريسى الصقلى كتابه الشهير فى الجغرافيا المسمى (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) وعمل له كرة أرضية صور عليها شكل الارض .

وأنشأ روجر إداره ملكه على نظام الادارة العربية فى الاندلس

فصارت اللغة العربية فى زمنه هى اللغة الرسمية لسكان هذه البلاد حتى فى مكاتباتهم الخاصة .

كان علماء العرب وأدباؤهم وشعراؤهم يرحلون من الأندلس الى بلاد البربر والى جزر البحر ويقيمون هنا وهناك ، كما رحل الشاعر الصقلى ابن حمديس الى الاندلس وبقى فى حاشية المعتمد بن عباد . وكما رحل غيره من الشعراء والعلماء والادباء على ماهو معروف

وقد كانت مدينة القيروان من أعظم المدن العلمية ومحط رجال العلماء والادباء ، ومنها امتد سلطان العرب وفتوحاتهم على جزر البحر المتوسط كما رأينا فى صقلية ، وكانت أيضا بلاد المغرب الاقصى متصلة ببلاد الاندلس والعلماء يفدون إلى هناك ، وقد رحل جماعة من علماء الاندلس بعد خروج العرب منها الى بلاد البربر ونشروا علومهم ومعارفهم ، فكانت بلاد البربر من القرن الثانى الى القرن التاسع الهجرى مسرحا للعلوم والثقافة الاسلامية ، كما كانت ميدان حروب وشجار بين القبائل العربية والبربرية .

وكانت الحياة العلمية فى بلاد المغرب تشبه ما كان منها ببلاد الاندلس لقرب البلدين وشدة الصلة بينهما لأن الرحلة من بلاد الاندلس إلى شواطىء أفريقية كانت سهلة فاختلط هؤلاء بهؤلاء وأخذ المغربيون عن الاندلسيين العلوم والمعارف كما أخذ الاندلسيون عن المشارقة . فكان أهل المغرب عيالا على أهل الأندلس فى ثقافتهم وتربيتهم العلمية . لهذا لم تعد ثقافة المغاربة بعض ما كان معروفا فى الاندلس من علوم الادب والشريعة وكانت فنون الادب سهلة التناول

لانها تؤخذ بالرواية والحفظ ولاتحتاج لعناء كبير فى الفكر ولا فى كد الاذهان هذا إلى استعداد العربى الفطرى وميلهم الى حفظ الاشعار والفكاهات والنوادر فى التاريخ والأدب ، ورغبتهم فى نشر آثار آبائهم . فكانت الصفة العامة فى بلاد المغرب صفة أدبية . وكان بجوار هذه الثقافة الادبية ثقافة دينية أساسها علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث مما كانت تهذب أفكارهم وتصل بهم إلى مراتب العلماء والوزراء والقضاه ، حتى ظهر من بينهم جماعة من كبار رجال الدولة ؛ ضربوا بسهم وافر فى هذه العلوم .

فكان منهم أسد بن الفرات قاضى القيروان وفاتح جزيرة صقلية وصاحب أبا يوسف

وكان منهم أبو سعيد عبد السلام الملقب بسحنون كان من كبار علماء المالكية رحل الى مصر ونقل مدونه مالك عن أبى القاسم المصرى : ونشر هذا المذهب ببلاد المغرب وتولى قضاء القيروان (توفى سنة ٢٤٠ هـ)

ولم تكن لهم عناية عظيمة بالعلوم الكونية ولا بالمذاهب الفلسفية لانتشار مذهب أهل السنة بينهم . ومما كانهم سلاطين المرابطين فى التعصب لذلك

أما عنايتهم باللغة فكانت أشبه بعنايتهم بالعلوم الشرعية فظهر منهم جماعة من أئمة اللغة من أشهرهم :

الامام اللغوى محمد بن جعفر القزاز القيروانى الذى كان فى خدم العزيز ابن المعز العبيدى صاحب مصر . وقد تقدم اليه أن يؤلف كتابا .

يذكر فيه سائر الحروف فألف كتابا فى نحو الف ورقة وأسماه الجامع فى اللغة وهو من أكبر الكتب التى الفت فى ذلك وله كتاب آخر اسمه التعريض قال ابن رشيق : أن القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين (توفى القزاز بالقيروان سنة ٤١٢ هـ) .

وقد كان القزاز أستاذا لابن رشيق وابن شرف القيروانى

اللغة

وبكثرة القبائل هناك كثرت اللهجات البربرية وسطت على اللهجة العربية كما سطت العجمة على لغة العرب حتى تعدى ذلك الى الكتابة والشعر ، ولكن أمم المشرق والاندلس كانوا حماة للغة العرب وآدابهم وكان كثير منهم كتابا للأمراء والملوك ولاسيما زمن الدولة العبدية ودولة الأغالبة ، وقد درس كل أثر من آثار العقول هناك حتى آثار الرومان أمام قوة عقول العرب وعلومهم العربية والدينية . وحاول الأدباء والعلماء هناك مجاراة أهل المشرق فى الأدب والكتابة وفنون الشعر ومحاكاة أهل الأندلس فى ذلك . ولكنهم عجزوا بعض العجز عن مجاراتهم ولم يدركوا شأوهم ، وان جاروهم فى بعض ضروب الشعر كالموشحات والمواليه وزادوا عليهم فى الشعر العامى الذى طغى أو كاد يطغى على العربية الفصحى لامتلائه بلهجاتهم العامية .

وجملة القول أن اللغة فى عصر بنى الأغلب والفاطميين كانت فى أوج عزها هناك ، وقد ارتقت العلوم والآداب أيضا بما كان لمدينة القيروان من مكانة فى ذلك لأنها كانت مقراً للحركة الأدبية والعلمية فظهر فيها طائفة

من العلماء والأدباء ذاع أمرهم فى العالم العربى كأبى اسحاق الحصرى القيروانى صاحب كتاب زهر الآداب (توفى سنة ٤١٣)،وابن شرف القيروانى الشاعر الكاتب (توفى سنة ٤٦٠)،والأديب الناقد ابن رشيق القيروانى صاحب كتاب العمدة وقراضة الذهب (توفى سنة ٤٦٣) وابن أبى زيد القيروانى إمام الشريعة فى زمانه (توفى سنة ٣٨٦).

وكان كثير من علماء هذه البلاد اشتهر فى بلاد المشرق بمؤلفاته وآرائه وليس كتاب العمدة وقراضة الذهب لابن رشيق أقل شهرة فى تاريخ النقد الأدبى من كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى، ولا من كتاب الوساطة للقاضى عبد العزيز الجرجانى. ولا من كتاب الموازنة للآمدى. ولا من كتاب المثل السائر لضياء الدين بن الأثير

الكتابة والخطابة

مهما قيل عن رقى اللغة العربية وأحوالها فى بلاد المغرب فانه لا يمكن القول بأنها وصلت إلى ما كانت عليه فى بلاد المشرق أو فى بلاد الأندلس لتأصل العجمة فى اللسان وتداول الدول على تلك البلاد وعدم استقرار الأمن هناك واشتغال الحكام بالفتح، وقمع الثورات أكثر من اشتغالهم بنشر الثقافة والعلوم ولولا كثرة الوافدين على تلك البلاد من علماء المشرق والاندلس لما وجد العلم والأدب هناك مجالا فسيحا.

لهذا لم تصل الكتابة والشعر هنا الى ما وصلت اليه هناك فى بلاد المشرق والأندلس. بل كان أهل المشرق والأندلس هم حماة اللغة والأدب وكثير من كتاب الامراء والملوك كانوا منهم

أما الكتابة فكانت صناعة من الصناعات التى يشتغل بها العلماء والأمراء ، وكانت جارية فى أساليبها على طريقة الأندلسيين من حيث السجع والتعمل فى ذلك وتصيد العبارات المملوءة بالاستعارة والمجاز وبعض أنواع البديع

وأما من حيث الموضوعات فكانت مقصورة على الرسائل السياسية والدينية ، ولم تصل رغم ذلك إلى الدرجة التى كانت لها فى بلاد المشرق أو الأندلس لا من حيث الأغراض ، ولا من حيث الصناعة ولا من جهة الدروب فى الكتابة ، بل كان كثير منها أشبه بكتابة الفقهاء منها بالأدباء ، وكثيرا ما كان الملوك والامراء يستكتبون رجال الأدب من الاندلس . كأبى محمد بن عبد المجيد بن عبدون زمن المرابطين وهو الذى نشر أسلوب الاندلسيين هناك ، وكأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وغيرهم

(من الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، أتباع المهدى بن تومرت المستمرة بقاياهم الآن بتونس وسائر بلاد أفريقية ، وهى على أسلوبين)

كما كتب عن عبد المؤمن : خليفة المهدى إمامهم إلى الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد

« من أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته ، إلى الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد وفقه الله ، ويسره لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذى له الاقتدار والاختيار ، ومنه العون لاوليائه والأقدار ، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار ، والصلاة على محمد نبيه الذى ابتعثت ببعثه الاضواء

والأنوار ، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار ، وخصم بحججه الكفر والكفار ،وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الابرار ،والمهاجرون والانصار والرضا عن الامام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بأمر الله حين غيرته الاغيار ، وتقدم الامتعاض له والانتصار . وهذا كتابنا كتب الله لكم نظراً يريكم المنهج ويتقيكم الابهج فالابهج ، وأتاكم الله من نعمه الايمان وعصمه الانقياد له والاذعان ، ماتجدون به اليقين والثلج من حضرة سلطان مراكش حرسها الله تعالى ولا استظهار الا بقوته وحوله ، ولا استكثار إلا من احسانه وطوله

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمة لخلقه ومطيه لرقيه وقرارة لاقامة حقه وحمل حملته الدعاء اليه والدلالة به عليه والترغيب فى عظيم ماعنده ونعيم مالديه وجعل الانذار والاعذار من فصوله المستوعبه وأحكامه المرتبه ، ومنحاته المخلصه من الخطوب المهلكة ، والاهوال المعطبه ، رأينا أن نخاطبكم بكتابنا هذا أخذا بأمر الله تعالى لرسوله فى المضاء الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله وإقامة الحجه فى تبليغ القول وتوصيله ، فأجيبوا ـ رفعكم الله ـ داعى الله تسعدوا وتمسكوا بأمر المهدى ـ رضى الله عنه ـ فى اتباع سبيله تهتدوا ؛ واصرفوا عنه العناية إلى النظر فى المآل ، والتفكر فى نواشىء التغير والزوال ، وتدبروا جرى هذه الامور وتصرف هذه الاحوال،واعلموا أنه لاعزة إلا باعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور وسوق المحال ،وليس لكم فى قبول النصيحه وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان فى هذه العاجلة الفسيحه

إلا ماتحبونه فى ذات الله تعالى من الامنه والدعه والكرامه المتسعة والمكانة المرتفعه والتنعم بنعيم الراحه المتصلة والنفس . . . ، فنحن لانريد لكم ولسائر من نرجو إنابته ، ونستدعى قبوله وإجابته ، إلا الصلاح الاعم والنجاح الاتم وتأملوا ـ سددكم الله ـ من كان بتلك الجزيرة ـ حرسها الله ـ من أعيانها وزعماء شأنها . هل تخلص منهم إلى مايوده ، وفاز بما يدخره ويعزه الا من تمسك بهذه العروة الوثقى واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الا بقى وتنعم بما لقى من هذا النعيم المقيم ويلقى

أما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا الامر العزيز إلى ماسواه ، فقد علم بضرورتى المشاهدة والاستفاضه سوء ؛ وحق عليكم ـ وفقكم الله ويسركم لما يرضاه ـ أن تحسنوا الاختيار وتصلوا الاذكار والاعتبار ويتقدروا الابتدار وماحق من انقطع إلى هذا الامر الموصول الواصل وازمع مايناله من خيره المحوز الحاصل أن يناله منكم فى أمر أهل بلنسيه حين إعلانكم بكلمه التوحيد وتعلقهم بهذا الأمر السعيد ماكان ثم كان منكم فى عقب ذلك ما اعتمدتموه فى أمر أهل لورقه ـ وفقهم الله ـ حين ظهر اختصاصهم وبان أخلاصهم ، وليس لذلك وأمثاله عاقبه تحمد فالخير خير مايقصده والنجاة فيما ينزح عن الشر ويبعد ، وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه ـ إن شاءالله تعالى ـ نظر موفق ومتاع محقق ويجذبكم إلى موالاةهذهالطائفةالمباركة جاذب يسعد ، وسائق يرشد ، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم فى طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم بمنه ، والسلام عليكم ورحمة اللهوبركاته

وكتب فى السادس عشر من جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة»

الخطابة

أما الخطابة فقد ظهرت فى بلاد البربر بظهور العرب هناك ورغبتهم فى نشر سلطانهم ودينهم ، وكان أكثرها موجها الى نشر الدين . ولما تتابعت الدول الاسلامية على تلك البلاد كان لكل دولة زعماء وأنصار كما هو معروف فى تاريخ العرب . ولما بذرت بذور الشيعة هناك كان لهم خطباء يدعون لمذهبهم ويؤيدون الفاطميين ، وكان من أشهرهم أبو عبد الله نصير المهدى الفاطمى ، وكان محمد بن تومرت المهدى من أخطب الخطباء

وأكثر ما كانت الخطابة شيوعا فى المسائل السياسية والدينية ، ولكن على كل حال لم تصل إلى ما كانت عليه فى بلاد المشرق ولا تعتبر من الأنواع الأدبية الفنية فى شىء .

وهذا جزء من خطبة المهدى محمد بن تومرت وهو يجود بنفسه .

« واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء . وكونوا يدا واحدة على عدوكم . فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم . والا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار ، واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة : وعليكم فى جميع أموركم مزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه لا يصلح أمر هذه الامة الا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا عليكم رجلا منكم ، وجعلنا أميرا عليكم . هذا ، بعد أن بلوناه فى جميع أحواله من ليله ونهاره ؛ واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ثابتا فى دينه ، متبصرا فى أمره وانى لأرجوا أن لا يخالف الظن فيه

وهذا المشار إليه عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعا مطيعاً لربه ، فان بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب فى أمره ففى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير . والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده .

الشعر

كان الشعر فى بلاد المغرب أقل منزلة منه فى أى بلد آخر من البلدان التى فتحها العرب لسيادة البربر هناك وانتشار لغتهم ، ولأن العرب لم يكونوا بالكثرة ولا بالسلطان اللذين كان لهما فى بلاد الاندلس رغم ما كان لهم من دول رسخت أقدامها فى تلك البلاد ، وربما كان عدم اخلاص البربر للعرب ولغتهم من الاسباب التى لم تجعل للشعر فى بلادهم ما كان له فى بلاد الاندلس ؛ لان جمهور الشعراء والأدباء فى زمن الامويين ومدة ملوك الطوائف كانت من العرب الذى سكنوا هناك . أو من الوافدين من المشرق ، فكانت العصبية البربرية تسيطر على الحالة العقلية هناك . لهذا لا نكاد نجد للشعر العامى مجالا أوسع من بلاد البربر وربما يحسب هذا النوع من الشعر الخليط من العربية الفصحى والاعجمية البربرية من مبتكرات أهل المغرب ، على أنه كان هناك من شعراء العرب وكتابهم الذين جلوا الى تلك البلاد من بلاد الاندلس وغيرها كثير ممن حاكى شعراء أهل المشرق وأكثرهم كان من أصل عربى .

وقد أخذ الشعر فى هذه البلاد كثيرا من الاوزان المختلفة التى تشبه أوزان الموشحات ، وكثيرا ما كان الشعراء من المغاربة لا يلتزمون الاعراب ويسمون قصائدهم بالاصمعيات ، كما ذكر ابن خلدون ذلك قال : « ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر فى أعاريض

مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد ، كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل بفاس ، يعرف بابن عمير ، فنظم قطعه على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها :

أبكانى بشاطى النهر نوح الحمام   على الغصن فى البستان القريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام   وماء الندى يجرى بثغر الأقاح

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذى ليس من شأنهم، وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا ... فمن المزدوج ماقاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل تازا.

المال زينة الدنيا وعزة النفوس   يبهى وجوها ليس هى باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس   ولوه الكلام والرتبه العاليا

ومن أدباء الاندلس المعروفين ابن رشيق القيروانى، وأبو اسحاق الحصرى القيروانى ، وأبو الحسن الحصرى ، وابن شرف وغيرهم ، وأنا ذاكرون هنا كلمة عن كل واحد منهم .

ابن رشيق القيروانى

وهو أبو على الحسن بن رشيق القيروانى . ولد بقرية المهدية سنة ٣٩٠ هـ من أب رومى كان من موالى الازد، توفى ببلدة مازر من مدن صقلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكانت صنعة أبيه فى بلدته المهدية الصباغة فعلمه أبوه صنعته . ثم قرأ الادب ونظم الشعر وأراد التزود من ملاقاة الادباء والعلماء ، فرحل الى مدينة القيروان وعرف هنا بالادب والشعر حتى ذاع أمره واتصل بحاكمها ومدحه ودخل فى خدمته ثم انتقل الى

جزيرة صقلية على أثر الاضطراب والحروب التى ثارت فى مدينة القيروان وبقى هناك الى أن توفى ببلدة مازر .

عاش ابن رشيق فى عصر العلوم والآداب ببلاد البربر وجزائر البحر الابيض المتوسط ، واتصل بالعلماء والادباء حين كان لبنى الاغلب حكام أفريقية أثر عظيم فى العناية بالعلوم .

وكان معاصراً لكثير من مشهورى علماء المغرب كأبى سعيد عبد الله ابن شرف القيروانى حتى كان بينهما مهاجاة ومناقضات ومناقشات علمية كتب فيها ابن رشيق عدة رسائل منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة أخرى نجح الطلب وأخرى تسمى قطع الأنفاس وغيرها . ومن معاصريه أبو اسحاق ابراهيم الحصرى القيروانى مؤلف كتاب زهر الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ بمدينة القيروان .

وهو من أشهر علماء زمانه فى فنون الادب وعلوم اللغة ، وأقبل بخاصة على ماذكره المتقدمون من نقد الشعراء وحل كلامهم وتفصيل مذاهبهم وكان يميل بطبعه الى ذلك فكان من النقاد العارفين بضروب البيان وصناعة الشعر ، بل عد من أئمتهم وكتب فى ذلك كتباً أشهرها (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) وكتاب آخر لطيف سماه (قراضه الذهب)

أما كتاب العمدة فهو كتاب جامع لفنون الشعر وعلوم البلاغة وكل مايتعلق بصناعة أو نظم الكلام ، جمع فيه كثيرا من أخبار الشعراء وأقوالهم وقد ملأ المؤلف كتابه باستشهاد من كلام الشعراء والكتاب فهو كتاب مجموع من كتب الادب وكلام الادباء والشعراء يدل على اطلاع واسع للمؤلف وإحاطة بكثير من المؤلفات لعلماء الادب

أما قراضة الذهب فليس على هذا النمط انما هو كتاب نقد ذكر فيه شيئا مما يختار نقده من شعر الشعراء ، ثم يذكر نوعا من التحليل بما للكلام من معنى جيد أو ردىء أو لفظ مستقيم أوساقط ويبين ماهو مبتكر أو منقول .

شعره

أما شعره فكان من نوع الشعر المعروف فى زمانه بعضه فى المدح وبعضه فى الحكم ونقد أخلاق الانسان وبعضه فى الفكاهة وهو فى جملته سهل الاسلوب به شىء من الصناعات اللفظية التى ذاعت هناك ؛ فقد حاكى غيره فى نظم الكلام وفى اقتباس الاساليب والمعانى والعبارات.

فمن قوله فى النصيحة :

من يصحب الناس مطويا على دخل   لا يصحبوه ، نخلوا كل تدخيل
لاتستطيلوا على ضعفى بقوتكم   إن البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح إن الجد يتبعه   ورب موجعة فى أثر تقبيل

ومن قوله فى المداعبة والغزل ·

ولما بدا لى أنهـــا لاتحبنى   وان هواها ليس عني بمنجلى
تمنيت أن تهوى سواى لعلها   تذوق صبابات الهوى فترق لى
فما كان إلا عن قليل وأشفقت   بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبهـــا حتى أذاب فؤادها   وذوقها طعم الهـــوى والتذلل
فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت   حياء وقالت : كل عائب ابتلى

وقال :

أحب أخى وان أعرضت عنه   وقل على مسامعه كلامى

ولى فى وجهه تقطيب راض ... كما قطبت فى وجه المـــدام
ورب تقطب من غير بغض ... وبغض كامن تحت ابتسام

ومن قوله فى العتاب .

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلا ... لديك ولا أثنى عليك تصنعا
ولكن رأيت المدح فيك فريضة ... علىَّ اذا كان المديح تطوعا
فقمت بما لم يخف عنـك مكانه ... من القول حتى ضاق مما توسعا
ولو غيرك الموسوم عندى بريبة ... لاعطيت منها مدعى القول ماادعى
فلا تتخالجك الظنون فأنهـــا ... مآثم واترك فىَّ للصنع موضعا
فو الله ماطولت باللوم فيـــكم ... لسانا ولا عرضت للذم مسمعا
ولاملت عنكم بالودادولاانطوت ... حبائلى ولا ولى ثنـائى مودعا
بلى ! ربما أكرمت نفسى فلم تهن ... وأحللتها عن ان تذل وتخضعا
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن ... ثقيلا على الاخوان كلا مدفعا
فباينت لا ان العداوة باينت ... وقاطعت لا لأن الوفاء تقطعا
ألوذ بأكناف الرجاء واتقى ... شمات العدا إن لم أجدفيك مطمعا

ابن شرف القيروانى

هو من مشهورى أدباء المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن شرف ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهو من أصل عربى نزل أجداده بلاد المغرب مع الفاتحين العرب ، وتربى فى مدينة القيروان ، وكان له ميل شديد للعلوم والمعارف والأدب فبرع فى الكتابة ونظم الشعر حتى ذاع أمره ودخل فى حاشية المعز بن باديس وصار من كتاب ديوانه واشتهر أمره بين الأدباء هناك فكثر منافسوه وكان من بين هؤلاء ابن رشيق

القيروانى كما سبق . ولما ذهب أمر المعز بن باديس من يده انتقل ابن شرف إلى جزيرة صقلية ثم الى الأندلس ، وعرف ملوك الطوائف هناك ، فكانت له منزلة رفيعة بينهم وتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٠ فعاش ابن شرف فى عصر زها فيه العلم والأدب فى بلاد المغرب والأندلس ؛ وله شعر رقيق أشبه بشعر بن رشيق وكتابته حسنة منمقة وكان يحسب من النقاد البارعين فى الأدب فمن شعره قوله فى الشكوى

إنى وان عزنى نيل المنى لأرى　　حرص الفتى خلة زيدت على العدم
تقلدتنى الليالى وهى مدبرة　　كأننى صارم فى كف منهزم

ومن شعره قوله .

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكمو　　فكأننى سبابه المتقدم

ابو الحسن الحصرى

ومن الأدباء المشهورين أبو الحسن الحصرى وهو الأديب الشاعر وهو ابن خالة أبى اسحاق الحصرى وقد اشتهر أبو الحسن هذا بأدبه الجم وكان عالما بعلوم الشريعة والآداب وعلوم القراءات هاجر الى بلاد الأندلس، واتصل بالمعتمد بن عباد من ملوك الطوائف؛ وتوفى بمدينة طنجة سنة ٤٨٨ هـ : وهو صاحب القصيدة الشهيرة التى عارضها جماعة من الشعراء فلم يبلغوا شعره فيها وهذه القصيدة هى :

ياليل . الصبُّ متى غَدُهُ　　أقيام الساعةِ موعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ وأرّقهُ　　أسفٌ للبين يُرَدِّدُه
فبكاه النجم ورق له　　مما يرعاه ويرصدُهُ
كلف بغزال ذى هيف　　خوف الواشين يشرده

نصبت عينـاى له شركا ... فى النوم فعز تصـيده
وكفى عجبا انى قنص ... للسرب سبانى أغيـده
صنم للفتنـة منتصب ... أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فمه ... سـكران اللحظ معربده
ينضو فى مقلته سيفا ... وكأن نعاسا يغمـده
فيريق دم العشاق به ... والويل لمن يتقـلده
كلا ، لا ذنب لمن قتلت ... عينـاه ولم تقتـل يده
يامن جحـدت عيناه دمى ... وعلى خـديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى ... فعـلام جفونك تجحده
إنى لأعيذك من قتلى ... وأظنـك لا تتعمـده
بالله هب المشتاق كرى ... فلعل خيالك يسـعده
ما ضرك لو داويت ضنى ... صب يدنيـك وتبعده
لم يبـق هواك له رمقا ... فليبك عليـه عوده
وغـداً يقضى أو بعد غد ... هل من نظر يتزوده
ياأهل الشوق لنا شرق ... بالدمع يفيض مورده

ابراهيم بن القاسم

ومن الشعراء المجيدين هناك ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيروانى الذى قال فيه ابن رشيق ونقله ياقوت الحموى فى معجم الأدباء هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه تلوح الكتابة على ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ... ومن شعره جوابا على أبيات كتبها اليه عمار بن جميل وقد انقطع عن مجلس الشراب

قريض كابتسام الرو ض جشمه نسيم صبا
كعقد من جمان الط ل منظوم وما ثقبا
ومنثور كنثر الد ر من أسلاكه انسربا
فأهدى نشر زهرته فتيت المسك منتهبا
إذا أثماره جنيت جنيت العلم والأدبا
بهزل حين ينشده كأنك منتش طربا
فحسبك من أخ يرعى لك العهد الذى وجبا
صديق مثل صفو الما ء بالصهباء قد قطبا
كنزت مودة منه كأنى أكنز الذهبا
إذا عد امرؤ حسبا فحسبي ذكره نسبا
ألذ من الحياة لد ى لكن قلبه قلبا
فهان عليه ما ألقى وظن تجلدى لعبا
جفوت الراح عن سبب وكان لجفوتى سببا
فصرت لوحدتى كلاً على الاخوان مجتنبا
وذاك لتوبة أمات إن أقضى به أربا
فها أنا تائب منها فزرنى تبصر العجبا

وقد قدم مصر سنة ٣٨٨ هـ . بهدية إلى الحاكم بأمر الله . ومما قاله من قصيدة يشوق فيها اخوانه بمصر

وما أنس من شىء خلا العهد دونه فليس بخال من ضميرى ولا فكرى
ليال أنسناها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
لعمرى لئن كانت قصارا أعدها فلست بمعتد سواها من العمر

أخادع دهرى أن يعود بفرصة ... فينقذ روح الوصل من راحة الهجر
وترجع أيام خلت بمعاهد ... من اللهو لا تنفك مني على ذكر
فكم لى بالاهرام أو دير نهية ... مصايد غزلان المكايد والقفر
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت ... جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمنس فالبستان للعين منظر ... أنيق إلى شاطى الخليج إلى القصر

أبو اسحاق الحصرى القيروانى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى ولا تعرف بالضبط سنة ميلاده ولا السنة التى توفى فيها ، ورجح ابن خلكان أنه توفى بمدينة القيروان سنة ٤١٣ هـ وبعضهم يقول انه توفى سنة ٤٥٣ هـ . وقد كان من أكبر أدباء بلاد المغرب وشعرائهم المعروفين ومن أشهر كتبه المعروفة كتابه « زهر الآداب » الذى جمع فيه دروب الأدب المعروفة من شعر بليغ مختار ، ونثر بديع وحكم عالية ؛ وكثير مما جرى فى المجالس والمحافل الادبيه وقد اشتهر بهذا الكتاب لجمعه لضروب الآداب كما قلنا . وهو مؤلف أعظم منه شاعرا أو كاتبا

ابن حمديس الصقلى

مولده ونشأته

ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى سنة ٤٤٧ هـ فى جزيرة صقلية ، وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر الى أسبانيا وعاش فى أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة . ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرمانديين ، الذين لم تكد

تطأ أقدمهم تلك الجزيرة حتى نـكلوا بأهلها كل تنكيل ، وأذاقوهم العذاب الأليم ، وحملوهم على ترك دينهم ، وفتكوا بأعراضهم ، وأذلوهم وأهانوهم فى شرفهم . فشاهد ابن حمديس ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الاوطان من أهلها ، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف ، وينقض عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول ، على الضعيف السليب من كل قوة وحول

لذلك آثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده . وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه وخياله الشعرى وأخلاقه ، حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة ، وصدره من الصدور المنقبضة ، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث :

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بأشبيلية ، وعاش فى حاشية المعتمد بن عباد وصار فى جملة شعرائه ، وتبعه فى منفاه . ولم يكن ابن حمديس معروفا عند قدومه إلى أشبيلية . فقد قال :

« أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى ، ولا يعبأ بى ، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى ، وهممت بالنكوص على عقبى . فانى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذ بغلام معه شمعة ومركوب ، فقال لى أجب السلطان . فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فنك [1] ، وقال لى افتح الطاق التى تليك ، ففتحتها ، وإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى ، فحين تأملتها . قال لى أجز ·

انظرهما فى الظلام قد نجما . فقلت : كما رنا فى الدجنة الاسد

(١) دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت : فهل امرىء فى جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت : وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته[1] » .

أما نفسه فنفس رجل ربته الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته مرها قبل حلوها . فتلقت عليه الحياة ولوت من ظهره بعد أن أخرجته من وطنه ، وليس له إلا لسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم . فلما اضطر إلى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه وأظلمت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده ، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملذات أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخمريات والمدح والوصف .

شعره وكان ابن حمديس ميالا الى ادراك الاشياء والمعانى إدراك من يحاول فهم مايرى ويفكر فقد كان يرغب دائما فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات . وهذه طريقه من طرق المحاولة فى الادراك . وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه إلى وصف المرئيات وإدراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى إلى آخر ، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبه .
أما قوته الشعرية التى كون بها هذه الاشياء ووضعها فى أسلوب خيالى جميل فتابعه لنفسه وعقله ، وأكثر اعتماده فى ذلك على مايكتسبه من التأثر بظواهر الاشياء ومافيها من التشابه بالجمال

(١) نفح الطيب ج ٢ صفحة ٤١٦

وعلى الرغم من صبغته الجدية فى شعره ، فان كثرة كلامه فى الخمر ومجالسه والعشق وآثاره ، تدل على أنه كان يميل إلى شىء من المجون ، ولكنه كان أقل من غيره فى ذلك ، فان الانسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً فى كلامه . ولولا أنه عاش فى هذا العصر وفى حاشية المعتمد بن عباد ، لقلنا إنه كان بعيداً عن اللهو والمجون . ولحملنا شعره الذى جاء فى هذا على نوع من الصناعة والخيال ، إذ أننا نجده فى كثير من شعره يميل إلى الكلام فى المواعظ والعبر ، أو إلى بعض الآراء التى تدل على أنه كثيرا ما كان يدفعه الفكر الى خوض المعانى النفسية أو الخواطر الفلسفية ، ويمزج هذه الافكار ويصوغها فى أنواع شعره . ويظهر من شعره أنه أكثر تأثرا بالمعانى الاجتماعية . ولهذا أيضا نراه شاعرا مفكرا من أصحاب الملاحظات والنظر فى الحياة والاجتماع أكثر منه شاعرا وصافا كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع فى هذا الشعر الجدى المملوء بالعبر والحكم كما دل على أنه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتمال شعرة على جولات فكرية مملوءة باحواله النفسية ، والآلامه التى يشعر بها ، وكثيرا ما تظهر هذه الآلام آلاما لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة . كما تظهر آلام العاشق الشاعر آلاما لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعرا نفسياً ناقما على الحياة وما فيها متشائما :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب ؟
أو قال حسبى من إخمال ذى حسب ؟

لا يلحظ الحر إلا مثلما وقعت على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه يخوضها كل حين جحفل النوب
إن الزمان بما قاسيت شيبنى ولم أشيبه : هذا والزمان آبى
ولو خلا الدهر ذو الانباء، من عجب أكثرت منه ومن أنبائه عجبى
قرأت وحدى على دهرى غرائبه فما أعاشر قوما غير مغترب
أحلت عزمى على همى فقطعه كأن عزمى على صمصامتى الذرب
ماقربى السير فى سهل ولا جبل إلا كما قرجارى الماء فى صبب
ولم أضق فى السرى ذرعا بمعضلة قد زاحمتنى حتى ضاق مضطربى
وترتقى حر أنفاسى فابعثه برداً ، وان كان مستبقى من اللهب
وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد وإن تبطن داء قابل الوصب

ولقد تنقبض نفسه ، فتحرك خياله حركة البائس الذى ينظر إلى الأيام نظر الحاقد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه واقف على أبواب الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ، ذلك وهو فى حالة كآبة ، نفسه متأثرة بهذه الخواطر : كما قال :

وعظت بلمتك الشائبة وفقد شبيبتك الذاهبة
وسبعين عاماً ترى شمسها بعينك طالعة غاربة
فويحك اهل عبرت ساعة ونفسك عن زلة راغبة
فرغت لصنعك مالا يقيك كأنك عامـــلة ناصبة
وغرتك دنياك إذ فوضت إليك أمانيها الـكاذبة

أصاحبة خلتها ؟ انها   باحدأثها، بئست الصاحبة
أماسلبت منك برد الشباب   فهل يسترد من السالبة ؟
وإن دقائق ساعاتها   لعمرك آكلة شاربة
وإن المنية من نحوها   عليك باظفارها واثبة
ألم ترها بحصاة الردى   لكل حميم لها حاصبة ؟
كان لنفسك مغنيطسا   غدت الذنوب به جاذبة
فياحاضراً أبدا ذنبه   وتوبته أبدا غائبـــة
أذب منك قلبا تجارى به   سواكب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا   وأتعب إثباته كاتبة
عسى الله يدرأ عنك العقاب   وإلا فقد ذمت العاقبة

ولابن حمديس صبغة خاصة فى شعره ليست معروفة كثيراً فى الشعر العربى : وهى محاولة الخروج من الواجدانيات التى هى أكبر مظاهر الشعر العربى ، إلى الكلام عما يجول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لاغير ، بل من جهة التفكير أيضاً ، ومايمر بنفس الانسان ومايشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، ومايعتريه من حيرة وشك ويقين ، وكراهة للوجود أحيانا ، وميل إلى البقاء تارة . ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها ، وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور من حسن الذكر كوصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وآثره فى النفس ، وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها .

فهو فى كل أنواع شعره جاد لامازح . ولذلك تجد أثر فكره

وحركة عقله فى كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التى هى أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعرى . وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ؛ فاذا كانت حاسته النفسية التى هى رقة شعوره قوية أيضاً كان فى مقدمة الشعراء . كل ذلك فى شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسى فى مقدمة شعراء العرب المفكرين وقد بين فى شعره ما تنطوى عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انسانا أمثاله كثيرون . وإذ كان كثير التفكير فى ظلمات الحياة ووجوهها العابسة ، وميالا الى التأمل فى ذلك : أكثر من التفكير والنظر فى وجوهها النضرة الباسمة ولكن غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه إدراكه ، ولقد كان أغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه فى غير قبضة أهله من الاسباب التى أثرت فى نفسه واستولت على عواطفه : فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن فى ذلك فيلسوفا ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتوصفة فى لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحيانا عاطفة الندم أو توبيخ النفس فيرى نفسه ذليلا حقيرا ، وكأنه يبكى على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعرى وأرقه فى هذا الأنين . حيث يقول:

يا ذنوبى ثقلت والله ظهرى   بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى   لضروب من سوء فعلى وهجرى

ثقلت خطوتى وفودى تفرى غيهب الليل فيه من نور فجرى
رب موت السكون فى حركاتى وخبا فى رماده جمر جمرى
وأنا حيث سرت آكل رزقى غير أن الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا علمه باختلاف سرى وجهرى
هل بقلبى الى صلاح فسادى منه ، واجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جناه لسانى وتناجت به وساوس فكرى

أو كقوله وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف، ولكنه مع ذلك شاعر جميل القول :

كملت لى الخمسون والخمس ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالاضداد من جسدى غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان ، كما لحظ الهصور جآذر جنس
وأبيض من فودى من شعرى وحف كأن سواده النقس
والعمر يذبل فى منابته غرس ويلبس نضرة غرس

إلى إن قال :

وأقل ما يبقى الجدار اذا ماانهد تحت بنائه الأس
يارب ان النار طاغية ولكل سامعة لها حس
لاتجعلن جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس

وكقوله فى الشكوى :

أسامنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى

وكنت أمشي ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشي
كأنني إذ كبرت نسر بطعمة فرخه بعش

ومن دعاباته في ذلك :

نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لاتنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابة والبق تشرب والبراغث ترقص

وكانت تثور نفسه ثورانا وتغلي غليان المرجل فتنطق بالشعر وكأنه زاهد في صومعة . أوناسك في دير أوتقي من كبار التقاة فيقول :

بيتك فيه مصرعك وفي الضريح مضجعك
غرتك دنياك التي لها سراب يخدعك
همت بحب فارك وقلما تمتعك
يضرك الحرص بها والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذي يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة فالله سوف يجمعك
وللسحاب موقف أهواله تروعك
كم جرما أشفقت من لمسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات فى ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل مايخطر بباله ، ويسطر الماضى كما يسطر الكاتب مذكراته فى كتاب ، أوكما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل فى معنى آخر بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصبغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام القارىء سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال فى إحدى هذه القصائد :

قضت فى الصبا النفس أوطارها ... وأبلغها الشيب إنذارها
نعم وأجيلت أقداح الهوى ... عليها فقسمن أعشارها
وما غرس الدهر فى تربة ... غراساً ولم يجن أثمارها
فافنيت فى الحرب آلاتها ... وأعددت للسلم أوزارها
كميتا لها مرح بالفتى ... اذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها ... فتحسبه كأس مضمارها
وساقيـة زورت كفها ... على عنق الظبي أزرارها
تدير بياقـونة درة ... فتغمس فى مائهـا نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم ... كرام النجائر أحرارها
يديرون راحا تفيض الكؤوس ... على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ فى وصف دير وصاحبته وماعندها من خمر ، وأبدع فى وصف الخمر بابتكارات عجيبة ، وخيالات غريبة . ووصف مافيه من ملاه وقيان ترقص وتغني ، وهو يقص ذلك ويحكيه حكاية ، وكأنك جالس فى ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء ، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة

أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت ديرها فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمى فاجرت من الدن دينارها
تفرس فى شمها طيبها مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمور وأعصارها
يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالة أطلعت على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسى قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كأن لها عمداً صففت وقد وزن العدل أقطارها

ثم غلبه الوجد فذكر وطنه فى حزن وألم فقال

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة فأنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك ، وذكر غربته ، وهجر وطنه ، وأن ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته

من الناس وهو يضرب الأمثال فى أثناء ذلك ، وفيما لاقى من الأهوال بانفراده فى عزلته حتى عن خيال كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغني بفضائلها الجم وذكر لياليه الماضية ، وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الاعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده ، وماكان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بافضل وأجمل مايصف شاعر قوما يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين إلى وطنه ، والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جُنة للنوائب ... فان لم تسالم يازمان فحارب
عجمت حصاة لاتلين لعاجم ... ورضت شموسا لايذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة ... إذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة ... وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
يبيت رياش العضب فى ثني ساعدى ... معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مثلما ... مضاربه يوم الوغى فى الضرائب
فكنت وفدى فى الصبا مثل قدره ... عهدت اليه أن منه مكاسبى
فان تك لى فى المشرفيّ مآرب ... فكم فى عصى موسى له مآرب

ثم أخذ يتكلم عما فى نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة الناس والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت بها معانيه ويجسمها للقراء. ولم يخرج فى مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض فى بعض العبارات، وذكر الركب والرحل والنوى وركوبه القلاص وهز الها. كقوله:

أتحسبنى أنسى ومازلت ذاكراً ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبي

تغذى بأخلاق صغيراً ولم تكن ضرائبه الا خــلاف ضرائبي
ويارُبَّ نبت تعتريه مرارةٌ وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
علمت بتجريبي أموراً جهلتُها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبةً قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسبابى بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التى أبتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحا يخجل منه القارىء فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء ؟ هل هذا من الاساليب الشعرية ؟ لعله من وسائل التسلية ، على مافيه من المبالغة والتغنى بمدح النفس . ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فانها بدعة عجيبة فى الشعر العربى وأسلوب غريب .

و بينما الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا ، ولايقنع بشىء منه تراه فاجأك بذكر الخمر ووصفها ومدحها . وأنك لتكاد تثمل من ذلك ، وإذا هو ينتقل إلى الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله . فيقول

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زُهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى تُصِخ فى مقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لادَنَّسه الراح والصبا له من يد الأيام غير سوالب
معتقة دع ذكر أحقاب عمرها فقد ملئت منها أنامل حاسب
إذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا بدا الدر منها بين طاب وراسب
ولو أن أرضى حــرة لاتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب

ولكن أرضى كيف لى بفكاكها | من الاسر فى أيدى العلوج الغواصب
إلا فى ضمان الله دار ينطوى | ودارت عليها معصرات الهواطب
أمثلها فى خاطرى كل ساعة | وأمر لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للموطن الذى | مغانى غوانيه اليه جواذبى
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل | تمنى له بالجسم أوابة آئب

هذا خلط فى تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب ، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجميل . على أن هذا شاعر عرف كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطيع نفسه حين تدفعه إلى الكلام ليصور خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله فى الوصف براعة معروف ، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات ، ودقة فى جمع الأشياء وتنسيقها ، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده ، أوكأنه يغوص على المعنى الخفى فيأتى به ويضعه فى موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعانى ، حتى كأن كل كلمة اختطفت من مكانها لتوضع فى مكان آخر : ولكنك تراها كالعقد يوخذ من عنق الحسناء الى عنق الغانية ، فلا يفقد قيمته ولا نضارته أوكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك مايصف وتحس مايقول :

كما فى قوله يصف شمعة :

قناة من الشمع مركوزة | لها حربة طبعت من لهب
تحرق بالنار أحشاها | فتدمع مقلتها بالذهب
تمشى لنا نورها فى الدجى | كما يتمشى الرضى فى الغضب
عجبت لآكلة جسمها | بروح نشاركها فى العطب

وكما قال يصف ساقية:

وساقية تسقى الندامى بعدها | كؤوساً من الصهباء طاغية السكر
يعود فيها كل جام كأنما | تضمن روح الشمس فى جسد البدر
اذا قصدت منا نديما زجاجة | تناولها رفقا بأنمله العشر
ويرسلها فى مائها فيعيدها | إلى راحتى ساق على حكمه تجرى

ولأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب. لا يكاد يشعر بشيء إلا ذكره فى شعر ، ولا تكاد تمتلىء عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك، أو كأن هذه كانت كل حياته ، لذلك كان يقول فى المعنى الطريف ، كما يقول فى المعنى المبتذل . ولكن الابتذال يضيع أملم شعوره بالجمال وحسن صناعته .

ولا تكاد تقف له على غور فى الوصف ، ولا على أسلوب واحد لأنه يميل إلى الاختراع : ويصف الصيد والليل ، ويذكر رفاقه ، ثم يعرج على السرور والكلام فى الخمر ، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها ويصف طلوع الصبح ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها وكثيرا مايكون وصفه حقيقياً ، أكثر منه خياليا كأنما يرسم مايرى . كما قال :

وليلةٍ حالكةِ الازارِ | مدّت جناحاً كسواد القارِ
تحجبُ عنا غُرة النهارِ | عقرتُ فيها الهمّ بالعقارِ
بجسم ماء فيه روحُ نارِ | فى مجلس ضمّ بنى الفخارِ
كهالة تضحك عن أقمارِ | تزاحمت بأنجم دراري
من كل نَمْرٍ فى حمى الذّمارِ | مهين مالٍ ومعزّ جارِ

يُسقَوْنَ من ساطعة الانوارِ   كثيرة الأسماء والاعمارِ

الى ان قال ·

قمنا لننفى عرض الخمَّار   عن جوهر الأنفس فى الصحارى
بكل طِرف سَهلب مطّار (١)   موجه الاقبال والأدبارِ

الى ان قال :

فمر بى غيم من الغبار   يشكل فيه أحرف الآثارِ
كأنما يطلبه بثار   ماذا يريد الظبى بالفرارِ
يحذفه بِيرْمع صغار   حذف المولَى باليد اليسارِ
من ابن ريح فى قميص نار   وهو مع الاجهاد والاضرارِ
فلو ترانا فى انتزاح الدار   فى روضة كالغادة المعطارِ
نأكل من صيد أبى العقار   وتشرب للصهباء بالكبارِ

ما كنت إلا خالع العذارِ

ويصف مجلس أنس ومايدور فيه ، فتجده ينسى أحيانا نفسه المظلمة ، وينكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويذكر العبارات التى تدعو إلى الخوض فى غماره ، وإلى انتها زهذه الأوقات حتى بعد فوات الشباب الذى يبكى عايه ، بما لايكون أرق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالعبرة والعظة أو تعود إليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج ، فيفيق من ثورة سروره ومجونه ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل هذه

(١) سهلب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير

المجالس ، ولا من شراب الخمور ، ويرجع إلى التقوى والندم على الذنوب فيقول

حبذا فتيان صدق عرسوا بعذارى من سلافات الخمور
عَرْبَدَ الصحوُ عليهم بالأسى فاتقاه السكرُ عنهم بالسرور
عَمّروا اربعَ الصّبا من قبل أن يتمشى فيه بالشيب دَثور
إن للأعمار أعجازا إذ بلغت لم تثن منهم صدور
كل نافى[1] العمر فى شِرّته للصبا نار وفى الوجنة نور
يقتنون العيش من قانية ذات عمر كثرت فيها الدهور
أطلع الساقى عشاء منهم أنجم الكاسات فى أيدى البدور
عَدّ بالأكواب عنى إن لى فى يد الآنس عنهن نفور
عمرّ الشيبُ الدجى من لمّتى بنجوم طُلّع ليست ثغور
لانشور لشبابى بعد ما مات من عمرى إلى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبله إنه فى شَعَرى شاهد زور
أنا من وجدى بأيام الصبّا أذرف الدمع رواحا وبكور
فكأنى ذو غليل تلتظى لوعة منه إلى ماء الثغور
أصف الراح ولا أشربها وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالكر ولا يصطلى نار الوغى حيث تفور
فسواء بين إخوان الصفّا وذوى اللهو مغيبى والحضور
أنا من كسب ذنوبى وجل وإن استغفرت فالله غفور

وقد اشتهر بوصف القصور كما قال :

---

(١) هكذا فى الاصل

كم شاخص فيه يطيل تعجبا ... من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها ، تسقى الرياض ينابعا ... نبعت من الثمرات والأغصان
خصت بطائرة على فنن لها ... حسنت فافرد حسنها من ثان
قبس الطيور الخاشعات بلاغة ... وفصاحة من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها ... منها إلى العجب العجاب رواني[1]
فكأنها ظنت حلاوة مائها ... شهدا فذاقته بكل لسان

إلى أن قال :

كم مجلس يجري السرور مسابقا ... منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة ... فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سمكها علوية ... وقبابه فلكية البنيان

وكقوله :

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي ... حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعة أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما للأزورد مخرم ... بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الأرض الذي أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا

---

(١) كذا في الاصل

كم من قصور للملوك تقدمت　　واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة　　منها، ودمرت العدا تدميرا (١)

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما فى نفسه من ألم، ومايلاقيه فى سبيلها من شماتة الأعداء، ومايتمناه من الصبر فى سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها ويدل فى آن واحد. فيقول:

عذبت رقة قلبى　　ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما　　وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو　　رضيته لحبك
من لى بصبر جميل　　على رياضة صعبك
فياتشوق بعدى　　إلى تنسم قربك
ووجنة غمستها　　فى الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسلمى　　كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد　　فى ملاحة عجبك
فكى من الأسر قلبا　　عليه طابع حبك
ونعمينى بعتبى　　فقد شقيت بعتبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل فى ذلك، وربما لم يكن له ميزة فى غير الأسلوب، وربما كان مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارىء من الثرثرة. غير أن المعانى تنهال عليه انهيالا فيعذب الكلام. كما قال:

---

(١) راجع القصيدة فى الديوان المطبوع فى رومه ص ٤٨٢

غيرّته غير الدهر فشاب ورمته كل خود باجتناب
فغدا عند الغوانى ساقطا كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا إذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكأن الشعر منه سعف يلتظى فيه شواظ ذو التهاب
أيها المغرى بتأنيب شج سلط الوجد عليه هل أناب
هام لا همت من الغيد بمن حبها عذب ، وإن كان عذاب
لمت لا لمت عميدا قلبه عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باق مع المرء إذا كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبى من أقبلت فى صورة ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل فى خلقها ليتها تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن . والردف النقا والاقاح الثغر ، والطل الرضاب
ظبية فى العقد إما التفتت ومهاة حين ترنو فى النقاب

ويذكر الخمر وكأن الناس جميعا سكارى ، وفى كل رأس نشوة وحيرة . وكأن الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكمل شىء فى الوجود ، لأنه يصفها بأكمل الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات : ويخيل إلى لانسان أنة لم يبق كلمة تمت إلى الخمر بقرابة الا ذكرها ، أومعنى يدب فى النفس بدبيبها إلا قاله ، والقارىء يثمل بذكر الخمر كما يثمل بأسلوب لشاعر وعذوبته ، وكأن أحدا لم يقل مثله فى ذلك كما قال .

:جسم له من غيره روح لذة
سليل ضروع أرضعت حلب السحب

إذا قبض الابريق منه سلافة تقسمها الشراب حولية بالقعب
شربنا وللاصباح فى الليل غرة تريد اندماجا بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحية جدول يفىء عليه ظل أجنحة القضب
بازهر يجلو اللهو فيه عرائسا كراسيها أيدى الكرام من الشرب
كأن لها فى الخمر خمر غلائل مزررة الأطواق باللؤلؤ الرطب
وكم من كميت اللون تحسب كأسها لها شفة لعساء ذات لمى عذب
اذا مزجت لانت لنا وتحولت
باخلاقها عن قسوة الجامح الصعب
جرى فى عروق النار ماء كأنما رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
وإن نال منها ذو الكآبة شربة تسربت الارواح منه إلى القلب

اسلوب ابن حمديس

إذا تأمل القارىء ماذكرناه وماسقناه من شعر ابن حمديس عرف أسلوبه الفكرى وأسلوبه البيانى. أما أسلوبه فى التفكير فيظهر من هذا الاضطراب الفكرى والقلق النفسى، الذى يدفعه إلى محاوله التعبير عما يجول بنفسه من جد وهزل وجمال الحياة وخيرها وشرها.

تنساب عليه المعانى أنسيابا وتتزاحم عليه فيرصفها رصفا وكأنه كان يخشى عليها، من أن تفر من ذاكرته فيقيدها قبل شرودها. ومن هنا كانت كثرة المعانى المختلفة فى القصيدة الواحدة أوطرقه موضوعات متضادة كالزهد والتقوى وكوصف الخمر والمجون.

وإنما كان غرضه الاستعانة بالبلاغة على ابراز مافى نفسه أو مشاهداته فى الحياة .

أما أسلوبه البيانى فيكاد يكون من السهل الممتنع ليس فيه غموض ولا تكلف ، ولا قعقعه فى الألفاظ ولا محاكاه لغيره . وتكاد تجده فى كل كلامه أن المعنى لايزيد على اللفظ وأن اللفظ لايزيد على المعنى وإذا جاء فيه شيء من استعاره أو كناية أو تشبيه ؛ فقد يجيء عفوا أو قصدا ولكن بدون تكلف .

الآداب العربية بعصر

من سنة ١٢٢٠

حالة اللغة قبل ذلك العصر

أتى على اللغة العربية وآدابها عصور مختلفة اختلفت فيها منزلتها قوة وضعفا ، ورفعـة وانحطاطا ، على حسب الحوادث السياسية والاجتماعية : فان التاريخ الاسلامى من أكثر تواريخ العالم اضطرابا ونقلبا ؛ والامم الاسلامية أكثر الامم اختلافا فى الاحوال الاجتماعية. فقد دخل فى الدين الاسلامى أمم مختلفة فى عاداتها وأخلاقها . وكثير منها استولت عليها الاطماع وتطلعت نفوسها الى الملك ، فكان من جراء ذلك حروب متوالية ودول متداولة بعضها يعمل على رقى اللغة وبعضها كان يجهلها فلا يساعد على انهاضها . ثم كان لاختلاف هذه الامم أثر فى اختلاف اللهجات ، وتسرب الدخيل فى العبارات والاساليب : اذ أصبحت اللغة العربية لغة لكل هذه الامم فلم تثبت على حال واحدة ولم تسكن فى قطر واحد أو اقليم واحد : ولو أنها كانت ولاتزال لغة الدين ، والمسلمون فى جملتهم أشد الناس تمسكا بدينهم لتعددت لهجاتها بتعدد الامم التى أصبحت تتكلم بها

وقد كانت الحالة العقلية فى العصر الاسلامى الأول مصبوغة بصبغة عربية اسلامية · يتنازع كل منهما الآخر فى السلطان والجاه . فبينما كان الروح العربى يسود العالم الاسلامى زمن بنى أمية والعصبية العربية

تسود كل شيء وتمثل الروح البدوية القديمة فى ثوب اسلامى جديد والنعرة العربية تظهر فى كل أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية لدى الخلفاء والأمراء فى مجتمعاتهم ومراسلاتهم وأحاديثهم وخطبهم وآدابهم شعرا ونثرا كان الروح الدينى يستولى على عقول المسلمين ويقود منهم ملكة التفكير وتملك كل المظاهر العقلية فى العلوم والفنون والعقائد فكانت الحياة الاجتماعية والعقلية حياة عربية اسلامية إلى نحو أواخر دولة بنى أمية .

فاما احتك المسلمون بالفرس ودخل هؤلاء الاسلام وتسللوا إلى مراكز الامراء والقواد والزعماء وقادوا العالم الاسلامى . أخذ العرب عنهم حضارتهم كما أخذوا عن غيرهم بمساعدة الفرس فترجموا ونقلوا العلوم العقلية والكونية واطلعوا على آثار اليونان من فلسفة وغيرها أخذت عقولهم تنصبغ بصبغة أخرى غير تلك الصبغة العربية الاسلامية ، وكانت هذه العلوم الحديثة تستولى على روح التفكير لديهم وتنتزع منهم بعض جذور ملكاتهم القديمة ، ذلك الى ما لحقهم من الدخيل فى دمائهم وأنسابهم وعقائدهم فظهرت منهم المذاهب الكثيرة فى السياسة والاجتماع والعقائد وظهرت فيهم ثقافة جديدة مصبوغة بصبغة علمية أوسياسية بما قرأوه وعرفوه من علوم الطب والرياضة والفلسفة . وكانت هذه الحياة العقلية تخالف كل المخالفة تلك الحياة الاولى التى كان عمادها الدين الاسلامى وعلوم الشريعة والعلوم العربية

وكان أثر هذه الحياة الجديدة فى عقول المسلمين (لا فى عقول العرب وحدهم) ان تغيرت قوة التفكير لديهم وطرقه، ونوع الادراك

فى كل شىء وبخاصة الحياة الادبية فذهب من الشعر ذلك الروح البدوى العربى الصميم وحل محله صبغة أخرى أنبتتها الحضارة الجديدة فى نفوس المسلمين فكان الشعر العربى شعرا صناعيا منمقا يدل على تذوق الشعراء فنون الجمال وضروب البلاغة فى القول أكثر من أن يكون شعرهم صورة صحيحة للنفوس والحياة الاجتماعيه ، كما كانت الحال زمن بنى مروان

وقد دام هذا العصر زهاء قرنين وكان مركز الثقافة الاسلامية مدينة بغداد وما يتبعها من العواصم التى تشعبت من هناك كقرطبة والقيروان والقاهرة زمن الفاطميين

فلما انقسمت الدولة الاسلامية الى دويلات وتغلغل فيها هذا الانقسام بسبب أطماع الامراء من الفرس والترك والديلم وغيرهم تشعبت الحياة العقلية الى شعب فى العراق وفارس وتركستان والشام ومصر وبلاد المغرب وكان أكبر مظاهر هذه الحياة العقلية فى بلاد المشرق أو لدى الدول التى قامت هناك حيث تعددت أوطان اللغة العربية كما يقولون ولكن هذا الانقسام كان داعيا إلى تسابق هذه الممالك فى أحياء العلوم والآداب ولاسيما لدى الدولة السامانية والبويهية · وانتشر فى هذا العصر نوع من الثقافة الفارسية لها الممزوجة بالروح العربى وكان عصر تقوم فى اللغة والأدب على ماهو معروف .

وقد دامت هذه الحال الى أن أستولى التتار على المملكة الاسلامية وأزالوا الخلافة من بغداد وخربوا البلاد وأبادوا مؤلفات العلماء فانتقل مركز الثقافة العربية الاسلامية الى مصر وبعض البلدان الأخرى

كالشام واليمن والحجاز وافريقية الشمالية ولو أنهم ساروا على هذا النحو من التخريب لحييت العربية وأنطمست معالم الاسلام ولكنهم اعتنقوا الدين الاسلامى ليسيطروا على العالم العربى وليملكوا نفوس المسلمين فأنشئوا المساجد والمدارس وأنعموا إذ ذاك على العلماء والمشتغلين بالعلوم ، وساعدوا على نشر العلم فبقيت اللغة العربية حافظة كيانها إلى أن جاء زمن المماليك بمصر فعملوا على تخليد ذكراهم وانشأوا المدارس والمساجد ورصدوا عليها الأموال كما فعلوا بذلك فى ربوع الشام وشجعوا العلماء على التأليف فكان لهم فضل لاينكر وقد كان ذلك من الاسباب التى ساعدت اللغة العربية على الرقى كما ساعدت العلماء والمؤلفين على نشر العلم والعناية بالتأليف فى الفنون المختلفة .

ولقد كانت لهجات الكلام فى ذلك الوقت بمصر والشام مزيجا من العربية الفصحى والعامة ولكن الكتابة كانت باللغة الفصحى،مع بعض الأساليب التركية وقد ظهر فى هذا العصر جماعة من كبار الكتاب كالقاضى الفاضل وغيره .

وكانت الحركة العلمية على أحسن ماتكون فى ذلك العصر حيث ظهر كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النووى المتوفى سنة ٧٣٢ ﻫ ، وكتاب صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندى وغيرهما من المؤلفات الشهيرة .

وأخذ الشعر يتقدم خطوات بابن نباتة المصرى والشاب الظريف وصفى الدين الحلى وغيرهم واستمرت الحال على ذلك الى أن جاء العصر العثمانى فلم يعن الأتراك باللغة أيه عناية .

حتى كاد يقف التيار تقدمها وطغى على العربية كثير من الأساليب والألفاظ التركية واللهجات العامة وانحطت منزلة الكتابة ووقفت حركة التأليف وانطمست معالم الشعر وجمدت قرائح الشعراء إلى أن قيد الله لمصر أن يعمل على رقيها ذلك الرجل العظيم محمد على الكبير .

« مصر والحملة الفرنسية »

لم يكد القرن التاسع عشر يتنسم نسيم الحياة حتى ظهر فيه رجلان عظيمان : فقد أنجبت الثورة الفرنسية نابليون بونابارت فى أوربا كما جذبت مصر الغنية اليها من سواحل مقدونيا الجنوبية ذلك الجندى العظيم (محمد على) الذى مالبث قليـلا فى وادى النيـل حتى ظهرت مواهبه وميوله للعمل على ترقية مصر فاشرأبت إليه أعناق المصريين لينقذهم من ظلم المماليك واستبدادهم ، فصار بنظره الثاقب وفطرته النقية منقذ البلاد ومجدد مجدها .

وكانت الحملة الفرنسية التى قادها (بونابرت) إلى مصر كشفت كثيرا عن مخبئات البلاد العلمية والتاريخية ووضعت حجرا لاساس بناء العلم العصرى فى بلاد الفراعنة : فقد عمل علماء الفرنسيين الذين صحبوا بونابرت فى ثلاث سنين مالم يعمله غيرهم فى قرون ، وغرسوا بيدهم فى مصر أول بذرة من بذور الحضارة الحديثة من علوم أوروبا وفنونها . فمسحوا البـلاد طولا وعرضا ووضعوا الخرائط الجغرافية والجيولوجية ، وأنشأوا معامل الكيمياء وكشفوا عن تاريخ البلاد القديم الذى كان مجهولا إلى زمنهم ، وكتبوا عن التاريخ الحديث وألفوا

كتابهم الشهير (وصف مصر) الذى جمعوا فيه خلاصة جهودهم والذى لايزال على الرغم من مرور زهاء قرن ونصف قرن مرجع الباحثين والمؤلفين . وأنشأوا أول مطبعة عربية تولى إدارتها أحد علمائهم المستشرقين (مارسل) وقاموا بغير ذلك من الاعمال العظيمة التى كان لها أثر كبير فى نهضتنا العلمية الحديثة فاوجدوا فى البلاد حركة علمية وأيقظوا العقول من سباتها . وقد شهد الناس حتى العامة منهم بعض ماكان يجرى فى معامل الكيمياء فتعجبوا غاية العجب ، حتى لقد كان العامة يظنون ذلك ضربا من السحر كما ذكر ذلك الجبرتى فى تاريخه

« بدأ النهضة فى زمن محمد على »

ومنذ ذلك الحين سطع ضوء العلوم وانبعثت أشعة الحضارة على ربوع مصر . وبعد أن خرج الفرنسيون واستولى محمد على المصلح الكبير على مصر - وكان رحمه الله مخلصا فى عمله محبا للبلاد — تاقت نفسه لان يصل بها إلى أرقى منزلة بين الامم المتحضرة ؛ فأخذ يستعين بالاوربيين من فرنسيين وانجليز وغيرهم ، ولم يكتف بذلك بل أراد أن تكون اليد العاملة فى ترقية البلاد هى اليد المصرية فاوفد بعثات علمية من الشبان النجباء إلى فرنسا وغيرها ليدرسوا مختلف العلوم والفنون ، وخصص كلا منهم لفن أو علم يتعلمه ، كالادارة العسكرية وفنون السياسة وعلوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان وصناعة الاسلحة والطب والجراحة والزراعة والمعادن والطبع والحفر واللغات والادب . وجعل لهم من يعلمهم العربية ويمرنهم على أساليبها وآدابها حتى إذا رجعوا تمكنوا من نشر معلوماتهم بلغة البلاد . لذلك كان

لهؤلاء الطلبة بعد رجوعهم الى مصر اليد الطولى فى ترجمة الكتب من الفنون والعلوم المختلفة إلى اللغة العربية؛ فاتسعت المدارك وانتشرت الحضارة الحديثة بانتشار المدارس والتعليم . وأخذت تنقص الصبغة القديمة التى كان أكثرها مصبوغا بصبغة دينية علمية . لأن العلم كان محصورا فى الازهر ولم يكن عالم غير أزهرى ولا أديب أو لغوى غير دارس فى ذلك المعهد الدينى ، حتى لقد كاد يكون العلم وقفا على علماء الازهر . فتغلب تيار المدنية الحديثة على ذلك . على أن أول أساطين هذه النهضة كان من علماء الازهر وطلابه ، ويكفى أن يكون فى مقدمتهم العالم العصرى الشيخ رفاعه الطهطاوى الذى سافر إلى فرنسا ورجع علما من أعلام نهضتنا فى ذلك العصر ؛ بل كان من أشهر الكتاب والمؤلفين والمترجمين ، والشيخ أحمد العطار الذى أرسل ليتعلم علم الهندسة العسكرية .

ظهور المطابع العربية

وأنشئت المطابع : وهى من أعظم وسائل النهضة الادبية والعلمية فى مصر وكانت أول مطبعة أنشأها الفرنسيون فى مصر كما تقدم؛ وأول ماطبع فيها كتاب التهجية فى اللغة العربية والفارسية سنة ١٧٨٩ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرنساوى وعربى واجرومية فى اللغة المصرية العامية ولما رجع مدير هذه المطبعة الى باريس سنة ١٨٠٠ أخذ مطبعته معه ووقفت حركة الطبع حتى أنشأ المغفور له محمد على باشا المطبعة الاهلية سنة ١٨٢٢ وقد قام بالعمل فى هذه المطبعة جماعة من خريجى الجامع الازهر كانوا يطبعون فيها الاعمال الخاصة بمصالح

الحكومة . ثم طبعوا كتابا باللغة العربية لأحد علماء القاهرة ورسالة في الفنون الحربية وكتابا فى الصباغة ترجم من ايطاليا ومعجما ايطاليا عربيا . ويقولون أول ماطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وقد قامت هذه المطبعة بنشر الكتب وطبعها فطبعت فيها مئات من أهم الكتب العربية فى الطب والرياضة والطبيعة والأدب والشعر وعلوم الدين وغيرها ، مما يضيق المقام عن ذكره ، ومئات من الكتب المترجمة فى العلوم الحديثة ، ثم انتشرت على أثر ذلك المطابع فى سوريا والقسطنطينية ومصر . فكانت من وسائل نشر العلوم والمعارف .

وكثرت المطابع الأخرى غير الاميرية وأقدمها مطبعة وادى النيل أنشئت سنة ١٢٨٣ هجرية كانت تطبع فيها صحيفة وادى النيل لصاحبها أبى السعود افندى وطبعت فيها أيضا روضة المدارس وهى من أقدم المجلات المصرية . ولما انتشرت المطابع انتشرت الصحافة معها كما سيأتى . ثم أنشئت مطابع فى جميع البلدان التى يقرأ أهلها اللغة العربية وخصوصا فى بلاد الهند ، وكان لاهتمام الاوربيين بانشاء المطابع عندهم شأن عظيم فى رقى اللغة ونشر الكتب العربية . على أنهم سبقوا الشرق فى ذلك ، ويرجع مبدأ الطباعة هناك الى أوائل القرن السادس عشر حيث فتحت الرهبانية اليسوعيه مدرسة للغة العربية والعبرانية فى روما وانشئت مطبعة طبعت فيها بعض الكتب الدينيه . ثم اتسعت تلك النهضة فى أنحاء أوروبا وكثر المشتغلون باللغات الشرقية حتى امتلأت المكاتب بالكتب العربيه وغيرها ولا سيما مكاتب باريس ولندن ومجريط واكسفورد وليدن

الصحف العربيه

ومن وسائل نشر اللغة العربية ظهور الصحف اليومية أو الجرائد في بلاد المشرق ، وأول صحيفه عربيه ظهرت فى مصر هى الوقائع المصرية سنه ١٨٢٨ ميلادية على عهد محمد على . كانت فى أول أمرها تظهر ثلاث مرات فى الاسبوع بالعربيه والتركيه . ثم ظهرت جرائد أخرى فى الاستانة وغيرها باللغات التركيه والعبرانيه والعربيه . وأول جريدة عربيه ظهرت فى الاستانة كانت تسمى (مرآة الاحوال) سنه ١٨٥٤ وأول جريدة ظهرت فى سوريا اسمها (حديقه الاخبار) أنشأها خليل الخورى ، وصدر أول عدد منها سنه ١٨٥٨ وفى سنه ١٨٦٠ أصدر احمد فارس الشدياق فى الاستانة جريدة (الجوائب) فبقيت فيها إلى سنه ١٨٨٤ وفى هذا الحين ظهرت فى باريس جريدة عربيه تسمى (البرجيس) لأحد التونسيين ، ثم ظهر فى مصر جريدة (وادى النيل) سنه ١٨٦٧ وقد كثرت بعد ذلك الصحف اليوميه فى مصر وأقدم صحيفه ظهرت بعد الوقائع المصرية مجلة شهرية اسمها (اليعسوب) صدرت سنه ١٨٦٥ انشأها محمد على باشا الحكيم وابراهيم الدسوقى وهى أول مجلة طبيه ظهرت فى اللغه العربيه . وفى سنه ١٨٦٩ ظهرت جريدة (نزهه الافكار) وكانت أسبوعيه أصدرها ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال ، ولم يصدر منها غير عددين ثم ألغيت ، وأعظم هذه الجرائد فائدة : مجلة روضه المدارس السالفه إذ كان يحررها جماعه من كبار الادباء كعبد الله باشا فكرى واسماعيل باشا الفلكى وعلى باشا مبارك ورفاعه بك وغيرهم

ولا شك أن فى انتشار الصحافه العربيه من أكثر الاشيــاء مساعدة على رقى اللغه العربيه وتحرير أساليبها وهناك طائفه من الصحف التى أصدرها السوريون الوافدون على مصر (كالــكوكب الشرق) لسليم حموى التى صدرت فى الاسكندرية سنه ١٨٧٣ وجريدة (الاهرام) الشهيرة لسليم وبشارة تكلا صدرت سنه ١٨٧٦ وجريدة (المقطم) التى لها فضل عظيم فى نشر الاساليب العربيه الصحيحه ثم جريدة (المؤيد) المعروفه التى كان يحررها المرحوم الشيخ على يوسف باسلوب عربى متين وغير ذلك من المجلات والصحف الكثيرة المنتشرة الآن

اشتغال علماء أوربا بالعلوم الشرقيه

كان لاشتغال الاوربيين المستشرقين بالعلوم العربيه شأن عظيم أيضا فى نشر المباحث والكتب التى رقت من شأن اللغه ودعت الى العناية بها ، واشتهر منهم جماعه بتأليفهم العربيه أشهرهم البارون دى ساسى أحد العاملين على طلب اللغات الشرقيه وممن استخرجوا مخبآتها وهو مستشرق فرنسى شهير مات سنه ١٨٣٨ بعــد أن درس جميع اللغات الشرقية وتعلم العبرانية والسوريانية والــكلدانية والسامرية والعربيه والفارسية والتركية ، وكان يجيد أكثر هــذه اللغات فساعد على نشر كثير من المقالات والمجلات التى تــكلمت عن هذه اللغات ويقولون إنه نشر أكثر من مئتى مؤلف فى علوم الشرق ولغاته . وله منتخبات عربية فى ثلاث مجلدات ، وتاريخ العرب فى الجاهلية وطبع كليلة ودمنة ومقامات الحريرى مع شروح وافية كما طبع رحلة عبد اللطيف

البغدادى إلى مصر

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين «جان جاك عمانويل سيدليو» درس اللغات الشرقية وانقطع إلى درس النجوم فنقل إلى اللغة الفرنسية كتاب الآلات الفلكية المسمى جامع المبادى والغايات لابى الحسن على المراكبي وكتب عدة مقالات فى تاريخ الشرق وعلوم الرياضة وله كتاب شهير فى تاريخ المدنية العربية ترجم زمن المغفور له على باشا مبارك وتوفى سنة ١٨٣٣

ومنهم كوسان دى برسيفال المتوفى سنة ١٨٣٥ اشتهر فى اللغة العربية وألف فيها كتبا كثيرة وطبع مقامات الحريرى وأمثال لقمان وتاريخ صقلية للنويرى ، وتاريخا كبيرا يقع فى ثلاثة مجلدات للعرب وهؤلاء بعض المستشرقين الفرنسيين ، أما الالمان فقد برزوا على غيرهم فى هذا الميدان فمنهم ارنست فردريك روزنمولر المتوفى سنة ١٨٣٥ نقل إلى اللغة اللاتينية معلقة زهير وبعض مقامات الحريرى وشيئا من أمثال الميدانى ، ومنهم الاستاذ هابخت المتوفى سنة ١٧٧٥ درس فى باريس على دى ساسى وطبع نخبة من أمثال الميدانى وهو أول من سعى فى طبع كتاب (الف ليله وليلة) سنة ١٨٢٥ طبع منه ثمانية أجزاء قبل وفاته وترجم مع بعض العلماء إلى اللغة الالمانية ، وغير هؤلاء كثير من الانجليز والهولنديين والبلجيكيين الذين نكتفى بالاشارة اليهم

وأسس الاوربيون معاهد لتدريس العلوم الشرقية فى بلادهم ومن أشهر تلك المعاهد مدرسة اللغات الشرقية فى باريس التى أنشئت سنة ١٧٩٥ وانشئت الجمعيات الاسيوية والنوادى العلمية فى ايطاليا

واسبانيا وانجلترا وغيرها

وأنشأ الفرنسيون الجمعية الاسيوية الباريسية وكان سلفستر دى ساسى وتلاميذه قاموا بهذا العمل الجليل سنة ١٨٢١ ونشروا فى المجلة الاسيوية كل ماكانوا يكتبونه أو يعثرون عليه من علوم الشرق وآدابه ولغاته وقد عنوا عناية خاصة باللغات السامية

وجارى الفرنسيين الانكليز فى ذلك فأنشأوا جمعية سموها جمعية بريطانيا العظمى وأرلندا الاسيوية الملكية . وكان ذلك سنة ١٨٢٣ قام بهذه الجمعية العلماء الأثريون ونشروا صحيفة علمية سنة ١٨٢٤ وفى سنة ١٨٣٦ سموها مجلة لندن الأسيوية الملكية

وكذلك نشر الالمانيون والنمساويون صحفا شرقيه اشتهر ذكرها بما نشرت من المباحث الهامة فى المسائل الشرقية مثل (معادن الشرق) واشتهر من الألمانيين الاستاذ فلمت الذى نشر معجما عربيا لاتينيا ونقل معلقتى لبيد فى سنة ١٨١٤ وعنتره فى سنة ١٨١٦ وعلق عليهما تعليقات مفيده ونقل قسما كبيرا من مقامات الحريرى الى اللاتينيه وغير ذلك

وقد عمت دراسه اللغات الشرقيه كل بلاد أوروبا تقريبا حتى وصلت بلاد الروسيا واشتغل بها علماء هناك فى أواخر القرن التاسع عشر

واشتهر أخيرا من المستشرقين الانجليز ادوارد لين المتوفى سنة ١٨٧٦ وقد ألف فى اللغه العربيه مؤلفات كثيرة وكتب فى وصف مصر ، ونشر قاموسه العربى الانكليزى وترجم ألف ليلة وليلة وكتب عن الآداب الاسلاميه . ومن المستشرقين المعروفين الاستاذ مرجليوث

وهو واسع الاطلاع على اللغه العربيه وآدابها وقد قام بنشر بعض الكتب العربيه التى منها كتاب معجم الادباء لياقوت الحموى ونشر رسائل أبى العلاء المعرى وهو لايزال حيا ومنهم الاستاذ براون من أساتذة جامعه كمبريدج الآن ويعرف اللغات العربيه والفارسيه والتركيه واشد اهتمامه باللغه الفارسيه

النهضة العلمية فى مصر

وكان من أسباب نهضه اللغه العربيه فى مصر أيضا أن كثرت المدارس فيها على اختلاف درجاتها وأصبح التعليم باللغه العربيه وشاع تعلم اللغات الاجنبيه ولاسيما منذ حكم الخديوى اسماعيل .

وكان للجامع الازهر أثر عظيم فى حفظ هذه اللغه لأنه كان منبعاً من منابعها تتدفق منه علوم اللغه وآدابها فقد كان معلموا المدارس فى أول الأمر من علماء الازهر ، إذ كانت تدرس فيه اللغه العربيه وجميع علومها على طريقه البحث والتحقيق ، ولولا أن أساليب هذه الدراسه بقيت على ماكانت عليه ولم تتأثر بالأساليب الحديثه لخرج من الأزهر أئمه اللغه وعلمائها . ولكن على الرغم من ذلك فانه كان دليلا على حياة الحركة العلميه . فقد ظهر فيه جماعه من كبار المؤلفين كالشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، والشيخ حسن العطار والشيخ العروسى والشيخ الباجورى والشيخ عبد الهادى الابيارى والشيخ حسين المرصفى والشيخ محمد عبده وغيرهم . وكان منهم الكتاب والخطباء والقضاة والمحامون

ومن أعظم وسائل رقى اللغه العربيه فى البلاد أساتذة اللغه الذين

تخرجوا فى مدرسة دار العلوم التى أسسها المرحوم على باشامبارك وكان لها شأن عظيم فى ذلك ، فقد ساعدت على نشر اللغة وآدابها بوساطة هؤلاء المدرسين

وكثر الوافدون على مصر من الكتاب والأدباء ومنهم السوريون ذووا النشاط العقلى والميل إلى اللغة العربية ، فأحدثوا بامتزاجهم مع المصريين حركة كتابية عظيمة فى المجلات والجرائد والكتب التى ترجموها من قصص وفنون مختلفة ، وكان ذلك من أسباب تدرج الاسلوب العربى إلى طريقة جديدة لبعض الأساليب الافرنجية أثر فيها

كانت النهضة العلمية عند ما بدأ المغفور له محمد على فى العمل على اصلاح البلاد مقصورة على ما كان فى بلاد المشرق ولا سيما فى مصر من الاشتغال بعلوم اللغة العربية وفنونها وعلوم الدين وأصوله وقد كان ذلك محصورا فى الجامع الأزهر والمتخرجين فيه ، حتى ان أشهر المؤرخين والمشتغلين ببعض الفنون الرياضية كانوا من هؤلاء العلماء ، كالشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب التاريخ المشهور ، والشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٢٥٠) الذي كانت له تآليف كثيرة فى علوم اللغة والفنون والطب والانشاء والمراسلات ، وكان عارفا بعلم الفلك ويجيد عمل المزاول الليلية والنهارية . وقد كان الشعراء والكتاب والمؤلفون كلهم من هذه الطائفة . فلما رجع طلبة البعثة العلمية التى أرسلها محمد على إلى أوروبا وأخذوا فى الترجمة والتأليف أخذت

تنتشر العلوم الحديثة كما قلنا ، ولا سيما أنه قد اشتغل مع هؤلاء جملة من العلماء الفرنسيين وغيرهم من الفرنجة ، مثل كلوت بك مؤسس مدرسة الطب ، وبروان بك أحد أساتذتها الذين ظهرت لهم مؤلفات ترجمت الى اللغة العربية ، وكان أكثر المتخرجين من المصريين كابراهيم النبراوى (المتوفى سنة ١٨٦٢) الذى ترجم كتاب الاربطة الجراحية ونبذة فى الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك ، ونبذة فى أصول الطبيعة والتشريح لكلوت بك أيضا . وكأحمد حسن الرشيدى (توفى سنة ١٨٦٥) الذى ترك عدة مؤلفات فى الطب . وهو من كبار نوابغ هذا الفن ، منها رسالة فى تطعيم الجدرى ترجمها من مؤلفات كلوت بك ، وضياء النيرين فى مداواة العينين ، وطالع السعادة والاقبال فى علم الولادة والنساء وأمراض الاطفال . ونزهة الاماثل فى علاج تشوهات المفاصل . وترك محمد على باشا القبلى (توفى سنة ١٨٧٦) من المؤلفات روضة النجاح الكبرى فى العمليات الصغرى ، وغاية الفلاح فى فن الجراح . وغرر النجاح فى أعمال الجراح . كما ترك محمد الشافعى ، ومحمد عبد الفتاح ، وحسن بك عبد الله وأحمد ندا كثيرا من المؤلفات فى الطب وعلم الصيدلة . وهذا الأخير كتب فى علم النبات والحيوان ، الآيات البينات فى علم النبات . وحسن البراعة فى فن الزراعة ، ترجمة عن الفرنسية ، وحسن الصناعة فى فن الصباغة ، والحجج البينات فى علم الحيوانات ، ترجمة عن الفرنسية ، ونخبة الاذكياء فى علم الكيمياء ، والاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية والازهار البديعة فى علم الطبيعة . وقد ترك محمد باشا الدرى ومحمد بك بدر وحسن باشا محمود وهم من أهل أواخر القرن التاسع عشر مؤلفات

كثيرة ، وكان هناك كثير من العلماء الذين اشتغلوا بالرياضة ونقل كتبها مثل محمد بيومى (توفى سنة ١٨٥١) وابراهيم رمضان الذى كان مدرسا بالمهندسخانة ، ومحمود باشا الفلكى المتوفى سنة ١٨٨٥ وهو أشهر هؤلاء العلماء فى علم الفلك . وقد عمل خريطة للقطر المصرى . وهو أول مصرى فعل ذلك . وألف رسالة فى التقاويم الاسرائيلية الاسلامية ، ورسالة فى التقاويم العربية قبل الاسلام (طبعت سنة ١٢٥٨) ورسائل مختلفة فى الكسوف الكلى ، وفى وصف الاسكندرية القديمة والايضاح عن أعمال الاهرام والتنبؤ عن ارتفاع النيل وضرورة مرصد لمصر ، وعمل مقاييس ومكاييل للبلاد ، ومقابلة ذلك بالأقيسة الفرنسية . وغير هؤلاء كثيرون مما يضيق المقام عن ذكره

هذا مجمل الاسباب التى رقت اللغة العربية فى هذه الايام الاخيرة ولا يزال النشء الجديد من الكتاب والمؤلفين يعمل على نشر أساليب جديدة وموضوعات طريفة فى اللغة ، بما اكتسبه من الاطلاع على اللغات الحديثة . ولا بد أن يكون مستقبل اللغة العربية عظيما خصوصا فى مصر التى أصبحت نبراساً للعالم العربى ومنبعا للعلوم الشرقية .

حالة التعليم فى مصر

بقلم على باشا مبارك

ومما يستدل به على حالة التعليم فى مصر ، وماكان بها من العلوم والفنون قول المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية من الجزء التاسع صفحة ٤١ فى ترجمة حياته قال :

« وفى أواخر سنة ٥٢ نقلونا إلى مدرسة أبى زعبل وجعلوا قصر العينى لمدرسة الطب خاصة كما هو الآن ، فكانت إدارة المدارس فى أبى زعبل كما كانت فى قصر العيني ، إلا أنه أعتني بالتعليم شيئا بسبب جعل نظرها للمرحوم ابراهيم بك رأفت وكان أثقل الفنون عليّ وأصعبها فى الهندسة والحساب والنحو ،فكنت أراها كالطلاسم وأري كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم ابراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالنا الى مدرسة أبى زعبل وجعلهم فرقة مستقلة ، فكنت أنا منهم بل آخرهم وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ، ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون ،وأن هذه الحروف التى اصطلحوا عليها انما تستعمل فى أسماء الاشكال وأجزائها ،كاستعمال الاسماء للحروف . فكما أن للانسان أن يختار لابنه ماشاء من الاسماء، كذلك المعبر عن الاشكال له أن يختار لها ماشاء من الحروف . فانفتح من حسن بيانه قفل قلبي ووعيت مايقول وكانت طريقته هى باب

الفتوح على . ولم أقم من أول درس الاعلى فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم ، نختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى . وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولاطريقة التعليم السيئة . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجاحى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخير التلامذة .

وفى تلك السنة — وهى سنة خمس وخمسين — فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه .فاقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائما أول فرقتى وقلفتها ، فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل أفندى ، وكذا تلقيت عنه علم الميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى ، وعلم الادروليك على المرحوم دقلا أفندى وعلم الطبوغرافيا على المرحوم ابراهيم أفندى رمضان ، وعلم الكيميا والطبيعة والمعادن والجيولوجية وحساب الآلات على ابراهيم أفندى رمضان وبعضه على المرحوم سلامة باشا وتلقيت عليه أيضا خاصة القوسموغرافية .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده في استيفاء مايلقيه المعلمون . وكان المعلمون يومئذ يبذلون

غاية مجهودهم فى التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ فى كراسة جميع مايلقى اليه خصوصا الاشكال والرسوم . ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ماتعلموه ، فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه .

وفى آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل فيها النفع. ثم تكاثر طبع الكتب شيئاً فشيئاً إلى الآن فصارت تطبع الفنون باشكالها ورسومها : فسهل بذلك تناولها واستحضار مافيها » .

ويعلم من هذا سير التعليم فى المدارس العالية وأنه كان باللغة العربية ، وإن جميع المدرسين كانوا من المصريين ، وهذا دليل على مقدار حركة التعليم فى ذلك الوقت والعناية بالعلوم والفنون التى كانت يدرس إذ ذاك

الكتابة والشعر

الكتابة : —

بدأ القرن التاسع عشر وسوق الادب كاسدة ، ولم يكن للأدب معاهد يدرس فيها ؛ ولكن مصر كانت محط الأدباء الذين التجأوا إليها ، وموطن الأزهر الذى كانت تنبعث منه أشعةالعلوم العربيةإلى أنحاء العالم الاسلامى ، وكان الناس يرون فى اللغة العربية وفنونهامفتاحا لكل العلوم . وأساسا لتربية العقول . وزاد الناس حبا بطلب العلم فى هذا المعهد ماحبسه أهل الخير على طلابه فلم ينقطع عنه الوافدون ،ولا سيما أن كثيرا من علمائه وتلاميذه كانوا موضع الاجلال والاكرام من الحكام والأمراء ، وكان منهم القضاة وأهل الشورى للسلاطين والأمراء ، كما كان منهم الكتاب والمؤلفون فى مختلف العلوم والفنون فكان الاقبال على الأزهر من أكبر الوسائل لاحياء اللغة العربية وآدابها . فظهر منه الكتاب والشعراء وأرباب الاقلام الذين تولوا وظائف الكتابة فى الدواوين وغيرها

أما كتابة الدواوين زمن المماليك فكانت مزيجا من العربية والتركية وخليطا من الألفاظ العامية والعبارات الفصحى ، واستمر ذلك إلى أيام محمد على حيث فشت العامية فى المؤلفات والمراسلات ، وانحطت درجة الكتابة بطبيعة حال الدولة التى لم يعن أهلها بذلك ، وتاريخ ابن أياس والجبرتى من أساليب الكتابة التى كانت فاشية فى تلك الايام ، فكانت الكتابة فى حالة انحطاط كما كانت الحال فى جميع

الاقطار العربية :

وكان أكثر أساليب الـكتابة البليغة الادبية كالرسائل والمقامات مسجعة جارية على أسلوب الهمذانى والحريرى ؛ وانتشر السجع حتى لم يكد يخلو منه كتاب أو تأليف . وحتى تمشى هـذا الأسلوب فى الـكتابة العامية . ولاشك فى أن هذا أثر عناية العصر العباسى الاخير بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية ، وشاع هذا الاسلوب فى الكتابة الادبية حتى تخطى القرن التاسع عشر . فأدرك رفاعة بك الطهطاوى (توفى ١٨٧٣ م) وعبدالله باشا فكرى (توفى ١٨٨٩) وعبد الله نديم (توفى ١٨٩٦) وابراهيم بك المويلحى (توفى ١٩٠٦) والشيخ محمد عبده (توفى ١٩٠٧) والسيد توفيق البكرى وغيرهم من الـكتاب الحديثين كحفنى بك ناصف وأمثاله ؛ على أن ظلال هـذا السجع الممل ابتدأت تتقلص منذ أن رجع طـلاب الارسالية التى أرسلها محمد على إلى أوربا فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فقد تأثروا بأساليب اللغات الأجنبية فأخذوا يترجمون ويؤلفون كما فعل رفاعة بك الطهطاوى والعالم أحمد ندا (توفى ١٨٧٧) وابراهيم النبراوى الذى كان رئيساً لمدرسة الطب (توفى ١٨٦٢) وأحمد حسن الرشيدى الطبيب (توفى ١٨٦٥) وغيرهم من العلماء والادباء

وكان من أشهر هؤلاء الكتاب والمؤلفين رفاعة بك الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى كانت له آثار عظيمة فى الـكتابة والأدب والشعر ، فترجم فى مختلف العلوم و الفنون كتبا ورسائل ، ويحسب

أسلوبه من نماذج أساليب الكتابة المختلفة فى القرن التاسع عشر بمصر فان فيها السجع المتكلف الممزوج بحسن اختيار الالفاظ وبلاغة العبارة (راجع « مقدمة وطنية » لحضرة رفاعة بك طبع بولاق ١٢٨٣ هـ » و « الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة » طبع بولاق ١٨٢٩) وتجد فى مؤلفاته السهل الممتنع الذى يشبه أجود أساليب الصحف اليومية عندنا الآن (راجع كتاب « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الأدب العصرية » طبع بولاق ١٢٨٦ هـ ومن الاساليب التى تحسب أحيانا مسجعة وأحيانا مرسلة أسلوب الوقائع المصرية منذ ظهورها (١٨٢٨) إلى مابعد منتصف القرن التاسع عشر ؛ وبقى الادباء يحاكون الاساليب القديمة والموضوعات المعروفة كرسائل التعازى والتعارف قبل اللقاء والعتاب والشوق إلى زمن قريب

ولكن محاكاة الاساليب الافرنجية وانتشار التعريب جعل أسلوب الكتابة العربية ينتقل من طور السجع ومحاكاة القدماء إلى سهولة التعبير والايجاز فى العبارة . ومن أشهر الصحف التى أذاعت هذا الاسلوب الجديد فى الترجمة والتأليف مجلة روضة المدارس التى انشئت سنة ١٨٧٠ وكان يحررها نخبة من العلماء كاسماعيل باشا الفلكى ، وبدر بك الحكيم ، وعلى باشا مبارك ، ورفاعة بك وغيرهم . فقد نشر فى هذه المجلة كثير من آثار أقلام الكتاب فى موضوعات مختلفة من علوم وآداب . والمتأمل فى هذه الاساليب يرى أنه قد حدث فى النثر أطوار كان الكتاب يجارون فيها روح العصر العلمية والأدبية فرقت

أساليب النثر وتعددت مناحيه حتى أصبحت تحتوى على كثير من الأساليب التى عرفت فى اللغات الأجنبية . وزاد هـذه الأساليب رقة وسهولة انتشار الصحف اليومية والمجـلات العلمية ، وأخذت الرسائل شكلا آخر غير ذلك الشكل المسجوع المعروف ، ونزع الكتاب إلى أسلوب آخر غير متكلف . وهجر كتاب الجرائد المقدمات التى كانوا يفتتحون بها موضوعاتهم ، واقتربوا من نفوس الخواص ، ولقد نراهم أحيانا ينزلون بأساليبهم إلى عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها . كذلك تجـد أثر الاساليب الفرنجية وتراكيب اللغات الأعجمية فى الكتب المترجمة أو المكتوبة حديثا بأقلام من تعلموا اللغات الاجنبية أو مالوا إلى محاكاتها . وربما توسعوا فى ذلك حتى لقد يخرجون أحيانا عن الأسلوب العربى المألوف ، ولا يزال هذا الاسلوب الحديث يغمرنا بسيل جارف من الألفاظ الاعجمية والتعبيرات الافرنجية بما ينشره المعربون والمؤلفون وكتاب الصحف على أنه فى جملته سهل قريب من أذهان الطبقة الوسطى من المتعلمين . ولاشك أن هذا كله دليل على أن الـكتابة العربية فى مصر سائرة فى طريق اخرى غير الطريقة العربية الصميمة .

وقد حدث فى مصر نوع آخر من النثر ، وهو النوع القصصى المصبوغ بصبغة مصرية كما فى كتاب حديث عيسى بن هشام للمرحوم ابراهيم بك المويلحى . وهذا نوع جديد فى الادب المصرى أكثر أثرا وأدعى إلى الحياة فى آدابنا الحديثة من أى نوع آخر من أنواع النثر ،

وقد انتشرت أخيرا هذه الروح القصصية بين كتابنا المعاصرين لذا يجارون بذلك آداب الامم الأخرى ؛ لأن أكثرهم قرأ تلك الآداب وخبرها وتأثر بها ، ومايُنشر الآن بيننا منها كثير يبشر بنهضة أدبيه عظيمة ، على أن أكثرهم لايزال فى بادىء الصناعة يحتاج إلى كدطويل وتفكير عميق وتجربة وتفنن فى هذا الأسلوب الجديد حتى يقرب من الاتقان والكمال .

هذا ماحدث فى النثر الفصيح ، أما ماكان فى النثر العامى أو القريب من اللهجة العامية ، فقد انتشر فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وكان من مبتكريه المرحوم عبدالله نديم بروايته (الوطن) و (العرب) اللتين انتقد فيهما كثيرا من المسائل السياسية والاجتماعيه والخلقية ، كما كتب مقالات متعدده من هذا النوع جمعت فى كتاب سمى (سلافة النديم) كمقالة (سهرة الانطاع أو عربى تفرنج)ومقالة (مجلس وطنى) و (الفخ المنصوب للحكيم المغصوب) وهذا يدل على أن هذا النوع من الكتابة العامية ابتدأ ينتشر منذ ذاك ، وهو على الرغم من بعده عن العربية الفصحى قليلا أو كثيرا يحسب نوعا من أنواع الأدب المصرى الذى انتشر بيننا الآن بما نراه من القصص التمثلية الهزلية المعروفة عندنا ، فانها تحتوى على كثير من نقد أحوالنا الاجتماعية ، ولايزال الأدب المصرى فى أول مرحلة من مراحله .

الشعر

كان الشعر في مصر أوائل القرن التاسع عشر وقبله كما كان في جميع الاقطار العربية : محاكاة للقديم وجريا على أساليب شعراء العصور المتقدمة في الموضوعات التي عرفت إذ ذاك ، من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك ، حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعمد إلى رصانة الشعر القديم فيقلده ، والى أسلوبه المتين فيحاكيه والى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يخرج الشعر عن كونه صناعة من الصناعات لا شعورا ولا أثرا من آثار الهامات النفوس ، ولا سمة من سمات العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، وحتى لم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعر مصر وغيرهم من الأقطار العربية الاخرى سوى ما أتصف به المصري في كل زمان من خفة الروح وعذب الفكاهة فكان الشعر في حالة تقهقر فلم يكن للشعراء أساليب خاصة بل كان الشاعر يكتفي بالوزن والقافية وأخيلة غيره يضعها في كلام آخر ويلبسها ألفاظا أخرى لذلك كان أشهر شعراء القرن التاسع عشر وقبله من كان حسن الديباجة ، طلي العبارة ، رقيق الاشارة .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لهم أي أثر جديد في الشعر المصري . ولا أي صبغة مصرية اجتماعية ، الى نحو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، أو إلى ما بعد منتصف

القرن الثالث عشر الهجرى

ولكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر فى القرن التاسع عشر كان أول من أدخل فى الشعر المصرى نوعا جديدا نقله من الشعر الفرنسى ، ذلك هو الشيخ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى أوفده محمد على باشا الى باريس مع طلبة الارسالية. على أن الشيخ رفاعة لم يكن شاعرا ممتازا بين شعراء عصره من شيوخ الأزهر ، ولكنه كان شغوفا بالأدب فتعلم الفرنسية وكان أول مانقله منها الى العربية قصيدة نظمها فى مدح الامير محمد على ، أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا .

وقال رفاعة بك فى مقدمة وضعها لهذه القصيدة : (وقد سرحت ناظرى ونزهت خاطرى فى منظومة فرنساوية منسوبة لرئيس من يعلمنا من هذه اللغة القواعد ، ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ، العارف بأسلوب العرب والفرنساوى والبارع فى فهم المعنيين فهو لفخرها حادى ، الخواجة يوسف أكوب المصرى منشأ تتضمن غزلا وحنينا وتفاخرا مقدما لمصر ووزيرها حضرة افندينا الخ (طبعت هذه القصيد فى مدينة باريس سنة ١٢٤٢ هجرية) .

وكان الشيخ رفاعة أول من أدخل النشيد الوطني الى مصر على مانعلم ، فقد نقل قصيدة المارسييز الفرنسية الى العربية فى شعر تصرف فيه بعض التصرف [1] حيث قال .

---

(١) اخترنا هنا مقطوعات من هذا النشيد الوطنى على غير ترتيبه المعروف

فهيا يابني الاوطان هيا   فوقت نخاركم لكم تهيئا
أقيموا الراية العظمى سويا   وشنوا غارة الهيجا سويا

***

عليكم بالسلام أيا أهالى   ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال   فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودهم غدا فيكم جليًّا

***

فماذا تبتغى منا الجنود   وهم جمع وأخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود   كذاك ملوك بغى لم يسودوا
تعصّبهم لنا لم يجد شيًّا

إلى آخر ماقاله فى هذا النشيد الطويل . ونسج على هذا المنوال قصائد أخرى كثيرة مزج ببعضها مدح الامراء وولاة مصر لتكون أناشيد وطنية ، ومنها منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ هجرية

***

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح   وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننـا أصيل
حسب عريق زانه مجـد أثيل
وفخارنا فى الكون جل عن المثيل
لرحابنا تطوى المهامه بالطلاح
بشرى . . . .
نحن السراة وشأننا حب الوطن

ولشأننا السامى تزاحم من قطن
شانى حمانا ليس من أهل الفطن
فهو الدعى وعرضه شرعا مباح

بشرى . . . .

وطن عزيز لايهان ولا يضام
وحمى تعزز من على علياه حام
مجـــد له لازال يخترق الغمام
عين السها لفخـاره ذات التمساح

بشرى . . . .

يا أهل مصر بر مصر فرض عين
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين
ماعندنا فى فقئها إلا الرماح

بشرى . . . .

ملك قـــديم ساسه أحفاد نوح
(مصر ايم) فيه بطيحته تلوح
هى بركة القيرون مصرفها يبوح
بسرائر التدبير إذ يروى البطاح

فكان الشيخ رفاعة من المجددين فى الشعر على هذا النمط . وكان يكون لهذا الغرض الجديد فى الشعر آثر لو أن الشعراء نسجوا على منواله وساروا فى هذا الطريق الجدى القوى وتركوا المدح ومايتبعه

من ماق أورياء . ولكن الحركة الادبية لذلك العصر كانت حركة فردية أو مذهبا يعتنقه بعض الأدباء وحده ، بل كان الشاعر أو الكاتب يتأثر وحده بأثر خاص ، فينهج منهجا خاصا لايتبعه فيه أحد وكان الشعراء يجلون القديم إجلالا ولايخرجون عنه ولا عليه لركود افكارهم وجهلهم بوجوب التجديد فى الأدب . لهذا بقى الشعر على طريقته الأولى

على أن الشيخ رفاعة نفسه تعذر عليه هجر القديم فكان يمدح الأمراء بقصائد هى من صميم الشعر القديم وأساليبه المعروفه .

وكان شعر هذا العصر صناعة لاغير جله سهل فى لفظ تغمره المحسنات البديعية والعناية بفصاحة اللفظ والاستعارة والمجاز حتى لقد اصبح القارىء الأديب لايجد فيه روعة الشعر الجيد الذى يؤثر فى النفس ويوقظ فيها الشعور بجمال القول . بل كان الشاعر ينزل احيانا إلى طبقة العامة فى عباراته .

ومن شعراء هذا العصر السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ﻫ كان من أدباء عصره المعروفين تعلم فى الازهر وقرأ كتب الأدب وله ديوان مطبوع بالاستانة .

والشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ ﻫ وكان كاتبا أديبا وعالما أزهريا تولى مشيخه الأزهر ومن شعره فى وصف متنزهات الشام

بوادى دمشق الشام جزبى أخا البسط
وعرج على باب السلام ولاتخط
ولاتبكى مايبكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

فان على باب السلام من البها ملابس حسن قدحفظن من العط
هنالك تلقى مايروقك منظر وتسلى عن الاخدان والصحب والرهط
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهى تخطر فى مرط
كساها الحيا أثواب خفر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

ومنهم السيد على الدرويش المتوفى سنة ١٢٧٠ هوكان من الشعراء المعروفين والكتاب المشهورين نظم كثيرا من المقطوعات الغنائية ومدح عباس الأول حاكم مصر ، وله ديوان مطبوع ومن شعره فى المدح

سررت بنيل القصد من غير موعد ولاشىء أشهى من سرور مجدد
سررت بنعماه ، ولكن حزنت من قصورى بحق الشكر فى فضل سيدى
له الحمد والشكر الذى هو أهله وقل له حمدى وشكرى ومنشدى
فلو كل عضو فيه عدة ألسن لأعجزنى شكر الندى المتعدد
وهل أنا إلا عبد إحسان عفوكم فاضحى لديه مدحكم كالتعبد
تعودت — لولا لطفكم — غير عادتى وصعب على الانسان مالم يعود
وزدتم نعيمى نعمة أبدية وزدتم مقامى رفعة فوق مقصدى
وكدرتم ظن الحسود بنعمتى وأشهى من الانعام تكدير حسدى
وحملتني مالا أطيق وجوبه فينطق حالى عن لسان المعقد
فيا أسعد السعيد لملكه ودولته والموكب المتجند
قد أشغل الدرويش شكرا مؤرخا مليك سعيد النجم خير محمد

ومنهم محمود صفوت الساعاتى وله مدائح فى شريف مكة الذى اتصل به أثناء أدائه فريضة الحج ثم رجع إلى مصر وتوفى سنة ١٢٩٨هـ بعد أن التحق بأكثر من وظيفة فى الحكومة ، وكان شعره أقرب إلى الدرجة الدنيا أكثر منه إلى الدرجة الوسطى .

ومنهم السيد على أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨هـ وقد اتصل بالخديوى توفيق باشا ومدحه . ومن قصائده فى ذلك يصف سفره إلى الصعيد سنة ١٢٨٧ هـ .

زار فى مركب كعقد اللآلى فازدهى بالقدوم صفو الليالى

إلى أن قال :ـ

فازدهى رونق الصعيد جمالا وتحلت أرجاؤه بالجلال
وروى النيل عن رواه حديثا يشرح الصدر شرحه فى المقال
حيث دقت بالشاطئين طبول والأهالى تفوق عد الرمال
وتلاقوا بضمر سابقات فترى الليث فوق ظهر الغزال
وتوالوا فى سيرهم فأضاءت حلبة البيض بين سمر العوالى
وجميع البلاد أبدت سرورا ناشرات أعلامها بابتهال
حل فى منية الخصيب فسرت وتقوى سلطانها بالكمال
زار فى منفلوط بيت أمير زاده رفعة بحسن احتفال
وبأسيوط لاتسل حين وافى عن بلوغ المنى وفيض النوال
وبندر الصعيد مازال يرقى بدر تشريفه بلطف انتقال
نسأل الله عصمة ونجاحا وبقاء له وحسن مآل
وثنائى عليه أول فرض والوفا بالثناء فرض محال

ومنهم أبو السعود أفندى المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ . وعبد الله باشا فكرى المشهور الذى أرتقى الى وزارة المعارف زمن الخديوى توفيق وكان قبل ذلك كاتبا للخديوى اسماعيل . وله قصائد كثيرة ورسائل نثرية مسجعة فى السياسة عن لسان اسماعيل باشا . سجنه توفيق باشا أثناء الثورة فاستعطفه بقصائد منها قوله وهو فى السجن .

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ⠀⠀ ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقونوا ⠀⠀ بأمر ، فقد جاءوا بما زوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد
ولا كنت من يبغى مدى عمره الشر
فعفوا أبا العباس ، لازلت قادرا
على الأمر ، إن العفو من قادر أحرى
وحسبى ماقد مر من ضنك أشهر ⠀⠀ تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ⠀⠀ ويعدل فيها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى ⠀⠀ أكابد فى أيامك البؤس والعسرا

وكان عبدالله باشا فكرى من علماء زمانه وأدبائهم ، ألف فى المطالعة وفى قواعد اللغة عدة كتب تدرس فى المدارس .

ومنهم الشيخ على الليثى المتوفى سنة ١٣١٣ وكان من أشهر أدباء زمانه وأعلمهم بالأدب والشعر ، اتصل بالخديوى توفيوق ومدحه ومن كلامه فى مدح السلطان عبدالعزيز بمناسبة عيد جلوسه سنة ١٢٩٠

دع ذكر كسرى ، وقصر إن أردت ثنا
عن قيصر الروم حيث النفع معقود

واشرح مآثر من سارت بسيرته ركائب المجد تحدوها الصناديد
مولى الملوك الذى من يمن دولته ظل العدالة فى الآفاق ممدود
عبد العزيز الذى آثاره حمدت أب الألى جدهم فى المجد محمود
أجاد نظم أمور الملك فى نسق لا يعتريه مدى الازمان تبديد
وشاد فوق العلا اركانه فغدا له على هامة الجوزاء تشييد
فلا تقسه بأسلاف له كرمت والشبل من هؤلاء الأسد مولود
ففخرهم عقد در ، وهو واسطة فى جيد آل بني عثمان معقود

ومنهم عبد الله نديم الخطيب الثورى الاسكندرى والكاتب القصصى وإمام الزجالين فى هذا العصر توفى سنة ١٢١٤ ومن شعره فى الفخر

إذا ما المجد نادانا أجبنا فيظهر رحين بنظرنا حنينا
فانا فى عداد الناس قوم بما يرضى الاله لنا رضينا
اذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكنا نهينا أن نهينا
وإن شئنا نثرنا القول درا وإن شئنا نظمناه ثمينا
وإن شئنا سلبنا كل لب وإن شئنا سحرنا المنشئينا

وقال يصف قطارا بخاريا

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى ، والدموع تزيده وجعا ، فيجرى فى الفضاء تسترا
ملقاه حال السير افعى تلتوى أو فارس الهيجا أثار العثيرا
أو سبع غاب قد أحس بصائد فى غابة فعدا عليه وزمجرا
أو أنها شهب هوت من أفقها أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا

وله فى نظم قصة رائعة

رب عبد رمته أيام سوء   مع بخيل ، لرقه صار مالك
أنهكت كثرة الصيام قواه   وتخــلى رضوان عنه لمالك
جس منه الطبيب نبضا ضعيفا   ورأى فى اللسان هيئة هالك
قال : ماذا تشكو ؟ فقال مجيبا   عصمة الجوف ياطبيب الممالك
ثم اداه الاجتهـاد بأن قا   ل له إن أردت دفع المهالك
هات قرصا منضجا ثم ضعه   فوق جوف أضنناه سد المسالك
فـأتاه المولى البخيـل بقرص   كان وقفا لمسهرة ابنة مالك
أسرع العبــد أكله بانتهام   وغــدا جسمه به متمالك
ثم قال الطبيب هـذا غريب   كيف ياعبد السوء تفعل ذلك
وغــدا يسمع البخيل سبـا   صـير الوجه منه كالليل حالك
قال ليت المنيـة أنشبت رو   حك واستقصرت طويل حبالك
أو دهـاك الدهر الخئون بماسا   ء ، وأخنى عنــا ذميم فعالك
هبك تخشى يوما من الدهر فقرا   أو ليس الرقيق من ضمن مالك؟
إنمـا الفقر والغنى بقضـــاء   أزلى ، وليس طوع احتيالك ؟
منشأ البخل واليأس ، وهو ضلال   هل تخلصت بالرجا من ضلالك
فتوكل على المهيمن تغـــنم   ويكون الرجا أجل خصـالك

وكل هؤلاء الشعراء أو جلهم كانوا فى الطبقة الوسطى إن لم يكونوا فى الطبقة الدنيا من بين فطاحل شعراء اللغة العربية فى أزمانها المختلفة

وبقى الشعر على هذا المنوال إلى أن ظهر فى حلبة الشعر والأدب رب

السيف والقلم محمود سامى باشا البارودى فنهض بالشعر نهضة ردت اليه مجده وأعادت له دولته وأحيا تراث فحول شعراء العصر العباسى، وحمل لواء الشعر الرصين البليغ ديباجة ومعنى ، وأيقظ فى عالم الادب ملكات الشعر الخامده وصرف الادباء عن تلك الركاكة الشعرية والصناعة الممقوتة التقليدية إلى الديباجة الحسنة والمعانى الجزلة ومحاكاة فحول الشعراء ، وكان شعره المثل الاعلى فى ذلك . فتبعه الشعراء بعده وساروا على نهجه ، فكان من إمام الداعين الى اعتناق مذهب الفحول من الشعراء السابقين . فجاراه فى طريقته حفنى بك ناصف (توفى سنة ١٩١٩) الكاتب الشاعر البليغ واسماعيل باشا صبرى الشاعر المطبوع صاحب الأغانى والاناشيد البليغة والقصائد البديعة الذى (مصر) الشعر ونظم قصائد فى آثار مصر منها قصيدته التى عنوها بقوله « فرعون وقومه » وقال فى مطلعها

لاالقوم قومى ولاالاعوان أعوانى ... اذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست ان لم تؤيدنى فراعنة ... منكم بفرعون عالى العرش والشان
لاتقربوا النيل ان لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده ... أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو ... لاتتركوا بعدكم فخرا لانسان
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم ... لايثن مستمعا عن طاعة ثانى
فالملك أمر وطاعات تسابقه ... جنبا لجنب إلى غايات إحسان
لاتتركوا مستحيلا فى استحالته ... حتى يميط لكم عن وجه امكان

ومنها

أهرامهم تلك هي الفن متخـذا　　من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مردهر عليها وهي ساخرة　　بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى　　ماياخذ النمل من أركان شهلان
كأنها ـ والعوادى فى جوانبها　　صرعى ـ بناء شياطين لشيطان
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة　　تسعى اشتياقا إلى ماخلد الفانى
فصعرت كل موجود ضخامتها　　وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا　　يثنى على القوم فى سر وإعلان
تلك الهياكل فى الامصار شاهدة　　بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وإن فرعون فى حول ومقدرة　　وقوم فرعون فى الاقدام كفآن
إذا أقام عليها شاهـــدا حجر　　فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنما هى والاقوام خاشـــعة　　أمامها صحف من عالم ثانى
تستقبل العين فى إثنائها صور　　فصيحة الرمز دارت حول جدران
لو أنها أعطيت صوتا لـكان له　　صدى يروع صم الانس والجان

وقال فى الحياة وأخلاق الناس :—

غاض ماء الحياء من كل وجه　　فغدا كالح الجوانب قفرا
وتغشى العقوق فى الناس حتى　　كان رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الاجدا　　ث وردا إن هن أبدين بشرا
وشفاه يعكن أهلا ولو أدي　　ن مافى الحشا لما قلن خـيرا
عمـر الله هل إسـلام .وداد　　ذاك أم حاول المسلم أمـــرا
عميت عن طريقها أم تعامت　　أمم فى مفاوز الجهل حيرى
غرها سعدها ومن عادة السعـ　　ـد يوانى يوما ويخذل دهـرا

فتجنب على الشعوب وشنت غارة فى البلاد من بعد أخرى
نسيت فى الصعود يوم التدلى والتدلى بصاعد الجد مغرى
تعب الفليسوف فى الناس عصرا وتوالى السرائر الدين عصرا
والورى طارد إزاء طريد وعقاب يمسى يطارد صقرا
وجيوش يفل من بعضها البعض وهضب كبرى تناطح صغرى
حاذرى ياذئاب صولة أسد منك أقوى نابا وأنفذ ظفرا
لاتنامى يا أسد إن ذئابا لم تنم من روابض الفيل أضرى
عبر كلها الليالى ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا
أنت نعم النذير يانجم (هالى) زلزل السهل والرواسى ذعرا
ظن قوم فيك الظنون وقالوا آية أرسلت الى الأرض كبرى
إن يكن فى يمينك الموت فاقذ ه شواظا على الخلائق طرا
هل تلقيت من لدن نذل البا غى وحامى الضعيف بالنجم سرا
أمحيط بكل شىء ومرد كل حى وتارك السهل وعرا
أغدا تستوى الانوف فلاينظر قوم قوما على الأرض شزرا
أغدا كلنا تراب ولا ملك خلاف التراب برا وبحرا
أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهيولى ويصبح العبد حرا
إن يكن كل مايقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا

ثم ظهر معجزة الزمان وحيد نسجه أحمد شوقى بك نخر الشعر والشعراء وأمام الأدب والادباء بما ابتكر فى الشعر، رسم مصر والاجتماع المصرى وأشاد بتاريخ مصر والشرق والاسلام. وخلف البارودى وبزه، وأراد أن يجاريه فى عظمته حافظ ابراهيم فى موضوعاته

فجرى شوطا بعيدا فى هذا الميدان ولكن لم يلحق بألفه .

ثم تطور الشعر تطورا وكثر فى مصر هواته من الشبان الذين درسوا آداب الأمم الأخرى فأدخلت فيه أساليب جديدة فى أنواع التفكير وتصور المعانى ورصف العبارات والخروج على الاساليب القديمة ولا تزال صناعة الشعر تتقاذفها الأهواء وحب الخروج من القديم الى خير أو إلى شر إلى أن يستقر الأمر على مذهب جديد أو قديم .

الصبغة المصرية

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصبغة المصرية قد ظهرت فى الشعر منذ أن ظهر شعر البارودى فى عالم الأدب لأنه رسم فى شعره صورا من الحياة النفسية المصرية وتأثر بحوادث مصر السياسية والاجتماعيه ، فأثارت فى نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم من تلك الحياة صورا فى شعر عربى فصيح ، جارى فيه أيضا بعض القدماء فى أساليبهم من حيث اختيار الألفاظ والعبارات والتشبيهات . وجاراه فى أسلوبه ونوعه بعد ذلك اسماعيل باشا صبرى ، وحدث فى الأيام الأخيرة ـ أى أوائل القرن العشرين ـ أن تأثر الشعر بالحوادث السياسية والاجتماعية فتسابق شعراؤنا فى هذا الميدان ، وأعظمهم قدرا . وأجلهم ذكرا فى ذلك من شعراء هذا العصر ، المرحوم أحمد شوقى بك ، والشاعر المطبوع المرحوم حافظ ابراهيم بك ، فان لهؤلاء كثيرا من القصائد والمقطوعات التى تحسب من الشعر المصرى الصميم حيث يرى القارى فيه صورة للحياة المصرية ونفوس أهل مصر ، وكل هذا من الشعر العربى الفصيح

وقد تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية فكان من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس فى بلدنا كما فى مقطوعات للبارودى ، ولاسماعيل باشا صبرى فى أغانيه التى وضعها شىء من ذلك ، وكان للحوادث الأخيرة التى حدثت فى مصر منذ أوائل القرن القرن الرابع عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم فى نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح اليها فى شعرهم . وأظهرهم فى هذا الشاعر ان الشهيران أحمد بك شوقى ومحمد حافظ ابراهيم بك صاحب القصائد المعروفة فى أحوال مصر الأخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه قد سبقهما بشىء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى فى أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الأثر الشهير فى الأدب العربى ولاسيما فى الشعر العربى ؛ لأن هذا مايسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان متبعا فى الشعر العربى ، وفى جميع البلاد التى تتكلم بلغة العرب ، ولاشك فى أن منشأ هذا الانتقال انتشار مايسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة الأمم الأوربية فى ذلك ، بالاطلاع على ماكتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم . ولايسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ولكننا نقول مجملين القول إجمالا : أن هذه الروح التى انتشرت فى مصر أخيرا عند شعرائنا روح جديدة فى الشعر العربى لابدأن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية والحياة المصرية

وقد حدث في مصر مثل ماحدث فى غيرهامن البلدان التى يتكلم

أهلها العربية ؛ فكان فيها أدبان . أدب عربى صحيح وأدب مصرى أكثره ملحون . ولقد قيض الله لهذا البلد بعض الأدباء الذين ساعدوا على نشر هذا الأدب المصرى بالتعبير عن آراء العامة وتصوير الاجتماع المصرى فى أزجال شعرية أو أحاديث نثرية . فنقلوا لنا تلك النفوس وماكانت عليه فى هذا الكلام الذى صنعوه ووضعوه فى قالب فنى لايقل بهجة ولا جمالا عن ذلك الشعر العربى البليغ . هذه الأزجال العامية وهذه الأحاديث التى تمثل لهجة السواد الأعظم من المصريين ونوع آخر من الشعر الفصيح لكبار الشعراء العصريين وهو مانسميه « بالأدب المصرى » وهو الذى سنتكلم عليه الآن وننشر نماذج منه ولكن قبل أن نصف ذلك الأدب المصرى يلزمنا أن نقول كلمة عن العصر الذى نشأ فيه ، وعن أخلاق المصريين فى جملتها لانه مرآة لهذين العاملين ، ونقتصر فى هذا على القرن التاسع عشر .

أما الحالة الاجتماعية منذ استولى المغفور له (محمد على) على مصر فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى فكانت متأثرة بأحوال سياسية بعضها كان عالقا بالنفوس من عصر المماليك ، ذلك العصر الاستبدادى الذى ولد فى الشعب المصرى الخضوع للحاكم خوفا من بطشه . والتهكم عليه وعلى أعوانه فى السر لافى العلانية ، والاستسلام إلى القضاء ، والاستهانة بأهوال الحياة ، وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله ، والتسلى عن الآلام بالتهكم والسخرية من الحياة والناس وأحوالهم ، والرضا بما ينال الانسان فى عيشه ، حتى أصبحت هذه الصفات كأنها عامة فى المصريين ، وكانت أكثر ظهورا فى سكان القاهرة الذين كانوا متصلين

بالحكام أو على كتب من أعمالهم . وبعض أحوال المصريين الاجتماعية نشأت من تبسط الحكام فى الحياة والمساعدة على إباحة السرور للناس بالتمتع ونشر أعلام السرور ، والافاضة على العامة بالأموال من جراء ذلك ، باقامة الاحتفالات والأفراح كما كانت الحال فى عصر (الخديوى اسماعيل) فقد اختص بعض الادباء والشعراء والمغنين كالشيخ على الليثى وعبده الحمولى وغيرهما ، حتى سرى فى البلد روح فنى أدبى ، وعلى أثر ذلك السرور انتشر فى النفوس الميل إلى التهكم (والتنكيت)والنقد الحلو والفكاهة العذبة . فوافق ذلك أخلاق المصرى فى جماتها وهى — كما قلنا — الاستسلام إلى القضاء وتحمل أعباء الحياة بكل خضوع وارتياح ؛ والنظر الى الدنيا نظر الفيلسوف أو المتوكل على الله . ومقابلة المصائب مقابلة الصبور المستهزىء بها . والمصرى بطبعه صبور يكفيه فى يوم مايسد رمقه ويشتغل أشق الاعمال غير متألم ولاجزع فاذا ناء بالاثقال قال (الحمد لله على الصحة والعافية) ومع ذلك فهو ممتلىء نشوة وسرورا ، خفيف الروح يميل إلى (التنكيت والتبكيت) فكه المجلس يمزج الهزل بالجد فى حديثه . حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر فى المسائل الجدية كثير التسامح لين الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصيبه من عدو يريد أن ينكل به ، أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة (وبنكتة بلدية) أو بفكاهة ظريفة . ولقد يكتفى بالتهكم والسخرية لاظهار ألمه ، ويبتلع الكلمة المرة التى يغص بها غيره وتحدث فى نفسه غثيانا . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غيره — وإن أساء — لأنه صفوح عن الاساءات .

ليس من أصحاب الأثرة . به كثير من السذاجة الفطرية التي قد تتغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه ، طيب القلب، كريم النفس ، ضعيف الارادة ؛ ومن هنا تجده كثير التسامح .

وجملة القول ، أن أعظم مايوصف به عقل المصرى هى ملكة النقد والتهكم وخفة الروح ، وحسن الفكاهة ، وحدة الذكاء وحضور الذهن

كل هذا ، وغيره كثير ، ظهر فى الأدب المصرى الحديث . فان الحوادث السياسية والاجتماعية فى تلك الأيام حركت نفوس الادباء من كتاب وشعراء إلى نقد الاجتماع والنظر فى الحياة المصرية ووضعها فنشأ عن ذلك الأدب المصرى الحديث الذى ظهرت فيه هذه الأخلاق التى رسمناها أمام القارىء . وكانت هذه الآداب بلهجة قريبة من لهجة العامة لتمثيل عقولهم وأفكارهم وماكان يجرى بينهم من الأحاديث والآراء.

وأكثر ذلك نسج فى نوع من الشعر المعروف بالزجل وانتشر هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى آخره على لسان الشيخ حسن الآلاتى ، وعبدالله نديم والشيخ محمد النجار وغيرهم .

بل ظهر نوع من الأدب الحديث الذى لم يكن معروفا فى الآداب العربية قبل هذا العصر ، على أنه أقرب شىء إلى تصوير الحياة الاجتماعية تصويراً صحيحا ، وهو تلك القصص التمثيلية المصرية بلهجة قريبة جدا من لهجة العامة ، وأول من أبتكر هذا النوع عبدالله نديم بروايته (الوطن والعرب) وغيره ممن سنتكلم عنهم ؛ وظهرت أناشيد مصرية وطنية كما فى قصائد المرحوم الشيخ رفاعة الطهطاوى وقصص أخرى منظومة أو منثورة للمرحوم محمد عثمان جلال وغيرهم .

وعلى الجملة فأن لأدباء القرن التاسع عشر فى مصر الفخر فى أن يرسموا الأخلاق المصرية فى آدابهم ، وأن يزيدوا فى الاداب العربية آدابا مصرية حديثة

وليس الأدب المصرى كله من الشعر أو النثر العامى ، بل تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية . فكان من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس فى بلدنا كما فى مقطوعات للبارودى ، ولاسماعيل باشا صبرى فى أغانيه التى وضعها شىء من ذلك . وكان للحوادث الأخيرة التى حدثت فى مصر منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم فى نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ؛ حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها فى شعرهم . وأظهرهم فى هذا الشاعران الشهيران احمد بك شوقى حامل لواء شعرائعنا الان ، ومحمد حافظ ابراهيم بك صاحب القصائد المعروفة فى أحوال مصر الاخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ؛ على أنه قد سبقهما بشىء من هذا النوع المرحوم رفاعه بك الطهطاوى فى أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الاثر الشهير فى الأدب العربى ولاسيما فى الشعر العربى ، لأن هذا مايسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان متبعا فى الشعر العربى ، وفى جميع البلاد التى يتكلم أهلها بلغة العرب . ولا شك فى أن منشأ هذا الانتقال انتشار مايسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة الأمم الأوربية فى ذلك ، بالاطلاع على ماكتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم ولايسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ، ولكننا نقول

مجملين القول إجمالا : أن هذه الروح التى انتشرت فى مصر أخيرا عند شعرائنا روح جديدة فى الشعر العربى لابد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية ، والحياة المصرية .

وحدث فى النثر مثل ذلك أو أكثر بما ينشر من الروايات والقصص الاجتماعية والتمثيلية ، ولكن من أسف لم يعن بجمعها وتدوينها والاطلاع عليها مثل ما عنينا بالشعر ، وذلك لعدم شهرة كتابها ، ولأن كثيرا منها مكتوب بصيغة لا يعتمد عليها قراء العربية الصحيحة . غير أن شيئا من ذلك لا يدعونا الآن إلى الحط من قدرها وعدم العناية بها وعلى أنها فى رأينا من أصدق صور حياتنا المصرية .

لأن هذا الشعر العامى ، أو الزجل المصرى الذى نشأ أيضا على أثر الحوادث السياسية والاجتماعية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أظهر فى تمثيل الحياة الاجتماعية لقربه من اللغة العامية التى يتكلم بها جمهور الشعب المصرى . ولقد كان عبد الله نديم (١٨٤٤ - ١٨٩٦) حامل لوائه ، وأعجوبة زمانه فى ذلك ، وكان بطبعه ميالا لنقد الاحوال الاجتماعية والسياسية ، قادرا على الاسترسال فى الكلام حلو الفكاهة يميل الى التنكيت والتبكيت فبرع فى هذا النوع من الشعر العامى وملأه بنقد الاجتماع ووصف الرذائل الفاشية ، وكان ينشر ذلك فى جريدتى (التنكيت والتبكيت ، والاستاذ) وسرت هـذه الروح الأدبية العامية فى مصر ، وجرى عليها أكثر الأدباء حتى كانوا يتراسلون بالزجل ، ولم يكد يخلو مجلس من مجالسهم بدون أن يتراشقوا بأبيات منه ، أو يتنابذوا ببعض عباراته أو يتناشدوا مرتجلين الكلام

ارتجالا ، وكل هذا ممزوج بفكاهة أو شكوى يبعثها شعور وطني ، وكان هذا أيضا على أسلوب الأغانى العامية ، وقد انتشر هذا النوع إلى مابعد أوائل القرن العشرين ، وكان لمحمد عثمان بك جلال (توفى ١٨٩٨) شيء من هذا ، وكثير من طلبة العلم والشعراء طرقوا هذا الباب ، ومنهم من أصبح معروفا بين الزجالين كالشيخ محمد النجار ، وإمام العبد الشاعر المعروف ، وغيرهما ممن أشتهر ذكره :

فمن نوع هذه الازجال قول الشيخ محمد النجار (توفى فى أوائل القرن العشرين) وهذا زجل وضعه لينتقد فيه شبان العصر وسماه « زجل فى الموضه » وهو من نماذج هذه الازجال التى كانت منتشرة فى نقد الأحوال الاجتماعية والرذائل التى انتشرت بين ظهرانينا .

المطلع

ياموضه ياجيل الوز ياحنية من غـــير بز

دور

ياموضه جيلك معروض فات السنة والمفروض
يبقى صغار لسه ومقروض ويروح آل يسكر ويعز

دور

الجامع يوم الجمعـــة فاضى والخمارة جامعة
والغيبه فى شهره وسمعه تدبح فى الرقبة وتحز

دور

والموضه راكبه فيتون والعاشق فيها مفتون
والعازب عقله مجنون من كدته بيفتن ويوز

دور

المونه بطربوش وزكته | والفلاح بالتوب البفتة
قولوا له الستة بسته | دى اللبده من عرقه تنز

دور

ماعليهش فلاح مش موده | على قده ساكن فى أوده
وأنت ياموضه فى روضه | والاجرة بتحاق وتحز

دور

تقليدك للغير ياخيه | جاب رجلك بمدين فى الخيه
وغرقت فى شبرين من ميه | ووقعت فى دين بيحز

*
* *

وفى هذا الزمن الذى اتجه فيه الشعراء إلى نقد الاجتماع بهذه اللهجة العامية كانت اللغة العربية الفصحى ظاهرة بجلالها وجمالها ناشرة ألوية فصاحتها وبلاغتها مالكة أعنة هؤلاء الشعراء أنفسهم ، فلم يكن منهم إلا من كان شاعرا فصيحا يحسب من أبلغ شعراء العصر . وهكذا سار الشعر الفصيح إلى جانب الشعر العامى حتى تغلب عليه وسبقه وأطفأ جذوته وثار من جديد فى نفوس شعرائنا الحديثين ، وأخذ الشعر المصرى الاسلوب العربى الفصيح مع دلالته على حياتنا المصرية. وسنرى قريبا إمعان شعرائنا فى ذلك حتى يصبح الشعر المصرى نوعا من الشعر العربى ، يضم الى تقسيم الشعراء المعروف ، ويزيد فى بلاغة العرب نوعا جديدا .

محمود سامى البارودى

نسبه ونشأته

هو محمود سامى البارودى بن حسن حسنى البارودى (أمير الموفعية ومدير (بربر) و (دنقله) زمن محمد على باشا) بن عبدالله بك الجركسى وينتهى نسبه إلى نوروز الاتابكى المالكى الاشرفى أخى برسباى قرا المحمدى

والبارودى كما جاء فى شرح ديوانه نسبة إلى اتياى البارود المعروفة كان بها جده الأمير مراد البارودى .

وكانت ولادة محمود سامى بالقاهرة بقصر باب الخلق فى شهر رجب سنة ١٢٥٥هـ من الهجرة وقد توفى والده سنة ١٢٦٢هـ وعمره سبع سنين

تربى وتعلم محمود سامى تربية أبناء الاشراف والسراة فى ذلك الزمن وتلقى العلم على أساتذة بمنزله وتعلم اللغة العربية على شيوخ الازهر وكان فى نفسه منذ صغر ميل إلى علوم البلاغة وقراءة الشعر ومعالجة الكتابة وحفظ أشعار العرب والعناية بأسرار اللغة حتى وقف على دقائقها ونمت فى نفسه ملكة الشعر وحب الاطلاع على كلام فحول الشعراء فأخذ فى نظم الشعر ومجاراة هؤلاء الشعراء فى قصائدهم الشهيره ووقف جهوده العقليــة على التأدب بكلام العرب . ويظهر أن ذلك كان كل ماديه من ثقافة لانه لم يكن ممن يقرؤن كثيرا كما ذكر ذلك الشيخ حسين المرصفى فى الوسيلة الأدبية . قال .... هذا الامير الجليل ذو الشرف الاصيل والطبع البـالغ نقاؤه والذهن المتناهى ذكاؤه محمود سامى باشا البارودى ، لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض

من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ماتقتضيه المعانى والتعليقات المختلفة . فصار يقرأ ولايكاد يلحن . وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين . فقلت له فى ذلك . فقال هو كذا فى قول فلان وأنشد شعرا لبعض العرب . فقلت تلك ضرورة . وقال علماء العربية أنها غير شاذة ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها وخسيسها واقفا على صوابها وخطئها مدركا ماكان ينبغى وفق مقام الكلام وما لاينبغى ، ثم جاء من صنعه الشعر اللائق بشعر الأمراء كأبى فراس والشريف الرضى والطغرائى الخ . .

هذا كل ماتعلمه البارودى وقد روى ذلك شارح ديوانه أحد شيوخ الازهر الذى لازمه فى آخر حياته وكان كاتب سره . والشيخ حسين المرصفى وكان معاصرا له وأحد أصدقائه المعجبين به . ومن هذا نرى أن ثقافة البارودى كانت ثقافة شعرية لاغير وكل معلوماته كانت لاتتعدى حفظ أشعار العرب ومعرفة أسرار بلاغتها : مع ذلك فقد بلغ شأو المتقدمين وبذ كثيرا منهم

البيئة وأثرها :

ولكن البارودى تعلم كثيرا من البيئة التى عاش فيها وقرأ فى صحف الحياة ماليس فى الكتب وأملت عليه الحوادث مالا تمليه عقول الرجال ، وكان ذكى الفؤاد بطبعه فتعلم كثيرا مما شاهده وسمعه ورآه

مع هذا فكان البارودى ميالا إلى معرفة اللغات والى آداب الأمم الأخرى كما أشار الى ذلك الشيخ حسين المرصفى فيما سبق إذ قال: « ثم استقل بقراءة دووابن مشاهير العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير متهادون كلفة »

وكان أقرب اللغات إليه وأحبها بعد العربية اللغة التركية لغة آبائه وأجداده فسافر إلى القسطنطينية وانتظم فى سلك الموظفين هناك وتعلم اللغة التركية وأتقنها حتى صار كاتبا وشاعرا فيها . ويقولون أن له فى ذلك شعرا ونثرا يعد من الكلام البليغ . وتعلم مع ذلك اللغة الفارسية وحذقها أيضا ونظم فيها قصائد بليغة .

وقد بقى البارودى فى الاستانة إلى سنة ١٢٧٩ من الهجرة ثم رجع الى مصر مع الخديوى اسماعيل وبعد ذلك انتظم فى خدمة الجيش فأسندت اليه رتبة بكباشى وقيادة فرقتى الفرسان (السوارى) ثم سافر الى فرنسا مع بعض زملائه الضباط لمشاهدة عرض التدريب العسكرى الذى كان يقام هناك كل سنة وسافر من باريس إلى لندن للاطلاع على نظام الجيش الانجليزى وعدد القتال هناك وأساحته ثم رجع إلى مصر وقد عرف نظم الجيش فى فرنسا وانجلترا .

ارتقاؤه المناصب :

ومازال يرتقى إلى المناصب العسكرية حتى نال رتبة «أمير الاى» وقيادة الحرس الخاص وعندما خرجت جزيرة أقريطش (كريت) على الدولة العثمانية أرسل على رأس جيش لمحاربة هؤلاء الخارجين، ويقولون انه أظهر هناك من ضروب الحيل والمقاتلة مابهر الأعداء، وأنال جيشه النصر والظفر . وفى هذه المواقع قال قصيدته الشهيرة :

أخذ الكرى بمعاقد الاجفان　　وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب　　فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين فى ظلمائه　　إلا اشتعال أسنة المران

إلى أن قال :

والخيل واقفة على ارسانها　　لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا　　يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت　　عيناى بين ربا وبين مجانى
فاذا الجبال أسنة وإذا الوها　　د أعنة والماء أحمر قان

وبعد أن رجع من هذه الحرب دخل فى حاشية الخديوى اسماعيل حارسا (ياورا) ولما صار توفيق باشا وارثا للحكم فى مصر عين البارودى رئيس الحرس (الياوران) ثم كاتب السر الخاص للخديوى اسماعيل .

وقد أرسل بعد ذلك مرات لمساعدة الدولة العثمانية فى حروبها مع الهرسك والبلقان والجبل الاسود . كما أرسل سنة ١٢٩٤ من الهجرة لمساعدة جيش السلطان فى حربه مع الروس . وكان فى كل هذه الحروب مثال الشجاعة وشدة البأس وسداد الرأى وحسن التدبير والقائد البطل الجعد قد حاز أرقى ألقاب الشرف العسكرية. ثم عين بعد ذلك مديرا للشرقية ثم حاكما لمدينة القاهرة (رئيس ضبطية القاهرة) فأقام فى أثناء ذلك العدل وضبط الامور وأصلح مفاسد الاخلاق من ظلم ورشوة ، وكانت فى ذلك الوقت مراجل الحقد تغلى فى طبقات الناس ونيران الشرور تندلع اندلاعا

ولما خرج الخديوى اسماعيل من مصر سنة ١٢٩٦ هجرية. وأصبح توفيق باشا حاكم وادى النيل قلد البارودى وزارة الاوقاف. فأقام أودها

ونظم أعمالها وفى سنة ١٢٩٧ من الهجرة . عين وزير الجهادية (الحربية) على أثر الاضطراب الذى حدث فى الجيش ثم أعتزل مركزه هذا ثم رجع يتقلب فى مناصب الوزارة حتى عين رئيسا للنظار (الوزارة) سنة ١٢٩٩ وبقى بها إلى أن كثرت الدسائس فهجر تلك المناصب ولزم بيته إلى أن قامت الثورة العرابية فالتجأوا اليه للاستعانة به وقد نصح بغير ما رأى عرابى وأشياعه فى محاربة الانجليز ولكنه رأى من الواجب عليه مساعدة أمته ووطنه فاشترك مع القائمين بالثورة . ثم كانت الكارثة الكبرى فى هزيمة المصريين فقال فى ذلك .

نصحت قومى وقلت الحرب مفجعة ... وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفونى وشبوها مكابرة ... وكان أولى بقومى لو أطاعونى
تأبى الأمور على ماليس فى خلد ... ويخطىء الظن فى بعض الاحايين
حتى إذا لم يعد فى الامر منزعة ... وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمى ومن شيمى ... صدق الولاء وتحقيق الاظانين

نفيه :

ثم أسر بعد ذلك وأرسل الى سيلان بالهند وبقى هناك سبعة عشر عاما فقد فى آخرها بصره وزوجه وأولاده وكثيرا من أصدقائه وقد كان لهذا للنفى أثر عظيم فى حياته ألهمه آيات بينات فى شعره وعبراً وحكما فى كلامه . وفى آخر الأمر عفى عنه الخديوى عباس الثانى فرجع الى مصر من منفاه سنة ١٣١٨ هجرية . ومازال كعبة الادباء إلى أن توفى سنة ١٣٢٨ .

شعر البارودى

لا نكاد نجد عصرا من عصور الأدب انحطت فيه ملكة الشعر مثل العصر الذى أدركه البارودى فى صباه . فقد كان الشعر صناعة ومحاكاة للقدماء . بل كان صناعة ضعيفة ومحاكاة ناقصة وصورة مشوهة لمن تقدم من الشعراء وكانت هذه حال الشعر منذ العصر التركى وقبله أى منذ القرن الثامن الهجرى حيث سادت الصناعة اللفظية المتكلفة وصار الشعر تقليدا واختلاقا وكذبا فى ضروب الغزل وتملقا فى المدح وسرقة واغتصابا فى جميع الاغراض والمعانى . وصار الشعراء يعبثون بالألفاظ ولا يبالون بما يقولون وانحط الشعر عند كثير منهم إلى أن أصبح ضربا من الوزن لاغير ليس فيه روح الشعر الصحيح ولا جمال الافتنان اللذان هما عماد بلاغة القول لدى الشعراء . وقد كان أقطاب شعراء العصر الذى عاش فيه البارودى أمثال السيد اسماعيل الخشاب (توفى سنة ١٣٢٠) والشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٢٥٠) والسيد الدرويش (توفى سنة ١٢٧٠) ومحمد صفوت الساعاتى (توفى ١٢٩٩) وغيرهم ممن لا يحسب شعرهم من الشعر الجيد فى شىء كما جاء فى قصيدة للسيد صالح مجدى بك (توفى سنة ١٢٨٩) يمدح بها حسين باشا فخرى ناظر الاشغال والمعارف والاوقاف حيث قال

لجنابك العالى ثلاث مصالح ... نظمت بسمطى عسجد ولجين
وأضاء منك جبينها برياسه ... أعمالها منشورة العلمين
ونمت بها بركات أوقاف روت ... مصرا وقد فاضت على الحرمين
وبحزمك الاشغال زاد نجاحها ... ونجازها فى السهل والجبلين

وبديع نظم كامل فى كامل   من مخلص بالقلب والشفتين
من مخلص لك فى الثناء بدولة   أصبحت فيها حائز الشرفين

وقد يكون من جيد الشعر إذ ذاك قول عبدالله باشا فكرى يشكر الخديوى توفيق على العفو عنه أثر الحوادث العرابية حيث قال

مليكى ومولاى العزيز وسيدى   ومن ارتجى آلاءمعروفه العمرا
فقد [illegible] زوروا   [illegible] كرا
فما كان لى فى الشعر باع ولا يد   ولا كنت من يبغى مدى عمره الشعرا
فعفوا أبا العباس لازلت قادرا   على الأمر أن العفو من قادر أحرى

هكذا كانت جمهرة الشعراء فى هذا العصر وهكذا كان جل الشعر على هذا النحو من الضعف

فلما ظهر البارودى فى حلبة الشعراء بعث روح الشعر العباسى من مرقده وأحيا لنا روعة شعر أبى نواس، والبحترى، ومسلم بن الوليد والشريف الرضى . والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى وأمثال هؤلاء الفحول بمحاكاتهم والسير على سننهم وجاء بالجزالة والرصانة فى المعنى والاسلوب وأسكت شعراء عصره وكانت روحه روح شاعر مفطور على فهم الشعر الفنى البليغ وأدراك فنونه فاقتبس من فحول الشعراء خير معانيهم وأجملها وأعاد لنا العصر العباسى بصناعته الجميلة وبلاغته الرائعة إذ كان يفهم الشعر لا كما يفهم غيره من شعراء عصره بانه نظم وصناعة بل قال فى مقدمة ديوانه :

« وبعد فان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر

فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألؤها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان فينفث بالوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بدليلها السالك وخير الكلام ماائتلفت ألفاظه وأئتلفت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف غنيا عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد »

هكذا كان البارودى يفهم الشعر . فلم يقل الشعر محاكاة لاغير أو من باب التسلية أو اظهار للبراعة أو رغبة فى الحصول على عطاء أو شهرة وإنما كانت تمتلىء نفسه بالمعانى والأغراض وتملى عليه الحوادث فينظمها كما قال هو عن نفسه :

« لقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله وآنس به أنس العديل بعديله . لاتذرعا إلى وجه أنتويه ولا تطلعا الى غنم أحتويه . وإنما هى أغراض حركتنى وإباء جمح بى وغرام سال على قلبى فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى أو هتفت فسريت به عن نفس

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الانسان أن يتكلما
فـلا يعتمدنى بالاساءة غافل ... فلا بد لابن الأيك أن يترنما »

فكان شعره صادقا منبعثا من قرارة نفسه ومن عواطفه وإحساسه وصورة لما يجول برأسه من أثر ماراه وشاهده ووقع له فى شئون حياته المختلفة . فليس هو شاعرا خياليا ولا هو ممن يصورون مظاهر الطبيعة وجمالها إظهارا لبراعته وافتنانه ولا من الشعراء الذين يستمدون الشعر وأخيلته من أحلامهم اللذيذة وأهوائهم النفسية وميولهم الفنية لاغير

أما البواعث التى بعثته على قول الشعر والصفات العامة لشعره ونواحيه فهى كثيرة منهـا تربيته تربية أبناء الأشراف (أو البيئة الارستقراطية) التى عاش فيها فقد أثرت هذه التربية فى نفسه حتى جعلته يشعر بالعزة والكرامة أكثر من كل شىء . فكان نبيلا فى كلامه كما كان نبيلا فى أصله وخلقه وصار يتغنى بهذه النبالة فى شعره فى غير ما موضع ويذكر أنفته من الناس واستغناءه عنهم فى شىء من الكبر والعظمة وكرامة النفس مما لا يعرف عند كثير من الشعراء فيقول

خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة ... على يدا أغضى لها حين يغضب

او يقول :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمـــد مرفوعة ومعـاقل ... وألوية حمر وأفنيـــة خضر
ونار لهـا فى كل شرق ومغرب ... لمدرع الظلمـاء ألسنـة حمر
تمد يدا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعرى ويلثمها الغفر
وخيل يعم الخافقين صهيلهـا ... نزائع معقود بأعرافهـا النصر
معودة قطع الفيافى كأنها ... غدا رية فتخاء ليس لها وكر
أقاموا زمانا ثم بـدد شملهم ... ملول من الأيام شيمته الغـدر
فلم يبق منهم غــير آثار نعمة ... تضوع برياها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهى صوامت ... ويثنى برياه على الوابل الزهر
لعمرك ما حى وإن طال سـيره ... يعد طليقا والمنون له أسر

ولقد تحمله كرامته على أن يثب وثبة الأسد فى وجه من يغضب منه ولا يبالى بماذا عسى أن يكون من قطيعة ولا غضب . وتعلو نفسه إلى السماك فيهيج ويثور ويجاهر بالعداء ولا يقبل ودا بعد غدر ويتهدد ويتوعد ويستهين بنده وكأنما ترى الحماسة تقذف بالموت فى كلامه وكأنك تسمع فى شعره زئير الأسد أو تراه أمامك سالا سيفه متحفزا للوثوب ، أو كأنك تسمع صوته ، وترى حركاته ، ولكن كل ذلك فى عفة لسان ، ونبالة نفس ، وفى أدب العظماء إذ يقول :ـ

أتخفر ذمتى وتروم عطفى ... لقد منتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق ... ولا بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصح بعد الغدر ود ... وتسلم نية بعد ارتياب
رويدك إننى صعب أبىّ ... على الأقران مرهوب الجناب
أجاهر بالعداء ولا أبالى ... وأنطق بالصواب ولا أحابى
فما زندى لدى العوصاء كاب ... ولا سيفى غداة الحرب ناب
يهاب القرن بادرتى فيمضى ... وماجردت سيفى من قراب
فان رمت السلامة فاجتنبنى ... عدوا فالسلامة فى اجتنابى
فقد عاديت أعظم منك قدرا ... وماضاقت على بدنى ثيابى
فان تنزع فأنت طليق عفوى ... وان تطمع فسوف ترى عقابى

ويظهر أن هذه النبالة النفسية وكرم المحتد كثيرا ماكانا يستوليان على عقله وشعوره فيتغنى بهما . ولعله كان يريد بذلك أن يدفع عن نفسه ماعلق بها من شرور الأيام أو ما أصابه من جراء حياته السياسية ومن مميزات نثره أنك إذا قرأته أعجبك منه روح الشاعر ورأيت أن

شعره ليس من باب العظمة والكبرياء ولا العجب بالنفس وانما هو تنفس وأنين ونقمة على الحوادث والأيام وتبرأ من الدنايا وإشعار بالهمة والكرامة أو هو صورة من نفس الشاعر الكبيرة المتألمة الفخورة بالفضائل لهذا تحب أن تقرأ شعره وتشعر بميل إلى الشاعر نفسه لأنك ترى فيه مع ذلك نفسا طروبة عظيمة طيبة كريمة نبيلة

استمع اليه يقول :

فاقبل وصاتى واستمع حكمتى فليس من أغوى كمن أرشدا
إنى وان كنت أخا صبوة ومسمع يطربنى منشدا
فقد أزور الليث فى غابه وأهبط الأرض عليها الندى
وأصدع الخصم وما خلتنى أصدع الا البطل الأصيدا
« بلهذم » ليست له صعدة لكنه يمضى إذا سددا
أو « صارم » يفرى نياط الكلى ولم يزل فى جفنه مُغمدا
ماضى الغزارين ولكنه لايعرف الصيقل والمبردا
أو « مِشْقَص » ان فوقت نصله إلى امرىء غير يد أقصدا
أو « طائر » فى وكره جاثم يشوق إن هينم أو غردا
لم بعد كنا لم يزل ساكنا فيه وبابا دونه مؤصدا
قد لان إلا أنه ان قسا يوم نضال صدع الجلمدا
معتقل لكنه مطلق يجول فى مسكنه سرمدا
يحكم بالذوق على مايرى ويعرف الأصلح والأفسدا
له صحاب قد أحاطت به تنقل عنه نبرات الصدى

فهو بها مجتمع شمله ان أصدر القول بها أوردا
مشتبهات الرصف فى جودة تبارك الله الذى جودا
يبيت منها وهو ذو مرة فى رصف من لؤلؤ نضدا
ذاك « لسانى وهو حسبى إذا ما أبرق الحاسد أو أرعدا

أثر النفى فى شعره :

وقد كان للحوادث التى حدثت بمصر ونفى من أجلها البارودى أثر عظيم فى نفسه كما كان لتربيته تربية النبلاء ذلك الأثر الذى رأيناه ودفعه الى الفخر باخلاقه النفسية وآدابه العالية فان خروجه من بلاده فتح أمامه باباً للشكوى مما أصابه من عنت وظلم دفعه إلى الحنين إلى وطنه وألهمه كثيرا من المعانى والاخيلة الشعرية فكانت قصائده فى هذا الباب من أجزل المعانى وأبلغ ماتكون بلاغة وأبرع مايكون افتنان

فقد تجده يذكر أيامه الماضية ويصور حاله وما كان فيه من عزة وكرامة ورفعة شأن وجاه عظيم ، ويبسط أمامك تلك المجالس والمحافل التى كان فيها العلم المفرد ، وتجد مع هذه الصور التاريخية الاجتماعية صورا متعددة لنفسه الكبيرة العزيزة بماضيها الذليلة فى حاضرها . وبينما تجده يحلق فى قمة مجده وعلاه : يزهو بما رآه ويفخر بماضيه يجده متأثرا بما نزل به من الحوادث . ولكنك لاتجده أبدا يصور نفسه فى ذلة أو حقارة بل يتحدث فقط عما نزل به ظلما وعدوانا وهو يستسلم للآلام ويعجب من الاقدار فيكشف عن نفس بائسة يائسة حتى يظن لأول وهلة أنها فقدت عزتها أو تناست كرامتها فقضت لما وقع بها ولكن قوة فخره بنفسه وشيمه تذهب بهذا الظن وتضمحل

أمامها الحوادث التى نزلت به حتى كأنها لم تكن وكأنه فارس واقع فى ميدان القتال يحارب الاقدار ويريد أن يتغلب عليها . وهذه أنة من حنينه وشكواه فى ذلك

ياحبذا جرعة من ماء محنيـــة   وضجعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت   ريا الأزاهير من ميث واضراع
ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعا   بأهل ودى من قومى وأشياعى
وهل أسوق جوادى للطراد إلى   صيد الجآذر فى خضراء ممراع
منازل كنت منها فى بلهينة   ممتعا بين غلمانى وأتباعى
إذا أشرت لهم فى حاجة بدءوا   قضاءها قبل أن يرتد الماعى
يخشى البليغ لسانى قبل بادرتى   ويرعد الجيش باسمى قبل ايقاعى

ولقد تجده يصور لك هذه الذكريات وماكان بها من لهو ومجون وسرور مما يدل على امتلاء نفسه وبذكرياته من صور الماضى من بؤس ونعيم وكأنه كان يتسلى بذلك عما هو فيه من أهوال وابتئاس وحنين على أيامه الماضية .

فتجده يسعد أحيانا بتلك الذكريات التى مرت به ومربها وتلك الأيام التى عاش فى بحبوحتها وتمتع بلذاتها وذاق حلوها وثمل بنشوتها وأوقاتها وكأنها نعيم مقيم أو سعادة أبدية .

فيعرض عليك مجالس الشرب وصور الشاربين وهم كالكواكب سناء وسنا يتسابقون إلى المدام .

فى أباريق كالطيورا شرأبت   حذر الفتك من صياح البزاة

وبينهم المغنى المطرب الساحر بصوته ونغماته التى تنسى الانسان

آلام الحياة وتملؤه فرحا وسرورا . وهو يرى أن هذه الأوقات هى لذة العيش وملاك السعادة .

وأحيانا تسمع خلال تغنيه لسعادته الماضية نبرات آلامه ورنات بؤسه وندمه على مضى هذه الأيام وفنائها وانغماسه الآن فى البؤس وهو تتناوبه ذكريات الماضى وشقاؤه الحاضر وتلعب به الأيام لعب النكباء بالعود فيقول :

أدر الكأس يانديم وهات　　وأسقنيها على جبين الغداة
شاق سمعى الغنا فى رونق الفجـ　　ـر وسجع الطيور فى العذبات
أى شىء أشهى إلى النفس من كا　　س مدار على بساط نبات
هو يوم تعطرت طرفاه　　بشمال مسكية النفحات
باسم الزهر عاطر النشر هام الـ　　ـقطر وإنى الصبا عليل المهاة
مسرح للعيون يمتد فيه　　نفس الريح بين ماض وآت

وبينما هو يمرح فى تلك الذكريات الماضية ينبعث فى نفسه حنين إلى مصر والنيل صادرا من قلب مكلوم ونفس ملأتها الحسرة ولكنه حنين يدل على حبه الصادق لبلاده مما فى نفسه من تلك الصور الجميلة التى تمر بذكرياته فيرسلها صورة صورة ويزيدها جمالا بخياله الجميل ويتغنى بها أغانى جميلة مشجية ويذكر أن الرجوع إلى وطنه أعظم أمنية له فيقول :

وتدرج معى إلى روضة المنيـ　　ـل ذات النخيل والثمرات
فهى مرعى الهوى ومغنى التصابى　　ومراح المنى ومسرى الحياة
لقيتها النفوس فهى إليها　　من أليم الأشواق بالحسرات

تبعث اللهو والسرور وتمحو ... من فؤاد الحزين كل شكاة
بين ندمان كالكواكب حسنا ... ورعابيب كالدمى خفرات
يتساقون بالكؤوس مداما ... هى كالشمس فى قميص اياة
فى أباريق كالطيورا شرأبت ... جذر الفتك من صياح البزاة
حانيات على الكؤوس من الرأ ... فة يرضعهن كالامهات
لاترى العين بينهم غير صب ... بسماع أو هائم بفتاة
ومغن إذا شدا خلت أن الأ ... رض ظلت تدور بالفلوات
ملك السمع والفؤاد بلحن ... يفتن الغيد داخل الحجرات
يبعث الصوت مرسلا فاذا ما ... غض منه استدار بين اللهاة
غرد يبطل الحديث وينسى ... ربة الحسن لوعة الذكرات
تلك والله لذة العيش لاسو ... م الأمانى فى عالم الخطرات

وقد يبكى فى شعره على أيامه الماضية وهو فى منفاه فيقول :

أبيت حزينا فى سرنديب ساهرا ... طوال الليالى والخليون هجد
أحاول مالا أستطيع طلابه ... كذا النفس تهوى غير ما تملك اليد
إذا خطرت من نحو حلوان نسمة ... نزت بين قلبي شعلة تتوقد
وهيهات مابعد الشبيبة موسم ... يطيب ولا بعد (الجزيرة) معهد
شباب واخوان رزئت ودادهم ... وكل امرىء فى الدهر يشقى ويسعد
وماكنت أخشى أن أعيش بغربة ... يعللنى فيها خويدم أسود

وشعره فى منفاه كثير يدل على ثوران نفسه وفورتها التى بعثت فيه قول الشعر وكانت من أسباب افتنانه وسعة خياله وللكلام على شعره بقية